كلمة العدد

دعوة الحق تاريخ نهضة وتراث جيل

اخي القارىء الكريم ...

ها هي ذي دعوة الحق اليوم بين يديك ، تتخطى سنتها السابعة عشرة، قوية بروحها غنية بمبادئها ، فتية بآملها ، تمد اليك يدها لتمدها ببنات افكارك، وتعرض نفسها عليك لتنيلها من طيب انفاسك ، وتتحدث اليك حديث المستهام المشوق الولهان الى خدنه الوفي الذي حفظ العهد ، ورعى الود ، فلا ينحرف ولا يريم ، وتقدم اليك من افانين البحوث ، وناضج الدراسات الفكرية والتطبيقية لتستشرف بك الى عالم ارحب ، وآفاق اوسع من ساحات البحث العلمي ومناهجه ، والدراسات المنظمة التي تقضي حاجات القارىء الجاد ، وتشبع نهمه وتطلعه ، وتلبي اشواقه بما تتناوله من فنون الادب العام وقضايا الفكر في شتى ضروبه ، ومتنوع الوانه .

ودعوة الحق اذ تدخل سنتها الجديدة يحدوها امل قوي لتحقيق مكاسب كثيرة،ويحفزها باعث ملح لتضيف الى سجلها الحافل مآثر اثيرة لمستقبل الثقافة وقضايا الفكر بنفس القريحة الصادقة ، والارادة المصممة التي غمرت اسرة تحريرها وكتابها الاوفياء ، لمواصلة الخطى ، ومتابعة السير قدما في السبيل القويم الذي انتهجته للعمل على انتاج فكر مغربي اصيل ؛ وقد استطاعت باذن الله منذ بدات نشاطها الحافل ، وحياتها المليئة ان تشق طريقها الى الغاية المنشودة التي رسمها لها مولانا محمد الخامس مؤسسها وباعث فكرتها ، فربطت امتن الصلات بينها وبين قادة الفكر في العالم الاسلامي ، واسهمت بحظ وافر في تقوية جانب الروح على جانب المادة جاعلة مثلها الاعلى دائما هو نشر الدعوة الاسلامية في وضوح وجلاء بالتي هي اقوم وادعى الى القبول ... واستجابة للنهضة العامة التي عرفها المغرب ، وتاثرا بالنشاط الشامل الذي ادركته البلاد فقد اثارت ، بابحاثها الناضجة ، ودراساتها الاسلامية الملتزمة اذهان العامة ، وهذبت افكار الخاصة ، وسجلت احداث الزمن ، وجمعت مادة التاريخ ، وحركت في الملكات

الموهوبة ساكن الشوق الى الانتاج ، واهابت بالقوى المتفرقة لتجميع شملها حتى خرجت على يدها طبقة منثورة من الادباء ، وافواج من المفكرين الاعلام ، الذين ازدانت بهم الابهاء العلمية والادبية فى هذه الربوع . وهي الى ذلك تحاول دائما ان تعالج المشاكل التي يحياها الناس اليوم بالواقع الملموس بدلا من التحليق فى اجواء النظريات المثالية او اجترار الحلول التي وضعها الاولون من العلماء الاجلاء على ضوء ازمنتهم وبيئاتهم الماضية ، ومستلزمات الحياة التي عاشوها ...

ولاتمام الدور العظيم الذي اضطلعت به منذ ستة عشر عاما الرامي الى تركيز الثقافة الاسلامية الهادية المؤمنة ، واشاعة العلوم العربية التي يعمل لها دعاة الثقافة والفكر ، واساة التهذيب والاصلاح فى بلادنا . فان دعوة الحق بموقفها الجاد الملتزم تتوخى فى موسمها المقبل ، المفعم بالعطاء ان تصل الى المستوى المرموق الذي ترنو اليه فى منطلق سعيها الحثيث دائما مضمونا واطارا ، لتكسب ساحات جديدة من افكار جيلنا على طريق التوعية بمحتواها الدال الملتزم ... وهي تتمنى من اسرتها الكبيرة سواء فى الداخل او الخارج أن تجد فيهم العون الذي يمهد الطريق ، والمؤازرة التي تبعث الحياة ، والدعم الذي يضاعف النشاط ، والتشجيع الذي يذلل الصعاب لتمضي القافلة الهادية الى طريقها المرسوم وسبيلها المامون ...

والرجاء المعقود بحملة الاقلام وذوي الفكر والمواهب الذين يعدون نقطة الارتكاز ، ومبعث المدد والذين رزقوا من قوة الحس ، وصفاء النفس وطموح الى الكمال ان يمدونا بالعون ، ويرفدونا بما ياتي عفو الخاطر وثمرة القريحة لا سيما فى هذا العصر الذي تواجه فيه الامة الاسلامية فى طريقها الطويل اعداء الداء يحاولون بمختلف الوسائل وشتى الاسباب عرقلة مسيرتها وتمزيق وحدتها وتشتيت كلمتها وطمس شخصيتها تشايعهم عناصر منحرفة عميت بصيرتها وبطرت معيشتها ، فعرفت بشذوذ الفكر وفساد فى البدن وعجز عن الكمال .. بيد أن الشيء البارز والباقي فى كل تلك الاختلاطات ينكشف محتواه عن حقيقة جلية هي أن الامة الاسلامية تحتفظ فى اعمق اعماقها بعناصر البقاء وقوة الصمود لا تقوى معها تلك الانفعالات الشريرة والمؤامرات الماكرة بما تملكه من وسائل القهر والتهديد ان تصل اليها أو ان تستاصل جذورها . فالعالم الاسلامي اليوم يتحرك نحو الغد المامول ، وتاريخه استعاد حركته ، ودبت فيه الحياة قوية زاخرة اذ اضبح فى وضع متحرك يسجل تحريرا لعالمه الاسلامي من معوقاته ومثبطاته وقيوده الداخلية.

لقد اسهمت هذه المجلة منذ تاسيسها فى تسديد وتطوير التحرك الاسلامي على مختلف المستويات الفردية والجماعية ، استجابة للفكرة التي نادى بها مؤسسها بطل الاستقلال والنضال المغفور له مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه ، الذي ما فتيء يدعو لهذا الدين ، ويعمل له ، ويجاهد دونه ، ويكافح فى سبيله كما جاء فى الكلمة الافتتاحية التي توج بها رضي الله عنه أول عدد من اعدادها : « ان حرصنا على الاعتصام بحبل الدين والتشبث بمبادئه والسير على سنته ليعد أحد العوامل الاساسية فى خروجنا من معركة الحرية ظافرين منتصرين بالرغم عما اعترض سبيلنا من عراقيل وما منينا به من أهوال وخطوب ، وسيظل عاملا اساسيا فى تحقيق اهدافنا المنشودة كامة توافة الى حياة راقية كريمة .

ولذلك سرنا ان تتولى وزارة الاوقاف اصدار مجلة جامعة تعني بصفة خاصة بناحية الاصلاح الديني كما تعالج مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية ولنا وطيد الامل فى ان يلتف حولها دعاة الفكر والثقافة والاصلاح فى هـذه البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء ... »

تلك هي الكلمة الهادية التي وجهها العاهل الراحل مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه الى مجلة دعوة الحق فى أول عدد من اعدادها الاولى ، ومـا زالت نبراسا نستظيىء به فى دجنة الليالي الحالكات ونستهديها لتنير لنـا معالم الحياة والسبيل الاقوم الذي لا عوج فيه ولا امتا ..

— ◆ —

ان للمسلمين رسالة فى الحياة يؤدونها ويمارسونها منذ تخلت الديانات الاخرى عن واجبها فى هذه الرسالة ... ورسالة الاسلام هي السير بالانسان فى طريق معبد سليم تتحقق فيه العدالة والثقة والطمأنينة ، وتجد فيهـا رغبات الانسان ما يقومها ويهذبها ، كما تجد فيها روحه ما يطهرها ويسمو بها نحو الكمال الممكن مع العمل والجد فى حياة لا يسود ولا يعيـش فيهـا الا العاملون المجدون ...

والعالم الاسلامي مهدد بالتدمير والتخريب من عالم أوربي مسيحـي ماكر شديد البطش والصولة والخبث ومن طرف الغزاة اللئام الفجرة الذين يسرون حسوا فى ارتغاء ، وقد تفشت فيه خطاطيف التبشير تحت ثيـاب مزركشة ، ونعقت بما شاءت بلا رقيب ولا حسيب ، وبطبع مادة ثقافته بطابع دعوته الخبيثة التي تؤول آخر ما تؤول الى استلحاق الفكر العربي الاسلامي استلحاق العبودية والخنوع والاستسلام لسلطان الثقافة الاوربية التي نبعت من الفكر المسيحي كما قال المؤرخ الشهير « تونبي » والمفكر « اليوت » وغيرهما ممن يعبرون عن الحقيقة دون حاجز يحجزهـم عن التعبيـر ، أو يدعوهم الى تزوير الحقائق ابتغاء التغرير ..

— ◆ —

من أجل هذا وذاك وانطلاقا من رسالتنا الاسلامية المؤمنة وحفاظا على مقومات مبادئنا واخلاقنا ، وعملا بتوجيهات سيد البلاد مولانا الحسن الثاني الذي جعل من وكده الحثيث بعثا اسلاميا صحيحا فى شتى المجالات ، فاننا نستقبل ابتداء من هذا العدد سنة معطا ، فى دنيا الفكر والدراسات الاسلامية، ونستشرف آفاقا عالية واضحة تسهم فى اقامة جسور الحوار بين الفكـر الاسلامي وغيره من الافكار والمبادىء والنظريات يحدونا امل راغب ومستقبل واعد ، وثقة مكينة ، وارادة حازمة لنضيف الى حياة هذه المجلة العامـرة وسجلها الحافل حلقة جديدة فى بناء شخصية المغرب الثقافيـة واحيـاء العقيدة السليمة ، والعمل على نشر المعرفة الحق وتربية الشعب بما يرقي عقله ويهذب ذوقه ، ويصقل ذهنه ويفتح امامه سبل الخيـر والفـلاح .. لذلك فاننا سنعمل باذن الله على تطوير عملنا قدر الامكان وفى حدود الطاقة حتى نصل الى الراي الحق فى المشكلات المتنوعة التي يتخبط فيها العالم الاسلامي ، وتعترض طريق الاسلام فكرا وتطبيقا في عالمنا المعاصر ، ونهتم بعرض تراث الفقه الاسلامي عرضا جديدا ومقارنة أفكاره ومباحثه بالافكـار

والمبادىء والدراسات القانونية النافذة ... واثراء الفكر الاسلامي بالدعوة الى الاجتهاد الواعي للاصول ، والمتفتح على العصر .

— ◆ —

لقد مرت ستة عشر عاما على صدور اول عدد من دعوة الحق ، وهي لا شك ، سنوات حافلة بالعطاء الثر ، زاخرة بالانتاج القيم ، مليئة بالفداء الصالح حيث واكبت الحركة الفكرية والعلمية منذ بداية الاستقلال ، واستقطبت الصفوة المختارة التي تعد من الطراز الاول فى ساحات الفكر والمعرفة والدراسات الناضجة والتي تزخر بالعقول النيرة والاخيلة الخصبة والنفوس الخيرة والعقيدة السليمة،والدين المتين،فباتت اعدادها كاملة سجلا حافلا لتاريخ نهضة،وتراث جيل،كما انها كانت اداة تنفيس يعبر عما يعتلج فى ضمير الجماعة المفكرة العالمة التي يضمها هذا الوطن الحبيب الذي يزخر بطاقات فكرية نابضة فى شتى المجالات ، كما انها ايضا ، فتحت صدرها للشعوب المجاورة والبعيدة المكروبة المغلوبة والتي كانت تعاني من ويلات الاستعمار فى عز نهاره ونكبت به بلادها فوجدوا فيها متنفسا ومقيلا ، ومفيضا لمطالبهم المشروعة ، وعواطفهم الجائشة ، وقد ندد كتابها ، الى جانب ابحاثهم الاسلامية والفكرية ، بالاعيب الاستعمار كيفما كان لونه وجنسه وشجبوا مخلفاته ، وخصوصا فى العدد الماضي الخاص بعيد العرش حيث فضحوا السياسة الاستعمارية التي تنهجها اسبانيا التي اقتطعت اجزاء من ترابنا الوطني حتى اصبحت جريمتها النكراء من طرف الضمير العالمي والشعوب المحبة للسلام شغل الالسن .. وحديث الناس ..

وكتاب دعوة الحق ، اذ يستأنفون جهادهم الواصب فى سبيل التحرر من رواسب الاستعمار ومخلفاته ومركباته يغتنمون هذه المناسبة فيعبرون ، وهم يستقبلون سنة جديدة ، عن استنكارهم لفظاعة الاستعمار الاسباني ضد الشعب المغربي الذي بعد همه ، وربأ بنفسه عن مواطن الذل ، وسما بعزمه الى معالي الامور ، ورنا بطرفه الى اليوم الذي يتحقق فيه الجلاء ، وتحل فيه مشكلة استكمال التراب وتحرير لكل الاجزاء المغتصبة السليبة التي تحتلها اسبانيا فى الساقية والوادي ومدينتي سبتة ومليلية والجزر الشاطئية ..

فلو انى بليت بهاشمي
خؤولته بنو عبد المدان

لهان على ما القى ولكن
تعالوا فانظروا بمن ابتلاني !!

حقق الله النصر ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، واعان على النهوض ...

دعوة الحق

صَاحِبُ الجلالة الملك الحسن الثاني يقول في خطاب العرش الذي ألقاه حفظه الله بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة لجلوس جلالته على عرش أسلافه المنعمين:

ولن يهدأ لنا بالٌ ولن يقرّ لنا قرارٌ الآيوم تجلو جيُوش الاستعمار عن مناطقنا وتتكاملُ وحدة تراب وطننا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه .

شعبي العزيز :

تلتقي مشاعرنا ومشاعرك في مثل هذا اليوم من كل عام التقاء يمتاز عن غيره من متعدد انواع التواصل التي تمدنا بها الظروف بسمة خاصة وطابع يطرد باطراد الاحوال والمناسبات

فاللقاء الذي توافقت عليه مشيئتنا ومشيئتك منذ اربعة عشر عاما بتمهيد من الله وتيسير لقاء تكفلت عناية الله بتجديد ميعاده وتولت رسم ميقاته على صفحات تاريخ هذه البلاد وهو الى هذا لقاء التحالف والتعاهد والتناصر والتعاون والتفاء الارادات المتساعدة والعزائم المترافدة لدرء المكاره ودفع الخطوب وجلب المنافع وتوفير المصالح .

ولقد اصبح تكريمنا وتكريمك لهذا اليوم واحتفالنا واحتفالك بما يرمز اليه من استمرار وبدل عليه من استرسال ويشير اليه من تبادل العواطف وتقاسم الاعباء عادة متاصلة من عاداتنا تبعث في النفوس الشعور بان الاعوام تمر دراكا متشابهة متماثلة وان اختلف ما يتدافع في تضاعيفها ويتجارى في رحابها ، واذا كانت الايام تورد الطريف والجديد آنا بعد آن وتتوالى مكتظة بما يستوقف النظر ويستدعي التفكير ويستجيش الاهتمام فان من آلاء الله المتواترة واياديه المتظافرة ان جعل اعوامنا وايامنا على ما يعتريها من تباين الالوان ويتعاقب عليها من اصناف الظلال سائرة على نهج لا تلتوي اسبابه ولا تلتبس مذاهبه ، وان من فضل الله على بلادنا ان بواها بين اقطار المعمور مقام الاستعداد لتلتقى ما يتداول الدنيا حينا بعد حين من مستحدث الاطوار واهلها لمواجهة المستجد من الاحوال وقاد خطاها الى معالجة العارض الطارىء من المشاكل بالنظر

الموفق بالسداد والراي المؤيد بالصواب والهمنا فى كثير من الاحيان الامساك بزمام المبادرة وابقى بالاضافة الى هذه الصنائع والعوارف محكمة وثيقة وشائج المحبة والاخلاص والوفاء والولاء بين الملك الذي قلده الله امانة الحياطة والرعاية وبين شعبه المكلوء بواسع الحدب والعناية ، فسارت البلاد والحمد لله بما اتصل من عمل واجتهاد وتكاثف وتآزر بين احداث متقبلة ومشاكل متجددة مسيرتها الواثقة لم يثنها خطب ملم ولا سجا فوقها ليل مكروه مدلهم .

فاذا احتفلت شعبى العزيز واحتفلنا معك بالذكرى الرابعة عشرة لجلوسنا على عرش اسلافنا رضوان الله عليهم فانما تحتفل جميعا بالعهد الذي لا ينتكث ولا ينتقض والوفاء الذى لا يثبت ولا ينفصم ، والولاء الذى لا يتضاءل ولا يتواكل والاستبشار الذى لا يبرح ولا يريم ، والمسرة بما كان ، والثقة بما سيكون ، وبجميع المشاعر المنطلقة من الاعماق الواردة من موارد التصادق والتصافى والارتياح والاطمئنان .

لقد كان – شعبى العزيز – احتفال الملك والشعب بعيد العرش قبل الاستقلال فى عهد والدنا محمد الخامس رضى الله عنه تعبيرا عن الفرحة باتحاد ارادة الملك وارادة الشعب وتجسيما للازدهار بتصميم العزائم على المضاء انتزاعا للحرية واستردادا للسيادة ؛ فلما احسن الله جزاء الجهود المبرية وكلل ثورة الملك والشعب بالاكاليل المرجوة وافضى بهذه الثورة المباركة الى نتائجها الحتمية كان احتفالنا بعيد العرش احتفال المسرة التي يستثيرها الامل البالغ مداه الظافر بمبتغاه مثلما كان احتفال الوطن الذى يتطلع مشوقا الى المسؤوليات ويهفو حثيثا الى اعباء الانشاء والتكميل والتجميل وتقطعت البلاد فى ظل الحرية المنتزعة والاستقلال المستعاد مراحل طبعها العمل الايجابي الموصول ووسمها الجد المصروف الى تأصيل المكاسب .

وشاءت ارادة الله ان نخلف والدنا الملك الهمام بعد انتقاله الى جوار ربه على عرش اسلافنا واسلافه ونضطلع باعباء الحكم ومهام السلطان فاخذنا على نفسنا أن نقود بلادنا الى اشرف الغايات والتزمنا بان نعمل على أن يتبوأ شعبنا بين الامم والشعوب اسمى الدرجات فصلنا الليل بالنهار منذ ذلك اليوم الذى اراد الله ان نتواعد ونتفق فى الميعاد صيانة لك ورعاية وحفاظا ووقاية واستدرارا للخير واستكثارا من اسباب اسعادك واسعاد ابنائك ، لم ندخر وسعا ولم نال جهدا ووفاء بما قطعناه على انفسنا من عهد واخلاصا لما توثق واستحكم بيننا وبينك من ميثاق ، فاصبحت بلادنا بما اوليناها ظاهرها وباطنها من عناية وواظبنا عليه من اهتمام امتد الى جميع الشؤون وجاب مختلف الميادين سائرة على هدى ما اقمناه فى طريقنا من معالم ورسمناه لمسيرتها من اشواط مفتنة فى اسباب المزاولة جادة فى الانتفاع من احدث وسائل المواجهة ناجحة فى التماسها لوفير العوائد وكبيرها حتى غدت جاذبة الانظار ، مستهوية للقلوب ، داعية الى الاعجاب ،، باعثة للتقدير ، حاملة على الاحترام .

وان احساسك العميق بان وطنك – شعبى العزيز يتبوأ هذا المقام المحمود بين الاوطان ويتسنم هذه الذروة الملحوظة المشهودة ، وان اعتزازك بانك آخذ بحظك الجزيل فيما يوضع من خطط وبمارس من أعمال ، وابتهاجك بما يتم ويتكامل فوق ارضك وارض ابائك لفائدة الجيل الحاضر ولصالح الاجيال الصاعدة وان ما يتراءى لعين عاهلك وعينك ويتصبانا ويتصباك من جليل المطامح وجميل المقاصد على ما تهتز به الدنيا من ازمات ويغاديها ويماسيها من مفاجآت كل هذا خليق بان يفيض الافراح والمسرات فى ذكرى يوم تلاقينا واجتماع كلمتنا على ما تستقيم به الامور وتزدان به الاحوال .

وقد الفنا أن نتجه اليك بالخطاب فى هذا اليوم من كل عام اقتفاء لاثر والدنا طيب الله ثراه ، واعتقادا منا بان هذا اليوم الذى كفل الله له اليمن وخصه بالطالع السعيد اخلق المناسبات واجدر الفرص بالاهتمام لاطلاعك واظهارك على ما قطعناه من طريق وطويناه من مراحل خلال العام المنصرم وعلى ما يتسع امامنا من آفاق ويمتد لبصرنا من مسافات ويجتذبنا من رغائب ومطامح لتكون على بينة من امرك وتعلم ما يعد اعداد ليومك وغدك ويعد من أسباب ليسارك ورخائك وهنائك واطمئنانك

وسواء تعلق الامر بشؤون بلادنا الداخلية على اختلاف وجوهها واتساع مجالاتها او بالشؤون التى

تتصل بسياستنا الخارجية وعلاقات مملكتنا بغيرها من الدول فان حرصنا كان ومازال على ان تظل الحياة زاخرة متدفقة فى شرايين البلاد محركة منعشة **لجميع الانحاء والارجاء حافزة للهمم والعقول داعية** للابتكار والانشاء حاملة للثراء والازدهار ، كما كان حرصنا وما زال على ان يستمر المغرب سائرا فى الطريق التى اختطها آباؤنا وآباؤك دائبا على استيفاء حقوقه الثابتة المسلوبة عدوانا وافتياتا حريصا على ان يرتفع شانه ويطيب ذكره ويشيع صيته ويتمادى مضطلعا فى مختلف المحافل الدولية بالدور الذي تتساوى فه الفاعلية والجدوى .

وستستبين – شعبى العزيز – من خلال هذا الخطاب الذى اردنا ان يدلك دلالة واضحة دون تطويل ولا تفصيل على ما اناط الله بجهودنا من توفيق ودارك لنا من تأييد وفتح لنا بفضله وكرمه من فتح مبين – « ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

شعبي العزيز :

بينما كان المغرب مصروف العناية الى انجاز ما يفرض المخطط الخماسى تحقيقه من مشاريع وبينما كانت الادارة باتصال مع مختاف المجالس عاكفة على دراسة واعداد الوسائل الخليقة بتوسيع افاق التنمية الجهوية انطلاقا من الخطاب الذى القيناه بمدينة ارفود اذا بالمعلومات ترد علينا من اسبانيا منبئة بان هذه الاخيرة عازمة على اتخاذ تدابير انفرادية لا تقيم وزنا لما لنا من حقوق ثابتة ولا تعير اي اهتمام لما لنا من سيادة فى الصحراء المغربية الخاضعة للاحتلال وصح لدينا ان الحكومة الاسبانية ترمى من وراء اتخاذ هذه التدابير الى خلق كيان فوق ترابنا المسلوب يؤمن لسيطرتها اسباب الاستمرار فى احتلال اراضينا ويقنع الاسترسال فى استغلال اجزاء من وطننا بقناع تعتقد ان الضمير العالمى لن يتلقاه بغير الترحيب ولن يقابله بغير البشاشة ، وتناست الحكومة الاسبانية اننا حاولنا ما وسعنا المحاولة ان نفضى بالمياسرة والمفاوضة الى اتفاق معها فى شان الصحراء والى ابتكار الحل الذي يراعي ما لنا من مصالح ويأخذ بعين الاعتبار ما بيننا وبين اسبانيا من صداقة وحسن جوار ، فلم يسعنا حيال اصرارها على التمويه الا ان نعلن الاستنكار ونغضب لحقوقنا التي اصبحت مهددة

بالمصادرة والاهدار ولم يلبث شعبنا الذى يشاطرنا ما يستثيرنا من بواعث ويهيب بنا من واجب ويستجيشنا من تصميم ومضاء ان التف حولنا بجميع افراده وهيئاته واحزابه التفاف المشوق الى الكفاح المتمرس بالجلاد والجهاد وبهذه الوحدة المرصوصة وبهذا التصميم والمضاء عرضنا قضية صحرائنا على نظر منظمة الامم المتحدة واقترحنا باتفاق مع اشقائنا الموريطانيين ان تحيل المنظمة الاممية مطلبنا على المحكمة الدولية للعدل لتدلي هذه المحكمة فى موضوعه بوجهة نظرها القانونية الصرفة ؛ وجاء والحمد لله التأييد لاقتراحنا صادرا من الاشقاء والاصدقاء وهم ولله الحمد عدد كثير ينتسبون الى مختلف الاقطار والقارات ، وبهذه المساندة القوية كتب الله لقضيتنا نصرا عزيزا وبسر كسب الجولة الاولى من الخصام والنزاع واملنا وطيد ان يستنير طريق الانصاف ويستبين وجه الصواب للناظرين فى ملف النزاع ويستقر الراى فى نهاية المطاف على ان ارتباط الصحراء بالمملكة المغربية امر محقق لا جدال فيه وان مطالب المغرب مشروعة قائمة على اصل ثابت وأساس صحيح

وقد كانت الاجزاء الاخرى من ترابنا الوطنى الخاضعة للاحتلال الاسبانى فى شمال مملكتنا شغلا **شغل البال منذ زمن بعيد واستنفر المطالبة** والاقتضاء طيلة احقاب من عهود آبائنا واسلافنا ، الا ان اسبانيا لا تحتكم فى تصرفها الى منطق سليم ولا تبيح لغيرها ما تبيحه لنفسها متى تعلق الامر بشان يهمها لذا ثار ثائرها وطاشت احلامها عندما رفع المغرب مذكرة الى الامم المتحدة يطالب فيها بان ترد اليه مدينتا سبتة ومليلية والجزر الجعفرية وغيرها من الجيوب ولجات اسبانيا الى الوعيد والتهديد وحشد الجنود والاساطيل البحرية والجوية واصطنعت من اساليب الترهيب ما اخنى عليه الدهر وخلفه فيما خلف من رث الطرائق وعديم الجدوى .

وتناولت منظمة الوحدة الافريقية هذا المطلب فى اجتماعها الاخير فكان حظه من التأييد ما اقر العين واثلج الصدر وادين استعمار اسبانيا بالاستنكار الشديد واستمرار احتلالها لاراضى المغرب بالتقريع والتنديد .

واذا كانت الحكومة الاسبانية مصرة على مواقفها من جنوب مملكتنا وشمالها متمادية على التمويه

والتضليل والتنكير للتوصيات والقرارات فاننا مصرون من جهتنا على مطالبة بحقوقنا المشروعة فى المنطقتين معا ولن يهدأ لنا بال ولن يقر لنا قرار الا يوم تجلو جيوش الاستعمار عن مناطقنا وتتكامل وحدة تراب وطننا .

وان ما يمدنا به اشقاؤنا واصدقاؤنا من مؤازرة ومساندة ليقع من نفسنا موقع المآثر والمكارم ، فالى هؤلاء الاشقاء والاصدقاء نتجه بوافر الثناء وخالص الشكر

شعبي العزيز :

ذاك شان من شؤوننا الوطنية احللناه مقام الصدارة من شؤون حياتنا لان قضية مناطقنا المغتصبة احدى قضايانا المصيرية ولان صلتها بالمحافل الدولية صلة وثيقة ، فاذا نحن انتقلنا الى شؤوننا الخارجية بصورة عامة واستعرضنا ما تم فى هذا المضمار خلال العام الماضى تبين لنا ان حركة الاستقبال والانتقال توالت بانتظام وتلاحقت دون انقطاع او انفصام وان بلدنا كانت قاصدة مقصودة زائرة مزورة وفد عليها الرؤساء والقادة ورجال الدولة ممن تصلنا بهم صلاة الود والقرابة وتربطنا بهم روابط الالفة والصداقة وفدوا علينا من اقطار متنائية وامصار متباعدة وحلوا بمملكتنا اخوة احبة وضيوفا اعزة ، وتم فى رحاب ارضنا لقاءات وانعقدت بها ندوات واجتماعات تبودلت فيها الاراء واتخذت فى اعقابها القرارات وتوثقت بفضلها العلاقات واتسعت بما سادها من صفاء آفاق التعاون فى شتى المجالات ، واسهم المغرب فى المنظمات الدولية اسهاما كان له الفاعلية والاثر ما شوهد ولوحظ واتجه من المغرب الى البلاد الشقيقة والصديقة وفود كثيرة حاور اعضاؤها وفاوضوا وشاركوا فى المؤتمرات ونفعوا بما لهم من خبرة وتجربة وانتفعوا بما استقبلهم هنا وهناك من دراية ومعرفة فتحقق التعارف المطلوب بين الوفود المتزاورة وتمهيد كثير من سبل التعاون لصالح الاقطار المتصافية المتصادقة

واذا كان ابتهاجنا عظيما بما تواصل من هذه اللقاءات والاجتماعات فاننا استشعرنا من الاعتزاز وتملينا من السرور بانعقاد مؤتمر القمة العربي السابع بعاصمة مملكتنا ما كان كبيرا وبليغا ، انعقد هذا المؤتمر والامل الواسع مشدود الى أعمالنا واسفرت مداولات الاقطاب الذين تألقت بوجودهم سماء المغرب والخشية تساور النفوس المتطلعة الى نتائجه الايجابية وحصل بفضل الجهود المشتركة ما استبعد حصوله بعض الناس وتيسر ما ظنه بعض الملاحظين والمعلقين صعب المنال عسيرا غير يسير ولكن الله وفق الى اجتماع الكلمة على الاعتراف بالكيان الفلسطيني مثلما وفق الى اجتماع الكلمة على تحقيق التضامن العربى ووحدة الصف العربية وتثبيت أركان التضامن العربي الافريقي ولقد يسر الله لجهودنا فيما سهل ويسر علاوة على ما سلف الوصول الى نتيجة نعدها من اعظم نتائج المؤتمر الا وهي التصالح الاردني الفلسطيني ، فلما انعقدت الجلسة الختامية كانت اهداف المؤتمر ومطامحه قد امكن ادراكها وتم بلوغها وانا لنحمد الله الذى كفل الهداية لرئاستنا وانجح الجهود المتساعدة واثابها باحسن جزاء واوفى عطاء ، واظهر الامة العربية فى اجمل مظاهرها وابرزها مؤتلفة منسجمة أقوى ما يكون الانسجام واحسن ما يكون الائتلاف .

ولا نريد ان نغلق هذا الباب وننتقل من هذا المجال الى سواه دون ان نعرب عن ابتهاجنا الكبير بما فتح الله على منظمة التحرير الفلسطينية من فتح اتسع به نطاق الاصغاء اليها والاستماع اتساعا اصبحت له ابعاد عالمية ورحبت به ارجاء المؤازرة والتأييد . ويسرنا من جهة اخرى سرورا عظيما ان تبلغ حركات التحرير الافريقية اهدافها وتنتزع استقلالها بعد احتلال البرتغال لاراضيها زمنا غير قصير فهنيئا لمنظمة التحرير الفلسطينية وهنيئا لحركات التحرير الافريقية ، وانا لنسال الله لجميع المكافحين من عرب وافارقة بلوغ مقاصدهم ونجاح مطالبهم والحصول على حقوقهم .

شعبي العزيز :

تميزت السنة المنصرمة بحركة فى المجال الاقتصادي والاجتماعي لم يلحقها فتور ولا حال دونها حائل فقد استطاع المغرب ان يواصل تحقيق اهدافه ملائما بين متطلباته الخاصة والمتطلبات التى القت الملابسات باعبائها وسط الطريق ، لقد عين المخطط الخماسي اهدافا وغايات ونص على برامج ومشاريع التزمنا ببلوغها وانجازها فافضت جهود

الدولة المبذولة في مضمار التجهيز والاستثمار الى انفاق ما يقارب ضعف ما انفقته في سنة 1973 وبعبارة ادق فان مبلغ الانفاق خلال سنة 1974 تجاوز بسبعين في المائة الاعتمادات المصروفة برسم الاستثمار في سنة 1973 ولقد كان من نتائج اقبال الادارات العمومية على تنفيذ المخطط الخماسي ان رصد القانون المالي للسنة الحالية اعتمادات ارتفع مبلغها بالقياس الى اعتمادات السنة الماضية بما قدره 88 في المائة ، والى جانب مجهود الدولة فهناك مجهود يبذله القطاع الشبه بالعمومي ومجهود اخذ القطاع الخاص يصرفه بعد دخول قانون الاستثمارات في حيز التطبيق ؛ الا اننا لاحظنا منذ شهر مارس من السنة الفارطة أن التنمية الجهوية مفتقرة الى عناية خاصة وانطلاقا من الخطاب الذي القيناه بمدينة ارفود عكفت مصالحنا الادارية على الدراسة وحددت باتصال واتفاق مع مختلف مجالس البلاد المشاريع التي ينبغي تنفيذها لتصبح سائر الجهات وخاصة منها ما هو فقير ومحروم حافلة بالاوراش جاذبة للانظار بما يباشر فيها من اعمال ويشيع فيها من الازدهار ، وان من شان هذه المشاريع ان تستوعب يدا عاملة في مواطن الانجاز وتمهد الطريق ، لتوزيع الاعمال في اطار المخطط المقبل بين الصعيد الوطني والصعيد المحلي .

هذا وان من مظاهر الازدهار الذي شهده العام الفارط ان ارتفع الانتاج الاجمالي فادرك تسعة في المائة وتحسن ميزاننا التجاري تحسنا جنح به الى التوازن لنمو حجم التصدير وارتفاع تحويل اموال العملة المغاربة في الخارج بما قدره خمسون في المائة وازدياد مواردنا السياحية ، اما ميزان الاداءات فانه تخطى التوازن الى الزيادة التي بلغت قيمتها 540 مليونا من الدراهم وكذا الشان في رصيدنا من العملات الاجنبية فقد شملته الزيادة وتعزز بنسبة خمسين في المائة .

فاذا نحن القينا الان نظرة على قطاعين نوليهما بالغ العناية قطاع الفلاحة وقطاع الصناعة تبين لنا اننا نسير فيهما بقدم ثابتة على هدى من مخططنا الحالي وعلى هدى مما يجد من شؤون ويعن من حاجات ، لقد دابت وزارتنا في الفلاحة والاصلاح الزراعي في اثناء السنة المنصرمة على الاعمال المنوطة بها وهي اعمال تستهدف ارشاد الفلاحين ومساعدتهم والعناية بالماشية وغرس الاشجار المغلة مثلما تستهدف تجهيز الاراضي لاستقبال الري والتمهيد للقيام بتوزيع القطع الفلاحية وقد قررنا ان يتناول التوزيع خلال السنة الحالية لمائتين الف هكتار كما قررنا ان تباشر وزارتنا في الفلاحة والاصلاح الزراعي تجهيز الاراضي الفلاحية بمعدل ثلاثة واربعين الف هكتار في كل عام ، فاذا اطرد سيرنا على هذه الوثيرة تيسر تجهيز النصف من مليون هكتار في نهاية العمل بمقتضيات المخطط الحالي ، وبالاضافة الى هذا فقد وضعنا برنامجا لانتاج مادة السكر يقضي بست وحدات صناعية في السنوات الثلاثة المقبلة وبالماضي في الانشاء الى ان نحقق ان شاء الله في ظرف يقل عن عشرة اعوام ما نامله من الاكتفاء وتتطلع اليه من التصدير ؛ ولكن هذا البرنامج يقتضي ان نمد اسباب الري ونواصل بناء السدود ، لقد اشرفنا في العام الماضي على الفراغ من اعمال التشييد لسد سيدي محمد بن عبد الله كما اشرفنا على الشروع في تشييد سد وادي المخازن وسنقوم ان شاء الله في اثناء السنة الحالية من جملة ما سنقوم به في هذا المجال بتدشين الاعمال الرامية الى تشييد سد سيدي شحو والامل وطيد ان نتولى في السنتين المقبلتين الاشراف على بدء الاعمال لتشييد سدين هامين وهما سد مجارة وسد سيدي ادريس ، وان من شان توافر البلاد على العدد العديد من السدود ان تؤمن الى جانب السقي الضروري لمزبر الانتاج الكافية من الماء العذب والسعة من الطاقة الكهربائية .

والقطاع الاخر الذي نال وسينال بعون الله حظا كبيرا من اهتمامنا هو قطاع الصناعة فقد صرفنا جهودا كثيرة لتصنيع البلاد آتت من طيب الثمرات ما يدعو الى الارتياح لقد اخذ التصنيع يضطلع في بلادنا بدور كبير ويشكل عاملا من عوامل ازدهار اقتصادنا لتحويله لمنتجاتنا وسد بعض حاجاتنا واستيعابه ليد عاملة كثيرة ، ولهذا فاننا نعمل جادين لتنويعه وتكييفه وتوسيع مجاله لجعله كفيلا بالاستجابة لمتطلبات الاسواق في الداخل والخارج ، واذا كان تصنيعنا يشمل معظم انشطة التحويل في قطاعات التغذية والانسجة والكهرباء والمواد الدهنية ومواد البناء وغيرها من القطاعات فان هناك صناعة تحويل تهم مادة من موادنا الاساسية الا وهي مادة الفوسفاط التي ارتفع استخراجنا لها في السنة الماضية الى

عشرين مليون طن وبدا تسويقها يدر علينا موارد جمة واصبح تحويلها بفضل المعامل الكيماوية والفوسفورية الى بضائع مرغوب فيها امرا تدعو اليه حاجة ماسة ، ولا يعزب عنك شعبي العزيز ان مخططنا الخماسي يقضي بأن يقع تحويل هذه المادة فوق ارض وطنك بنسبة ثلاثين في المائة مما يستخرج منها .

ولقد دعانا اهتمامنا بالتصنيع الى احداث مكتب خاص عهدنا اليه بشؤون كثيرة من شؤون الصناعة .

هذا وقد اتخذنا التدابير اللازمة للتعجيل بانشاء مركب صناعة الحديد باقليم الناضور واحدثنا لهذا الغرض شركة وطنية .

واننا لجادون من جهة اخرى في التنقيب عن المعادن بصورة عامة وعن النفط بوجه خاص اما الاحجار النفطية التي تقدم الحديث عن توافرها ببلادنا فاننا واصلنا في غضون السنة المنصرمة احصاء مواقعها كما واصلنا البحث والدرس رغبة في الانتفاع على وجه الاستعجال مما تدخره من النفط .

وقفنا شعبي العزيز عند شؤون الاقتصاد وقفة كنا نود لو طالت مدتها للالمام بجميع جوانبها فلم نتطرق في هذا الخطاب الى التجهيز الاساسي من موانيء وطرق ومطارات ولم نتعرض لما لهذا التجهيز من صلة وثيقة باقتصادنا ولما يضطلع به من دور فعال فيما نبتغيه من نماء وازدهار ، ونكتفي بالاشارة الى اننا نرى ضرورة توسيع وتعزيز شبكته ونطاقه ومن هذا المنطق انطلقنا يوم وقع اختيارنا على الجرف الاصفر باقليم الجديدة لانشاء ميناء يساعد على تصدير ثروتنا من الفوسفاط ، وحرصنا اكيد على اتمام الدراسة وانجاز عمل الانشاء .

ومن جهة اخرى فلم نتعرض الى الشؤون الاجتماعية التي تنتظم العدل والتعليم والسكنى والعمل وهي ميادين تاخذ بحظ كبير من اهتمامنا ورعايتنا ، ولو تقرينا هذا كله واستقصيناه لاتسع مجال القول وامتد النفس وطال بك الاصغاء بيد أن وعدا صدر منا لطلبتنا ضمناه الخطاب الذي القيناه في العام الماضي بمناسبة الاحتفال بذكرى جلوسنا على عرش اسلافنا الميامين ، يسرنا بالغ السرور ان نعلن اليوم اننا اوليناه ما يستحق من العناية وانجزناه حرصا منا على الوفاء بالوعد وعلى ما لنا من رغبة في ان يتمرس طلبتنا على تحمل اعباء المسؤولية ، واننا لنامل ان يقدر طلبتنا هذه الخطوة المباركة حق قدرها ويشاركوا في تسيير شؤون الجامعات والاحياء الجامعية بما يؤكد ثقتنا في مداركهم ومواهبهم ونضج عقولهم ويبرز ما لهم من استعداد لتحمل ما يقله المستقبل ويعده من اعباء واثقال .

شعبي العزيز :

تلك هي اهدافنا التي يسر لنا الله بلوغها وتلك هي آفاق المستقبل ومناهج العمل المنتظر الموكول الى عزائمنا وقرائحنا المكتوب له النجاح بعون من الله وهداية ، عرضنا عليك كل هذا عرضا لم يقصد الى الاحاطة والشمول وانما توخى قبل كل شيء ان تتوافر لديك من الخطوط والقسمات والملامح ما يتيح التصور والادراك ، فلقد تبينت ولاشك أن بلادك تبلغ اهدافها الواحد بعد الاخر موصولة الداب موفقة الخطى والتقلبات حولها تغدو وتروح والعواطف والهزات تدور في صفاء اديمها من رطب الاحداث وهشيمها بحكم صلاة التعامل والاخذ والعطاء ما تتولاه المواجهة وتتصدى له المدافعة والمعالجة ، ولقد استبان لك الى هذا ان بلادك تشرع الابواب بابا بعد باب وتمهد السبل وتضع اللبنات ولا تتوقف ولا تحجم ولا تنهزم ولا تستسلم وانما هي هي لا يفت شان وان كبر وجل في عزمها العتيد وطموحها المستزيد ولئن كان للازمات الطارئة حالا بعد حال الناجمة هنا وهناك أثر في اقتصادها تتفاوت وطاته بتفاوت الضروريات والحاجات فان انتاجنا الوطني الذي يشتد ساعده ويغدق رافده ويتسع مردوده عاما بعد عام باتساع حجم التصدير وافتتاح الاسواق لعامل قوي من عوامل التخفيف والتقليل من التكاليف والاعباء ولولا ما يسد بعض حاجاتنا من انتاج ويدره علينا تصدير موادنا وبضائعنا من موارد وارباح لمنى اقتصادنا بشيء غير قليل من القلق والاضطراب .

اننا نستورد كثيرا مما هو صالح لحياتنا الاقتصادية وحياتنا الاجتماعية . الا اننا نقتني هذه الواردات من ادوات وبضائع باثمان تعلو كثيرا ولا تنخفض الا قليلا وان ما ننفقه في سبيل اقتناء

البضائع الضرورية لقوتنا اليومي لينوء بأموال الدولة لان الدولة لا تبدل هذه البضائع للمستهلكين باثمانها الحقيقية انما تبدلها باثمان تراعي فيها الطاقة الشرائية لذوي الامكانات المتواضعة والدخل القليل مثلما تراعى فيها المحافظة على الحد اللائق من مستوى المعيشة ، وما اخلق الرصيد من الاموال المصروف برسم هذا الاستهلاك بان يستغل في مجالات كثيرة من مجالات النمو بجميع اصنافه واشكاله .

ان العالم - شعبي العزيز - يجتاز ظروفا عسيرة ويصطدم بمشاكل مستعصية فهناك مشكلة المواد الاساسية المتولدة من اشتداد الطلب لهذه المواد ونقصان عرضها في الاسواق وهناك مشكلة الطاقة ومشكلة العملات المتارجحة بين الهبوط والصعود او الطافية العائمة ولهذه المشاكل كلها انعكاس على الموازين التي تقاس بها سلامة الاقتصاد وتاثر في حياة الامم والشعوب قد يخف ويلين ويشق ويقسو تبعا لصحة الاحوال الاقتصادية في هذه الامم والشعوب او لاعتلالها واختلالها ، فلا مناص من المغالبة والابقاء بدون المقاومة والمصابرة في عالمنا الراهن الحافل بهذه الضروب من المشاكل ولا سبيل الى خوض غمار المعركة الا بالاستعداد واستخدام انجع عتاد وهي معركة ضارية لا يسع المضطر الى ركوب الاسنة في حلبتها الا ان يوفر لاقتصاده اسباب الصحة ويحيطه بظروف السلامة ، وبلدنا كغيره من الاقطار تعترضه الصعوبات وتزدحم في طريقه العقبات وتنتصب امامه المعضلات الا اننا نركب حد المواجهة ونقتحم جلبة المغالبة باقتصاد نجتهد متصل الاجتهاد لتامين المناعة له والحصانة ، وان اجتهادنا هذا الذي نمارسه في محيط يتداول المد والجزر شؤونا حيوية من شؤونه لمحكوم عليه بان يستمر ومقضي عليه بان يتضاعف ويبلغ قصارى ما يمكن ان تبلغه الطاقة البشرية ، ولن نستطيع المواجهة الظافرة والمغالبة الناجحة الا اذا اكرهنا مختلف ميادين الانتاج ظاهرها وباطنها على العطاء الوافر الذي لا يقنع بسد الحاجات ولا يقف عند حد الاكتفاء وانما يتطلع ويتوق الى استدرار الموارد من العملات الاجنبية ونشر الرخاء وتثبيت دعائم الازدهار والمعركة التي نخوضها مصرين على كسبها معركة انتاج يجب ان يمتد في اوسع نطاق ومعركة تصدير يتعين ان تشرئب اليه الاسواق وكلتا المعركتين تستلزم ازدهارا للفلاحة والري يشمل سائر ما يرتبط بهما من ميادين ونموا للصناعة ينتظم جملة مالها من انواع وانماط .

فاذا اضفت - شعبي العزيز - الى هذه المواجهة مواجهة اخرى قطب رحاها مطالبة المغرب باراضيه المسلوبة المتفرقة شمالا وجنوبا وجنودها المغاربة حيثما كانوا من بلادهم او غيرها بجميع احزابهم وهيئاتهم وجميع ما لهم من طاقات وكفايات وما لبلادهم من وزن مشهور وجاه مأثور علمت علما لا يشوبه امتراء ان وطنك ضارب اطنابه في ساحة ملحمة لا تنحصر في زاوية ولا تقتصر على مجال واحد او مضمار ، وحري بنا ونحن بصدد الكلام عن المواجهة المتمثلة في اقتضاء حقوقنا واسترداد اراضينا ان نعرب لقواتنا المسلحة الملكية عن سابغ رضانا ودائم ثقتنا ونؤكد لها ان سبعة عشر مليونا من الاخوة المواطنين مساندون مؤازرون لافرادها لا يالونهم محبة واعزازا وتجلة وتقديرا ، وان ايسر ما تقتضيه الملحمة المفروضة ان تترفع لها ارادات وتتكتل من اجلها الطاقات والكفايات وتتوحد الصفوف للغلبة والانتصار وان ادنى وجوه التصرف الى الصواب ان نجنب البلاد كل ما من شانه ان يوهن العزائم ويشتت الافكار ويحول الاهتمام ويوجه الاشغال الى اهداف غير اهدافنا المصيرية التي تتبوا من تفكيرنا وشعورنا المرتبة الاولى من مراتب الحرص والرعاية .

لقد كانت النية معقودة - شعبي العزيز - على تنظيم اقتراع عام لانتخاب اعضاء مجلس النواب خلال السنة الجارية الا ان ما ابرزناه من ضرورة الكفاح يشمل الجميع وكلمة واحدة وصف مرصوص في متعدد الواجهات دعانا الى ارجاء هذا الاقتراع العام واجرائه في وقت يتيح للمواطنين ان يستعدوا مدة شهور لحملة انتخابية دون اهمال الاهم والاسبق من قضاياهم واننا نامل ان يتاتى تنظيم الاقتراع العام في ظرف وجيز واجل قصير وانت ايها الشعب الوفي فرح جذلان بمكسب التحرير للمغصوب من ترابك واجزاء وطنك .

وريثما تسنح فرصة اجراء الاقتراع العام الكفيل بتصنيف الاتجاهات وتعريف الراجح من التيارات فاننا نرحب فيما نحن بصدده من اعمال شاسعة الاطراف بجميع الارادات الحسنة والعزائم

الوطنية والدرايات المستعدة ، ان الوطن ملتف التفاف الاتحاد والانسجام وراء عاهله بخصوص احدى قضاياه الكبرى ولا ريب أن قضاياه الاخرى ان تناولها هذا الالتفاف وتعبأت لها طاقات البلاد باكملها يستفيد من التعزيز والمساندة ما تستفيده كل قضية تهيا لصالحها التوافق وتكامل حولها الاجماع .

لقد اعربنا غير ما مرة عن رغبتنا في التقاء جهود هيئاتنا السياسية وتظافرها داخل اداتنا الحكومية لاعتقادنا ان شخصيات من هذه الهيئات يتوافر لها البصر بشؤون السياسة خلقية بأن تسهم في مختلف مجالات التصور والتفكير والوضع والتدبير بالحظ الذي يحقق الامل باسداء النفع للبلاد ، لهذا وذاك نجدد النداء ونعرض على الاحزاب السياسية الاخذ بنصيب في عمل الدولة الموقوف على الصالح العام .

شعبي العزيز :

يرتبط ذكر عاهلنا الراحل والدنا جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه واكرم مثواه في شعورك ووجدانك بذكر الكفاح المرير والجهاد في سبيل التحرير ارتباطا سيظل على مر الاعوام وتعاقب العصور وثيقا مكينا ؛ وها هي ذكرى جلوسنا على عرش اسلافنا رضوان الله عليهم تحل في ظروف يبلي فيها المغرب من جديد بلاءه الجميل استكمالا لسيادته وطلبا لتحرير ما بقي من اجزائه رهين الاحتلال مصفدا بالقيود والاغلال ، وها هو مغرب اليوم بقيادة عاهلك سليل محمد الخامس ووارث عرشه وطموحه واستشرافه كمغرب الامس لا يفرط ولا يتهاون ولا يحيد عن الجادة ولا يجور عن القصد ، واذا كانت هذه الذكرى تستوقفنا برهة من الزمن كلما حل يومها لتتجه بنفوس طافحة بمشاعر الاكبار والاجلال والتعظيم الى رائد المسيرة وقائد الكفاح وبطل التحرير وتطلق اللسان بتمجيد ما بذل فاوفى ، بالابتهال الى الله ان يلحقه بالصديقين والشهداء والصالحين ويحله اعلى درجات عليين فان روح الملك الراحل لاعظم حضورا وهيمنة ونحن نصل ما انقطع من معاركه ونحقق امنية غالية من امانيه فرحم الله الملك الشهم المقدام فقيد المقاومة والجهاد وزعيم الحفاظ والذياد وكافأ

اخلاصه ووفاءه وصبره وعناءه بأوفر ثواب واعظم جزاء .

شعبي العزيز

رانت على قلبك الى غاية منتصف شهر يناير الماضي الوان من الهواجس والمخاوف بسبب الجفاف الذي امتد واستطال ولكن الله الرحيم بعباده من علينا خلال الشهرين الاخيرين بما ازاح الهم والغم واحيا الآمال وابهج القلوب ؛ ذلك ان الامطار التي كنا نسأله تعالى في اسرارنا واعلاننا ضارعين خاشعين واكفها وساجمها قد تهاطلت في سائر الانحاء واتصل خيرها فعم القريب والبعيد من السهول والجبال ، وان هذا الفرج بعد الشدة والرحمة بعد القنوط لمن نعم الله الموجبة للشكر الذي تستدام به العوارف وتدفع به المكاره والمخاوف فالحمد لله على ما اعطى وخول وانعم وافضل حمدا تتوالى منه الدلائل والآيات وتتواصل به المنن والآلاء .

وان من الطاف الله التي لم يحرمنا جليلها ولا كثيرها ان عجل لنا بالابلال والشفاء واضفى علينا سربال العافية فاصبحنا بفضل الله العظيم وتيسيره الكريم نزاول ما قلدنا من مهام ووكل الينا من توجيه وتصريف ، وقد كان لما اعربت لنا عنه عقب العملية الجراحية التي تجشمنا عناءها من آيات الاخلاص والوفاء وصادق المشاعر وجميلها ما ترك في نفسنا ابلغ الاثر واقواه واجرى على لساننا واسع الثناء ووافر الحمد ، ولئن دل هذا على شيء فانما يدل بتجديد العواطف وتأكيدها في مختلف المناسبات والظروف على ان ما بيننا وبينك من اواصر ووشائج يشكل صلة كتب الله لها الوثاقة والاحكام .

وهكذا شعبي العزيز تتصل الايام والاعوام مترعة بالمشاعر المتبادلة بيني وبينك غنية بالتفكير فيما يجعل حياتك وحياة ابنائك صافية الاديم خالية من شوائب التكدير آمنة سائغة راضية فلا ينقضي نهار ولا ينجلي ليل دون ان يمتلىء الاهتمام بالكبير والصغير من امور يومك وغدك ، لقد استأثرت بالفكر والبصيرة وداخلت القلب والوجدان واستويت على اريكة الحب الذي لا يخلقه

الجديدان وعلمت ما تنطوى عليه السريرة وينطق به صالح المساعي وحر الاعمال من بليغ التبيان وفصل المقال ، فجازيت المحبة والاخلاص بكفائهما من ساطع الولاء وناصع الوفاء وتلاقيت وإياك على محبة سواء .

فادم الله الآصرة المكينة التي توشج بيني وبين شعبي ووفقني وشعبي بتسديدك وتأييدك وتوجيهك وهدايتك الى ما تصلح به الاحوال ويطيب به الذكر وتتعطر به الانسام والانفاس ؛ اللهم انك تعلم ما اخفى وما اعلن وما اضمر لبلادى وشعبي واكن فأعني على ما ابتغيه لوطني من رفعة وسؤدد وعز ومجد ولشعبي من رغد عيش ورخاء وطمانينة وهناء واكتب اللهم الفوز المبين والنصر المكين لمساعينا التحريرية وقضايانا المصيرية ولا تحرم اللهم العرب من ترابهم المغصوب وحقهم المسلوب للمسلمين في مشارق الارض ومغاربها من دونك من والمجاهدين المشردين من ابناء فلسطين من الرجوع الى اوطانهم وديارهم والظفر بمطالبهم واوطارهم فما للمسلمين في مشارق الارض ومغاربها من دونك من ولى ولا نصير ، وانشر اللهم على البشرية جمعاء اردية الامن والسلام واحفظنا من شر المكاره والخطوب بمتين الكلاءة وحصين الوقاء انك سميع الدعاء .



نداء من رابطة عُلماء المغرب
إلى المواطنين في الأرض المغتصبة

مواطنينا فى الصحراء المحتلة :

السلام عليكم ورحمة الله ، وان يوم اجتماع الشمل لقريب ، قريب بحول الله .

اننا نعرف ـ اخوتنا ـ مقدار ثباتكم على الحق ، وصمودكم فى وجه الباطل ، وتمسككم بالعروة الوثقى ، والرابطة المقدسة التي تصلكم بملككم ووطنكم وامتكم المغربية من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب .

وكل مواطن هنا ، فى هذا الجزء المحرر ، ليحس مرارة الذل الذى تعانونه تحت وطأة الاستعمار الغاشم ، ويعتبر استقلال الوطن ناقصا الا اذا تحررتم من ربقة الاجنبي الدخيل ، والسيادة الوطنية منتهكة مالم يرحل المحتل وتلتحق الارض المغتصبة بحظيرة الوطن ، فى اطار الوحدة المقدسة ، القائم عليها وجودنا التاريخي ، وكياننا الجغرافى والبشرى نحن المغاربة فى الريف او فى الاطلس او فى الساقية الحمراء ووادى الذهب .

ان قوى الاحتلال التى تجثم على ارضكم ، وتخنق انفاسكم قد جعلت غايتها الابقاء على الوطن المغربى ، منتقص الاطراف ، ممزق الاجزاء ، وابتلاع ما يقع تحت يدها من صحرائه ، ليتم لها عزلكم ـ اخوتنا ـ عن وطنكم ، والتمكن بذلك من مواصلة استرقاقكم واستعباد ابنائكم ونهب امكانياتكم ، تمهيدا لطردكم نهائيا من الارض وتشريدكم واحلال الاسبان الدخلاء محلكم .

وقد ابتلى المغرب وطنكم ، منذ قرون ، بهذا الغزو الاستعمارى الاستيطانى الذى ما فتىء يتكالب على شواطئنا شمالا وجنوبا ، ذاهبا كل مذهب فى العبث بوحدتنا الترابية واختطاف كل ما امكن ان يختطف من اطراف البلاد ، قصد الاستحواذ على خيراتها ، وسلب حرية ابنائها وتهجيرهم عن ديارهم كلما استطاع ، وكان هدفه الدائم الاستيلاء على المغرب جميعه ، باعتباره قلعة الاسلام والعروبة فى البحر المتوسط وافريقيا وتحويل صبغته العربية الاسلامية ، واتخاذه منطلقا للانقضاض على غيره من ديار الاسلام ، والتسرب الى افريقيا عبر الصحراء .

الا ان الاستعمار قد اصطدم فى مشاريعه الجهنمية هذه بروح الوطنية المغربية الصلبة ، وبشعور العزة الاسلامية ، والانفة والاباء والشهامة التي هي من خصائص شعبنا المسلم ابا عن جد ، وكان لاجدادنا ، فى الصحراء المحتلة ، مواقف عظيمة فى مصارعة هذا الغزو الاستعمارى وملاحقته ، شأن المغاربة جميعا ، سواء على شواطىء الريف او شواطىء الاطلس ، او فى اية بقعة من ارض الوطن الحبيب .

واذا كان الاستعمار قد تمكن اوائل هذا القرن ـ تحت ستار المؤامرات الاستعمارية العالمية ، ضد العرب والمسلمين ـ من احتلال المغرب ، فان ثورة الملك والشعب ، كانت له بالمرصاد ، فما لبثت ان اجلته من معظم الوطن بعد صراع ضار ، استنفذ

فيه المحتلون كل مالهم من حول وطول ، لكن العاقبة كانت للمومنين ، وخسىء الاستعمار وخرج مهزوما مدحورا لا يلوى على شيء .

ولاحقت ثورة الملك والشعب ، المستعمر فى مختلف المناطق والجيوب والمواقع التي تشبث بها فى ارض الوطن ، وهاهى الوية الاستقلال ترفرف على طرفاية وافنى كما رفرفت منذ فجر الاستقلال ، على المنطقة الشمالية وطنجة ، وهاهو الشعب المغربى قاطبة مجند وراء عاهله وقائده العظيم جلالة الحسن الثانى ، لافتكاك الساقية الحمراء ووادى الذهب من اسر الاستعمار ، ورفع علم الاستقلال والحرية عليهما ، حتى تنعما كاخواتهما من الاقاليم المغربية الاخرى ، بنعمة الحرية ، وتلتحق بركب التقدم الهائل الذى يسير فيه المغرب كله بقدم راسخة ، وخطى ثابتة تحت ظل ملكه العظيم .

فيا اخوتنا ، ثقوا بقرب ساعة الخلاص ، وقفوا صفا واحدا ، وراء امير المؤمنين عاهل البلاد وبطل حريتها واستقلالها ووحدتها ، متلاحمين مع ابناء عمومتكم ، هنا فى الشمال المحرر ، لانهاء الوضع الاستعمارى المتهاوى فى الجنوب ، واستكمال الوحدة المنشودة .

ولا يغرن احدا منكم ، ما يوسوس به شيطان الاستعمار ، وما يدبره من مكايد ، يستهدف منها تضليل البعض ممن ينخدع له ، وبلبلة افكار قلة من الافراد الذين يجهلون أو يتجاهلون تاريخ قبائلهم المجيد وجهاد ابائهم المقدس ، فسخرهم هذا الاستعمار فى خدمة مآربه ، وهو كما يجب ان تعلموا ما اراد الخير ابدا لاحد مهما بهرج فى اقواله واختلق من اكاذيب ، وزيف من حقائق ، وما كان لكافر جاس خلال ديار المسلمين واغتصب ارضهم وتحكم فى رقابهم ، ان يبتغي لهم اي خير ، او يقبل ما فيه صالحهم .

ان كل ما فيه فائدة للاستعمار يتناقض شرعا وطبعا ومنطقا مع مصالح المجتمعات الاسلامية الواقعة تحت وطاته ، فالتبعية لهذا الاستعمار كيفما كان نوعها تتعارض بطبيعة الحال ، مع الاستقلال ، والتحكم الاجنبى لا يتفق فى شيء مع حرية المواطن فى وطنه ، والعزة لا تصح فى جو الاستعباد ، كما ان الكفر ليس هو الايمان .

وهذه تناقضات تفضح — بما فيه الكفاية — النفاق الذى اخذ المستعمر يسلك سبيله بعد ان ضاعت عليه السبل ، متظاهرا بحب الخير لمواطنينا الصحراويين والاهتمام بمستقبلهم متناسيا انه مجرد دخيل تسلط على ارض غيره ، لا يعنيه من مستقبل هذه الارض ، الا مستقبل مصالحه هو ، وضمانها بكل الوسائل والطرق ، وممارسة الاعتداء من خلال ذلك على استقلال امة هى الامة المغربية ، وسيادة دولة هى دولة المغرب ، ووحدة شعب هو الشعب المغربى فى تكامله الطبيعى عبر الشمال والجنوب .

اخوتنا فى الصحراء المغتصبة :

ان هذه القلة المعدودة على اصابع اليد من ابنائنا فى الصحراء الذين خدعهم الاستعمار ، وما فتىء يحاول جرهم بجميع وسائله الشيطانية الى التعاون معه ضد وطنهم وامتهم ، ممتهنا بهذا كرامتهم الوطنية ومستخفا بمقوماتهم الاسلامية ، هؤلاء الافراد لا بد ان يفيقوا من غفلتهم ، ويصحوا من غفوتهم . ليكتشفوا ان هذه المزالق التى يكادون ينجرفون اليها ، انما هى ضلال عن السبيل السوى وزيغ وانحراف لا يقره دين الاسلام ، ولا ترضاه المواطنة الحقة ، ولا يقبل فى اى عرف اخلاقى ، على وجه من الوجوه .

ونعيذهم بالله ان يقبلوا لكرامتهم هذا المصير ، وان يضعوا انفسهم موضع العملاء المسخرين للاجنبى الدخيل ، المعتدى على حرماتهم الدينية والوطنية .

فليجعل كل منكم من بين اهتماماته فى هذه المعركة الوطنية المغربية اقناعهم بالرجوع الى سبيل الصواب ، والانخراط فى سلك الجماعة ، فما خرج عن جماعة المومنين الا هالك ، ولا وقف فى وجه الاجماع ، الا آثم ، ولا ناصر العدو على قومه ، الا من طمست بصيرته ، وكان من الضالين الغاوين .

مواطنينا فى الصحراء المغتصبة :

لتكن لكم وقفة حاسمة ، مع هؤلاء الافراد القلائل ضحية المناورات التضليلية الاستعمارية

فلتحملوهم على ان يسلكوا معكم جادة الدين والوطنية ، وفقا لما هو جدير بهم ، كمواطنين مغاربة مسلمين متكاتفين جميعا كالبنيان المرصوص ضد العدو والغاصب ، ومحبطين دسائسه ومناوراته .

ولتجتهدوا فى اسداء النصح لهم ـ والدين النصيحة ـ وتبصيرهم بحقيقة الجريمة التى يدبرها الاستعمار ضد وطنهم المغربى مبتغيا استخدامهم لارتكابها ، فلعلهم ينتبهون الى ما يريد الاستعمار ان يسوقهم اليه من بهتان ، ويعدلوا ـ كما هو المرجو ـ عن موالاته ومسايرة خبيث اغراضه .

اما ذلك الصنف من المتعاونين مع الاستعمار ، الذين انساقوا معه انسياقا اعمى واتبعوا غيه ، دون ان يستجيبوا لنداء الضمير ، وتمادوا فى اطاعة اوامر المعتدين والتعاون معهم ضد ابناء ملتهم ووطنهم ، فهؤلاء يتعين نبذهم نبذا تاما ، والتبرؤ منهم ، فهم خارجون عن جماعة المسلمين ، ليسوا من الاسلام فى شىء وهو بريء منهم طالما انهم موالون لاعدائه ، ويتحدونه بمناصرة اسبانيا المستعمرة ، فليعلم هؤلاء أن اسبانيا ستضطر الى الرحيل عن ارض المغرب وليفكروا من الآن فى انها ستتخلى عنهم لا محالة تاركة اياهم الى المصير الذي ينتظر العملاء من امثالهم .

ان الواجب الدينى والوطنى يدعو كل واحد منكم اليوم ان يعمل على توحيد الكلمة حتى يرانا العالم كله على قلب واحد وحتى يعرف العالم كله الا بديل عن الوحدة الترابية للمغرب ولا اطار لوجود مغربي ، الا الاطار الجامع لكافة اجزاء الوطن ، من اقصى الشمال على شواطىء المتوسط ، الى اقصى الجنوب فى آخر شبر من الساقية الحمراء ووادى الذهب .

فلنسر جميعا على بركة الله ، لتحقيق التحرير العاجل ، وعين الله ترعانا جميعا والحق والقانون بجانبنا ، والامة العربية تساعدنا والقارة الافريقية متضامنة معنا .

لنسر فى هذه المعركة الوطنية الحاسمة ، نحو النصر ، مجندين وراء ملكنا الهمام وقائدنا المحنك ومحررنا الملهم ، جلالة الحسن الثاني ايده الله واعز امره ، واعلى فى سماء الامجاد لواءه ، والله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

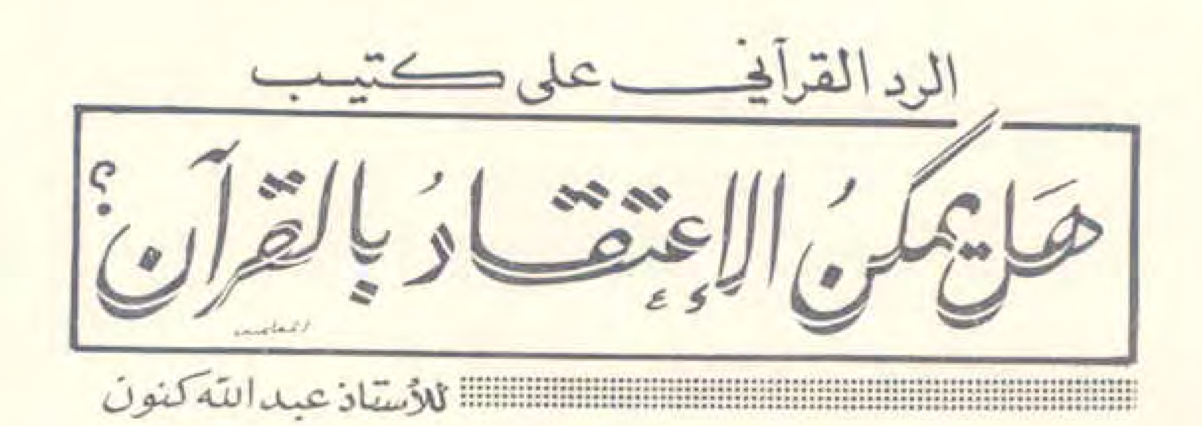
والسلام عليكم ورحمة الله

ابدأوا به ...

رفع قوم شربوا الخمر الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأمر بجلدهم ...

فقيل له : ان فلانا فيهم ، وقد كان صائما .

فقال : ابدأوا به .. اما سمعتم قوله تعالى : « وقد نزل عليكم فى الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، انكم اذا مثلهم ... »



كيف خلق الله العالم :

يستهل الكاتب هذا الفصل بعبارات مهلهلة فى وصف جمال الطبيعة وسحرها الاخاذ . ثم يقول : « من منا لا يتساءل من ابن يأتى هذا الجمال الباهر ؟ ولماذا يحيط بنا هذا الكون العجيب ؟ » ويقول : « ان الدين وهو يريد ان يرضى هذه الرغبة فى الانسان ، يحاول ان يفرض جوابه الخاص على كل من يبحث فى سر الطبيعة . وفى هذا الصدد يؤكد القرآن ان الله قال « كن » فظهرت السماوات والارض فى لحظة واحدة ؛ وذلك حسب ما جاء فى السورة 6 الآية 72 »

ونبادر قبل الدخول معه فى مناقشة مسالة خلق العالم ، فنقول : ان ما نسبه للقرآن فى كيفية خلق السموات والارض ليس صحيحا ، والآية التى استشهد بها من السورة السادسة وهى سورة الانعام ، لا تدل على ذلك اطلاقا ، اذ هى واردة فى يوم القيامة ، وهذا نصها (هو الذى خلق السموات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون . قوله الحق ، وله الملك ، يوم ينفخ فى الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير .) فاين ما زعمه الكاتب من تاكيد القرآن فى هذه الآية ، لخلق السموات والارض بكلمة « كن » وانها اى السموات والارض ظهرت فى لحظة واحدة ؟ ان هذا يخالف ما نص عليه القرآن بصراحة تامة فى عدة آيات ، منها فى سورة الاعراف قوله تعالى : (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش) وقوله فى سورة ق (ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام وما مسنا من لغوب)

نعم جاء فى سورة النحل آية 40 (انما قولنا لشىء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون) وفى سورة يس ، آية 82 (انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون) وفى سور اخرى كثيرة ، ان قول الله عز وجل للشيىء كن ، اذا تعلقت قدرته بايجاده ، كاف لوجوده ، وذلك عام فى السموات والارض وفى غيرها ؛ لكن وقوع النص فى الآيات السابقة على ان خلق السموات والارض خاصة ، كان فى ستة ايام (1) ، يخرجها من العموم ، وهو موافق لما فى التوراة ، فهذا امر اجمعت عليه الديانات السماوية ، ولو شاء سبحانه لخلقها كذلك بكلمة « كن » الا ان الواقع هو مقتضى الحكمة الالاهية ، والمهم ان هذا الكاتب اخطأ فى شىء معلوم لجميع الناس ، ونسب خطاه للقرآن .

---

(1) لم نتعرض للايام هل هى من ايام الدنيا وان كانت لم توجد بعد او من ايام الله التى يقول فيها (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) لان الرد على المؤلف يكفى فيه القول بان خلق السموات والارض لم يكن بكلمة كن كما زعم .

فاذا كان كلامه فى امر واضح كهذه القضية ، على هذا المنوال ، فكيف يكون فى غيره ؟ وما قيمـــة مطاعنه فى القرآن اذن وهو ينسب اليه ما ليس فيه ، بل مـــا يصرح القرآن بخلافه فى مواضع كثيرة منه ؟ . .

ويتابع المؤلف كلامه قائلا : « وخلق (يعنى الله عز وجل) السموات السبع طبقات كما فى السورة 67، الآية 3 (يريد قوله تعالى فى سورة الملك : الذى خلق سبع سموات طباقا) فى حين ان الارض ، بحســب القرآن سطح غير متحرك ، مثبت بجبال عالية لحفظ توازنه (السورة 16 الآية 15 والسورة 51 الآية 48) ويرد فى ذلك بقولـــه : « هـــذه تصورات ساذجـــة مستحيلـــة » .

ونلاحظ باديء ذى بدء ان قوله مثبت بجبال عالية لحفظ توازنه ، يناقض قوله غير متحـــرك ، فمقتضى تثبيتها اى الارض بالجبال انها متحركة ، ففى كلامه نقض لما طعن به فى القرآن . والآيـــة 15 من السورة 16 وهى سورة النحل تفيد ذلك بغـــاية الوضوح ، قال تعالى : « والقى فى الارض رواســى ان تميد بكم » الرواسى الجبال الثابتة ، جعلها فى الارض لئلا تميل بمن فيها الى جهة دون اخرى . ولو كان المؤلف يدرك دقائق المعانى لكان فى تعليله لوجود الجبال على سطح الارض بحفظ توازنها ما يكــفى للدلالـــة على انهـــا متحركة . . على ان مجرد الاشارة لهـــذا المعنى فى الآية الكريمة هو معجزة علمية للقرآن بموافقته لآخر ما يقوله العلم الطبيعى فى عوامل تكويـــن الجبال ، وهذا ما جاء فى الموسوعة العربية الميسرة فى الموضوع بعد استعراض عدة آراء :

« وهناك فرض احدث من ذلك يقول بأن الحركات الارضية هى حركات ايزوستاتيكية اى خاصة بحفظ التوازن من حيث الثقل بين القطاعات المختلفة مـــن قشرة الارض (2) » .

اما الآيـــة 48 من السورة 51 وهـــو ســـورة الذاريات ، فنقول : (والارض فرشناها فنعم الماهدون) اى مهدناها لكم بحيث تفترشونها او فرشناها لكـــم فاتخذتموها مهدا ، على الرغم من انها شبه كـــرة متحركة ؛ فالكلام فيها خارج مخرج الامتنان بما ذكر ، ولو كانت مسطحة لما صح هذا الامتنان ، لانه لا عجب حينئذ فى ان تكون ممهدة مفترشة . فهذه الآيـــة هى كمثيلتيها فى هذا المعنى ومعنى التى قبلها ، من سورة النبأ اللتين تقولان : (الم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا) وبه يظهر انه لا دليـــل فيها على مـــا زعمه المؤلف من تسطيح الارض وهو لن يجد فى القرآن دليلا على ذلك ، بل العكس هو الذى يستفـــاد من بعض آياته الكريمة كآية الزمر (اى السورة 39) التى لم تفهم على حقيقتها الا بعد ثبوت كروية الارض علميا وهى القائلة : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) فعبرت ، وهى تشير الى ظاهرة الليل والنهار المتكونة من دوران الارض على نفسها ، بما لا يمكن حمله الا على انها كروية الشكل .

واذا تبين ان ليس فى القرآن شيء مما الصقه به هذا المؤلف من مخالفة الحقائق العلمية ، لا نملك الا ان نرمى بمفترياته فى وجهه ، ونقول : قبح اللـــه الجهـــل ! . .

بعـــد هذا يتمادى الكاتب فى مماحكاته فيقـــول : « ان عددا كبيرا من الناس كانوا يؤمنون بهذا كله ، ومـــاتوا وهم لا يعرفون الحقيقة ؛ ومنهم من يؤمـــن بهذه الاساطير فى يومنا هذا ، اى فى عصر الطائرات التى تفوق سرعتها سرعة الصوت ، والصواريخ التى تشـــق اجواء الفضاء والرواد الذين راوا باعينـــهم الدائرة الزرقاء لكوكبنا الارضى وهم يقودون مركباتهم الفضائية » ونحن نقول له : ان كان يقصـــد الايمان بأن الله هو خالق الكون فسيبقى ذلك هو عقيدة الناس كلهم ؛ اليوم وغدا والى ان ينتهى هذا العالم ، لانه هو الحقيقة التى لم يأت بما يبطلها ، وان هول بما ذكره من مخترعات العصر ، بل لم يأت بشيء اصلا مما يتعلق بخلق العالم ، وان اثبت ان الناس سواء كانوا مسلمين يعتقدون بالقـــرآن او غير مسلمين ، ماتوا وهم يؤمنون بتلك الحقيقة ولم يصد الاحياء منهم عن الايمان بها ، ما وصفه من وسائل غزو الفضاء ، والتحليق بأعلى المستويـــات ، فان ذلك لا يعـــدو ان يكون مثل استكشاف امريكا التى لبثت قرونا عديدة مجهولة من طرف جميع سكان العالم القديم . ولم يغير ظهورها من حقيقة الايمان شيئا . . وان كان يقصـــد بعض الاساطير المتعلقة بصفة الارض والسماء ككون الارض ثابتة وهى مركز العالم ، والسماء قبـــتها وما الى ذلك ؛ فهذا شيء منشـــاه الجهـــل والايمـــان بالخرافات ، وهو شائع فى جميع الشعوب والامم ، نامية كانت او متخلفة الا انه لا يجوز بحال نسبته الى

---

(2) الموسوعة العربية الميسرة ص 612 مادة جبل .

الاسلام وكتابه المجيد ، كما فعل الكاتب بدافع الكراهية والتعصب . ونستطيع ان نشبهه بما حصل للرائد الفضائى كاكارين حين قال انه صعد الى السماء ولم يـر الله ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . فهذا قد وقع فى خطأ كبير مثل اى عامى جاهل ، لظنه ان السماء التى تتحدث عنها الاديان والتى هى مقر الملائكة وفيها عرش الرحمن ، هى هذه الناحية من الفضاء التى خلق فيها ، ولعلها لا تبلغ ان تكون قدر سم الخياط بالنسبة الى الكون الفسيح ، فيا للغرور ! بل الجحود الذى هو اقبح من الجهل ! والا فان الرواد الامريكان وقد بلغوا ما لم يبلغه كاكارين ، حين راوا عظمة الكون ، لم يملكوا الا ان يصلوا ! . .

ونسجل على المؤلف انه يطعن فى فكرة خلق الله للعالم ، وانه عوض ما ياتى بما ينقضها ، يقول : ان عدادا كبيرا من الناس ماتوا وهم لا يعرفون الحقيقة كان حضرته عرفها ، وينتقل بكل سهولة من هذا الموضوع الاساسى الى موضوع الطيران وريادة الفضاء ، كان هذه هى الحقيقة الكبرى ، التى تكشف الخفى من سر خلق العالم ، فاقل ما يقال على صنيعه هذا هو انه يراوغ تارئه لكى ينسى اصل المسالة ، ولعله لا يعلم ان الانتقال من موضوع الى موضوع ، يؤذن بالافحام كما تقرر فى علم ادب البحث والمناظرة ! . . فقد حكم على نفسه من حيث لا يشعر ، بان ما يكتبه انما تمليه عليه شيوعيته اى عداوته للاديان لا غير ! . . واندفاعا فى هذا السبيل يستمر قائلا : « وخلافا للقرآن الذى يؤكد ان الله احتفظ عنده بسر خلق السموات والارض وسائر العالم ، فان العلم اصبح يكشف شيئا فشيئا نواميس الكون ، ويقتحم حجب اسراره الخفية » وهذه فرية اخرى يضيفها الى مفترياته على القرآن الكريم ، فالقرآن لم يقل شيئا مما ذكره ، بل على العكس نبه الى اصل الخلق فقال فى مادة السماء : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ايتيا طوعا او كرها ، قالتا اتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات) وقال فى انشاء الارض : (او لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما) وقال فى خلق الانسان وسائر الحيوان : (وجعلنا من الماء كل شيء حى) الى غير ذلك من الايات البينات الواردة فى تكوين الشمس والقمر والنجوم والكواكب والنبات والجبال والبحار والانهار ؛ ولم يحجب سبحانه وتعالى شيئا من اسرار الخليقة بل امر بالبحث عنها والتعمق فى دراستها للاستدلال بها على وجود الخالق وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، فقال فى سورة العنكبوت : « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدا الخلق) فحث على النظر فى الخلق وكيفية بدئه . وقال فى سورة اخرى : (وكاين من اية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) فعاب على من لا يعتبرون بآيات الله فى السموات والارض اعراضهم عنها وعدم تفكيرهم فيها وقال فى سورة فصلت : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) فاعلم بما يظهر من اسرار الكون ونواميسه ، للعلماء الباحثين ، فهم انما يعلمون بتعاليم القرآن ويمتثلون اوامره . . ومع هذا كيف يصح ما قاله المؤلف ؟

ويفرغ المؤلف جعبة حقده على القرآن فيقول : « ان اتباع القرآن قتلوا عددا من العلماء ، ومن اعداء القرآن ، ففى القرن الخامس عشر قتلوا بوحشية فى اوزبيكستان اولوغ بك لمجرد انه بنى مرصدا فلكيا ، وفى سنة 1927 قتل فى اوزبيكستان ايضا حمزة حكيم زادة لفائدة حفاظ القرآن وكان استاذا شاعرا يعلم تلاميذه اسرار الطبيعة وقوانينها . »

وفى هذا الكلام افتراء عظيم على الحقيقة والتاريخ . فاولوغ بك ، من اعظم رجالات الاسلام . امير عالم ، كان يحفظ القرآن ويجوده بالقراءات السبع ، وانشأ فى سمرقند مرصده الشهير وشارك العلماء فى اخراج زيجه الذى بقى معمولا به عند علماء الشرق والغرب عدة قرون لدقة حساباته وارصاده ، وكان اغتياله بمؤامرة من ولده لاسباب سياسية لا علاقة لها بالقرآن ولا بالدين اصلا (3) .

ولم يعرف فى تاريخ الاسلام اضطهاد للعلماء من طرف حفاظ القرآن . وانما العكس هو الذى وقع مع الاسف فى عهد الخليفة المامون حين اضطهد فلاسفة البلاط الامام احمد بن حنبل اعظم مدافع عن القرآن . واما الشخص الثانى الذى ذكره المؤلف ، فاننا لا نعرف عنه شيئا ، ولكننا نجزم بان قتله ، ان كان قتل حقا لم يكن بيد حفاظ القرآن ولا بايعاز منهم ، لانهم اليوم فى الاتحاد السوفياتى قلة ، وهم اضعف من ان يقدموا على عمل مثل هذا لما يخضعون له من مراقبة

(3) تنظر ترجمته فى دائرة المعارف الاسلامية ج ل حرف ا .

صارمة وما يلقونه فى نطاق محاربة رجال الدين من مضايقات . . ولا استبعد ان يكون قتل فى حملات التصفية لاعداء الشيوعية على عهد ستالين ، فاضطهاد رجال الفكر والعلم الاحرار فى الاتحاد السوفياتى امر غير مجهول ، وما عهدنا بمطاردة باسترناك وسولجينتن الكاتبين السوفياتيين الشهيرين ببعيد ! . .

والمؤلف الذى لا يترك شاذة ولا فاذة فى التشنيع على القرآن الا ذكرها ، يحكى عن خطيب مسلم فى فولكوكراد انه فى احد الاعياد الاسلامية عام 1960 خطب المسلمين فقال : ان صواريخ الفضاء والاقمار الصناعية ليست من صنع المسلمين الروس لان القرآن يحرم صنع ذلك . ونحن لا ثقة لنا بما يرويه هذا المؤلف بعد ما جربناه من تحريفه للتاريخ وتجنيه على الحقيقة ، ولكنا نجاريه فى كلامه فنقول ان القرآن لم يحرم شيئا من ذلك ، بل امر باتخاذ جميع وسائل القوة واسباب العلم ، فهو يقول فى سورة الانفال : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وفى سورة طه : (وقل رب زدنى علما) ثم ان هذا الخطيب ان كان قال هذا الكلام حقيقة ، لا يكون حجة على القرآن ، فقبله انكر غير واحد من العلماء الاختراعات الجديدة ، ولم يعب احد بذلك دينهم وامتهم فهذا العالم (بوبو) عضو المجمع العلمى الفرنسى لما قدم اديسون الفونوغراف الى هذا المجمع سنة 1878 صاح فى وجهه : تعسا لك اننا لا ننخدع بمشعوذ مثلك (4) ، ولما حلل الكيماوى الكبير لافوازييه الهواء الى عنصريه الاوكسجين والازوت ثار عليه زميله الشهير (بومية) وقال : ان العناصر المكونة للاجسام قد اعترف بها الطبيعيون فى جميع العصور ، وليس من المحتمل ان توضع فى عداد العناصر المركبة (5) . ولا نكثر بمثل هذين المثالين ، فان اوربا وامريكا اليوم تعج بالمدنيين فضلا عن القسس والرهبان الذين يشكون فى صحة الرحلات الفضائية والاختراعات الغريبة ، فما الظن بخطيب مسلم فى بلاد يحارب فيها الاسلام وليس فيها تعليم دينى ، ولا بد ان يكون اختياره من طرف رجال السلطة الذين لا يرضيهم الا من كان على شاكلته ؟ ! ثم يقول الكاتب : « ومع ذلك فقد ظهر لاتباع القرآن بعد توالى الاختراعات العلمية انه ليس هناك مقعد لا للقرآن فحسب بل لله نفسه . وهناك حيث كان يجب ان يوجد الله ، بحسب القرآن لم يجد رواد الفضاء الا قطعا صغيرة من الحجارة » ولا ادرى مم اتعجب ؟ امن غرور هذا الكاتب ام من غباوته ؟ فهو لجهله المطبق لم يعرف ان العلماء من قبل نزول القرآن ومن بعده ، كانوا يخترعون الاشياء العجيبة التى مهدت لاختراعات عصرنا ، ولم يقل احد منهم ولا من جهال عصرهم مثل ما قال هذا المغرور ، انه لا مكان هناك لله ولا لكتاب من كتبه بموجب ما دلت عليه الاختراعات العلمية ، وانما الذى ثبت عنهم وخاصة منهم علماء الاسلام ، انهم كانوا يبرهنون بعلمهم واختراعاتهم على وجود الله وقدرته الباهرة . ومن جهة اخرى فقد ظن هذا الغبى ان القمر الذى هو احد الكواكب السيارة من مجموعتنا الشمسية ، هو السماء التى سيجد الرواد الله عز وجل فيها ؛ ومن ثم فانهم لما لم يجدوا الا اشياء مادية قال بعدم وجوده تعالى عن قوله علوا كبيرا . وما من شك فى ان الحامل له على هذا القول زيادة على الكفر والالحاد ، انه يتصور الاله صنما او وثنا او صليبا ، وحيث ان القمر ما يزال طاهرا من آثار الوثنية واتباعها ، فبالضرورة لا يوجد فيه اله مما يعهده الرواد ! . . وهو اله نعلن مسبقا كفرنا به حتى لو وجدوه !

بعد هذا يأتى المؤلف بفقلكة يقول فيها : ان علماء الكونيات والفلك وطبقات الارض والكيمياء اثبتوا ان الارض والكواكب الاخرى ، (والسماء نفسها) تتركب من عناصر كيماوية متشابهة : الادروجين ، الفحم ، الاوكسجين ، الحديد . . الخ وما بينها من فوارق هى انها تارة تكون جامدة وتارة سائلة او غازية ، وليس فى هذا العالم شيء الا المادة الخاضعة لقوانين الطبيعة لا الاه خيالى ! . . والذى نقوله على كلامه هذا هو انه عاد فأقحم السماء فى مجالات بحث العلماء ، فان كان يريد مدلولها اللغوى فهى داخلة فى الكواكب والفضاء العالى ولا داعى لتخصيصها بالذكر ، وان كان يريد السماء بالمعنى الدينى ، وهو ما يقتضيه نصه عليها بالخصوص ، فمن هم العلماء الذين عرفوها وكانت موضع بحثهم حتى اثبتوا انها تتألف من العناصر التى ذكرها ؟ ثم ما هى هذه الطبيعة التى يخضع لها العالم المكون من المادة الصماء ؟ اليست هى شيئا اقل من ان يوصف بخيالى ؟ ولو سلمنا جدلا انها شيء موجود ، فلا بد ان تكون هى

---

(4) على اطلال المذهب المادى لفريد وجدى ج 3 ص 6 .
(5) المصدر نفسه ص 6 — 7 .

هذه العناصر التي يتكون منها العالم ، فهل اوجدت نفسها بنفسها ؟

وما احسن قول ابى المظفر :

وقالوا : الطبيعة مبدا الحياة
فياليت شعرى ماذى الطبيعة ؟

اقادرة طبعت نفسها
على ذاك ؟ ام ليس بالمستطيعة ؟

والمؤلف هنا يخلط بين العلوم ومواضعها ، فكما اقحم المادة التي تتركب منها السماء في ابحاث العلماء وهم لا يعرفونها ، كذلك يجعل دليل وجود الله عز وجل من مباحث العلم الطبيعي التجريبي وهو خطا فادح ، لان الله جلت عظمته ليس من عناصر الطبيعة وموادها التي تخضع لتجارب العلماء ، حتى يكون عدم وقوف هؤلاء على عنصر غير طبيعي ، دليلا على عدم وجوده تعالى . وتصبح فكرة الالاه فكرة خيالية ، ان الاستدلال على وجود الله انما طريقه النظر العقلي ، لا العلم التجريبي ، وكثيرا ما يهول الملاحدة والجهال السائرون في ركابهم بقولهم ان العلم لا يعترف بوجود الله ، وهم ان كانوا يريدون العلم الطبيعي فاننا نقول لهم ان وجود الله ليس موضوعا لهذا العلم ومن الجهل ان تجعل التجارب الحسية سبيلا لمعرفة ما وراء الطبيعة (6) ، وان كانوا يريدون العلم باطلاق فاننا نحيلهم على علمى الفلسفة واللاهوت ، وموضوعهما الاساسي هو مسالة وجود الله ، ومجال النظر فيهما هو الادلة العقلية كما لا يخفى ، وهذا مطلب لا يدركه المؤلف فلذلك نراه يلقى بالكلام على عواهنه ، ويظن انه صنع شيئا ، فينهى كلامه السابق بأن هذا ما يقوله العلم في كيفية خلق العالم ، فيحطم الخرافات الدينية القائلة بخلق الله له ! . . وما حطم المسكين الا نفسه لان العلم الذى يقصده بعيد عن هذا الموضوع ، كما قلنا ، لا يتعرض له بنفى ولا اثبات ، وان كان اصحابه والمتعمقون فيه كثيرا ما ينبهرون امام قدرة الخالق وحكمته العجيبة ويطاطؤون رؤوسهم لجلاله تعالى ! .

ويكرر الاستدلال بالآية 72 من السورة السادسة على مخالفة القرآن لما يقرره العلم في خلق العالم ، وقد بينا له ان هذه الآية واردة في يوم القيامة ، وان خلق السموات والارض كان في ستة ايام بنص القرآن في آيات متعددة ، ثم يقول ان مقتضى خلق الله للسموات والارض بكلمة « كن » انه لم يكن شيء ، فمن اى مادة خلقهما ؟ ومع تاكيدنا مرة اخرى لان خلق السموات والارض لم يكن بكلمة « كن » وان المؤلف يكذب حيث ينسب ذلك للقرآن ، نقول : اننا حين ننسب خلق اى شيء الى الله عز وجل سواء كان ذلك بكلمة « كن » او بغيرها ، نفهم بكل بساطة انه تعالى خلق ذلك الشيء وخلق المادة التي يتركب منها ايا كانت ، ومن السخف بعد ان نعرف مصمم العمارة وبانيها ان نتساءل من اى مادة بناها ؟ فاسئلة بليدة من هذا القبيل يوردها كاتب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن انما تدل عقليته الجامدة ! .

وينتقل الى خلق الانسان فيقول : « ان خرافة خلق الانسان ونفخ الروح فيه واعطائه السمع والبصر والفؤاد ، هي كذلك مناقضة للعقل » وسنرى انه لا يبين هذه المناقضة وانما يمضى متعسفا في ظلمات المجهول ليأتينا بخرافة تخلق الانسان من القرد التي اكل الدهر عليها وشرب ، فلنتتبع خطاه في هذا المضمار .

انه يذكر ما جاء في القرآن من ان الانسان خلق من ماء دافق ومن تراب ومن طين لازب ، ومن صلصال من حما مسنون ، وهي عبارات مختلفة كثيرة في القرآن ، وزعم المؤلف انها سبعة وهي اكثر من ذلك . ولما كان بعيدا عن بيان العربية وبلاغتها وهو انما يقرا القرآن في ترجمة مهما تكن صحيحة لا تؤدى معنى النص الاصلي ، ظن ان هذه اختلافات جوهرية ، وصار الى القول بأن ذلك تناقض يرفضه العقل ، وما درى ان ذلك من تفنن القرآن في التعبير وتاديته للمعنى الواحد بالفاظ مختلفة ، لئلا يقع السأم من تكرار نفس الكلمة ، وهذا مقصد من مقاصد البلاغة العربية معروف لاهله ، فلا يلتفت الى الاعاجم والجاهلين باسرار اعجاز القرآن ، فيما يقولونه بهذا الصدد ، لاسيما والمؤدى مع اختلاف العبارات واحد لا شك فيه ، فاذا قال القرآن ان الانسان خلق من طين وقال انه خلق من صلصال من حما مسنون ، مع العلم بانه قال ايضا « وجعلنا من الماء كل شيء حي » فان ذلك كله يرجع الى الماء والتراب ، وهذا ما لا يختلف فيه مع ما يقرره العلم في تركيب الانسان ، فكيف يختلف مع نفسه ؟ .

---

(6) موقف العقل والعلم من رب العالمين لشيخ الاسلام مصطفى صبرى ج 4 ص 109 .

واذا كان هذا مما خفى على المؤلف لعدم فهمه للنصوص القرآنية ، فان ما بناه على ذلك من ان القرآن ينسب اختلاف السلالات الانسانية من حيث الالوان ، الى اختلافات لون الطين الذى صنعت منه ، هو كذب صراح ، اذ ليس فى القرآن شىء من هذا الهذر الذى يتفوه به من غير خجل ولا حياء ، ويسود به بياض الصحف ، وكل ما فى الكتاب العزيز مما يتعلق بهذا المطلب ، هو قوله تعالى فى سورة الروم (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم) وقوله فى سورة فاطر (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء .) وما كان على هذا المنوال مما يبعث على التفكر والاعتبار بأنواع المخلوقات ولا تعرض فيه اصلا لما زعمه المؤلف .

ويقول بعد ذلك : « العلم يؤكد ان الانسان وليد الطبيعة ، لم يخلقه احد ، وانه تطور خلال ملايين السنين منذ كان قردا حتى صار انسانا وان علم التشريح وعلم الاجنة وعلم الآثار واصل الانسان وعلوما اخرى تثبت هذه النظرية بتجارب ونتائج مقنعة » ثم يفيض فى شرح نظرية النشوء والارتقاء التى ينبنى عليها القول بانحدار الانسان من القرد . ونحن لا ندخل معه فى جدل حول هذه النظرية التى هى فى الاصل مجرد افتراض لا اقل ولا اكثر ، ولم يستطع صاحبها (داروين) نفسه ان يجعل منها حقيقة علمية ثابتة . وقد اصبحت من المذاهب المنتقدة فى الوقت الذى ظهرت فيه اى القرن التاسع عشر ، وانما بقيت الالسنة تلوكها حبا بالاغراب والشذوذ ، ولاسيما من صغار المتعلمين الذين يتعدون بها حدودها ، ولكنا ننقل ما يقوله العلماء فى ابطالها :

جاء فى دائرة معارف القرن العشرين : ان اقدم الحفريات التى درسها العلماء هسكلى وجون لبوك وفوغت وشافوزن ، تدل على ان الانسان لا نسبة بينه وبين القردة فى شىء ، وقد اكد ذلك العلامة (لاريت) الاختصاصى فى درس الجماجم الانسانية . وان اقدم البقايا البشرية التى وجدت فى مغارات انجيس ونندرتال بأوربا لا تدل على ادنى فرق بينها وبين الانسان الحالى الا فى محجرى العينين المحاطين ببروز خفيف كما هو الحال عند القردة فاذا كانت الالوف من السنين التى تفصلنا عن اصحاب تلك البقايا لم تؤثر ادنى تأثير فى تبديل خلقة الانسان ، فكم يلزم ان يكون مضى من ملايين السنين بعد انتقال الحيوان الادنى من حالته السفلى الى رتبة الانسانية العليا ؟ (7) .

واكثر ما ينتقد العلماء على هذه النظرية هى صفة العموم التى تعطى لها ، ولذلك يقول جوستاف جوليه: « ان هذا المذهب باطل من جهة كونه نظرية عامة ، لانه يعجز عن بيان الحوادث الاكثر قيمة التى تستدعى تغيرات اصلية ، وهى تغيرات مباشرة لا مجموع تغيرات تافهة بطيئة . . فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور (يعنى فى نظر التطوريين) ان يتناسب والبيئة التى ليست له ، ولا يمكن ان تكون له الا بعد ان يتحول من صورة حيوان زاحف الى صورة عصفور . فكان لا يستطيع قبل ان تكون له اجنحة ؛ اجنحة نافعة لا اثرية ، ان تكون له حياة هوائية وان يتناسب معها . . كذلك لا توجد اية علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة التى تمثل حالة ما ؛ الصورة الاولى للحشرة الاولية وبين الحشرة الكاملة ، ولم يصل احد الى ادراك تلك السلسلة الغامضة التى امكن بها لحشرة تعودت الحياة الدودية تحت الارض او فى المياه ان تصل شيئا فشيئا الى ايجاد اجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة منها (8) »

ومثل ذلك يقال فى ترقى الانسان من حياة القردة الى الحياة الانسانية ، ولهذا لم يملك الدكتور (جمس) نفسه ان يقول فى كتابه الداروينية « ان مذهب داروين اسطورة مضحكة » (9) . ولا ننهى الكلام فى هذا الموضوع دون ان ننبه الى المغالطة التى ارتكبها المؤلف فى تناوله ، فهو كان بصدد بيان التناقض فى نصوص القرآن المتعلقة بخلق الله للانسان لكنه انما اتى بنظرية التولد الطبيعى المعتمدة على مذهب داروين فى تسلسل الانسان من القرد على ما فيها من البطلان ، ومع ذلك فنحن نجاريه فى قوله ونسأله : من الذى خلق القرد ؟ اهو الاتحاد السوفياتى ؟ .

---

(7) دائرة معارف القرن العشرين ج ل ص 702 ــ 703 .
(8) على اطلال المذهب المادى ج ل ص 94 ــ 95 .
(9) قصة الايمان لنديم الجسر ص 194 .

لا شك ان المؤلف لو كان بوسعه ان يجيب عن ذلك السؤال بهذا الجواب لما تردد لحظة . لان ايمانه بالشيوعية والاتحاد السوفياتي اقوى من ايمانه بالحقائق العلمية والبدائه المسلمة ! ... وعلى كل فقد بقي السؤال الاول وهو من خلق العالم وفي ضمنه الانسان ؟ بدون جواب . وما ذكره هذا المؤلف وما يذكره غيره في التولد الطبيعي انما هو وصف لنمو المادة وتحولها بعد وجودها . وما احسن ما قاله العالم الشهير مونتسكيو ردا على هؤلاء الماديين « ما ابعد ان تكون قدرة عمياء خلقت ذوى العقول !» (10) .

بعد هذا لا ياتي المؤلف بشيء يستحق النظر ، وانما يهول بكلام هو اشبه بكلام العوام ينعى فيه على المؤمنين ايمانهم بما يقول الدين في مسالة الخلق ؛ وينكر وجود الروح ومصير الانسان بعد الموت . ويقول ان فقهاء المسلمين يزعمون ان الارواح تجتمع في قرن كبير لثور — ولم يصفه بكبير — وعند نهاية العالم ينفخ جبريل في هذا القرن فتخرج منه جميع الارواح وتلتقي باجسادها في المقابر ! . . ولعل المؤلف تلقى هذه المعلومات من حلقات المشعوذين الذين يجتمعون في الاسواق ويلتف حولهم العاطلون والحشاشة والمعاتيه ! .

ويقول اثر ذلك : « ان العلم يتقدم الى حد انه اصبح من الممكن اعادة الحياة الى الميت ، واهل الاختصاص يعرفون عددا من الاموات اعيدت لهم الحياة » ونحن نؤمن على قوله لنسأله : ولماذا لم يعيدوا الحياة الى لينين ؟ بل لماذا لم يمنعوا تناقص اطرافه ، كما يبدو في تابوته الزجاجي وقد طال احد كمي سترته عن يده ؟ .

وهنا نتذكر قوله تعالى في سورة الحج (يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، ان الله لقوى عزيز) .

ثم يعود الى ثرثرة العوام فيقول : « اذا كانت الملائكة تفعل الخير والشياطين تفعل الشر فماذا يفعل الله ؟ » ونجيبه على قدر عقله مقتصرين على شيء واحد من افعال الله فنقول له : « انه تعالى يجازي العاملين باعمال الملائكة فيجزل ثوابهم ويعاقب العاملين باعمال الشياطين فيضاعف لهم العذاب !»

ولا يمل من تكرار مسالة القدر ، ويتساءل لماذا يعذب الله البشر وهو الذي يدفعهم الى ارتكاب الاثم ؟ والمسألة قد اثارها مرارا واجبنا عنها بأن الانسان مخير غير مجبر ، وكما اعطاه الله القدرة على فعل ما اختاره من الشر كذلك اعطاه القدرة على فعل ما يختاره من الخير ؛ فهو المسؤول الوحيد عن عمله ، ولكن عراض القفا مثل المؤلف لا يفهمون الاجوبة المعقولة ، فنجيبه على قدر فهمه بجواب محسوس ضمن سؤال ، وهو لماذا يحارب الاتحاد السوفياتي والشيوعيون على العموم غير الشيوعيين ويشددون عليهم العقاب ، حتى يسلبوهم حريتهم الشخصية في التدين والتملك والاتصال بالعالم الخارجي لغاية انهم منعوا كاتبا مجازا بجائزة دولية ان يذهب لتسلم جائزته ؟ ان الله لم يمنع الانسان من حريته حتى في ان يعصيه ، وبعد ذلك فهو الى عدل الله ورحمته ، ان شاء عاقبه وان شاء غفر له ؛ فما اعظمه من اله ! . .

طنجة : عبد الله كنون

---

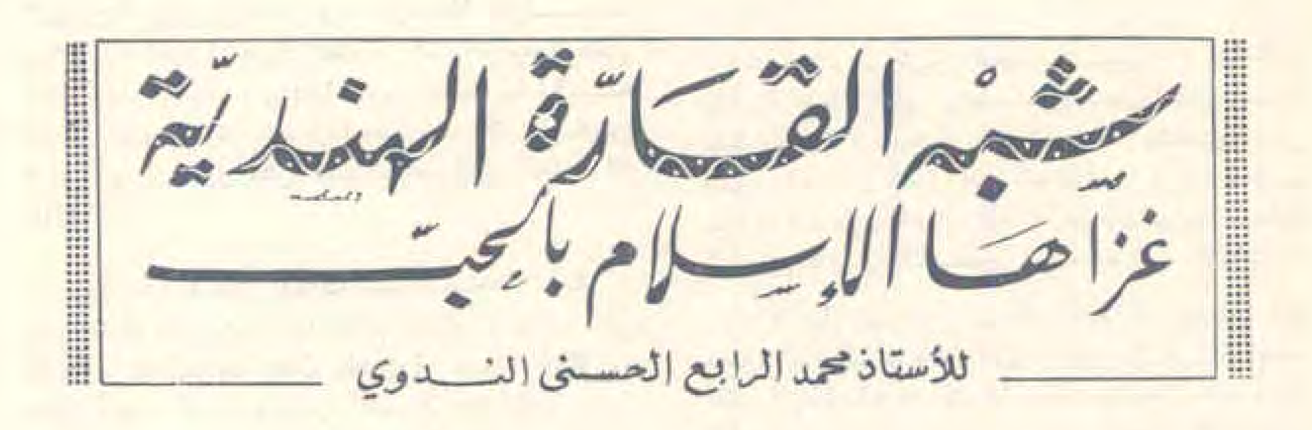
(10) موقف العقل والعلم من رب العالمين ج ل ص 147 .

التسبيح . . او الاستغفار . .

قال رجل للامام ابن الجوزى :

اسبح ؟ او استغفر ؟

فقال : الثوب الوسخ احوج الى الصابون منه الى البخور



لقد ادى عمل التربية الباطنية والتأثير الروحى دورا عظيما هاما فى ربوع الهند واحدث انقلابا فى الميول والعادات والاخلاق والسلوك ولم يكن ذلك لفترة محدودة من الزمن بل انما قام رجال هذا العمل العظيم باداء واجبهم نحو الدعوة الى حياة الخير والانسانية والاسلام النبيلة عبر قرون متوالية واستطاعوا ان يتركوا وراءهم اجيالا مومنة كثيرة ، فان تاريخ خدماتهم فى هذه البلاد حافل وعظيم جدا

وقد كان الهنود بطبائعهم وقلوبهم الين الناس نفوسا واشدهم ميلا الى النفحات الروحية واكثرهم قبولا لتأثيرها ، والهند بلاد واسعة يعيش فيها الوان كثيرة واجناس شتى من الناس ، لهم ديانات مختلفة ولغات مختلفة ، ولهم درجات والوان ثقافية وادبية مختلفة لم يكن من السهل ربطهم جميعا وجمعهم على خير الا عن طريق الحب وبالتأثير الروحى الذى هو بمثابة لغة القلب على مكان لغة العقل ، وان التاريخ الانسانى ليشهد بأن لغة القلب هى اقوى اللغات اقناعا للنفوس واكثرها تأثيرا عليها ، فالقلب حينما يحنو على رجل ويفضى اليه بحديث مشوب بالحب يصغى هذا المخاطب بقلبه المفتوح ويتلقى منه كلامه القلبى بما لا يتلقى به كلاما آخر مما يتركب من الالفاظ والجمل الخالية من الحب مهما كان هذا الكلام بليغا ورائعا .

فنحن اذا اوغلنا فى ثنايا التاريخ الهندى الاسلامى الطويل لوجدنا مراكز الاشعاع الروحى بكثرة تفوق العد والاحصاء ، وكانت منبثقة فى اطراف الهند وكان الناس يقتبسون منها ما يحتاجون اليه من زاد روحى يغذون به انفسهم وقلوبهم فيزيلون به ما قد تعانى منه نفوسهم من الخواء الروحى والعناء النفسى والبعد عن معرفة الرحمة الالهية العظيمة التى تحنو على الجميع وتحيط بكل نفس ولا شك ان هذ هالمعرفة لا تحصل الا عن طريق شخصيات عملاقة وتفنى نفوسها فى سبيل خدمة الانسانية البائسة وانقاذها من الفساد والعذاب ، ولقد نشأت بفضل هذه الشخصيات العظيمة مراكز الحبوالهداية فى طول البلاد وانحاءها المختلفة ، واشعت بالامن والمحبة والخير ، واقام فيها اصحابها البررة ينيرون القلوب ويغمرون الناس بالمحبة والكرم ، وقصد اليهم فيها الوف من الناس كانوا يتهافتون عليها تهافت الفراش على نور الشمع الوهاج وهم ينيرون القلوب ويزيلون كروبها بنظراتهم البلسمية ومحبتهم المخلصة التى لم تكن تفرق بين قوى وضعيف وكبير وصغير ، وبعيد وقريب

وبدون النظر الى ما هو دينه ، او ما هو مركزه فى الحياة . فمحبتهم كانت محبة شامخة تظلل بظلها الوارف كل من يقترب الى شجرتها منهم ويستظل بظلها فكم من الايتام نسوا فى ظل محبتهم انهم ايتام ، وكم من البائسين والمشردين من الناس نسوا انهم فى غير الاهل والاخوان ، لتمتعهم بكل العطف والمحبة التى كانوا يتمتعون بها .

وان الصلة القلبية والروحية ورباط الحب والاجلال كان يربط الناس بهؤلاء الشيوخ والمرشدين وظهر تاثيره فى الآثار والاحداث التى امتلأت بها كتب الهند الاسلامية ونسرد قليلا منها فى هذا المكان .

كان السيد آدم البنورى دفين البقيع (م 1053 هـ) ياكل على مائدته كل يوم الف رجل ويمشى فى ركابه الوف من الرجال ومئات من العلماء ، ولما دخل السيد فى لاهور عام 1052 هـ كان فى معيته عشرة آلاف من الاشراف والمشايخ وغيرهم حتى اوجس بشاهجهان ملك الهند منه خيفة ، فارسل بمبلغ من المال ثم قال له « قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز » فعرف ايعاز الملك وسافر الى الحرمين حيث مات (1) .

وهذا الشيخ محمد معصوم (م 1079 هـ) ابن الشيخ الكبير الامام احمد السرهندى قد بايعه وتاب على يده تسعمائة الف من الرجال واستخلف فى دعاء الخلق الى الله وارشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال .

وهكذا كان الاقبال على المصلح الكبير السيد احمد الشهيد (م 1246) اقبالا منقطع النظير ، انه لم يمر ببلدة الا وتاب على يده وبايعه عدد كبير من العلماء حتى ان المرضى فى مستشفى بنارس ارسلوا اليه يقولون « اننا رهائن الفراش واحلاس الدار ، فلا نستطيع ان نحضر ، فلو راى السيد ان يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل » وذهب السيد وبايعهم واقام فى كلكتا شهرين ويقدر ان الذين كانوا فى بيعة التوبة على يده لا يقل عددهم من الف نسمة يوميا وتستمر البيعة الى نصف الليل (2) .

ومن حسنات هؤلاء المشايخ ان زواياهم كانت ماوى رحبة تأوى اليها آلاف من الناس ويجدون فيها طعامهم وشرابهم ويتلقون الهداية والتربية والايمان ، وقد كانت مائدة طعامهم مائدة عامة يردها الصديق والعدو ، والقريب والبعيد والغنى والفقير وكانت مائدة الشيخ نظام الدين مشهورة يضرب بها المثل فى السعة والتانق .

وكان يحضر زاوية الشيخ سيف الدين السرهندى الف واربعمائة رجل يتناولون الطعام على مائدته صباح مساء ، واكثرهم على حسب رغبتهم واقتراحاتهم ، كتب السيد احمد خان مؤسس الجامعة الاسلامية فى عليكرة فى كتابه « آثار الصناديد » يذكر الشيخ غلام على الدهلوى فقال :

« لا يقل عدد المقيمين فى زاويته عن خمسمائة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم » (3) .

وامتازت الهند بكثرة شخصيات كهذه وشدة اقبال الناس عليها ، فى زواياهم التى كانت ملاجىء انسانية منتشرة فى انحاء البلاد فى مختلف ادوار التاريخ الهندى الاسلامى كان يقصدها مئات الالوف من الناس ولم يكونوا يرجعون منها الا باصلاح قلوبهم وصحة نفوسهم وزوال اسقامهم الروحية ولا تزال هذه الجهود التربوية والايمانية باقية فى حياة عدد وجيه من الجيل المسلم الموجود ، بمدى تاثير المربين من اولياء الله فى الهند واعمالهم الخالدة فى خدمة الدين والعقيدة والايمان .

فقد كانت حياة الشيخ معين الدين السجزى فى اجمير الهند ، وحياة الشيخ نظام الدين اولياء فى دلهى الهند ، وحياة الشيخ شرف الدين يحيى الفردوسى فى منير من بهار الهند خير اسوة فى هذا المجال

وهناك شخصيات عملاقة كان تأثيرها فى النفوس على نطاق عجيب ، فقد دخلت اقطار باسرها فى نطاق الاسلام بجهود هذه الشخصيات وتأثرت

---

(1) ربانية لا رهبانية ــ للاستاذ ابى الحسن الندوى
(2) اذا هبت ريح الايمان ــ للاستاذ الندوى
(3) ربانية لا رهبانية ــ ايضا

شعوب بكاملها بتاثيرها التوجيهي والروحاني العظيم فانما يدل تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند على ان بلاد كشمير دخلت باسرها في حوزة الاسلام بسعي المربي الاسلامي العظيم الشيخ على بن شهاب الهمداني (م 784 هـ) فقد قدم الشيخ رحمه الله الى منطقة كشمير مع عدد حافل من تلاميذه وقد كانت البلاد خاضعة للكفر والبرهمية فقام الشيخ اولا بجولة استطلاعية بسيطة في ربوعها المختلفة ، فلما فرغ منها اعاد الكرة بجولة اخرى كانت اكثر تفصيلا واهتماما بتبليغ الهداية الاسلامية الى اهلها الكفار وبعد الانتهاء منها قام بجولة ثالثة وهي التي غطى بها الشيخ كل انحاء البلاد الكشميرية واختلط بالشعب اختلاطا مؤثرا وتوغل في اركان البلاد كلها مخاطبا لنفوس اهلها مؤثرا بقوته الربانية على قلوبهم ونفوسهم فما لبث ان احدث فيهم تحولا عاما من الكفر الى الاسلام وما هي الا ان دخلت هذه الامة باسرها في زمن غير طويل في حوزة الدين الاسلامي(4) وهي معدودة اليوم باسلامها في حساب هذا الرجل الرباني العظيم وتلاميذه الذين رافقوه في جولاته الدعوية ولا يزال اهل كشمير معترفين له بهذا الفضل .

والذي وقع في كشمير من عموم انتشار الدعوة الاسلامية فيها وقع مثله في مساحة كبيرة من منطقة بنجاب المسلمة فانما نقرا في التاريخ ان اغلب اهلها دخلوا في حظيرة الايمان والدين الاسلامي بمجهود رجل واحد وهو الشيخ على بن عثمان الهجويري (م 465) رحمه الله (5)

ولا ننسى في هذا الشان منطقة بنغال ايضا التي تكتظ اليوم بالسكان والتي يتوزع اهلها بين ارض الهند الشرقية وبين قطر بنغلاديش الواقع بشرقي الهند فقد كان اهلها جميعا بعيدين عن الخضوع لتعليمات الدين الاسلامي والحب له قبل قرن واحد واكثر .

فاقبل اليهم الداعية الرباني الكبير الشيخ كرامة على الجونفوري وهو من خلفاء المجاهد الكبير الامام السيد احمد الشهيد رحمه الله (م 1246 هـ) وقام بدعوة اهل هذه المنطقة الى التثبيت باهداب الدين والتمسك بشريعته وكان لدعوته وتوجيهاته وروحانيته تاثير عميق جدا بحيث استطاع بامر الله عز وجل هذا الشعب التائه الغافل عن الدين من ظلمات الضلال والفساد الديني الى فضائل الدين وهداية الاسلام (6) .

ويحسن بهذه المناسبة ذكر نجاح التاثير الرباني على النفوس للمصلح الرباني الجليل الشيخ احمد السرهندي (م 1024 هـ) الذي يسمى في انحاء الهند بمجدد الدين في الالف الثاني الهجري وذلك عندما قام الامبراطور المغولي الكبير جلال الدين اكبر بالتمرد على التمسك بالدين وظهر من ذلك خطر عظيم للحياة الاسلامية الموجودة في البلاد ، ففطن الشيخ الجليل لهذا الخطر ونشط لمحو الآثار التي تركتها سياسة هذا الحاكم بمعاداة الاسلام الى الوفاء بالاسلام والعودة به الى حظيرة دينه وقد نجح الشيخ الجليل في ذلك نجاحا باهرا ، فقد استطاع بعد جهود مضنية بذلها هو وابناؤه واتباعه بوسائل توجيهية وتربوية واسترعاء انتباه القائمين بالحكم وحثهم على مجانبة كل ما يضر ومساندة كل ما ينفع ان يحدث التحول في نفوس الحاكمين وقد بلغ هذا التحول الى مداه عندما تولى الحكم رجل من احفاد الامبراطور جلال الدين « اكبر » نفسه وهو الامبراطور اورنج زيب عالمكير (7) الذي لقبه بعض علماء التاريخ الاسلامي بسادس الخلفاء الراشدين ، وكان اتقى افراد الاسرة المغولية المالكة واشدهم ورعا وتقوى ، وكان من المتبعين لتوجيهات اسرة الشيخ السرهندي ومن احزم الناس في سياسة البلاد واكثرهم معرفة بدقائقها ومصالحها وبذلك عادت الهند الى صبغتها الاسلامية بل الى حالة احسن من السابق بكثير ، وكسب الدين الاسلامي بذلك والمسلمون في هذه البلاد خيرا كثيرا (8) ، ولا يزال يعود الفضل في بقاء خير اسلامي كثير في هذه البلاد الى هذا الحاكم المسلم الغيور .

---

(4) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للعلامة عبد الحي الحسني
(5) ايضا
(6) سيرة السيد احمد الشهيد للاستاذ ابي الحسن الندوي
(7) الدعوة الاسلامية وتطوراتها في الهند للاستاذ ابي الحسن الندوي
(8) صور وخواطر للاستاذ على الطنطاوي

على كل فان الاثر الذى تركته جهود المصلحين الربانيين فى هذه البلاد الهندية النائية من مهد الاسلام كان اثرا صبغ هذه البلاد الواسعة بصبغة اسلامية خاصة وجعل للاسلام موضعا هاما فى حياة شبه القارة هذه .

فاننا نرى تجربة الهند الطويلة فى تاريخها الماضى للدعوة الاسلامية تجربة مفيدة ومشجعة فى اختيار منهاج الدعوة ويمكن الاستفادة منها فى الاحوال المماثلة لما ذكرناه ، ولا يخفى على كل دارس لتاريخ الدعوة الاسلامية ان هناك اقطارا وبلادا عديدة سعدت بجهود مماثلة من دعاة الاسلام قد دخلت فى حظيرة الاسلام ولا تزال اعضاء لاسرته العالمية ويمكن معرفة ذلك بدراسة تاريخ انتشار الدين الاسلامى فى اقطار الشرق الاقصى الاسلامية .

اما الاقطار والبلاد التى لم تسعد بجهود سلمية دعوية بل غلبت فيها مسحة الجهود العسكرية والسياسية التى بذلها السياسيون والغزاة من ابناء الاسلام ، فان شعوبها لم تستطع ان تتشرب روح الاسلام ولا ان تحتضنه احتضانا يكون ضمانا لرسوخ الاسلام وانتشاره فيها بل ضعف الاسلام وانسحب عنها فى بعض الاحيان عندما زالت عنها شوكة الاسلام العسكرية والسياسية .

الهند ـ محمد الرابع الحسنى الندوى

استاذ الادب العربى
دار العلوم لندوة العلماء

بـــــــاس ! . .

كيف الوصول الى سعاد ؟ ودونها
قنن الجبال ! ودونهن حتوف !

فالرجل حافية ! ومالى مركب ! !
والكف صفر ! ! والطريق مخوف ! !

الانسان في الاسلام

للأستاذ حسن الصائغ

الانسان في الاسلام مخلوق في احسن تقويم .. ابوه الاول آدم المخلوق من طين جسما ومادة ولكن الله تعالى نفخ فيه من روحه ، فهو علوى الروح ، ترابي المادة ، والتزم منذ الازل بميثاق الاقرار بالربوبية يوم اخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى .. فهذا الميثاق يحدد طبيعة الانسان الكونية واذعانه لواقعه كجزء من الكون المخلوق بارادة خالقه ليعمر الارض ويؤدي بها رسالة الانسان ، ولهذا فهو قمة المخلوقات واسماها واعلاها ، حيث سخر الله له ما في الكون كله ، ورغم اعتراض الملائكة على خلق الانسان الذي ظهر عصيانه من تجربة خلقه خشية ان يفسد في الارض ويسفك الدماء فان الله يعلم ما لا يعلمه احد . وعصى ابليس ربه وابى الخضوع والسجود لآدم كما فعلت الملائكة استجابة لامر الخالق ، وظل ابليس يترصد للانسان ليحرفه عن الطريق السوى .... وبعث الله الرسل والانبياء لهداية الانسان . وظلت رسالة الانبياء واضحة نيرة لا يختلف بعضها عن بعض الا ما تقتضيه المرحلية ، وبدأت الدعوة الدينية لملة ابراهيم في تعاليم فطرية ثم جاءت الموسوية بوصايا اولية ترشد الانسان الى التعلق بالخالق والابتعاد عن الشرك بالله وتنهى عن قتل النفس البريئة كما تنهى عن المحرمات ، وتضع حدا للكهانة والتجامة .. ثم جاءت المسيحية لتنشر الرحمة والمحبة وتكميلا للمفتقد في التشريعات الموسوية واستمر الانبياء يوالون رسالتهم وعظهم لانقاذ الانسان ،وكم اتعظ الناس بتوجيهاتهم واتبعوا طريق الرشاد ، بل يرى كثير من مؤرخي الاديان ان حكم الفلاسفة والمصلحين في الصين والهند وفارس هي حكم ومواعظ وتشريعات مقتبسة عن دعوة الانبياء والرسل مع تحريف اقتضاه بعد اللغة والبيئة ... واخيرا جاء الاسلام مصدقا لما جاء به الرسل من قبل ومتمما لرسالتهم ، وكان ظهوره يناسب عصر نضج الانسان وارتقائه واستعداده لقيادة نفسه على اساس ما جاء به الوحي فكان خاتم الاديان ونهاية مطاف الانسان،واستمر الخط الاسلامي ممتدا متطورا غير جامد ولا منحرف،فهو محفوظ بدستور القرآن ، وملائم للتطور باجتهاد العلماء في اطار الكتاب والسنة ولذلك ظل عالم الاسلام يفتح صدره للمجتهدين من العلماء كائمة المذاهب والمصلحين المجددين كالامام الغزالي وابن القيم وابن تيمية والشاطبي وكالشيخ الافغاني ومحمد عبده ، والكواكبي ، واقبال وامير علي وغيرهم كثير مما يعسر تقصيه .

ويجد المجتهدون في القرآن والحديث عينا ثرة لا تغيض ، وعلما واسعا لا ينضب فكلما واجهوا مشكلا الا وجدوا في الاسلام حلا ولا معضلة الا والفوا فيه فيضا ... بل كلما حزبهم الامر واشتد عليهم الضيم هرعوا الى الاسلام يستظلون به ...

والانسان المسلم اليوم يواجه حضارة معاصرة تقنية مادية ، تتسم بسيطرتها المطلقة على الطبيعة واغترارها بالتقنية والالكترونية حتى اصبح الانسان عبدها الطيع الخاضع لسيطرتها احب او كره وبذلك ضاع في خضم المادية وقطع كل صلاته بالقيم الروحية ولم تبق له الا صلات واهية ضعيفة وقد فتن الناس بهذه الحضارة طوعا او كرها فتنكروا للديانات والماورائية وانكروا الغيب والروح والقيم الروحية ، ولكنهم جميعا يشعرون بضياعهم وقلقهم وعدم جدواهم في الحياة ، ففقدوا طعم الحياة ولذة العيش ، وظلت الفلسفات الوجودية والمادية تزيد في تعميق الجرح والشعور بالغربة فضاع الانسان المعاصر ، وفقد مكانته الحضارية والوجودية والتاريخية ومن ثم اخذ المفكرون يبحثون عن فلسفة جديدة او عن دين جديد لانقاذ الانسان الضائع . وبقيت الاطروحة الاسلامية تقدم للبشرية دعوتها الاصلاحية لتخرج الانسان من الغربة الى الثقة بالنفس والايمان بالقيم ، لان الانسان في الاسلام يعيش الطبيعة والماورائية ، ويعيش التطور والمحافظة ، والابداع والتقليد ، فالانسان في الاسلام هو اسمى مخلوق فيه جوهر روحي خالد لا يتغير وله عقل يتطور زمانيا ومكانيا ، وهو انسان مبرمج يتجه في التزام مبدئي الى الحقيقة الماورائية ، وهو انسان حر وكائن عقلاني وابداعي وليس عبدا الا للخالق ، وعبوديته لخالقه هي حريته وكماله وتعاليه فوق الحتميات التاريخية والطبيعية ، وعبوديته للخالق تعني استقلاله الحتمي عن التاريخ والطبيعة والاجتماع وتعني خضوعه الايجابي ، والتزامه الانساني للتاريخ والطبيعة والمجتمع ... وهو مع ذلك كله ملتزم بميثاق حقوق الله وحدوده .. فالانسان ازلي وجديد وثابت ومتغير ، متطلع الى السمو والتعالي ، والى الوحدة الشمولية .. وهذا مطمح الفكر المعاصر بل الحضارة المعاصرة التي اصبحت بفضل التقدم التكنولوجي ووحدة العمل الالكتروني والسيرتيكي تتجه دائما لتحقق الوحدة سواء وحدة التجربة او وحدة الرؤيا للموضوعات ثم العمل على الوحدة الكونية في عملية دائبة لغزو الفضاء حتى توحد المعارف الكونية كلها على اساس واحد ... وقد برهن الاسلام على طموحه لتحقيق الوحدة الكونية وتوصيل الانسان للعالم العلوي والكسمولوجي في قضية الاسراء وغاية هذه الوحدة تمكين البشر من تحقيق المساواة والعدل نتيجة الوحدة الكونية التي هي العدل الحق ، وعلى اساس هذه الوحدة ايضا تقوم القيم الاخلاقية التي تتجاوز الحق الى الايثار الذي هو تجاوز الذات الى الغيرية والانا الى غيرها تلك الغيرية التي اعطت للاخلاق الاسلامية دينمية الخير والعدل والمساواة فكان تاريخ المسلمين تاريخ تضحيات وايثار وخدمة للقيم الانسانية .

واذا كان الاسلام تاخر بسبب تاخر المسلمين في فهمه او في تطبيق تعاليمه فقد اجتهد كثير من المفكرين في البحث عن اسباب التخلف عن المسيرة التاريخية .. وكادوا ان يتفقوا عما اصاب الاسلام من تغيير وتفريغ محتواه واعطائه الصبغة والشكل دون العمق بل أصبح الاسلام ترديد كلمات ومحاولات تقليد للمذاهب ، وصوفية سلبية .. وتفجير العواطف وحدها واستغلال شعاراته .. وقد يصعب ان تقيم محكمة للبحث عن المسؤول عن تحريف القيم الاسلامية ، هل ترجع المسؤولية الى بداية عصر الامويين يوم استحكمت الخلافات السياسية لاعتبارات قبلية واقتصادية فبدت المذاهب المختلفة والطوائف المتنافرة جاعلة من العقيدة نفسها مجالا لتبرير الخلافات المذهبية والسياسية والاجتماعية . ام ترجع الى التيارات الفلسفية والدينية التي دخلت الى الاسلام وحملت اليه كثيرا من انحرافات الاسرائليات والمسيحية والمذاهب الفلسفية الهيلينية والغنوسية والفارسية والهندية ام ترجع الى التيار الفلسفي الاغريقي الذى صادف قلبا خاليا فتمكن ... وكان اساس الصراعات العقائدية بين المتكلمين السنيين ، والمعتزلة والقدرية وغيرهم . ام الى الحروب الطويلة بين الشيعة والسنة والخوارج وغير هؤلاء من الطوائف والفرق المذهبية التي جعلت الدين قاعدة خلافاتها .

ام الى المذاهب الصوفية والخانقات والزوايا والربط المختلفة التي اختلفت بينها في تهذيب الروح واشاعة القيم .

ام الى الفلاسفة المسلمين الذين حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة فاتهمهم الفقهاء بالانحراف واعضوصب كل فريق حول نفسه يقيم تفسيرات مختلفة للاصول الاسلامية اتقاء البدع الفكرية او الجمود الفكرى .

ام الى انهزامات السياسيين والحكام امام الغزو المغولي والحروب الصليبية .

ام الى بعض المجددين كالامام الغزالي الذى مكن للصوفية على حساب العقلانية الاسلامية .

ام الى الهزيمة العسكرية فى الاندلس يوم سقطت العواصم الاسلامية واحدة بعد اخرى حتى آخر المعاقل بضواحي غرناطة .

ام الى عوامل الهزيمة خارجة عن العالم الاسلامي وترجع لحقد الكنيسة ودسائس الصهاينة .

أم ترجع لسبق اوروبا لاكتشاف البخار ودخول الغرب عهد التصنيع مما ساعد على تكوين اقتصاد جديد وجد فى العالم الاسلامي مجالا للغزو والفتح ، وفى العلم الغربي مجالا للتطور الاقتصادي والعلمي .

ام ترجع الى استيلاء الغرب على امريكا وارتياد البحار واحتلال الشواطىء التالية للعالم الاسلامي ثم انقضاضه على المسلمين وثقافتهم .

ام ترجع للتطور العلمي فى اوروبا واستنزافها لخبرات عالم الاسلام مما كون عقدا فى نفسية المسلمين انفسهم فاستشعروا بالضعف والهزيمة .

ام ترجع الى فهم المسلمين ، للقدر فهما سلبيا وسقوطهم فى الخمول والدونية .

ام ترجع لهلهلة التعليم الاسلامي وركوده مما اشاع الخمول الفكرى واضعف النشاط العقلي

ام ترجع الى الضعف فى الدراسة التقنية التي كانت بسبب نهضة الغرب .

ام ترجع الى اتساع رقعة العالم الاسلامي اتساعا عظيما صعب معه وعسر الحكم المركزى والتوجيه المركز على مختلف المستويات الاقتصادية والفكرية .

ام ترجع الى حقد المذاهب والطوائف الاجانب المتعايشين مع المسلمين فى عالمهم ومحاولاتهم الدائبة فى اثارة الشك والفتن والقلاقل .

ام هي حتمية التاريخ وانقياد كل حضارة لمرحلتها كما ترى الخلدونية .

قد تكون هذه العوامل كلها ، وقد يكون بعض منها ؛ وقد اصيبت مختلف الحضارات بالانهيار كذلك لنفس هذه الاسباب او لبعضها ، ولكن الشىء المحقق ان الحضارات الاخرى التي اصيبت بنفس العلل والامراض لا تشبه الحضارة الاسلامية .. لان هذه الحضارة تملك دائما وسائل الانتقاد بيدها مما لا تملكه حضارات اخرى ذلك لان العالم الاسلامي يملك قرآنا واحدا يستطيع ان يوحد بسهوله بين المسلمين او يقيم بينهم اتحادا رغم الاختلافات البسيطة الطبيعية وان يمدهم بثقافة متجددة حية مرنة كما يرى المؤرخ تويتبي ولكن المهم من هذا كله ان المسلمين اصبحوا فى تخلف وخلاف من امرهم ، وان الاسلام تأثر جدا بهذه الخلافات فى شكله دون أن يمس فى جوهره ، ولن نعود الى الاسلام الا بالعودة الى صلب الاسلام نفسه ، سواء من الوجهة السياسية حيث الديموقراطية والشورى ام من الناحية الاجتماعية لتحقيق عدالة ومساواة ، او من الناحية الاخلاقية لممارسة الصدق والامانة والالتزام ، او من الناحية الفردية لاشاعة الحرية والتخلص من عبادة الاصنام والاشخاص والاوهام فحرية المسلم واستقلاله الفكرى واجتهاده وتطوره الدائب ، وجواره المستمر وتجربته المتوالية هي هدف وجوده فى الحياة ليحقق الابداع والتطور ، لان الاسلام فى جوهره عدل ومساواة ووسطية .. عدل بين الفرد والمجتمع والاسرة والامة . يعتمد التربية الدينية فى تعميق التجربة والمعاملات النزيهة فى تسيير المجتمع اقتصاديا واخلاقيا ... لذلك حرم الربا ، وتكديس المال ومنع التاميم المطلق وتعطيل الجهد الفردى بحرمانه من التملك ، وقد تعرض المسلمون منذ بداية الاسلام لهجومات عقائدية وسياسية واخلاقية واقتصادية .. ثم استفحلت الحروب ضد الاسلام فى هجمات جهنمية اثناء محاكم التفتيش باسبانيا ، ثم تعرض بعد ذلك لغزو تبشيرى وصهيونى منظم على يد الفاتيكان .. وحركات الدوما والماسونية حيث عمل كل ذلك على زعزعة ثقة المسلمين بانفسهم وتشكيكهم فى واقعهم ومستقبلهم وانظمتهم وتاريخهم ولغتهم وقيمهم واقتصادهم ، حتى شعر المسلمون بالضعة وقلة ثبات عزيمتهم ، وافتوا بنهاية عصر الجهاد والبحث عن السلامة

والخنوع للسادات المتعمرين والدونية الاخلاقية والاقتصادية .. ولولا نفر تولى اعادة الثقة من جديد .. ولولا الكتاب المقدس بيد المسلمين ، ولولا احرار من المفكرين في الشرق والغرب لكانت حالة المسلمين اكثر ضعة وانحلالا ، وقد روج الجميع لفكرة الهزيمة دون حياء .. واطل في عالمنا بعض انصار الثقافات الغربية يصيبون المسلمين بضربات اوجع ويدعون الى الاستلام السياسي والثقافي واللغوي فمنهم من ارتاى ان نلقي بانفسنا في احضان الغرب لغة وعقيدة وسلوكا ... وهؤلاء آثروا الاندماج والفناء في مجتمع اجنبي لا يسخرهم الا لعبوديته .. ثم يتشاكون باخرة ويتباكون اسفا على نهاية حزينة وتجربة قاسية وحرقة على اللبن الذي سال فاختلط بالتراب .

ومنهم من يدعو الى اخذ الغرب قدوة ، وتقليده خطوة خطوة وهؤلاء يسلبون المسلمين شخصيتهم ويطوحون بهم في عالم الاستسلام والاستلاب الثقافي .

ومنهم من يدعو الى تبعية الغرب مع الاحتفاظ باللغة ابقاء على معالم الشخصية الاسلامية وهؤلاء رضوا بنصف الهزيمة فقط ولكن هناك رجال مفكرون ابوا الاستسلام وعرفوا الداء وكافحوا ليسقطوا شهداء في معركة فاصلة ، وكتبوا عن الاسلام حتى اجلوا عنه كثيرا من الشك ، وقد اجتمع المفكرون المسلمون في مؤتمرات سياسية واقتصادية واجتماعيا واصبحوا اكثر ايمانا بمستقبلهم من قبل .

وقد تكون الاطروحة الاسلامية اليوم خير ما يقدم للانسان المعاصر لانقاذه من الدونية والحيرة والاستيلاب ، هذه الاطروحة التي تعطي للانسان المعاصر قوة جديدة وفكرا جيدا ووجدانا ملتهبا وثقة صلبة وتعطي للمجتمع سعادة وفضيلة وتآزرا وتآخيا ... وتعطي للانسانية كلها سلاما وتقدما وتطورا .. لا على حساب طائفة دون اخرى او شعب غير آخر او لون على لون او ثقافة على ثقافة .

الانسان المسلم انسان حر سعيد بحظى بعناية ازلية مستمرة من خالقه .. فالحرية اساس حقوق الانسان كلها ، فلا ضمان لاى حق انساني دون حرية ، وهي كل ووحدة لا تقبل التجزيء والتفرقة .. الانسان المسلم خليق بالحرية التي يرقى بها وترقى به كلما علت درجاته حتى يتحمل تكاليفها عن اهلية واستحقاق .. فالحرية الفكرية اولا ان نتحرر من الرق والعبودية ، ثم حرية العقل ثم حرية الفكر والارادة ، فالحرية يتمتع بها الانسان المسلم بشرط الاستحقاق فالمعتوه والقاصر والسفيه تحد حرياتهم في التصرف ويعفون من التكليف ، ويتمتعون بحرياتهم الاجتماعية والبشرية ، والمجرمون تحد حرياتهم الاجتماعية ، وحرية الفكر والتعبير والمناقشة والجدل ضرورية للفرد الانساني ولتطوره الاجتماعي .. وحرية الراي ترتبط بمسؤلية اقرار الحق والدعوة اليه والنهي عن المنكر والتواصي بالحق فالسكوت عن المنكر معصية والدفاع عن الحق فريضة وما جعل الله للانسان العين واللسان الا للدعوة الى الخير والنهي عن المنكر .. ويتبع ذلك اداء شهادة الحق التي هي حد من حدود الله اما اداء شهادة الزور فشر ما مني به البشر .. وحرية التفكير والتعبير في الاسلام ترتكز على حرية الادارة والاختيار بشرط التكليف .. وحرية التفكير تنطلق من حرية العقيدة فلا اكراه في الدين ومن هنا يطرح الاسلام العلاقات بين ارادة الانسان وارادة المجتمع وعلاقة ذلك بالارادة الالهية التي توجه الكون بما فيه الانسان نفسه . فهل يسعى الانسان وفق ارادة الله في حتمية الكون كله او له مسؤولية في الاختيار ويجازى عن عمله وفق العدل الالهي هل الانسان مجبور في دائرة الحتميات اوله الاختيار المطلق او هناك دائرة للاختيار يستطيع الانسان ان يبدو فيها انسانا حرا ودائرة قدرية خارجة عن طاقته .. او هناك انسان ذو بعد داخلي يحقق به اختياراته وبعد خارجي يتجاوز طاقته .. فهذه اسئلة تثيرها الفلسفات الانسانية في عهد الاغريق وقبلهم بكثير ولكن تحليل التوجيه القرآني يبدو منه ان للانسان مسؤولية تخف وتشتد حسب الحتميات التاريخية والوراثية والاجتماعية بل ذهب المتصوفة الى عكس هذه القضية نفسها من تجاوز ارادة الانسان لكل ارادة معتمدين الحديث ان لله عبادا لو اقسموا على الله لابرهم فقالوا ان لله عبادا اذا ارادوا اراد ولكن المحقق ان الحتمية التاريخية والخيرية القدرية لا تعني في الاسلام التواكل والانهزامية فهي سلاح ذو حدين وقضية ذات منطلقين عكسيين .. فقد تحرك المسلمون في عمل

دائب من ارادة الله لتحقيق العدل والمساواة والسلام .. فالاسلام نية وقول وعمل فالنية اساس كل عمل ولا عمل بدون نية والا كانت عشوائية ولا نية بدون عمل والا كانت تعطيلا ، فالاخلاق الاسلامية ليست مثلا عليا وانما هي واقع ، ومن ثم فالاسلام ليس ميتافيزيقية ولا نظرية ولا فلسفة وانما هو واقع حي فقط ليس فيه ازدواجية مفارقة بين المثل العليا للاخلاق وتطبيقها وانما الاسلام نية مجددة في العمل وعمل صادر عن عزم وارادة فاختيار الانسان مسبق ومولد للنية الدافعة للارادة المجسمة في العمل (فمن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) فالجدل والحوار ومناقشة حاجات طبيعية لتطور الانسان ولاجل ان يكون الانسان حرا في تصرفاته يجب ان يكون حرا في عقيدته ولا يكون حرا في عقيدته الا اذا كان مقتنعا بها مؤمنا بها اما القسر العقائدي فهو استيلاب وتعطيل واستبداد واستضلال للانسان ولتحقيق حرية العقيدة حرم ، الاسلام السلطة الكهنوتية والدينية والبابوية والاجبارية بكل اشكالها ومظاهرها وابطل الوساطة بين الخالق والمخلوق واتخاذ الاولياء والعلماء وسائط بين الخالق والمخلوق واصدار الحكم على الناس بادخالهم رسميا في الدين او اخراجهم رسميا من الدين الا اذا ارتدوا عن الدين قولا وعملا كما هو معلوم في محله .

ومبدا حرية العقيدة والاقتناع بها كان اصل مبدأ التسامح الديني لان الاسلام يصدق بما جاء به المرسلون من قبله ، ولانه يدعو الى الاقتناع فان الاسلام كذلك تصديق لما جاء به الانبياء والعقل السليم ولذلك كان اول داعية الى مؤتمر السلام والى ميثاق حقوق الانسان الفكرية والاجتماعية والسياسية والى مؤتمر التسامح الديني في الآية القرآنية (تعالوا الى كلمة سواء ان لا نعبد الا الله وان لا نشرك به شيئا وان لا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله) وهكذا نشات عن هذه الحرية المعترفة بسواسية الناس اصلا ولونا وبيئة وثقافة فلا افضلية الا بالتقوى دون اقامة شعارات خارجية او نصب تماثيل والا بترسيخ الجوهر الحق بقلب الانسان وتعميقه بداخله بتلاوة القرآن واداء الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان والحج وتمجيد الانسان بتقواه الفكرية وعلمه وتقواه الخلقية وسمو اخلاقه وتقواه البشرية والمساواة بين الناس وتقواه الوجدانية بالاحساس النبيل .. ذلك العلم الذي ينفع الانسان ولا يضره والاخلاق التي تجعل السوبرمان المسلم يتفانى في خير المجتمع وتقواه الروحية التي توحد بين الناس وتعين من يطلب العون وتنصر المظلوم وتحارب المعتدى ثم تجنح للسلم .

الرباط : حسن السائح



نظريات وافدة

كشف الفكر الإسلامي زيفها

للأستاذ انور الجندي

فى عام 1971 كتبت الى مجلة دعوة الحق الزاهرة المبحث الاول فى هذا الموضوع (1) ثم شغلت عنه وكان الهدف هو لفت نظر الباحث المسلم الى ان هناك نظريات وافدة طرحت فى افق الفكر الاسلامى وقد تناولها الباحثون بالنقد والرد والتفنيد فى وقتها غير ان ذلك لم يجمع فى حينه فى كتاب ومن ثم ظلت هذه الكتب التى تحمل النظريات متداولة كانها هى حقائق ثابتة واعيد طبعها مرات ومرات ولقد لاحظت ذلك وتاثرت به حين رايت الكثيرين من شبابنا المسلمين القادمين من كل مكان فى العالم الاسلامى يبحثون عن سلامه موسى وطه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى فيجدون مقالاتهم المليئة بالشكوك مجموعة فى كتب انيقة ثم لا يجدون ما وجه اليها من ردود وما فند من اتهامات لانها لا تزال مدفونة فى بطون الصحف والدوريات ، ولقد دعانى هذا ان اجمع فى مجلدين كبيرين اغلب هذه المعارك تحت عنوان (المعارك الادبية) وتحت عنوان (المساجلات والمعارك الادبية) وذلك فى محاولة لكى اضع تحت عين القارىء وجهة النظر الاخرى التى كانت غائبة عنه والتى تكشف ان لكل راى ردا وان مثل هذه المحاولات فى عرض نظريات وافدة قد استشرى فى فترة الثلاثينيات وما بعدها واتسع نطاقه حتى شمل مختلف ميادين الفكر ؛ ولكن الحق ان قضية ما من هذه القضايا لم تمر دون تمحيص فكتاب طه حسين عن الشعر الجاهلى ووجه بالرد من كثيرين وصدرت كتب عديدة فى تفنيده منها تحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعى كما صدر كتاب محمد فريد وجدى وكتاب محمد لطفى جمعه وكتاب للشيخ الخضر حسين وكتاب (النقد التحليلى) للدكتور محمد احمد الغمراوى ، هذا بالاضافة الى عشرات الموضوعات والبحوث التى حفلت بها الصحف وجمعت بعض اطرافها فى كتابى المذكورين عن المعارك الادبية . كذلك صدرت فى السنوات الاخيرة اطروحة الدكتور ناصر الدين الاسد عن حقيقة الموقف فى الشعر الجاهلى وانتحاله .

وبالنسبة الى كتاب على عبد الرازق عن الاسلام واصول الحكم صدرت فى حين صدوره رسائل مطبوعة للشيخ الخضر حسين ومحمد الطاهر عاشور والشيخ رشيد رضا ، وصدر فى العام الماضى كتاب ضخم مفصل عن هذه القضية للدكتور ضياء الدين الريسى .

اما بالنسبة لما اثاره سلامه موسى عن اللغة العربية فقد نوقش وجمع ، وكذلك ما اتصل باراء ساطع الحصرى ومحمود عزمى .

ولقد عورضت نظريات لطفى السيد عن الاقليمية المصرية وارائه عن التعليم ووجدت نظرية ثقافة البحر المتوسط التى اثارها طه حسين ومحمود عزمى تفنيدا وتصحيحا . وكذلك عارض الباحثون نظرية امين الخولى عن اقليمية الادب ، ورد الدكتور محمد احمد الغمراوى على محاولات نقد النص القرآنى التى قام بها زكى مبارك وكذلك رد كثيرون على محمد احمد خلف الله ورسالة القصص الفنى فى القرآن .

(1) المقال الاول كان تحت عنوان نظريات وافدة رفضها العقل العربى الاسلامى .

اما النظرية المادية التى عرضها شبلى شميل وسلامه موسى من بعد فانها لم تمض بدون نقد ومراجعة وكذلك نظريات الدين فى التربية .

وكانت اكثر الشبهات التى طرحت فى افق الفكر الاسلامى تستهدف السيرة النبوية والقرآن واللغة العربية والحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامى معظم هذه النظريات غلفها بريق كاذب وحاول صياغها وصفها فى اطار علمى وصاحبتها دعوة طنانة الى النهضة والتجديد والاستجابة لروح العصر والخروج من الجمود وكسر قيد التقليد ومقاومة الرجعية ، وفى اعماقها دعوة صريحة الى التبعية والانصهار فى الفكر الغربى ايمانا بأن هذا هو الطريق الوحيد لمساواته ومحاذاته ، وقد حملت هذه الدعوات اساسا فكرة ان امتنا ليست من العرب وان الاسلام قد مر عليها كما تمر كل الدعوات وان العقل المصرى او السورى او المغربى هو عقل اوربى وان الفكر الاسلامى اصلا هو فكر يونانى وما الى ذلك من مجازفات تستهدف عزل المسلمين عن فكرهم الاصيل وعن كيانهم الخاص وذاتهم التى لا تتمائل . وقد صدرت مؤلفات احدثت ضجة كبرى ، لم تكن هذه الضجة بالقبول ولكنها كانت بالرفض وجرت مساجلات ساخنة ومثيرة انتقلت من اعمدة الصحف الى اندية الجمعيات الى منابر الجامعات ولكن هذه النظريات لم تجد قدرتها على الحياة لانها دخيلة وزائفة ونبت لا يقوى على الحياة فى ارض لم تمتصه وطقس لم يستسغه ولذلك ما لبثت ان تحطمت ، وان مرمى الدعاة اليها تجديدها مرة بعد مرة واثارتها فى صورة واخرى ، ومن هذه النظريات :

(1) اعلاء ادب الاغريق على الادب العربى ومحاولة فرض الذوق الهلينى على العرب

(2) اعلاء شأن الاقليميات الضيقة كالمصرية والفينيقية والبربرية وغيرها

(3) النعى على العرب والمسلمين ومحاولة انتقاص وجودهم وكيانهم

(4) معارضة الشريعة الاسلامية واثارة الشبهات حول اصالتها .

(5) مقاومة اللغة العربية الفصحى والدعوة الى العاميات

(6) التنكر للحقيقة الواضحة وهى ان الاسلام دين ونظام مجتمع فى آن .

(7) محاولة توجيه النقد الى اسلوب القرآن ووصفه بأنه كتاب ادبى

(8) محاولة اسقاط الحضارة الاسلامية وانكار عطائها للحضارة الغربية .

(9) الدعوة الى ما يسمى (عالمية الثقافة) ومحاولة تذويب قيم الثقافة الاسلامية فى اتون الفكر الغربى مع تجاهل الفوارق الواضحة بينهما .

(10) محاولة اثارة الشبهات حول العلاقات الجذرية بين الاسلام والعروبة .

(11) محاولة توسيد قيم مقتبسة فى مجال التربية والتعليم تتعارض مع ذاتية الامة ومزاجها النفسى .

(12) مهاجمة التراث العربى الاسلامى واثارة الشكوك حوله وانتقاصه .

(3) اذاعة نظريات فرويد فى النفس وسارتر فى الوجودية ودوركايم فى الاجتماع وكلها تتعارض مع قيم الفكر الاسلامى .

(14) انتقاص اعلام الاسلام وابطاله .

(15) اذاعة الادب المكشوف والاباحية الفكرية مع الدعوة الى الالحاد .

(16) محاولة اعلاء اتجاه المادية فى مجالات التاريخ والاقتصاد والاجتماع .

وقد راجت هذه الافكار رواجا شديدا وكثر ترديدها حتى كادت ان تصبح من المسلمات ووجد النفوذ الاستعمارى عن طريق ادواته العديدة وفى مقدمتها المدرسة والصحيفة مجالا كبيرا لاذاعة هذه الافكار ودعمها .

وصدرت فى ذلك كتب عديدة منها مؤلفات جرجى زيدان (التمدن الاسلامى) ومؤلفات طه حسين (حديث الاربعاء — فى الادب الجاهلى — مستقبل الثقافة — مع المتنبى — هامش السيرة) ومؤلفات سلامه موسى (اليوم والغد — البلاغة العصرية) وعلى عبد الرازق (الاسلام واصول الحكم) ولطفى السيد (ترجمات ارسطو) بالاضافة الى بعض

كتابات توفيق الحكيم ومحمود عزمى ، وحسين مؤنس وزكى مبارك وابراهيم مدكور وامين الخولى وحسين فوزى ولولى عوض وزكى نجيب محمود .

غير ان هذه النظريات لم تلبث ان انكشف فسادها وزيفها وعرف المثقفون الاهداف القائمة وراء اذاعتها وترديدها .

ولقد احدث الشيخ على عبد الرازق « ثلمة » فى الاسلام سيظل يحمل وزرها امدا طويلا فلاول مرة يجرؤ عالم ازهرى مسلم الى القول بأن الاسلام دين روحى وانه لا صلة له بنظام الحكم ، مهما كان سياق الدعوة او ظروفها السياسية التى اراد ان يخدم بها حزب الاحرار الدستوريين او الانجليز او المعارضين الملك فؤاد فانه فى سبيل غاية هينة قد استخدم نصوصا اراد بها ان يحجب حقيقة اساسية هى ان الاسلام نظام مجتمع ومنهج حياة متكامل ومنذ ذلك اليوم يكتب المستشرقون فيقولون : ان فى الاسلام نظريتين : احداهما تقول بان الاسلام دين ودولة والاخرى تقول ان الاسلام دين روحى وصاحب هذه النظرية هو على عبد الرازق ومن سار على طريقه من بعده ومن خريجى الازهر ايضا مع الاسف .

هذه الثلمة تكذبها كل الوقائع التاريخية وكل النصوص والاسانيد ، ومن يقرأ بحث على عبد الرازق الذى حاول دعاة التغريب فى السنوات الاخيرة اعادة طبعه ونشره بعد ان مات وانطوى اكثر من اربعين عاما — يجدون انه لم يعتمد على كتاب من كتب الاصول وانما كان اعتماده على مراجع ادبية كالعقد الفريد وغيره . وقد كان جل اعتماد على عبد الرازق على بعض الكتب التى صدرت فى تركيا لتبرير الغاء الخلافة وهى مؤلفات كتبها اليهود الدوغة الذين كانوا يطمعون فى تحطيم هذا البناء منذ وقت طويل حتى يستطيعوا ان ينفذوا الى فلسطين بعد ان وقف السلطان عبد الحميد فى وجههم سدا منيعا ، وكل ما جاء به على عبد الرازق نقلا من هؤلاء انما هو مستمد من نظريات الفكر المسيحى حول البابوية والفصل بين الدين والدولة وهو النهج الذى وصلت اليه اوربا بعد الصراع الطويل بين الكنيسة والشعب وكان جل اعتماداته فى نصوصه المنقولة على شطائر تؤيد وجهة نظره استعان بها وترك الاجزاء الباقية مغالطة منه وتبريرا لوجهة نظره بالاضافة الى اعتماده على كتب المحاضرات والادب وهى ليست مراجع للبحث الفقهى الجاد .

والحق ان الباحثين المسلمين قد التفتوا منذ وقت طويل الى خطر المصادر الادبية كمراجع للبحوث العلمية والتاريخية ، وقد اشار كثيرون الى « اهل العقل والهوى الذين اعتمدوا فى تاريخهم على كتب الادب واسفار الاخبار » فاهل الادب كما يقول القاضى ابو بكر بن العربى فى كتابه العواصم من القواصم « هم الذين غلبت عليهم صناعة الادب فمالوا الى كل غريب من الاخبار دون ان يتحروا الصدق ويهتموا بالرواية والاسناد وهم اهل جهالة بحرمات الدين او على بدعة مصريين »

(5)

اما كتاب فى الشعر الجاهلى والادب الجاهلى من بعده فان القضية الكبرى والاساسية التى حاول مؤلفه ان يفرضها هى ان على الباحثين ان يحجبوا دينهم وقوميتهم وهم بسبيل الى البحث العلمى تقول (حتى اذا كان دينهم هو الاسلام) الذى هو مصدر كل مناهج البحث واساس علوم المعرفة والذى هدى البشرية الى نقد الرواة والى الجرح والتعديل والى التأكد من سلامة المصادر .

ولكن المؤلف لم يكن ليؤمن بذلك اساسا لانه حاول انكار نصوص من القرآن عن ابراهيم واسماعيل وقال مهما تحدثنا التوراة ويحدثنا القرآن عن ابراهيم واسماعيل فان الحقيقة التاريخية تقول انهما من الشخصيات التى لم توجد اساسا ، ولقد كان هدف البحث فى الشعر الجاهلى اساسا هو انتقاص هذه الاسس فى الاسلام وانتقاص رسوله الكريم الذى قال عنه (لامر ما كان لا بد أن يكون محمد من قريش) ومن يراجع الكتب التى تصدت لهذا الكتاب والابحاث والمعارك التى دارت حوله يجد تحديا واضحا صريحا للحقائق الاسلامية والسنة الصحيحة ولكل ما يتصل بتاريخ رسول الله واصحابه ، فاذا ربطنا هذا بكتاب هامش السيرة وجدنا جانبا آخر اراد طه حسين ان يطعن فيه ذلك هو اعادة الاساطير مرة اخرى الى هذه السيرة بعد ان نقاها المسلمون منها وحرروها ؛ ونحن لسنا الذين نقول ذلك ونأخذه عليه ؛ ولكن ذلك ما يقوله رفيق شبابه الدكتور محمد حسنين هيكل صاحب كتاب حياة محمد ، ونجد الجانب الثالث من العمل الخطير متمثلا فى كتاب الفتنة الكبرى وهنا نجد طه حسين يحاكم صحابة رسول الله على انهم بعض السياسيين فى العصر الحديث ورجال الاحزاب واصحاب المطامع والمؤامرات ومحاولة ازاحة ذلك

الجو الرفيع الذى ينظر فيه الى هؤلاء الصحابـة الكرام وتلك هي اهداف طه حسين كما اشار اليها هو نفسه فى اكثر من موضع « اسقاط التقديس لكل قـديـم »

واذا كان هذا من الاطروحات الغربية التى عرفها الفكر الادبى بعد الثورة الفرنسية وتحت ضغـط خلافات عميقة بين رجال العلم ورجال الدين وتحت تاثير جمود الفكرة الدينية وفسادها فى الغرب فما شأننـا به نحن فى عالـم الاسلام حيث نجد الفكـر الاسلامـى بسماحته وسعته وقدرته الوافرة علـى العطاء فى كل المجالات وحيث لا يصطدم الدين بالعلم وحيث لا تتعارض الثوابت والمتغيرات وحيث ان القديم ليس فكرا بشريا يكتنفه الفساد والاضطراب ، ولكن القديم هو ذلك الهدى الربانى الكريم الذى لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

تلك كانت غاية طه حسين واضحة فى كتاباتـه الاسلامية كلها من الادب الجاهلى الى هامش الى السيرة الى الفتنة الكبرى : (اسقاط التقديس لكل قديم) دون تحديد لهذا القديم هل هو الاصل الربانى الموحى به ام العمل الفكرى الذى قام عليه ، فضـلا عن احيائه لتراث الزنادقة والشعوبية واعادته طبـع اخوان الصفا ومقدمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة والدعوة الملحة التى ظل يدعوها طوال حياته بفضل الهلينية والفكر الاغريقى على الفكـر الاسلامى وهى دعوة زائفة مبطلها كذبتها مدرسة كاملة قادها الشيخ مصطفى عبد الرازق وتابعها كثيـر مـن الاعـلام فى مقدمتهم الدكتور على سامى النشار ومحمود قاسم

ولو كان طه حسين ناقدا سليم القلب لفرق بين الميراث الاسلامى السماوى والسنة الصحيحـة وصادق ما كتب اهل السنة والجماعة وبين التـراث الاسلامى المتصل بالشعوبية والزندقة والباطنيـة ، ولكنه كما يبدو واضحا من كل كتاباته انما كان يغمغم فى هذه وهو يقصد : الوحى والنبوة والقرآن وان كان لا يقدر على ان يكشف عن ذلك خوفا وفرقا مما كاد يصيبه عند ما اصدر كتاب فى الشعر الجاهلى ، لقد فتح الباب لكل شبهة وحملت مؤلفاته اوشـال الشعوبية القديمة وزيف اراء المستشرقين فى كـل الجوانب التى يمكن ان يصل اليها الباحث لم يغادر منها واحدا مستعملا اسلوب (الشـك الفلسفـى) ليثير الشبهات والتساؤلات دون ان يـدل احدا على ضـوء من راى صحيح ولكنهـا المحاولة المستمـرة للتشـكيـك .

فهو الداعى الى الفرعونية والادب المكشوف وان عصر الاسلام الاول عصر شك ومجون وهـو الذى سخر بابن خلدون علامة فكرنا ، ووصف المتنبـى شاعرنا الاكبر بانه لقيط ليس له اب ، وهو الذى قال لطلبته فى كلية الاداب ان القرآن كتاب ادب يوضـع موضع النقد ويقال ان هذه الآية كذا وكذا وهو داعية (عالمية الثقافة) لينصهر الفكر الاسلامى فى بوتقـة الاممية وداعية نقل مناهج التعليم والتربية الغربيـة وهو الذى اتخذ من كتاب الاغانى مصدرا لدراسـة المجتمع الاسلامى وهو كتاب غير مؤهل لهذه الدراسة. وهو الذى فتح الابواب لهؤلاء جميعا الذين جراوا على مواريث الاسلام ، ومن الحق ان يقال ان الباحثـين المسلمين لم يؤمنوا لحظة بمذهب تقديس السلـف سواء فى التاريخ او غيره ، ولكنهم كانـوا يؤمنـون ولا يزالون بحماية هذا الميراث العظيم الذى اعطاهم الاسلام وتكريم هؤلاء الصفوة من الصحابة الاعـلام الذين شادوا هذا المجد ، وتجاوز البحث فى هـذا الخلاف الذى دخلته زيوف كثيرة واكاذيب كثيرة وكانت وجهتهم دائما الى القرآن وحده والى التماس الاسوة من الرسول صلى الله عليـه وسلم فهـو المعصوم والمؤيد بالوحى وقد فصلوا دائما بين (منهج الاسلام) وبين (تاريخ المسلمين) ولكنهم لم يكونوا ليجرؤ على تناول تراثهم على هذا النحو من الاحتقـار والسخرية والمهانة التى حاول طه حسين ان يتناوله بها .

القـاهرة : انـور الجندى

المبادئ الإنسانية في الجامع الصحيح للإمام البخاري

لسماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد

حياة الامام البخارى وصحيحه :

في يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة اربع وتسعين ومئة للهجرة اطل محمد بن اسماعيل البخارى على الدنيا في بخارى الرابضة على المجرى الاسفل لنهر زرافستان والتي آلت الى المسلمين في مطلع النصف الثانى من القرن الاول للهجرة .

ولد رضي الله عنه فى بيت علم وتقى ، فقد كان ابوه اسماعيل من العلماء المتوفرين على دراسة الحديث وحفظه ، وكذلك كانت والدته حتى ذكرها بعض المؤرخين فى عداد الصالحات .

ولقد مات والده اثناء طفولته فحضنته والدته ورعت نشأته بقلبها الكبير ، فكان لها بذلك ابعد الاثر في تسديد خطاه وحفزه في طريق العلم والصلاح . وقد عرف عنه انه كان رقيق البنية ، قليل الاكل ، تصيبه الآفات البصرية من وقت لاخر كما عرف عنه انه كان عزيز النفس عفيف اليد . وقد طلب العلم في سن مبكرة وحفظ الحديث حتى برز فيه ولفت انظار العلماء والحفاظ في بلده .

وفي السادسة عشرة من عمره رحلت به امه مع اخيه الاكبر الى بيت الله الحرام ، ثم رجعت الى بلادها تاركة اياه مع اكابر العلماء من الرواة والحفاظ والفقهاء ، فكان معروفا بينهم بذهن وقاد ، وحافظة واعية ، وعقل حازم ، وذكاء براق ، وصبر عجيب في مجالسة العلماء .

وقد اقام في الحجاز ستة اعوام ثم تنقل في بلاد الاسلام جريا وراء العلم ورواة الحديث ، فزار خراسان والعراق والشام ومصر والجزيرة والبصرة والكوفة فلقى اكثر من الف رجل اخذ عنهم . وقد قال جعفر بن محمد القطان سمعت البخارى يقول : « كتبت عن الف شيخ من العلماء وزيادة وليس عندى حديث لا اذكر اسناده . »

وقد قضى رحمه الله في قرية خرتنك التي تبعد ترابة فرسخين عن سمرقند وقد لجأ اليها مضطرا بعد محنة اصابته فى نيسابور وبخارى من قبل اميريهما وبعض علمائهما .

ولقد جمع الامام البخارى رضي الله عنه نصيبا موفورا من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسبق ان ظفر بمثله وبدقته وضبطه احد قبله . فكان له ان اختار من هذه الاحاديث كتابه الجامع الصحيح ، الذى نحن اليوم بصدد الحديث عنه . ولقد روى عن البخارى انه قال : « اخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة الف حديث وضعته فى ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله » .

وهكذا فان الجامع الصحيح هو الكتاب الذي ضمنه البخارى اصح ما ثبت عنده من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان ولا يزال عند المسلمين عامة اصح كتاب بعد كتاب الله ، وقد عرفه صاحبه بانه « الجامع الصحيح المسند المختصر من امور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه

وامامه . » وقد قال عنه البعض بحق انه كان فتحا جديدا في خدمة السنة النبوية » . لم يسبق بنظير منذ ابتدا المسلمون كتابة الحديث على عهد النبى صلى الله عليه وسلم حتى مجيء البخارى رضي الله عنه .

المعرفة من اجل الانسانية :

لقد كان فضل البخارى عظيما على تاريخ الفكر الاسلامي لانه ساهم الى حد كبير في حفظ معاني الاسلام السامية التي حوتها احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجعلها في هذا العمل الدقيق الصادق في متناول الانسانية جميعا ، وهو في ذلك لم يعتمد النقل والتسجيل عن الرواة تلقيا قابلا دونما قيود او شروط وتحر وضبط ، بل اعتمده بشروط اخلاقية انسانية علمية هي لازمة لكل عالم يطلب الحقيقة طلبا موضوعيا خالصا من الهوى ، لا اثر للذات فيه ، فكانت شروط رواية الحديث الصحيح التي تتلخص بانه « الحديث المتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم او الى منتهاه من صحابي او من دونه ولا يكون شاذا ولا معللا بعلة قادحة » وقد قال العلامة ابن كثير ان اول من اعتنى بجمع الصحيح ابو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى وتلاه صاحبه وتلميذه ابو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى فكتاباهما اصح كتب الحديث والبخارى ارجح لانه اشترط فى اخراجه الحديث فى كتابه هذا ان يكون الراوي قد عاصر شيخه وثبت عنده سماعه منه (1).

وبهذا الالتزام الاخلاقي الانساني العلمي في طلب الحقيقة ساعد رضي الله عنه على ترسيخ القيم الانسانية في مجال العلم انطلاقا من التزامه بالاسلام الذي حض على طلب العلم كما حث على التدقيق في كل مروى او منقول حتى ينجلي وتتكشف به الحقيقة سافرة ناصعة لا لبس فيها ولا ابهام ، جاهزة لتكون مادة مفيدة للانسان في كل زمان ومكان .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم (نضر الله امرا سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ اوعى من سامع) (2) ويقول « من كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار » (3) .

ان هذه المعاني في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤكد ضرورة الالتزام بالصدق والامانة والموضوعية في نقل المعرفة باخبار رسول الله ، وهو ما فعله البخارى رضوان الله عليه خدمة للحقيقة وللانسانية معا .

ان حق المعرفة الصحيحة الصادقة النافعة ، هو اول الحقوق الانسانية واشرفها ، يسعى اليه العالم ليس استئثارا بخير ، وانما خدمة للانسانية كلها ، ودفعا لها في معارج الرقي والتقدم . ومن هنا كان البخارى فى حرصه على المنهج العلمي الذي اتبعه ، بغية تقديم المعرفة الصحيحة الصادقة النافعة للانسان مسهما بدرجة عالية وبجهده الشخصي ، وابداعه الخاص ، واخلاصه فى عمله لله سبحانه وتعالى ، كان مسهما بحق فى تعزيز المبدا الانساني الذي يؤكد بداهة حق المعرفة الصحيحة الصادقة النافعة كحق انساني لاجدال فيه ولا نزاع عليه .

ازمة المبادىء الانسانية :

ان المبادىء الانسانية كما جاءت لدى الفلاسفة والمفكرين هى مجموعة المنطلقات النظرية والعلمية التي تهدف الى تحقيق كرامة الانسان ، وبالتاكيد على حقوقه الاساسية في هذا الكون ، كحقه في الحرية والعدالة والعمل والمساواة والتقدم والسلام .

ولقد تباينت نظريات هؤلاء وهؤلاء في تحديد المبادىء الانسانية وطرق الوصول اليها ، فمنهم من وسع هذه المبادىء ، ومنهم من اقتصر على بعضها ، ومنهم من ذهب الى ان الوصول اليها لا يأتي الا من خلال فردية الانسان ، التي يجب ان تكون عند هؤلاء محورا للتربية وللسياسة وللاقتصاد بل وللفكر والوجود بشكل عام . ومنهم من ذهب الى ان الوصول الى هذه المبادىء لا يظهر الا من خلال المجتمع ككل حتى اصبح المجتمع عندهم هو المقياس لاى تقدم تربوى او سياسى او اقتصادى او ما الى ذلك ؛ بل ان المجتمع اصبح

---

(1) الباعث الحثيث لابن كثير — 7 — 8

(2) رواه الامام احمد الترمذى وابن حبان 283/6 فيض القدير و 472/6 المعجم

(3) 214/6 فيض القدير . رواه احمد والترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم

بذلك الغاية النهائية لكل ما في هــذا الوجود مــن عوالــم واكــوان .

ولقد تضاربت الاراء لدى الفلاسفة والمفكريـن القدامى منهم والمحدثين ، حول ما اذا كانت حقيقـه الانسان روحية تحكمها المشاعر والافكار ، ام ماديـة تحكمها الاشياء والاجسام .

وفي خضم هــذه الاختلافات المذهبية العامـة اصاب المبادىء والقيم الانسانية بشكل خاص قـدر كبير من الانتكاس ، فغدت هذه القيم والمبادىء مهزوزة مشوشة ، بل وموضع نزاع في كثير مــن الاحيان ، ادى بالنتيجة في ظروف تاريخية وسياسيـة معقـدة الى الاقتتال بين الشعوب ، وبقيت الانسانية من جراء ذلك كله مهددة بنزعات التسلط والعدوان التي توفرت لدى معظم الدول والامم على مر التاريخ البشـري . وبكلمة واحدة نستطيع ان نلاحظ ان السبب الرئيسي لانتهاكات مبادىء الانسانية على مر التاريخ كان يمكن باستمرار في اختلاف البشر على تحديد معنى هـذه المبادىء بشكل قطعـي .

ويغلب على الظــن ان ازمــة الاختلاف علـى المبادىء الانسانية هذه انما تعود في الاصل الى ضيق النظرة نحو واقع الكون والانسان عند هؤلاء وهؤلاء ، الذين حاولوا اما التمسك بالمبدا الواحد او بالانصراف الكلي عن حقيقة صلة الانسان بالله عنـد تفسيرهم لمظاهر الكون والحياة .

الاسلام والمبادىء الانسانية :

لقد جاء الاسلام ، الذي التزم البخاري بــه ، دينا سماويا يصوب نظرة الانسان الى انسانيته فاكد حرصه على كرامة الانسان ، بــل وحقوق الانسان الانسانية في كل زمان ومكان . فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم» (4)

وقال جل شانه « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » (5). بل انه تبيــن لنا في اكثر مــن مناسبة ان السمــوات والارض والنجوم والكواكـب والافلاك والشمس والقمر والجبال والانهار قد خلقها الله تعالى تكريما للانسان اذ يقول تعالى : « الم تـر ان الله يسجد له من في السموات ومــن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم . » (6) ويقول « الــم تــر ان اللــه سخر لكم ما في الارض والفلك تجرى في البحر بامره ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه ان اللــه بالناس لرؤوف رحيم . (7)

وقد جاء الاسلام دين السماء علــى لســان الانبياء السابقين وبخاصة النبي محمد عليه الصــلاة والسلام يعزز كرامة الانسان ويعلي من قدره ويرفـع عنه الاصر والاغلال التي طرحتها عليه جهالات الاجيال المتعاقبة فنادى بحرية الانسان وحارب الرق وهتـف عمر بن الخطاب امير المؤمنين في وجه عامله عمــرو بن العاص « يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهــم احرارا » . وقــال صلى الله عليه وسلم « بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه المسلم » (8).

واذا كان الاسلام قد سخر كل ما في الكـون لسعادة الانسان وكرامته بصرف النظـر عن اصلـه او عرقه او زمانه او مكانه ، فان الاسلام من خــلال نظرته العادلة الوسطية التي يعبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : « وجعلناكم امة وسطا » قد اكـد ان انسانية الانسان تقوم في التوســط بين حاجاتــه المادية وحاجاته الروحية ، بين مطالبه الفردية ووجوده الاجتماعي فتفتح بذلك عين البشرية على الطريق الاقوم والسبيل الاسلم للفلاح في الحياتين الدنيــا والآخرة على الســواء .

ان التوسط في الاسلام يأتي متلازما مع مبــدا التيسير في ديننا الحنيف ، وهما من اهم المبــادىء الانسانية التي ينبغي الالتفات اليهما والاهتمام بهما ... . ذلك ان الانسان كائن حي له طاقات محدودة لا يملك ان يتجاوزها وله نزعات واهواء من الخطر الكبير تجاهلها او اهمالها ، ولذلك فقــد كانت النظرة الاسلامية كما وردت في القرآن وفي الجامع الصحيح تركز على هذين المبدأين الانسانيين العظيمين

---

(4) سورة التين .
(5) .... الاســراء 70
(6) .... الحــج 18
(7) .... الحــج 64
(8) رواه الشيخان والنص لمسلــم 285 جامــع العلوم لابن رجب

فتخاطب الانسان بهما وتكلفه بأن لا يحيد عنهما اما بخصوص مبدأ التيسير فيقول تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . » (9) ويقول « فاتقوا الله ما استطعتم . » (10)

بل اننا نستطيع ان نجزم بأن نزول القرآن على الناس منجما كان بالاضافة الى حكم كثيرة للتيسير على الناس في حفظه والتزام احكامه وحدوده .

وكذلك كان منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في الحياة مستمدا من هذين الاصلين الانسانيين كما بين لنا الجامع الصحيح . فقد نقل انه صلى الله عليه وسلم ما خير بين امرين الا اختار ايسرهما ما لم يكن اثما (11) . وما رأى من اصحابه تطرفا في العبادة او السلوك الا استنكره وطلب اليهم التوسط فيه والتيسير على انفسهم ، فقد انكر صلى الله عليه وسلم على اصحابه مواصلة الصيام ، كما انكر صوم الدهر ، واستحسن صوم داوود عليه السلام ، وانكر على الثلاثة الذين تقالوا عبادته الى عبادتهم صلى الله عليه وسلم فاختار احدهم قيام الليل ابدا والثاني صوم الدهر ، والثالث الترهب ، فقال لهم « اني لاخشاكم لله واتقاكم له ، ومع ذلك فاني اقوم الليل وانام واصوم وافطر واتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني . » (12) كما قال صلى الله عليه وسلم : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير اسراف ولا مخيلة » ، وقال ابن عباس : كل ما شئت والبس ما شئت ، ما خطئتك اثنتان سرف او مخيلة 33/7 البخاري والنسائي والامام احمد .

المبادىء الانسانية في الجامع الصحيح :

يقول تعالى عن رسوله الصادق الامين « وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى . » (13) فاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المجموعة في الجامع الصحيح المسند الى رسول الله هي وحي من رب العالمين جاء مفسرا للقرآن وموضحا له .

يؤكد هذا قوله صلى الله عليه وسلم « اوتيت القرآن ومثله معه » (14) اى السنة .

وقد جاء الحديث بنماذج من مبادىء الاسلام التي لا سبيل الى ذكرها كلها هنا . ولكن نقول ان من اوائلها تلك التي تدور حول المبادىء الانسانية كما هو واضح في الجامع الصحيح .

غير اننا نريد هنا ان نشير بالقول اننا لكي نحدد المبادىء الانسانية في الجامع الصحيح او اهمها فاننا لا نستطيع ان ناخذ حديثا بالذات او مجموعة من الاحاديث فنقول ان المبادىء الانسانية تبرز فيها دون غيرها ، ذلك ان الاسلام في نظرنا كل لا يتجزأ ، وان كمال انسانية الانسان لا تتوفر الا من خلال التزام الانسان بالاسلام كله ، قرآنا من عند الله وسنة لرسوله في آن معا .

ومن هنا يصبح الايمان بالله في الاسلام اهم المبادىء الانسانية على الاطلاق ، ان هذا الايمان الذي يعطي الجامع الصحيح عنه صورة مشرقة ، هو جماع الخير للانسان ، وذروة البر والرحمة ، وقمة السمو الخلقي لدى بني البشر . ومما يؤكد ذلك ان الامام البخاري رضي الله عنه قد خص به الكتاب الاول من جامعه بعد التحدث عن الوحي .

ولا عجب فان الايمان هو النافذة الواسعة التي يستطيع الانسان منها ان يحسن الاطلالة على الحياة فيفهم الكون والانسان ويدرك تحديد العلاقة بينهما ، بل ان الايمان شرط اساسي لاستقامة معنى المبادىء الانسانية في ضمير الانسان وفي مسيرته المصيرية في هذه الحياة .

ولعل حديثا شريفا واحدا عن الايمان يلخص هذا كله وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبه اعلاها كلمة لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق . (15) ونحن هنا نرى ضرورة التوقف قليلا عند هذا الحديث ، لان

---

(9) .... البقرة 185

(10) .... التغابن 16

(11) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم

(12) رواه البخاري في باب النكاح ج 116/3 ومسلم والنسائي والدارمي والامام احمد 275/2

(13) 3 و 4 / النجم المعجم

(14) رواه الترمذي ج 4 ص 145 وابن ماجة والدارمي

(15) البخاري ج 1 ص 8 والنص لغيره ومختصر شعب الايمان للبيهقي

التوقف ، عند طرفيه بالـذات ، يشكل في الحقيقـة تعبيرا جامعا للمبادىء الانسانية في أرقى مفاهيمها

كمال الحرية ... في كلمة لا اله الا اللـه :

فكلمة لا اله الا الله وهي الطرف الاعلى مـن الايمان تمنح الانسان ارقى درجة من درجات الحريـة الانسانية على الاطلاق ، انها في صيغـة الرفـض المقصودة التي صيغت بها ، تشكل تحريضا مستمرا على العبودية ، انها تدعو الانسان الفرد كي يرفض اى تاليه كان للذات البشرية أو اهوائها المتقلبـة ، ام للمادة وضغوطها العمياء ، ام للمجتمـع وظواهـره المتغيرة ، او للموجودات في عالمنا مهما كانت ، ذلك ان تاليه هذه الاشياء ، انما يؤدى في واقع الامر الى خضوع الانسان لاعتبـارات التفاضل الاعمى بيـن الناس ، ووضع الانسـان في مرتبة ادنى من المادة ، ومن الظواهر الاجتماعية باشكالها المادية المختلفـة . وبمعنى آخر ان هذا التاليه للاشيـاء يعني فى نظـر هذه (الكلمة) استلابا لمبادىء الانسان ولحقه فـي الحرية والمساواة والعدالـة .

ان كلمة لا اله الا الله وهي تنزع عن الاشياء عبودية الانسان لها ، انمـا تركز في الوقت نفسـه وبشكل خاص ومتفرد على توجيه الانسان في طريق الحرية الحق ، باعتباره المبدأ الانساني الاول ، الذي ينبغي أن يعيش الناس جميعا في ظله على قدم سـواء .

وكمال المسؤولية ... فى اماطة الاذى عن الطريق:

واذا كانت الحرية في الاسـلام ، وهي فـي جوهرها تحرر من عبودية الغير ، حرية مطلقة من كل قيد دنيوى ، فانها في الوقت نفسـه حرية ملتزمـة . ومن هذا الالتزام بالمسؤولية الاجتماعية امام الناس . وادق صور هذا الالتزام الاجتماعي تتمثل في مـا ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم من « اماطـة الاذى عن الطريق » لاننـا مسؤولون كي لا يتـاذى مخلوق ولا يتضرر انسـان .

ان روعة هذا الحديث الشريف تتجلى بعد هذا في ما حواه من لقاء فريد بين الاطراف المتباعدة فـي الظاهر ، بين الحريـة والمسؤولية ، بين الفرديـة والجماعية ، بين الحق والواجب ، وبيـن العقيـدة والعمل وكـل ذلك مـن خلال روح الوسطية فـي الاسلام ، وفى اطـار الايمان بالله والاخلاص لله فى العبوديـة .

ان مكانة الايمان ، وانعكاساته الانسانيـة ، بالغة الاهمية في الاحاديث العديدة ، وسنقتصر هنـا على ذكر بعضها . يقول صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسـه » .
ويقول : « لا يؤمن احدكم حتى يأمن جاره بوائقه » (17) وقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمـن » (18) وقوله : « لا ايمان لمن لا امانة له ، ولا ايمان لمـن لا عهد له . » (19) وقوله : « المؤمن ليس بطعان وليس بلعـان ولا بفحـاش ... الى .. عجبـا للمؤمـن ان امـره كله خيـر . (20)

كل الانسانية ... في الايمان :

وهكذا فان انسانية الانسـان مرهونة بهـذا المبدأ الانساني العظيم ، تقـوى وتضعف ، وتتسـع ظلالها وتضيق ، وتلين وتقسو بنسبة ما يكون وضـع الايمان لديه حتى اذا وصل الى درجة محبة اللـه ورسوله ، وذلك لن يكون الا من خلال التحرر الكامل والمسؤول ، يكـون في الواقـع قد وصـل مرتبـة الانسانية الكاملة .

هكذا كانت تجربة الايمان في مطلع الـدعوة الاسلامية وكان فعلها المدهش فـي الارتفاع بقيم الانسان والعمل على تحريـره اخلاقيا واجتماعيـا ، والسمو به فى معارج الرقى الانسانى حتى ارتفع فى اقل من نصف قرن الى مستوى الريادة بعد ان ظـل الانسان العربى دهورا متخلفا فى اخريات الامم .

ومـن هذا الحديث مبادىء انسانيـة كثيرة :

ان قوله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبه ، اعلاها كلمة لا اله الا الله وادناها اماطـة الاذى عن الطريق اذا كان يشير الى اعلـى المبادىء

---

(16) البخارى ج ١ ص 9
(17) اخرجه الامام احمـد
(18) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائـى وابن ماجـة
(19) رواه مسلم في الزهد
(20) رواه الترمذى في باب البر والامام احمد

الانسانية وادقها ، فان بينهما كما قال رسول الله بضعًا وسبعين شعبة من الايمان ، لعلها المبادىء الانسانية بعينها كما ارادها الله سبحانه وتعالى تكريما للانسان وتعزيزا لقدره .

ومن هذا المبادىء التعاون والتراحم بين الناس في ما رواه البخاري (21) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص** يشد بعضه بعضا » وفي حديث آخر (22) يقول « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » .

ومنها العدالة والتساوي بين الناس . روى البخاري بسنده المتصل عن رسول الله قوله : « ان ربكم واحد وان اباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، وليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لاحمر على ابيض ، ولا لابيض على احمر فضل الا بالتقوى .» (23)

بل ان العدالة والتساوي بين الناس ارتفعت في الاسلام بالانسانية من مستوى الصداقة الى مستوى الاخوة فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا » . (24)

اما في مجال التنديد باي مظهر من مظاهر الاضطهاد والعدوان حفاظا على حقيقة الايمان ، وحرصا بالتالي على مبادىء الانسان ، فان الاسلام يندد بالظالم والمعتدى . وروى البخاري بسنده المتصل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته . » (25) كما روى ايضا قوله صلوات الله وسلامه عليه « **من كانت** عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فانه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل ان يأخذ لاخيه من حسناته ، فان لم يكن له حسنات اخذ من سيئات اخيه فطرحت عليه » . (26)

ان الاسلام وهو يؤكد ، من خلال الايمان بالله ، على المبادىء التي ترفع من قدر الانسان ، يدعو الى الكفاح صراحة ضد اى مظهر من مظاهر الاضطهاد والظلم والعدوان . يقع على بني الانسان فيقول تعالى : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم .. (27)

ان هذه الدعوة هي الوجه الاخر والنضالي من حقيقة الايمان من اجل الحفاظ على المبادىء الانسانية وتحقيق العدالة بين بني البشر .

هذه المبادىء اصلها قرآني :

واذا كانت هذه المبادىء الايمانية ، التى اصبحت عند البعض انسانية ، قد جاءت من خلال الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما رواها البخاري وغيره بالسند المتصل ، فان هذه المبادىء النضالية قد اتت اولا في سياق النصوص القرآنية صريحة بينة . يقول تعالى :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (28) ويقول : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » (29) ويقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (30) . ويقول : « ولا يجر منكم

---

(21) ج 1 ص 80
(22) ج 78/7
(23) ج 1 ص 9
(24) رواه البخاري ومسلم والترمذى وغيرهم
(25) رواه البخاري في باب التفسير ج 214/5
(26) رواه البخاري في باب المظالم ج 3 ص 99 والهبة والامام احمد ج 3/د 506
(27) البقرة 19
(28) البقرة 190
(29) النحل 90
(30) المائدة 2

شنآن قوم على الا تعدلـو .. اعدلوا هـو اقـرب للتقوى » (31) .

واذا كان اللـه تعالى ينهـى المسلمين عـن الظلم والعدوان ويدعو الى قتال الظالمين المعتديـن ، فانه تعالى ايضا يدعو الناس الى العـدل والتعارف والتعاون فهو جل من قائل يقول : « ان اللـه يامـر بالعدل » ويقول بلسان رسول الله : « وامرت لا عدل بينكم » كما يقول « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكـم عند الله اتقاكم » (33) .

ان المبادىء الانسانية كثيرة اذن ، اهمها الحرية والعدالة والمساواة بين الناس ، وفى اطارها يأتـى حق الانسان في المعتقد ، والرزق والعمل ، والحياة ، والاستقرار ، والعيش بسلام في هذا العالم . وكلها مبادىء كفلها الاسلام ونص عليها القرآن ، وجـاءت السنة المطهرة والحديث الشريف تاكيدا لهـا .

ان المشكلة الانسانية اليوم هي مشكلة القيم في الاساس ، تلك القيم التي تحدد غاية التعامل بيـن الناس والمجتمعات والشعوب ، ان المشكلة بهـذا المعنى تصبح مشكلة اخلاقية بالنتيجة ، ولهذا جـاء الاسلام ، دينا من عند الله ، يهـذب اخلاق النـاس ويحدد لهم درجات القيم ، ولعل ما رواه البخارى عـن رسول الله من حديـث يلخص المشكلـة الاخلاقيـة والانسانية في مسالـة التعامـل البشرى تلخيصـا اسلاميا قال فيه رسول الله « انما بعثت لاتمم مكارم الاخـلاق (34) .

وهذه المبادىء .. في عالمنـا :

ان عالمنا يشهد اليوم ازمة حادة تعانيها هـذه القيم السامية على صعيد علاقات الافراد والمجتمعات والشعوب والدول ، فالظلم والعدوان والاضطهـاد والتسلط ومشاكل التميز العنصـرى ، ومحـاولات السيطرة الاقتصادية ، ومخططات العنصريات الدينية والتسابق على اقتناء السلاح الرهيب ، والتهديـد المستمر للشعوب المستضعفة ، والاستئثار بالانجازات العلمية ، وانقسام العالم الى مناطق متقدمة ومناطق متخلفة ، وبقاء مناطق شاسعة من العالـم وكتـل هائلة من البشر تعاني من الجوع والمرض والجهل في الوقت الذى يستشرى فيـه الفسـاد فـى بعـض المجتمعات الثرية المتخمة ، كل هذا وغيره من شأنـه ان يدفع بهذه القيم السامية نحو الهاويـة .

الصهيونية واللاانسانية فى شرقنا العربى :

ثم ان الشرق العربى ، الذي يدين بالاسلام اجمالا ، ويتمسك بالتالي بهذه القيم الرفيعة ويعمـل على ترسيخها ، يجد اليوم ان القيم الانسانية اصبحت منتهكة فى ارضه ، بفعل العـدوان الاسرائيلـى ، الاستيطانى في ارض فلسطين ! ان هذا العـدوان الصهيونى الذى تدفق على ارض فلسطين من جميـع الدول الاجنبية عن المنطقة ، وبمساعدة منها ، قـد قام على اساس من تمييز عنصرى غير انسانى بيـن الانسان والانسان . كما قـام على سياسة التوسـع والارهاب واحتلال اراضى الغيـر بالقـوة ، وعلـى سياسة الحرق والدمار كما تشهد بذلك مدينتا القنيطرة والسويس وغيرهما ، فضلا عن العدوان الوحشـي على جنوب لبنان ، وترآه الامنة وشواطئه المسالمة ، وانزال الخسائر بارواح الشيوخ والنساء والاطفـال من اللبنانيين المدنيين وتخـريب اراضيهـم وحـرق مزروعاتهم وتحطيم ادوات كسب الرزق لديهم .

واذا كان المسلمون فى هذه المنطقة قادرين ، بما يحمل الاسلام لهم من مبادىء انسانيـة ، علـى الكفاح ضد العدوان الصهيونى وضد اى شكل مـن اشكال العدوان على معاني الانسانية في كل مكان ، وذلك لتحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، وترسيخ حرية الشعب الفلسطينى بشكل خـاص ، وحقوقـه الانسانية والوطنية . ان المسلمين اذا كانوا قادرين على كل ذلك فان الواجب في الحفاظ على القيم الانسانيـة يقضى على دول العالم مساندة هذا الكفـاح بشتى اشكاله وصوره ، وان اى تخلف عن هذه المسانـدة تعتبر بحق تخلفا عن ركب الانسانية السائرة بالضرورة في معارج التقدم والنصـر .

ان مسـؤوليـتـنا فى ذلـك مسـؤوليـة انسانية لانها مشتركة بين ابناء البشر جميعا ، فبالقدر الذي يتم فيه التعاون على رفع الظلم ورد العـدوان

---

(31) المائدة 8
(32) النحل 90
(33) الحجرات 13
(34) رواه الموطا في باب حسن الخلق رقم 8

تكون في الطريـق الاسلم الموصل الى تدعيـم قيـم الانســـــان .

ان الاسلام كما يتضح لنا من مراجعة ابـواب وفصول الجامع الصحيح لم يكتف بترسيخ مفاهيم العدل والمساواة بين الناس ودعمها ورفع كوابيس الظلـــم عنهم بل سهل لهم طريق التآخي عندما اعتبرهم اخوة ، وسقى اخوتهم برحيـق عـذب من الآداب والاخلاق والانظمة حتى أورقت وعم افضالها العالم .

وبعــد :

فلقد قضى الامام البخارى زهرة شبابه وكهولته في طلب العلم وحل من بلد الى بلد متحمـلا المشاق ومثابرا على الصعاب والبلاء لينقل الينا هـذا التراث النبوى العظيم في كتابه الجامع الصحيـح وبمنهجـه الدقيق المنضبط فكان وسيبقى صاحب الفضـل الاول في حفظه وابرازه للناس على اختلاف نحلهم وازمنتهم وامكنتهم .

ان المبادىء الانسانية التي لفتنا النظر الـــى بعضها في هذه الكلمة العاجلة والتي جهد البخارى في التقــاط نصوصها من السنة الرواة والحفاظ رسخت مكانة هذا الامام العظيم في نفوس المسلمين الاوليـن والمتاخرين ورفعـت مقامـه الـى مصاف الاوليـاء والصالحيـن .

وفق الله الجميع لما فيه تعزيز الاسلام عقيدة ونظاما وسلوكا لانه الدين الحنيف الذي اعطى للانسان كرامته ، وحث المسلمين كي يكونوا اول الداعين الى الحق ، المتمسكين بالعدالة ، العاملين مـن اجـل الســـلام .

لبــنان : حسن خالــد

مـــا الـــكـــمـــوج

ســأل تلميذ استاذه : ما الكموج ؟ فقال الاستاذ : واين رايت هـذه اللـفـظـــة ؟

قال التلميذ في قول امرىء القيس :

« وليـل كمـوج البحـر ارخي سـدوله »

فقال : نعم ، الكموج : دويبـة من دواب البـر تحمـل الكتـب ولا تعـلم مـا فيهـا . .

صحيح البخاري بالغرب الإسلامي

للأستاذ سعيد أعراب

لعل اول كتاب من كتب السنة دخل الغرب الاسلامى ، موطأ مالك بن انس ، وكان دخوله على يد على بن زياد التونسى (توفى 183 هـ) ، وعنه عرفه اهل افريقية (1) .

واول من ادخله الاندلس ، غازى (2) بن قيس القرطبى (توفى 199 هـ) ، وكان يحفظه عن ظهر قلب ، لا يكاد يسقط منه حرفا واحدا

وتوالت الرحلات للاخذ عن مالك ، فسمعه عليه بالمدينة المنورة مهبط الوحى ، ومنار الاشعاع الاسلامى الاول — كثيرون نذكر منهم :

يحيى بن مضر القيسي ؛ ويحيى بن سلام التيمي، وعبد الرحمان بن ابى هند الطليطلى ، وهؤلاء الثلاثة يروى عنهم مالك ، فكانت روايتهم تدبيجا (3) ؛ وفى ذلك لاهل المغرب — كما يقول ابن الابار فخر تالد ، وذكر بصحبته التخليد (4) ؛ وعبد الله بن غانم الافريقى (5) ، وعبد الرحمان بن اشرس ، وابو عثمان حاتم بن عثمان المعاجري ، وصغلاب بن زياد الهمدانى ، ويحيى بن زكرياء التجيبى ، وعبد الله بن تفي حسان البحصبي ، ورباح بن عثمان الازدي ، وزرارة بن عبد الله ،والبهلول بن عمرو التجيبى ، ويزيد بن محمد الجمحى ، واسد بن عبد الرحمان السبئي ، ومحمد بن يحيى السبئي ، المعروف بقطيس بن ام غازية ، ومحمد ابن عبد الله المطماطى البزار ، وسعيد بن عبدوس المعروف بالجدى ، وسعيد بن هند الطليطلى ، وحسان بن عبد السلام السلمى ، واخوه حفص بن عبد السلام السلمي ، وطالب بن عصمة ، ومسلمة ابن سليمان — خرج له الدارقطنى (6) ، وطالوت بن عبد الجبار المعافرى ، وداود بن جعفر بن ابى صغير (7) وزياد بن عبد الله الانصارى ،وترعوس بن العباس الثقفى، وزياد بن عبد الرحمان شبطون ، وعبد الله بن فروخ الفارسى القيروانى ، والبهلول بن راشد ، ويزيد بن بشير ، ذكره الدارقطنى (8) فى الرواة عن مالك ،

---

1) ترتيب المدارك 326/1 ، وانظر الانتقاء لابن عبد البر ص 60 .

2) وهذا لا ينافي ما قيل ان اول من ادخله الاندلس ، زياد بن عبد الرحمان شبطون ، فان شبطون — على ما يبدو — أول من ادخله كاملا متقنا ، — كما تشير اليه عبارة المدارك 349/1 ، والنفح 47/2 .

3) التدبيج فى مصطلح الحديث ، ان يروى الراويان كل منهما عن الاخر ، انظر التقييد والايضاح على مقدمة ابن الصلاح للعراقى ، ص 333 .

4) التكملة 10/1 — طبع مصر .

5) من الثقات الاثبات ، روى عنه البخارى فى الصحيح ، وكان مالك يجلسه الى جانبه ، عرض عليه ان يتزوج بابنته ، وان يقيم عنده ، فابى المقام ، وقال له : ان اخرجتها الى تونس تزوجتها . ترتيب المدارك 316/1 — 325 .

6) تاريخ علماء الاندلس 128/2 .

7) كذا ذكره ابن الفرضى فى تاريخه 142/1 ، وسماه فى الجذوة ص 200 داود بن صغير ، وفى البقية (ابن ابى صغر) .

8) التكملة 224/1 — طبع مصر .

وشبعون بن عبد الله الطليطلى ، ويحيى بن يحيى الليثى ، ومحمد بن ابراهيم بن مزين ، وعبد الرحمان بن عبيد الله ، وعبدالملك بن حبيب — فيما ذكره الحميدى (9).

وهذه الجمهرة من الرواة المغاربة ؛ تدلنا على مدى احتفائهم بهذا الكتاب ، واجلالهم لمؤلفه ، حتى صار اماما لهم مدى العصور والاجيال .

مصنف ابى داود السجستانى (ت 275 هـ)

لم يكد ينتهي النصف الاول ، او العقد السادس — على الاصح — من القرن الثالث الهجرى ، حتى تطايرت الى المغرب ، اصداء مصنف آخر ، وهو مصنف ابى داود السجستانى ، وقد جمع من السنن، اضعاف ما فى الموطا ، وهو اول مصنف فى السنن — على ما قيل (10) — فشد الناس الرحال للاخذ عنه ، وممن رحل فى هذا الصدد ، قاسم بن اصبغ البيانى (11) ، ومحمد بن عبد الملك ابن ايمن (12) ، وعندما وصل الى العراق سنة (276 هـ) ، فوجئا بخبر وفاته قبل وصولهما بيسير ، فلما فاتهما الاخذ عنه ، عمل كل منهما مصنفا فى السنن ، على نهج ابى داود فى الترتيب والتبويب ، وخرجا الاحاديث من روايتهما عن شيوخهما ، وقد اختصر قاسم بن اصبغ مصنفه فى كتاب آخر ، سماه « المجتنى » (13) — بالنون ، وجعله باسم الخليفة الحكم المستنصر (14).

اشهر الروايات عن ابى داود بالمغرب

واشهر الرويات عن ابى داود بالمغرب اربع :

1 — رواية ابى بكر بن داسة البصرى ، وهى اكمل الروايات (15) .

2 — وتقاربها رواية ابى عيسى اسحاق بن موسى الرملى .

3 — ثم رواية ابى سعيد الاعرابى ، وقد فاته كثير من ابواب سنن ابى داود

قال ابو على الجيانى : واضبط من كتب مصنف ابى داود عن ابى سعيد بن الاعرابى — من اهل بلدنا — ابو عمر احمد بن سعيد بن حزم المنتجيلى ، وعلى اصله اعتمد شيوخ المغرب فى رواياتهم (16) .

4 — والرواية الرابعة رواية ابى على محمد بن احمد بن عمر واللؤلؤى البصرى .

سنن النسائي (ت 303)

ثم ظهر الى جانب مصنف ابي داود ، سنن النسائى (الكبرى) ، وقد تأخرت وفاة ابى عبد الرحمان النسائى عن ابى داود بنحو ربع قرن ، فهرع الناس للاخذ عنه ، حتى لا يفوتهم ما فاتهم من ابى داود . واول من ادخل سنن النسائى الى المغرب الاسلامى ، ابو بكر محمد بن معاوية القرشى (ت 328 هـ) ، وعنه انتشر (17) ورواه عن النسائى بواسطة ، ابو محمد عبد الله بن محمد اللخمي الباجي ، وابو بكر عباس بن اصبغ ، كلاهما عن محمد بن قاسم ، عن النسائى . وفى رواية محمد بن قاسم هذا ، زيادات لا توجد عند ابى بكر بن معاوية . ورواه من رواية حمزة بن محمد الكنانى ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن يحيى بن مفرج القاضي، وعبد الله بن محمد بن اسد الجهنى ، وابو محمد الاصيلى ، وابو الحسن القابسى ، وابو القاسم احمد بن فتح التاجر المعافرى ، وانتشرت رواية

---

9) جذوة المقتبس ص 264 ، وانظر النفح 6/2 .
10) الرسالة المستطرفة ص 11 ، وانظر فهرسة ابن خير ص 107 .
11) كان بصيرا بالحديث والرجال ، وكانت الرحلة اليه فى الاندلس ، (ت 340 هـ) تاريخ علماء الاندلس 364/1 — 366 ، الجذوة ص 311 ، النفح 47/2 .
12) قال الحميدى : حدث بالمشرق والمغرب ، وصنف فى السنن (ت 330 هـ) — الجذوة ص 63 ، وانظر تاريخ علماء الاندلس 51/2 .
13) مصنف جليل — كما يقول ابن حزم ، يقع فى سبعة اجزاء ، يوجد قسم منه بمكتبة الاوقاف بمكناس
14) انظر النفح 47/2 .
15) فهرسة ابى خير ص 106 .
16) نفس المصدر .
17) جذوة المقتبس ص 82 .

هؤلاء في الاندلس والمغرب ، واختصر النسائي كتابه « السنن الكبرى » — باقتراح احد الامراء — في كتاب سماه « المجتبى » بالباء ، واقتصر فيه على الصحيح ، وترك كل حديث تكلم في اسناده بالتعليل (18) ، واشتهر هذا المختصر بين الناس ، حتى صار اذا اطلق سنن النسائي ، لا ينصرف الا اليه (19) .

صحيح البخاري

والجامع الصحيح للبخاري ، يأتي في المرتبة الاولى من كتب السنة ، بما في ذلك من شك ، الا ان اهتمام المغاربة بموطا مالك ، ومصنف ابي داود — لاسباب ، قد يكون منها انهم اهل فقه ، اكثر منهم اهل حديث — مما جعلهم لا يلتفتون الى كتب الصحيح الا بأخرة (20) كما يقول الحافظ المسند ابو محمد بن يربوع (21) .

● ويذكر المقري في النفح (22) ان ابا حفص الهوزني ، هو الذي ادخل صحيح البخاري الى المغرب ، وعنه اخذه الناس .

وكانت رحلة الهوزني الى المشرق سنة (444هـ)، وتوفي سنة (460 هـ)، وهذا يقتضي ان دخول الجامع الصحيح الى المغرب ، كان في حدود منتصف القرن الخامس الهجري ، وهو غير صحيح ، ولعل العبارة الصحيحة ما جاء في المغرب لابي سعيد ، نقلا عن ابن بسام في الذخيرة : ان الهوزني روى في طريقه كتاب الترميذي في الحديث ، وعنه اخذه اهل المغرب (23) .

اشهر روايات الصحيح بالمغرب

واشهر روايات الصحيح بالمغرب (24) :

1 — رواية ابي ذر الهروي ، رواها عنه من شيوخ المغرب ، ابو الوليد الباجي ، وابو عبد الله محمد بن شريح المقرىء ، وابو عبد الله محمد بن احمد بن عيسى بن منظور القيسي ، قال ابي منظور : سمعته في المسجد الحرام عند باب الندوة سنة (431 هـ) ، وقرىء عليه ثانية وانا اسمع ، والشيخ ابو ذر ينظر في اصله ، وانا اصلح في كتابي في المسجد الحرام عند باب الندوة في شوال سنة (431 هـ) (25) . وابو ذر يرويه عن شيوخه الثلاثة : ابي محمد ابن حموية السرخسي ، وابي اسحاق المستملي وابي الهيثم الكشميهني ، كلهم عن ابي عبد الله الفربري عن البخاري .

2 — رواية ابن السكن ، وقد حدث بها عنه ابو محمد عبد الله بن محمد بن اسد ، سمعه عليه بمنزله بمصر سنة (443 هـ) عن الفربري عن البخاري.

3 — رواية ابي محمد عبد الله بن ابراهيم الاصيلي المغربي ، سمعها عنه محمد بن بشير الصراف ، قال سمعت جميعها على الاصيلي سنة (483 هـ) ، قال الاصيلي : وسمعتها على ابي زيد المروزي بمكة سنة (453 هـ) ، سمعتها عليه ايضا ببغداد في شهر صفر سنة (359 هـ) ، قرا ابو زيد بعضها ، وقرات انا بعضها حتى اكمل جميع المصنف ، وقراها ابو محمد الاصيلي على ابي احمد الجرجاني ، عن الفربري ، عن البخاري .

4 — رواية القابسي ، حدث بها عنه ابو القاسم الطرابلسي وغيره ، وهو اول من ادخل صحيح البخاري الى افريقية .

5 — رواية النسفي ، وقد حدث بها ابو العاصم حكم بن محمد الجذامي ، عن ابي الفضل احمد بن

---

18) فهرسة ابن خير ص 116 — 117 .
19) الرسالة المستطرفة ص 12 .
20) فهرسة ابن خير ص 107 .
21) ابو محمد عبد الله بن احمد بن سعيد بن يربوع ، من اهل اشبيلية سكن قرطبة ، وكان محدثا ظاهري المذهب (ت 522 هـ) .
معجم اصحاب الصدفي ص 216 ، البغية ص 327 .
22) ج 93/2 .
23) المغرب في حلى المغرب 239/1 .
24) فهرسة ابي خير ص 95 .
25) نفس المصدر ص 96 .

عمران الهروى ، عن ابى صالح خلف بن محمد بن اسماعيل الخيام ، عن ابراهيم بن معقل النسفى عن البخارى (26) .

قال ابو على الجياني وهذه الروايات كلها متقاربة ، واقرب الروايات الى رواية ابى ذر ، رواية ابى الحسن القابسي ، عن ابى زيد المروزي .

امير مرابطى يغالى فى شراء اصل الهروى

من امراء المرابطين ، ابو عمر ميمون بن ياسين الصنهاجي (ت 530 هـ) كان معتنيا بالاثار ، مقتنيا للاصول والدواوين العتيقة ، رحل الى المشرق فرغب فى السماع من ابى مكتوم ابن ابى ذر الهروى ، فاستقدمه من سراة بنى شيبة ، وبها كان سكناه وسكنى ابيه ابي ذر من قبل ، فاشترى منه صحيح البخاري اصل ابيه الذي سمع فيه على ابي اسحاق المستملى وغيره ، بجملة كبيرة من المال ، وسمعه عليه فى عدة اشهر قبل وصول الحجيج (27) .

واهم ما يلاحظ فى هذا الصدد ، ان اكثر الروايات التى يتصل بها الحافظ بن حجر بالبخارى ، والتى صور بها شرحه « فتح الباري » انما جاءته من طريق المغاربة ، مثل رواية ابن السكن ، ورواية الهمدانى ، ورواية الاصيلى ، ورواية القابسى ، ورواية النسفى (28) .

وقد اورد هذه الروايات كلها بأسانيدها المتصلة، ابو علي الجياني فى كتابه « تقييد المهمل » على الصحيحين .

مدى عناية اهل المغرب بالجامع الصحيح

ربما كانت عناية المغاربة بالجامع الصحيح ، اكثر من غيره — باستثناء موطا مالك الذى هو عمدة مذهبهم ، فقد شرحوه ولخصوه ، وجردوه من اسانيده وعلقوا عليه ، وبحثوا تراجمه وفقه ابوابه ، وعرفوا برجاله واسناده ، واستقرءوا الفاظه الغريبة ورواياته .. وتتجلى هذه العناية فى ان اول شرح له ظهر فى المغرب

ومن الذين شرحوه :

1 — ابو جعفر احمد بن نصر (30) الداودى التلمسانى (ت 402 هـ) ، وهو اول شرح له — فيما يذكر بعضهم (31) وسمي شرحه بـ « النصيحة » .

2 — المهلب بن ابى صفرة (ت 436 هـ) — شرح البخارى شرحا موسعا ، وله « تلخيص الصحيح » .

3 — وقد اختصر شرحه تلميذه محمد بن خلف بن المرابط (ت 485 هـ) ، واضاف اليه اضافات .

4 — ابو الحسن على بن خلف الشهير بابن بطال (ت 449 هـ) ، ويقع شرحه فى عدة اسفار ، لكن غالبه فى فقه مالك ، ولابن المنير حواش عليه (32) .

5 — ابو حفص بن الحسن الهوزنى (33) ، (ت 460 هـ) .

---

26) ويروى عن النسفى ان البخارى اجاز له آخر الديوان من اول كتاب الاحكام ، الى آخر ما رواه النسفى عن البخارى من الديوان ، على ان فى رواية الفربرى زيادة على رواية النسفى بنحو ستة اوراق ، فهرسة ابن خير ص 98 .

27) التكملة 395/2 — 396 — طبع مجريط .

28) الفتح 6/1 — 8 .

29) نفس المصدر .

30) سماه القسطلانى فى مقدمة شرحه على البخارى ص 41 : احمد بن سعيد وتابعه على ذلك صاحب كشف الظنون ، وانظر ترجمته فى ترتيب المدارك 623/4 ، والديباج ص 35 ، ونفحات النسرين والريحان ص 90 .

31) انظر تاريخ الجزائر العام 361/1 .

32) القسطلانى 41/1 .

33) ذكر القسطلانى 41/1 ان له شرحا على البخارى ، ومثله فى كشف الظنون 546/1 ، وتصحف عندهما بـ (الفوزنى) .

6 – ابو الاصبغ بن سهل بن عبد الله الاسدي (ت 486 هـ) .

7 – ابو القاسم احمد بن عمرو بن ورد التميمى (34) ، (ت 540 هـ) .

8 – القاضى ابو بكر بن العربى (543 هـ).

– النيرين فى الصحيحين

– سباعياته فى صحيح البخاري .

9 – ابو محمد عبد الواحد بن التين السفاقسي له شرح على البخارى ، افاد منه القسطلانى (35)

10 – ابو محمد عبد الله بن سعد بن ابي جمرة (ت 699 هـ) ، شرح ما اختصره من صحيح البخارى ، وهو نحو ثلاثمائة حديث (36) .

11 – ابو عبد الله محمد بن مرزوق (الحفيد) (ت 842 هـ) .

– المتجر الربيح ، والمسعى الرجيح ، فى شرح الصحيح .

– انوار الدرارى ، فى مكررات البخارى

12 – ابو عبد الله محمد بن منصور المغراوى السجلماسى .

– حل اغراض البخارى المبهمة ، فى الجمع بين الحديث والترجمة – وهى مائة ترجمة (37) .

13 – ابو عبد الله محمد بن يوسف السنوسى (ت 895 هـ)

– شرح البخارى لم يكمله .

– شرح مشكلات البخارى – شرح مختصر الزركشى على البخارى (38) .

14 – ابو عبد الله محمد بن رشيد السبتى (ت 721 هـ) .

– ترجمان التراجم ، فى وجه مناسبة تراجم البخارى

– افادة النصيح ، فى التعريف بسند الجامع الصحيح (39) .

– المحاكمة بين البخارى ومسلم .

15 – ابو الحسن محمد بن احمد الجيانى (ت 540 هـ)

– شرح غريب البخارى .

16 – ابو زكرياء يحيى بن عبد الرحمان العجيسي (ت 862 هـ) .

17 – ابو اسحاق ابراهيم بن هلال السجلماسى (ت 903 هـ) .

– اختصار فتح البارى

18 – ابو العباس احمد زروق (ت 899 هـ)

– تعليق على البخارى

19 – ابو محمد عبد القادر الفاسى (ت 1091 هـ)

– حاشية على البخارى .

20 – ابو زيد العارف (ت 1096 هـ) .

– حاشية على البخارى (40)

21 – ابو عبد الله التاودى بن سودة (ت 1129 هـ) .

---

(34) قال القسطلانى 42/1 – وشرحه واسع جدا ، وتصحف عنده بـ (غرد) .
(35) انظر مقدمة شرحه على البخارى ص 40 .
(36) يقع شرحه فى جزئين ، وهو مطبوع .
(37) القسطلانى 43/1 ، كشف الظنون 551/1 .
(38) نيل الابتهاج ص 329 .
(39) طبع اخيرا بتونس بتحقيق الدكتور بلخوجة .
(40) طبعت بفاس سنة (1307 هـ) .

ـ زاد المجد الساري ، الى قراءة صحيح البخارى ـ (حاشية) (42) .

ـ نظمه لسنده فى الصحيح .

22 ـ ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن زكرى الفاسى (ت 1144 هـ) .

له حاشية على البخارى (43) .

23 ـ ابو عبد الله محمد بن احمد الحضيكى (ت 1189 هـ) ، له شرح على البخارى

24 ـ ابو محمد عبد القادر بن احمد الكوهن (ت 1225 هـ) ، شرح حول ترجمة للبخارى ، وشرح آخر ترجمة له ايضا .

25 ـ ابو الحسن على الونيسى من اهل القرن الثالث عشر له شرح على البخارى فى 12 جزءا (44)

26 ـ ابو الحسن على بن سليمان الدمناتى (ت 1306 هـ) .

ـ روح التوشيح على الجامع الصحيح ـ (حاشية) (45) .

27 ـ ابو محمد الداودي التلمساني (ت 1271 هـ) .

ـ له شرح على البخارى لم يكمله (46)

28 ـ ابو محمد الفضيل بن الفاطمى الزرهونى

ـ له شرح على البخارى ـ ولعله لم يكمله (47) .

اما الذين كتبوا عنه كتابات خاصة ، فمنهم :

29 ـ ابو عمر بن عبد البر (ت 463 هـ) ، الاجوبة الموعبة على المسائل المستغربة ـ من البخارى

30 ـ ابو محمد بن حزم (ت 458 هـ) ، اجوبة على الصحيح .

31 ـ ابو الوليد سليمان بن خلف الباجى (ت 474 هـ) ، التعديل والتجريح ، لمن خرج عنه البخارى فى الصحيح .

32 ـ ابو الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتى (ت 544 هـ) ، مشارق الانوار ، على صحاح الآثار (48) خصه بالموطأ والصحيحين .

33 ـ ابو اسحاق ابراهيم بن يوسف الوهرانى دفين فاس (ت 569 هـ) ، مطالع الانوار ، على صحاح الآثار ، اختصر فيه مشارق الانوار ، واضاف اليه اضافات (49) .

34 ـ ابو على حسين بن محمد الغسانى ، المعروف بالجيانى (ت 498 هـ) ، تقييد المهمل ، وتمييز المشكل (50) ضبط فيه كل لفظ من اسماء رجال الصحيحين

35 ـ ابو عبد الله محمد بن حسين المرى (ت 582 هـ)

ـ الجمع بين الصحيحين

36 ـ ابومحمدعبد الرحمان بن عبد الحق الاشبيلى (ت 581 هـ).

ـ الجمع بين الصحيحين

ـ مصنف كبير ، جمع بين الكتب الستة .

37 ـ رزين بن معاوية العبدري السرقسطي (ت 524 هـ) ، تجريد الصحاح الستة .

---

(41) طبعت على الحجر بفاس على هامش حاشية ابى زكرى .
(42) فى اربعة اجزاء ، وهى مطبوعة .
(43) فى خمسة اجزاء طبعت بفاس .
(44) تعريف الخلق 286/2 .
(45) فى مجلد ، وهو مطبوع .
(46) تعريف الخلق 107/2 ، اليواقيت الثمينة 143/1 .
(47) التنويه والاشادة ، بمقام رواية ابن سعادة ـ للكتانى ص 10 .
(48) فى مجلدين ، طبع بالمطبعة المولوية بفاس سنة (1329 هـ) .
(49) الرسالة المستطرفة ص 157 .
(50) يوجد مخطوطا بالخزانة الملكية ، وهو من نفا ئسها الثمينة ما اجدره بالتحقيق .

38 — ابو عبد الله محمد بن عتيق التجيبي القرتاطى (ت فى حدود 646 هـ) ، انوار المصباح ، فى الجمع بين الكتب الستة الصحاح .

39 — ابو العباس احمد بن عمر الانصاري القرطبى (ت 656 هـ) ، اختصار الصحيح .

40 — ابو بكر بيبش بن محمد بن علي بيبش العبرى (ت 582 هـ) .

— التصحيح — تجافيه منحى المهلب بن ابي صفرة فى اختصار الصحيح (51) .

— تاليف جمع فيه الاحاديث التى زاد مسلم فى تخريجها على البخارى .

41) جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجياني (ت 672 هـ) .

شواهد التوضيح والتصحيح على مشكلات الجامع الصحيح (52) .

42) ابو على حسين بن محمد الصدق (ت 514 هـ) سباعياته فى الصحيحين .

43) ابو القاسم عبد الرحمان بن يحيى القرشى الاموى ، الجمع بين الصحيحين .

44) ابو الحسين محمد بن محمد بن سعيد بن زرقون (ت 621 هـ) ، خطب الشريعة فى الجمع بين الصحيحين .

45) ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن خلفون (ت 636 هـ) ، المعلم باسامى (53) شيوخ البخارى ومسلم .

46) ابو محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله (ت 612 هـ) .

تسمية شيوخ البخارى ومسلم — نزع فيه منزع الكلابذى لم يكمله (54) .

47) ابو العباس احمد بن محمد بن مفرج الاشبيلى الاموى ، المعروف بابن الرومية (ت 637 هـ) المعلم بما رواه البخارى على شرط مسلم .

48) ابو الخطاب بن دحية (ت 633 هـ) .

انوار المشرقين ، فى تنقيح الصحيحين المشرقين

49) ابو العباس احمد بن رشيق الكاتب (ت 446 هـ) ، له تاليف فى تراجم صحيح البخارى ، ومعانى ما اشكل من ذلك (55) .

50) ابو عبد الله الكرسبوطى ، المولود سنة (690 هـ) ، تجريد الصحاح الثلاثة : البخارى ومسلم والترمذى .

51) ابو الربيع سليمان الكلاعى (ت 634 هـ) اخبار البخارى وترجمته .

52) ابو عبد الله محمد بن سليمان الروداني (ت 1094 هـ) ، الجمع بين الكتب الخمسة والموطا ، اسماه « كتاب جمع الفوائد ، من جامع الاصول ومجمع الزوائد » (56) .

53) حمدون بن الحاج الفاسى (ت 1232 هـ) ، نفحة المسك الدرارى ، لقارىء صحيح البخارى (57)

اصول عتيقة بالمغرب عمرها نحو (900) سنة

كان من عادة طلاب العلم ورجال الحديث بصفة خاصة ، ان يدونوا رواياتهم ، ويصححوها على اصول شيوخهم ، ويتحروا فى ضبطها وتحقيقها ، لتكون عمدتهم فى الاسماع والتحديث . وقد اشتهرت بالغرب الاسلامى — اصول كثيرة لائمة مشهورين ، عرفوا بالضبط والاتقان وسعة الرواية ، وتداولها الناس عنهم جيلا بعد جيل .

---

51) التكملة 228/1 — 229 — طبع مصر .
52) فى مجلد طبع .
53) كما فى الذيل والتكملة للمراكشى ، وسماه فى التكملة (المبهم فى شيوخ البخارى ومسلم) .
54) التكملة / 507 — 508 — طبع مجريط .
55) ذكره له الحميدى فى الجذوة ص 115 .
56) جزءان فى مجلد ، طبع بالهند (1346 هـ) .
57) طبع على الحجر بفاس (1329 هـ) .

ومن هذه الاصول :

1) اصل ابى محمد الاصيلى .

2) اصل ابى الوليد الباجى .

3) اصل ابى على الصدفى .

4) اصل القاضى عياض .

5) اصل ابى عمران بن سعادة .

6) اصل ابى القاسم المهلب بن ابى صفرة .

7) اصل ابى العباس العذرى .

8) اصل ابى الوليد بن الدباغ .

9) اصل ابى القاسم بن ورد .

10) اصل ابى عبد الله محمد بن شريح .

11) اصل ابى عبد الله بن منظور القيسى .

12) اصل ابى محمد القيظي السرقسطي (58) .

13) اصل ابى بكر بن خير .

14) اصل ابى الحسن طاهر بن مفوز .

15) اصل ابى الحسن الشادى .

ولنقتصر فى الحديث على الاصول التالية :

1) اصل ابى على حسين بن محمد الصدفى (59) ، كتبه بيده من نسخة بخط محمد بن على ابن محمود ، مقروءة على ابى ذر الهروى ، وقد فرغ من نسخه يوم الجمعة 21 محرم عام (508 هـ) وعليه سماعات العلماء من لدن عياض فمن دونه الى ابن حجر ، ولقد اعتمد عليه الحافظ ابن حجر فى شرحه (فتح البارى) على صحيح البخارى — كما يقول تلميذه السخاوى (60) .

وكان اول من عثر على هذا الاصل بطرابلس الغرب ، عالمان مغربيان ، احدهما ابو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصرى (ت 1239 هـ) ، وللاخر ابو العباس احمد بن عبد القادر الفاسى (ت 1214 هـ) — فى رحلتهما الى الحجاز سنة (1211) ، وقد تحدث عنه كل منهما فى رحلته ، ووصفه وصفا شافيا :

يقول ابو عبد السلام الناصري وقفت بطرابلس الغرب عند ابى الطبل ، على نسخة البخارى فى مجلد بخط ابى على الصدفى : شيخ القاضى . وعليها سماعات العلماء من القرون السالفة ، ولقد بذلت لمن اشتراه فى عدة كتب من اهل طرابلس باسطنبول بثمن تافه — صرة ذهب — فابى من بيعه ، وبقى ضائعا فى ذلك القطر (61) .

ويذكر ابو العباس انه يقع فى سفر واحد من نحو ست عشرة كراسة ، وفى كل ورقة خمسون سطرا من كل جهة ، وكلها مكتوبة بالسواد لا حمرة بها اصلا ، ولا نقط بها الا ما قل (62) .

واختفى هذا الاصل مدة ، ثم ظهر اخيرا بمكتبة الاوقاف ببنغازى (63) ، ولا ندرى ما مصيره الآن ؟

2) اصل ابى عمران موسى بن سعادة تلميذ ابى علي الصدفي ، والقائم بشؤونه ، كتبه من اصل شيخه ابى على الصدفى ، وقراه عليه نحو ستين مرة ، — كما يقول ابن الابار (65) .

---

(58) ذكر ابى رشيد فى افادة النصيح ص 49 — انه من الاصول المعتمدة فى الاندلس وكان محبسا بجامع العديس باشبيلية .

(59) انظر ترجمته فى الصلة 143/1 ، وتذكرة الحفاظ ص 1253 ، والنفح 90/2 ، والف ابن عبد البر المعجم فى اصحاب الصدفى .

(60) التنويه والاشادة ص 30 .

(61) رحلته الصغرى مخطوط خاص .

(62) رحلته الحجازية مخطوط خاص .

(63) انظر بحث (عبد الهادى التازى حول هذا الاصل بمجلة دعوة الحق س 15 ، ع 8 ، ص 33 .

(64) انظر ترجمته فى معجم الصدفى ص 188 ، والنفح 221/2 .

(65) معجم اصحاب الصدفى ص 179 .

ويذكر بعض الباحثين ان هذا الاصل اتخذه اهل الاندلس والمغرب — بعد الصدفي وابن سعادة — محراب تصحيحهم ، وينسبون روايتهم ودرايتهم ، فتداولته ايدى جماعة من الحفاظ الاعلام ، وكبار علماء العدوة والاندلس ، فى كل جيل وعصر ، وبقى الناس يعارضون بها ويقابلوه ويصححون ، الى زمن شيخ الجماعة بفاس ، ابى عبد الله محمد بن عبد السلام بنانى شارح الاكتفاء ، اواسط القرن الثانى عشر الهجرى ، فقد كتب بخطه على آخر اجزاء هذا الاصل : عارض به كتاب محمد بن عبد الله بنانى — كان الله لـه (66) .

نسخـة الشيخـة

ثم انتسخ الناس من هذا الاصل فروعا كثيرة ، كان من بينها الفرع الذى كتبه ابو عبد الله محمد ابن على المرى الاندلسى ، المعروف بالجزولى ، انتسخه لابي المحاسن الفاسي ، وظل يقرأ فيـه حياتـه ، وتعددت مقابلاته مرات (67) ، واشتهر هذا الفرع بفاس ، حتى صار يعرف بالشيخة ، لتفرع اكثر نسخ المغرب منه ، وتناول العلماء به ، واعتمادهم عليه ،،، وتوجد نسخة الشيخة عند اولاد ابن سليمان الغرناطى بفاس (68) .

اهتمام الملوك العلويين بهذين الاصلين

ظل اصل ابن سعادة بخزانة القرويين مورد طلاب العلم ، يكرعون من منهله ، ويقتطفون من ثماره ، وكان السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان يجله ، ويصطحبه معه فى اسفاره ، وكذلك ولده السلطان مولاى الحسن .

وعندما فقد من خزانة القرويين الجزء الاول منه ، كلف من يبحث فى شأنه ، ويتقصى خبر اثره ، ولما لم يحصل له على اثر ، امر بانتساخ جزء آخر بدله ، واصدر ظهيرا شريفا كتب على ظهر الورقة الاولى منه ، نصه ، نصه : لما كان الجامع الصحيح للامام ابى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، المنتسخ بخط الحافظ المحدث ابى عمران موسى بن سعادة محبسا بخزانة القرويين — عمره الله — وضاع منه الخمس الاول ، وبحث عنه اشد البحث ، فلم يوجد ، امرنا بانتساخ آخر بدلـه من نسخة معروفة بفاس بالشيخة من الاصل المذكور ، وهو هـذا المكتوب عليه ، والحقناه بباقى اجزاء الاصل المذكور ، فمن بدل او غير فالله حسيبه ، وولى الانتقام منه والسلام ، فى عشرى جمادى الاولى عام 1228 (69) .

واما بالنسبة لاصل ابـى على الصـدفى ، فان السلطان المولى سليمان ، لما ابلغـه العالم الرحالة ابو عبد الله الناصرى خبر هذا الاصل ، وانه معرض للضياع بذلك القطر ، اهتم اهتماما زائدا به ، وكتب فى شأنه غير مـرة ، ووجه الى من هو بيـده الـف مثقـال (70) .

وهذه شنشنة نعرفها من اخـزم ، فقـد كان السلطان المولى اسماعيل يجـل صحيح البخـارى ، ويقدره المكانة اللائقة به ، وكان يحلف فيه العبيـد الذين اتخذهم جيشا له ، ويقول لهم : انا وانتم عبيد سنـة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعـه المجموع فى هذا الكتاب ، فكل ما امرنا بـه نفعله ، وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل ، فعاهدوه على ذلك ، وسموا بالبخارى (71) .

وقد دأب الملوك العلويون — منذ عهـد المولى الرشيد — على قراءة صحيح البخارى فى الاشهـر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان (72) ، وهذه الدروس الحسنية التى يحج اليها الناس من اقاصى البلدان ، ويستدعى اليها كبار العلمـاء من الشرق والغرب ، تذكرنا بهذه السنة العطرة .

3 — وهناك اصل ثالث له اهميته ، وهو اصل القاضى عياض ، ويفضله بعضهم على اصـل ابـن

---

66) التنويه والاشادة ص 31 .
67) مرآة المحاسن ص 50 .
68) التنويه والاشادة ص 11 .
69) المرجع السابق ص 37 — 38 .
70) قال الراوى : او الف ريـال ، الشك منى ، رحلة الناصري الآنفـة الذكر .
71) الاستقصا 58/7 .
72) العز والصولة 177/1 — 178 .

سعادة ، فهناك بون شاسع بين عياض وابن سعادة فى الحفظ والرواية وسعة الاطلاع ، على ان عياضا لا يدرك شاوه فى الضبط وتنخيل الروايات ونقدها ، كما يشهد بذلك كتابه (مشارق الانوار) ، الذى اندهش له ائمة هذا الشان فى المشرق والمغرب .

والاسف ان معلوماتنا عن هذا الاصل جد ضئيلة ، وكل ما نعرف ان الحافظ ابا العلاء ادريس العراقي (73) – وهو من اهل القرن الثاني عشر – اعتمد فى رواياته على اصل عياض ، ويذكر تلميذه ابو محمد عبد السلام بن الخياط القادرى (74) (ت 1225) انه وقف على نسخة رواية عياض عن الصدق ، عند شيخه ابى العلاء العراقى ، وسمع عليه جلها ، وقابل عليه معها نسخة ابن سعادة ، ويقول : ان الحافظ العراقى كان يقدم اصل عياض على نسخة ابن سعادة ، لاسباب ذكرها (75) .

وبعد : فهذا عرض سريع عن اسهام المغاربة فى خدمة صحيح البخارى ، ومدى اهتمامهم باصوله ورواياته . بالاضافة الى ما كان بالجوامع الكبرى من الكراسى الخاصة لتدريس الجامع الصحيح بقرطبة ، والقيروان ، وفاس ، واشبيلية ، وسبتة وما اليها .

ومن العادات الحسنة التى سنها العلماء بالمغرب والاندلس ، قراءة صحيح البخاري فى شهر رمضان ، وختمه فى دورات معدودة ، يحضرها الشيوخ وعلية القوم ، ويؤمها طلاب العلم من كل جهة ومكان (76) ، وكانت اياما مشهودة ، ومواسم واعيادا ، يعبق منها اريج العلم ، ونفحات الايمان (77) الى غير ذلك مما لا يتسع له صدر هذا البحث ، فالى فرصة اخرى بحول الله .

تطوان : سعيد اعراب

---

(73) النبوغ المغربى 292/1 .
(74) دليل مؤرخ المغرب 350/0 .
(75) التنويه والاشادة ص
(76) وكان السلطان العالم ابو العباس المنصور الذهبي السعدي ، يتولى قراءة صحيح البخاري بنفسه ، ويفسح المجال للعلماء فى البحث والمناقشة ، ويبدى نكتا عجيبة ، وفوائد غريبة . الاعلام لعباس بن ابراهيم 46/2 – 47 .
(77) انظر فى وصف بعض هذه المجالس التكملة 867/2 – 868 ، طبع مصر ، وافادة النصيح لابن رشيد ص 60 – 61 ، ومرآة المحاسن ص 49 .

لباقـــة ...

هجا ابو نواس اسماعيل بن سهل هجاء مرا بعدة قصائد ، وبعدة مناسبات ، ثم اتى اليه بعد ذلك راغبا فى صحبته فقال له اسماعيل :

— باي وجه تاتيني اليوم ، وكنت بالامس تهجوني ؟

فقال ابو نواس : بالوجه الذي القى به ربي ، فان ذنوبي عنه اكثر من ذنوبي عندك !!

فاعجب اسماعيل بن سهل من حسن جوابه ولباقة اسلوبه فعفا عنه ، وعاد الى مودته ..

صحيح البخاري في الدراسات المغربية

من خلال رواته الأولين ورواياته وأصوله

للأستاذ محمد المنوني

مقدمة :

روى الجامع الصحيح – مباشرة – عن مؤلفه محمد بن اسماعيل البخاري جم غفير من الرواة، وكان الذي وصل الى الغرب الاسلامي طريقان اثنتان

ا – **طريق النسفي** : ابراهيم بن معقل بن الحجاج، المتوفى عام 295 هـ = 908 م.

ب – طريق الفربري : محمد بن يوسف بن مطر بن صالح، المتوفى عام 320 هـ = 932 م، واكثر الروايات من طريقه.

قال عياض (1) : ولم يصل الينا – من غير هذين الطريقين – عنه، ولا دخل المغرب والاندلس الا عنهما، على كثرة رواة البخاري عنه لكتابه.

وكانت طريق الفربري هي التي اشتهرت – اكثر – في العالم الاسلامي، وفي هذا يقول ابن حجر العسقلاني (2) : « والرواية التي اتصلت – بالسماع – في هذه الاعصار وما قبلها، هي رواية محمد بن يوسف بن مطر بن صالح ابن بشر الفربري ».

وقد دخلت هذه الطريقة الاخيرة – الى الغرب الاسلامي – في وقت مبكر، وانتقلت اليه بواسطة روايات اشتهر منها ستة يتصل اصحابها بالفربري مباشرة :

---

1 – (المشارق) « المطبعة الملكية » بفاس 1\9 مع (الفهرس) نفس المؤلف (مخطوطة خاصة) – عند الترجمة الاولى، وانظر عن ترجمة النسفي :« شذرات الذهب » 2\218، وعن ترجمة الفربري نفس المصدر والجزء ص 286

2 – (مقدمة فتح الباري)، الطبعة الاولى بالمطبعة الاميرية بمصر – ص 493.

1 ـ رواية ابي علي بن السكن : سعيد بن عثمان بن سعيد المصري المتوفى عام 353 (3) هـ = 954 م .

2 ـ رواية ابي زيد المروزي : محمد بن احمد بن عبد الله ، المتوفى عام 371 (4) هـ =982 م .

3 ـ رواية ابي احمد الجرجاني : محمد بن محمد بن يوسف ، المتوفى عام 373 (5) هـ = 983 ـ 84 .

4 ـ رواية ابي اسحاق المستملي : ابراهيم بن احمد بن ابراهيم البلخي المتوفى عام 376 (6) هـ = 986 ـ 87 م .

5 ـ رواية السر خسي : عبد الله بن أحمد بن حموية الحموي ، المتوفى عام 381 (7) هـ = 992 م .

6 ـ رواية ابي الهيثم الكشميهني : محمد بن مكي بن زراع ، المتوفى عام 389 (8) هـ = 999 م

ولبيان تفرعات هذه الروايات بالاندلس وشمال افريقية نذكر :

اولا : رواية ابن السكن ، وقد روى عنه من الاندلسيين : عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن اسد الجهني الطليطلي ساكن قرطبة ، المتوفى عام 395 هـ ـ 1005 م ، جاء في ترجمته (9) :» ورحل الى المشرق سنة اثنتين واربعين وثلاثمائة ، فسمع من ابي علي بن السكن بمصر ... وكانت رحلته وسماعه مع ابي جعفر بن عون الله ، وابي عبد الله بن مفرج » .

ومن طريق هذا الأخير يسند ابن حزم رواية ابن السكن في كتابه « المحلى » (10) كما ان القاضي عياض يتصل بنفس الرواية بواسطة كل من ابن عون وابن مفرج (11) .

ثانيا : رواية المروزي .

ثالثا : رواية الجرجاني .

وروى عنهما ـ معا ـ عبد الله بن ابراهيم الاصيلي ، المتوفى عام 392 هـ = 1002 م ، وهما عمدته في سنده الى الجامع الصحيح ، ويقول عنه عياض (12) : « .. وحج سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة » ، فلقي بمكة ابا زيد المروزي : سمع منه البخاري ... وسمع ببغداد عرضته الثانية من ابي زيد وسمعه ـ ايضا ـ من ابي احمد الجرجاني ، وهما شيخاه في البخاري ، وعليهما يعتمد .

وقد رافق الاصيلي في رحلته هذه ابو الحسن ابن القابسي : علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني الضرير ، المتوفى عام 403 هـ = 1012 ـ

---

3 ـ ترجمته في (شذرات الذهب) 3\12

4 ـ ترجمته في (المصدر) الأخير 3\76

5 ـ ترجمته في نفس (المصدر) 3\82

6 ـ (المصدر) نفسه 3\86

7 ـ (المصدر) 3\100

8 ـ (المصدر) 3\132

9 ـ (الصلة) لابن بشكوال ، نشر العطار ـ ع557 ، وانظر عن ترجمة ابن عون : « بغية الملتمس » ورقم 452 ، وعن ترجمة ابن مفرج : نفس(المصدر) ، رقم 14

10 ـ « مقدمة كتاب المورد الأحلى في اختصارالمحلى لابن حزم ،مؤلفه غير مذكور ، تحقيق الأستاذ الجليل محمد ابراهيم الكتاني ، مجلة معهدالمخطوطات العربية ، نوفمبر 1958 ـ ص 334

11 ـ كتاب (المشارق) 1\10 ، وقد تحدث احمدبن علي البلوي الوادي اشي الاندلسي في « ثبته » عن مقابلة بنسخة جليلة من البخاري رقية ،سمع فيها على ابي جعفر بن عون الله بقراءة ابي عمر الطلمنكي ، وكانت مقيدة برواية ابن السكن،ومقابلة بأصل ابن عون الله ، « ثبت البلوي » : نسخة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال رقم 1725 ـلوحة 18 \ أ .

12 ـ « المدارك » دار مكتبة الحياة ، بيروت ـ 4\643 ، اثناء ترجمته .

13 م غير ان هذا انما روى عن خصوص المروزي ، وكان الاصيلي هو الذي ضبط له سماعه على هذا الاخير للجامع الصحيح (13) .

وقد كان القابسي أول من ادخل صحيح البخاري الى القيروان (14) ، كما يعتبر الاصيلي اول من روي عنه نفس الكتاب من طرف بعض المغاربة ، حيث رواه عنه وعن القابسي ابو عمران الفاسي : موسى بن عيسى بن ابي حاج الغفجومي نزيل القيروان ، والمتوفى بها عام 430 هـ = 1038 – 39 م ، ومن جهة ابي عمران الفاسي يتصل عياض بالقابسي (15) ، ومن جهته ايضا يتصل ابن عطية بالاصيلي (16) .

وبالاندلس روى صحيح البخاري عن الاصيلي جمع من المحدثين ، وهكذا يقول عنه ابن الفرضي (17) : « .. ثم وصل الى الاندلس فى آخر ايام المستنصر فشوور ، وقرا عليه الناس كتاب البخاري رواية ابي زيد المروزي ، وغير ذلك .

وكان من كبار اصحاب الاصيلي بالاندلس المهلب بن ابي صفرة : ابو القاسم بن احمد بن اسيد التميمي المرى ، المتوفى عام 435 \ 1044 م : قال عنه عياض (18) :

« وبأبي القاسم (يعني المهلب) حيا كتاب البخاري بالأندلس ، لانه قرىء عليه تفقها ايام حياته ، وشرحه واختصره .

وبعد الأصيلي والقابسي ، نخص بالذكر رواية اندلسيا عن المروزي ، وهو عبدوس بن محمد الطليطلي ، المتوفى عام 390 هـ (19) = 999 – 1000 م .

رابعا : رواية المستملي .

خامسا : رواية السرخسي .

سادسا : رواية الكشميهني .

ومن الرواة عن الاخير : كريمة بنت احمد بن محمد المروزى ، المتوفاة عام 463 هـ = 1070 – 71 م ، وقد روى الصحيح عنها فى المغرب الاسلامي : احمد ابن محمد بن عبد الرحمن الانصاري الشارقي الاندلسي ، نزيل فاس ، المتوفى قريبا من عام 500 هـ = 1106 – 07 م ، ويقول عنه عياض (20) : « وله رحلة حج فيها ، وسمع من كريمة كتاب البخاري » ، كما رواه عنها – مكاتبة – ابو علي الجياني : حسين بن محمد بن احمد الغساني القرطبي ، المتوفى عام 498 هـ (21) = 1105 م .

وبعد كريمة ننتقل الى ابي ذر : عبد بن احمد الانصاري الخزرجي ، الهروي ثم المكي : المتوفى عام 434 هـ = 1042 – 43 م ، وانما قدم عليه ذكر كريمة لارتباط سنده بما بعد .

ويروي ابو ذر عن الشيوخ الثلاثة : المستملي ، والسرخسي ، والكشميهني ، وقد صارت روايته – مع مر الزمن – هي المعتمدة ، قال ابن حجر العسقلاني (22) : « اتقن الروايات عندنا هي رواية

---

13 – المصدر الاخير 4\617 ، اثناء ترجمته ،وفى « فهرس ابن خير » ص 98 : « و اقرب الروايات الى رواية ابي ذر ، رواية ابي الحسن القابسي عن ابي زيد المروزي » .
14 – شجرة النور الزكية ص 97
15 – (المشارق) 1\10 ، حيث يذكره باسم ابي عمران موسى بن عيسى القاسي .
16 – (فهرس) ابن عطية : عبد الحق بن غالب المحاربي خ ، ح ، ع ، ك 1301 – ص 5 .
17 – (تاريخ علماء الأندلس) ، نشر الدار المصرية للتاليف والترجمة رقم 760 ونقله عنه ياقوت فى (معجم البلدان) : مطبعة السعادة بمصر –1\278
18 – (المدارك) 4\752
19 – (المشارق) 1 \ 7 – 10 ، وترجمته فى (بغية الملتمس) ع 1266
20 – (فهرس) القاضي عياض عند ترجمة الشارقي ، ونقله ابن الابار فى (التكملة) : القسم المنشور بالجزائر – ع 64 ، ونحوه عند ابن بشكوال فى (الصلة) ، ع 159
21 – (فهرس) القاضي عياض – أثناء الترجمة الاولى .
22 – (فتح الباري) : الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بالقاهرة 1\4

أبي ذر عن مشايخه الثلاثة » ؛ لضبطه لها ، وتمييزه لاختلاف سياقها ، « وعن انتشار روايته يقول عياض (23) : « وسمع منه عالم لا يحصى من اهل الاقطار من شيوخ شيوخنا . . ، وآخر من حدث عنه بالاجازة : احمد بن محمد الاشبيلي بعد الخمسمائة » .

ومن بين جماعات الرواة عنه بالأندلس نخص بالذكر خمسة: أبا القاسم اصبغ بن راشد بن اصبغ اللخمي الاشبيلي المتوفى قريبا من عام 440 هـ (24) = 1009 — 10 م ثم محمد بن احمد بن منظور القيسي الاشبيلي ، المتوفى عام 469 هـ (25) = 1077 م ، وثالثا : ابا الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفي عام 474 هـ (26) = 1082 م ، ورابعا : ابن شريح محمد بن شريح بن احمد الرعيني الاشبيلي ، المتوفى عام 476 هـ (27) = 1084 م ، وخامسا : ابن الدلاي احمد بن عمر انس العذري المري ، المتوفى عام 478 هـ (28) = 1085 م .

ومن الرواة عن ابي ذر بالقيروان : ابو القاسم : مضر بن الحباب التغزاوي ، وسمع عنه عام 413 هـ = 1022 — 23 م .

ومن صقيلة : ابو الحسن علي بن المفرج الصقلي ، وكان بقيد الحياة عام 465 هـ = 1072 — 73 م .

الرواة المغاربة الاولون للجامع الصحيح

والآن نصل الى المغرب الاقصى ، ونقدم أربعة من الرواة عن أبي ذر :

1 — ابو بكر بن محرز السجلماسي ، سمع منه عام 413 هـ (29) = 1022 — 23 م .

2 — يوسف بن حمود خلف الصدفي السبتي المتوفى عام 428 هـ (30) = 1036 — 37 م .

3 — ابو عمران الفاسي (31) سابق الذكر .

4 — ابن الفرديس : بكار بن برهون بن عيسى التغلبي الفاسي ثم السجلماسي ، كان بقيد الحياة عام 492 هـ (32) = 1099 — 1100 م .

---

23 — (المدارك) 4\697

24 — (التكملة) : القسم المنشور بالجزائر ، أثناء الترجمتين ع 109 و 471 ، ولم يذكر هذا في ترجمة الواردة في (جذوة المقتبس) نشر العطار ، ع 324 ، وفي الصلة ع 255 ، وثالثا في (بغية الملتمس) ع 573 ، وسيرد — في مواضع اخرى من هذه الدراسة — ذكر اصل صحيح البخاري من رواية اصبغ بن راشد عن ابي ذر ، مع استعراض الاصول او النسخ لبقية الرواة السبعة — المذكورين هنا — عن ابي ذر .

25 — انظر ترجمته في (المدارك) 4\725 مع (بغية الملتمس) ع 28 .

26 — انظر ترجمته في (المدارك) 4\802 — 808 ، وفي (الصلة ع 453 ، مع بغية الملتمس ع 777

27 — انظر ترجمته في (الصلة) ع 1212

28 — انظر ترجمته من (الصلة) ع 141

29 — هذا وسابقاه لا تعرف لهم ترجمة ، وروايتهم عن ابي ذر جاء النص عليها في سماعهم عنه ، وسترد نصوص اسمعتهم في مكان آخر من هذه الدراسة .

30 — (المدارك) 4\721 — 723 ، مع (الصلة) ع 1511 ، و (بغية الملتمس) ع 1438 ، ثلاثتهم عند ترجمته .

31 — وردت قصة روايته عن ابي ذر في (المدارك) 4\703 ؛ اثناء ترجمته .

32 — لا تعرف له ترجمة على حدة ، ويرد ذكره عرضا — خلال تراجم الرواة عنه عن أبي ذر ، كما سنرى من بعد .

وسيكون ابن الفرديس رابع المعروفين من الرواة المغاربة عن ابي ذر ، ويقول عنه ابن الابار (33) :

« وكان قد حج قديما ، وسمع الكتاب : « صحيح البخاري » من ابي ذر الهروي ، وعمر طويلا حتى انفرد بروايته ، يقال : انه بلغ المائة او اربى عليها ، وبيته شهير بمدينة فاس ، ونزل هو سجلماسة » .

وعبارة المنجور (34) في هذا الصدد : « عمر طويل نحو مائة سنة ، وسمع في رحلته من ابي ذر الهروي ، فقصده للرواية كثير ، كابي القاسم ابن ورد وغيره » .

وحسب النصوص الباقية يعتبر ابن الفرديس اول من اشتهر عنه صحيح البخاري بالمغرب ، والمعروف — لحد الآن — سبعة من الرواة عنه بين مغاربة واندلسيين :

الاول : ابن الملجوم : يوسف بن عيسى بن علي الازدي الفاسي ، المتوفى عام 492 هـ = 1099 م ، رحل اليه الى سجلماسة واخذ عنه بها ، واجاز له عام 486 هـ (35) 1093 — 94 م .

الثاني : ابن الصيقل : محمد بن علي بن احمد الانصاري الشاطبي مستوطن فاس ، والمتوفى بها عام 500 هـ = 1106 — 07 م بيسير ، سمع منه بسجلماسة (36) .

الثالث : محمد بن ادريس الجذامي الغرناطي ، المتوفى عام 527 هـ = 1132 — 33 م ، قال ابن الابار في ترجمته (37) « روى عن بكار بن الفرديس ، وحدث بصحيح البخاري عنه عن ابي ذر الهروي .. روى عنه ابو خالد ابن رفاعة وغيره » .

الرابع : ابن فرتون : ابراهيم بن احمد بن خلف السلمي الفاسي ، المتوفى بها عام 538 هـ = 1143 م ، ويقول عنه ابن الابار (38) : « ولقي بسجلماسة بكار بن برهون بن الفرديس سنة ثلاث وتسعين واربعمائة ، فسمع عليه صحيح البخاري ، حدث عنه ابو عبد الله محمد بن احمد بن منصور بن حمد وغيره » .

الخامس : ابو القاسم بن ورد : احمد بن محمد بن عمر التميمي المري ، المتوفى عام 540 هـ = 1146 م ، وكانت رحلته اليه لسجلماسة ، عام 493هـ او نحوها ، حيث سمع عليه الجامع الصحيح (39) .

السادس ابن الملجوم : عيسى بن يوسف المذكور صدر هذه اللائحة ، توفي عام 543 هـ = 1148 م . وهو يروي عنه بطريق الاجازة له من سجلماسة (40) .

السابع : ابن الطشتلير : علي بن محمد بن سعيد بن ابي الفتوح القيسي الشاطبي ، من الرواة عنه بسجلماسة ، ولم يذكر تاريخ وفاته ولا

---

33 — (المعجم في اصحاب القاضي الامام ابي علي الصدفي) ، لابن الابار ، اثناء ترجمة ابي القاسم بن ورد ، رقم 17

34 — (الفهرسة الكبرى) ، مخطوطة الاستاذ الجليل محمد ابراهيم الكتاني .

35 — (الذيل والتكملة) لابن عبد الملك المراكشي :مجلد الغرباء ، مصور خ . ع . د 1705 — لوحة 208 — 209 عند ترجمته .

36 — (فهرسة) عياض ، مع التكملة لابن الابار مطبعة مجريط رقم 503 ، (والذيل والتكملة) مصور خ . ع . د 2647 لوحة 580 ، ثلاثتهم عند ترجمته .

37 — (التكملة) ، مطبعة مجريط — ع 573

38 — (المصدر) : القسم المنشور بالجزائر ع 457

39 — (المعجم . في اصحاب القاضي الامام ابي علي الصدفي) ع 17 ، عند ترجمة ابن ورد ، وانظر عن ترجمته — ايضا — (الصلة) ع 177 ،و (الديباج المذهب) لابن فرحون ، مطبعة المعاهد بمصر — ص 41

40 — (الذيل والتكملة) لابن عبد الملك : مجلد الغرباء ، مصور خ ، ع ، د 1705 — لوحة 137

روايته (41) ، وسيكون هذا آخر المعروفين من الرواة عن ابن الفرديس .

ومن الجدير بالملاحظة ان رواية ابن الفرديس للبخاري عن ابي ذر لم تشتهر سوى من جهة ابي القاسم بن ورد ، وقد حافظ عليها مصدران : ابن رشيد السبتي (42) ، وهو يسوقها عن ابي الربيع الكلاعي ، عن ابي القاسم بن جيش ، عن ابي القاسم بن ورد ، عن ابن الفرديس ، عن ابي ذر .

وفي (المنح البادية) (43) في سياق اسانيد صحيح البخاري : « ... ومن طريق ابن الابار ، عن القاضي الحافظ ابي بكر بن احمد ابن عبد الملك .. ابن ابي جمرة المرسي ، عن ابي القاسم احمد بن محمد ابن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبد الله بن ورد التميمي من اهل المرية ، وبها توفي سنة اربعين وخمسمائة ، ومن طريق ابن جماعة عن ابن الزبير ، عن ابن السراج ، عن ابن خير ، عن ابن ورد ، عن الفقيه المحدث الحافظ ، بكار بن برهون بن الفرديس التغلبي ، عن ابي ذر » .

والغالب ان اصل ابي القاسم بن ورد من روايته هذه للبخاري ، قد استمر معروفا بالمغرب الى صدر المائة الهجرية السابعة ، وسنتبين انه كان من بين الاصول التي يحضرها ابو الحسن الشاري ، الى مجلس اقرائه لنفس الكتاب بالجامع الاعظم من سبتة .

غير ان هذا الاصل لم ينتشر بالمغرب ، واشتهرت روايات اخرى قبل ان يجتمع المغاربة — من ايام السعديين — على نسخة ابي عمران موسى ابن سعادة الاندلسي ، البلنسي ، وهو يروي بها صحيح البخاري عن ابي علي الصدفي ، عن الباجي ، عن ابي ذر .

روايات الجامع الصحيح التي عرفها المغرب

وقد كانت الروايات التي عرفها المغرب قبل نسخة ابن سعادة متعددة ومتنوعة ، فيها من جهة رواة آخرين عن ابي ذر او الصدفي ، وفيها رواية الاصيلي او القابسي ، وفيها روايات اخرى .

ونحاول هنا ان نعرض نماذج مما وصل الى المغرب من هذه الروايات عبر خمسة قرون او تزيد ، انطلاقا من اواخر المائة الهجرية الخامسة ، حتى اوائل المائة الحادية عشرة .

ونذكر — اولا — **الأمير المرابطي** : ابا عمر ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني ، المتوفى عام 530 هـ = 1136 م ، وسنتبين — من بعد — انه سمع صحيح البخاري بمكة المكرمة من ابي مكتوم عيسى بن ابي ذر عن ابيه ، وابتاع منه اصل ابيه بخطه ، وسمع عليه فيه عام 497 هـ = 1104 م ، ثم عاد بهذا الاصل الى **المغرب** .

وبعد هذا خلال ايام الموحدين والمرينيين ، عرف المغرب — في هذا الاتجاه — مدرستين رئيسيتين تمثلهما سبتة وفاس .

وفي سبتة نذكر امامها القاضي عياض بن موسى اليحصبي ، المتوفى عام 544 = 1149 م ، وقد كان صحح نسخته من صحيح البخاري على اصل الاصيلي بخطه ، وعارضها به حرفا حرفا ، كما عارضها بأصل عبدوس الطليطلي ، وقابل بها مواضع اشكال من نسخته (44) ، وقد علمنا — سلفا — ان هذا الاخير يروي — مباشرة — عن ابي زيد المروزي ، عن الفربري ، عن البخاري ؛ اما نسخة عياض التي عارضها ، فالظاهر انها كانت من روايته عن الصدفي ، عن الباجي ، عن ابي ذر .

وبعد هذا سنلتقي **بابي الحسن الشاري** : علي بن محمد بن علي الغافقي السبتي المتوفى عام 649 هـ = 1251 م ، وكان يعقد مجلسا لاقراء صحيح البخاري بالجامع الاعظم من سبتة ، وبهذه المناسبة

41 — (المصدر) الاخير : القسم المنشور في لبنان — السفر الخامس — ع 593

42 — (رحلة ابن رشيد) : مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان عن مخطوطة الاسكوريال : الجزء السادس بخط المؤلف رقم 1737 — لوحتي 21\ب 22\أ

43 — مخطوطة خاصة ، وهي من تاليف محمد بن عبدالرحمن بن ابي السعود عبد القادر الفاسي الفهري .

44 — (المشارق) 1\9 — 10

يتحدث احد طلبته (45) عن اصول هذا الكتاب التي شهدها درس استاذه الشاري ، ويقول عنه : « قرات عليه بالجامع الاعظم بسبتة كتاب الجامع الصحيح للبخاري ، فى اصلي العتيق منه بخط ابي الوليد بن الدباغ (46) ، وقراءته على الصدفي وغيره ؛ وامسك علي حين القراءة اصل ابي بكر بن خير ، رواية (ابن) ابي ذر الذى بخط ابيه رحمهما الله ، وبمعاناة ابي بكر وتصحيحه ، واحضر حين القراءة اصولا عتيقة ، منها اصل الاصيلي ، واصل ابي القاسم بن ورد ، والقابسي ، وغيرها » .

ونذكر — ثالثا — **ابن ابي الربيع السبتي** : عبيد الله بن محمد بن عبيد الله القرشي ، المتوفى عام 688 ه \ 1289 م ، وهو يسند نفس الكتاب الى رواية كل من ابن منظور وابن شريح ، كلاهما عن ابي ذر (47) .

الرابع : **ابو علي بن ابي الشرف** : الحسين بن طاهر بن رفيع الحسيني السبتي ، المتوفى عام 702 ه \ 1302 — 03 م ويتصل بالبخاري من طريق ابن منظور وابن شريح ، والعذري : ثلاثتهم عن ابي ذر ، كما يرويه من طريق ابي عبد الله الطبري : الحسين بن علي بن الحسين الشيباني المكي نزيلها ، عن عبد الغافر الفارسي بسنده (48) .

الخامس : **ابن رشيد السبتي** : محمد بن عمر الفهري ، المتوفى عام 721 ه \ 1321 م ، ومن طرقه الى البخاري روايته له بتونس فى اصل عتيق ، بخط اصبغ بن راشد اللخمي ، كتبه بمكة المكرمة وسمع فيه على ابي ذر ، ثم صارت النسخة بعينها الى ملكية ابن رشيد الذي يقول عنها :

« وقد كان هذا الأصل صار للامام المقري العالم ، ابي الحسن علي ابن عبد الله بن النعمة رحمه الله ، واعتنى به عناية جيدة ، وقد صار هذا الأصل الي فى اصله والحمد لله (49) .

السادس : **عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي** نزيل فاس ، والمتوفى عام 749 ه \ 1349 م بتونس ، وهو — بدوره — من رواة صحيح البخاري عن ابي علي بن ابي الشرف بأسانيده الآنفة الذكر (50) والحاقا بسبتة نسجل ان احمد البلوى يتحدث فى فهرسته عن معارضة

---

45 — علي بن محمد الرعيني الاشبيلي فى (برنامج شيوخه) ، المطبعة الهاشمية بدمشق — ص 75

46 — هو ابو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف الليثي الاندلسي نزيل مرسية ، والمتوفى عام 546 ه ، ترجمته فى (الصلة) ع 1510 ، و (بغية الملتمس) ع 1445 ، وثالثا : ابن الزبير فى (صلة الصلة) ع 403 ، والغالب ان اصل ابن الدباغ المشار له كان من طريق الصدفي ، حيث يقول ابن بشكوال عن صاحب الأصل : « روى عن ابي علي الصدفي كثيرا ، ولازمة طويلا » ، وقال عنه ابن الزبير « روى عن القاضي الامام ابي علي الصدفي واختص به ، واكثر عنه واعتمده » .

47 — (برنامج) ابن ابي الربيع ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الاول — الجزء الأول والثاني — ص 45

48 — (كتاب الاشراف على اعلى شرف . فى التعريف برجال البخاري من طريق الشريف ابي علي بن ابي الشرف) ، تاليف ابي القاسم ابن الشاط الانصاري السبتي ، مصورة الأستاذ العالم محمد ابراهيم الكتاني ، عن مخطوط الاسكوريال ضمن مجموع يحمل رقم 1732
وانظر عن ترجمة ابي علي بن ابي الشرف (درة الحجال) لابن القاضي ، دار التراث بالقاهرة — ع 366

49 — (رحلة ابن رشيد) : نفس المصورة والجزء الآنفي الذكر — لوحة 21\أ .

50 — هذا السند مكتوب على فرع من صحيح البخاري برواية ابن السكن ، وسنعرف — وشيكا — بالنسبة ذاتها .

باصل عتيق بخط الطنجي ، مقيدا بروايته الاصيلي للبخاري (51) .

* * *

والآن ننتقل الى روايات البخاري فى مدينة فاس عبر نفس الفترة ، وسنتصل — اولا — باليفرني الشهير بالمكناسي : احمد بن عبد الرحمن المجاصي الفاسي ، وكان بقيد الحياة حوالي عام 800 هـ 1397 — 98 م ، وهو مؤلف « شرح غريب البخاري (52) ، حيث يذكر من مصادر تعاليق ابي علي الغساني على اصله من البخاري المكتوب بخطه (53) ، ومن المعروف ان هذا من الآخذين عن ابي علي الصدفي المتكرر الذكر ، ولا يبعد ان اصل الغساني كان معتمدا فى فاس قبل شيوع نسخة ابن سعادة .

وقد عرفت نفس المدينة رواية ابن منظور عن ابي ذر ، ومن طريقه ساق ابن غازي (54) ، روايته لصحيح البخاري من جهة استاذه ابي عبد الله السراج : محمد بن ابي القاسم محمد بن الرواوية الشهير يحيى الحميري ، عن ابيه ، عن جده ..

ومن الجدير بالذكر ان سند ابن منظور للبخاري استمر معروفا فى فاس حتى صدر المائة الهجرية الحادية عشرة ، وبالضبط الى شهر ربيع الثاني من عام 1029 هـ \ 1620 م ، وهو التاريخ الذي تمت فيه كتابة نسخة عشرينية من نفس الكتاب بمدينة فاس ، ومع تصديرها برواية ابن منظور عن ابي ذر (55) .

وسيضاف الى روايات البخاري بنفس البلدة نسخة ابن سعادة ، من روايته عن الصدفي بسنده ، ويرجع اول ذكر لها بعاصمة المغرب العلمية الى عام 836 هـ ، وبعد هذا فى صدر المائة الهجرية الثانية عشرة — دخلت الى المغرب النسخة اليونينية من نفس الكتاب ، وسنخصص لكل من هذه وسابقتها دراسة على حدة .

غير اننا نختم هذا العرض بذكر اشارتين الى تعدد روايات البخاري بالمغرب خلال ايام السعديين ، وهكذا يقول المقري (56) : اكثر نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب : اما من رواية الباجي عن ابي ذر ... واما من رواية ابي علي الصدفي .. بسنده .

---

51 — (ثبت) احمد بن علي البلوي الوادي آشي الاندلسي ، نسخة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال رقم 1725 — لوحة 18 \ أ .
اما الطنجي صاحب الأصل المشار له فلا يبعد ان يكون ابا الفرج الطنجي : محمد بن محمد بن موسى الأموي الفاسي ، المتوفى — بها — عام 889 هـ ، وقد كانت له أسانيد حديثية وفهرسة ، ووصف فى ترجمته بالحافظ المحدث ، ويقول عنه ابن غازي : « واجتمعنا — بجامع القرويين عمره الله تعالى — على قراءة صحيح البخاري ، حتى ختمناه تحقيقا وتدقيقا وبحثا ومطالعة لما نحتاج اليه من الغريب ونحوه » .
انظر ترجمته فى مخطوطة (فهرس) ابن غازي ، مع (سلوة الانفاس) 2\118 — 119 ، وفهرس الفهارس) 1\112

52 — مخطوط فى نسخ قليلة ، ومنها بالخزائن العامة : واحدة بالقرويين رقم 145 من اللائحة الجديدة ، واخرى بتمكروت ثالثة مجموع رقم 709 ، وثالثة بالمكتبة الملكية اول مجموع رقم 355

53 — وردت الاشارة لهذا الأصل مرة اخرى عام 846 هـ \ 1442 م ، حيث وقعت المقابلة والتصحيح عليه ، والغالب ان ذلك كان بمدينة فاس ، حسب الخاتمة التي ذيلت بها نسخة الجامع الصحيح برواية ابن منظور ، وسنذكر — قريبا — ان نفس النسخة محفوظة بخزانة تمكروت رقم 312

54 — مخطوط (فهرسة) ابن غازي عند ترجمة السراج المذكور .

55 — ذكر وسيذكر ان هذه النسخة من ذخائر خزانة تمكروت رقم 312

56 — (نفح الطيب) 6 . بولاق 1\361

وبعد المقري يتحدث ابو حامد الفاسي (57) عن نسخة ابن سعادة ، ويسجل اشارته فى نفس الاتجاه هكذا : « وهذا الأصل اجل الاصول الموجودة بالمغرب » .

الاصول الباقية بالمغرب من الجامع الصحيح

والآن يصل بنا المطاف الى استعراض المعروف من النسخ الباقية بالمغرب من روايات صحيح البخاري ، ونقدمها حسب التسلسل التاريخي للرواة المعنيين بالأمر .

1 – رواية ابن السكن :

ويوجد منها المجلد الاول بخط عبد المهيمن بن علي بن علي بن حرز الله التميمي عام 698 هـ \ 1298 – 99 م وهو منقول ومقابل باصل ابي الحسن بن مغيث ، المكتوب بخط ابي عمر الطلمنكي (58) .

ويهمنا من هذا الوصف ان يكون المجلد المشار له يرجع الى اصل ابي الحسن بن مغيث ، اسمه الكامل : يونس بن محمد بن مغيث ، الانصاري القرطبي المعروف بابن الصفار ، المتوفى عام 532 هـ \ 1138 م وقد جاء فى ترجمته (59) انه يروي عن ابي عمر : احمد بن محمد بن يحيى ابن الحذاء ، سمع عليه الجامع الصحيح للبخاري رواية ابن السكن .

ومما يدل لاشتهار ابن مغيث بهذه الرواية ، ان ابن خير (60) انما يسندها من جهته ، عن ابن الحذاء ، عن عبد الله بن محمد بن اسد الجهني ، عن ابن السكن ، عن الفربري ، عن البخاري .

يوجد هذا المجلد الذي تتناوله فى الخزانة الوقفية بالجامع الأعظم من مدينة تازا .

2 – رواية الأصيلي :

وتحتفظ بها نسختان اثنتان :

ا – قطعة من صحيح البخاري تشتمل على اوراق من السفرين : الرابع والخامس ، بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 301 ، بخط اندلسي ، كتبه – لنفسه – علي بن غالب بن محمد بن حزمون الكلبي (61) ، وفرغ منه يوم الثلاثاء 12 شوال عام 535 هـ \ 1141 م بمدينه باغة من الاندلس .

وانتسخه من اصل قوبل باصل ابي عبد الله بن عتاب (62) ، الذي نقله – بخطه – من نسخة الاصلى من صحيح البخاري .

ب – السفر الأخير من صحيح البخاري ابتداء من اواخر كتاب الادب ، بخزانة المعهد الاصيل بتارودانت ، وجاء فى آخره :

تم الديوان باسره ، بعتوان الله ويسره ... وذلك فى غرة شهر رمضان المعظم من سنة تسعين واربعمائة ، وانتسخه محمد بن عبد الله بن احمد ابن القاضي لنفسه ، نفعه الله به واعانه على فهمه ودرسه ، من كتاب قوبل بكتاب الفقيه ابي محمد عبد الله بن ابراهيم الاصيلي رحمة الله عليه :

3 – رواية ابن ابي محرز السجلماسي عن ابي ذر :

واسمه الكامل : ابو بكر بن ابي محرز السجلماسي ، وتحتفظ بروايته المكتبة الملكية فى نسخة من الجامع الصحيح تشتمل على الاسفار الثلاثة الأولى تحت رقم 4330 ، وقد كتب بهذه الاسفار – نقلا – عن الأصل المنتسخ منه – مايلي :

---

57 – مرآة المحاسن ط . ف – ص 50
58 – ترجمته فى (جذوة المقتبس) ع 187 مع (بغية الملتمس) ع 347
59 – (بغية الملتمس) ع 1500 ، وترجمه – ايضا – ابن الابار فى (التكملة) ع 213 و (معجم اصحاب الصدفي) ع 313
60 – (فهرس) ابن خير ، الطبعة الجديدة – ص95
61 – ترجمته فى (الذيل والتكملة) ، القسم المنشور فى لبنان – السفر الخامس ع 541
62 – ترجمته فى (الصلة) ع 1194 ، مع بغية الملتمس ع 241

ففي آخر السفر الاول : « كمل السفر الاول وهو آخر الصلاة ... يتلوه ... فى اول السفر الثاني اول كتاب الزكاة من مسند حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عني بتصنيفه : ابو عبد الله : محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه ، سمعه ابو بكر بن ابي محرز السجلماسي من ابي ذر عبد بن احمد بن محمد الحافظ الهروي المالكي رضي الله عنه ، بمكة في المسجد الحرام حرسه الله وعظم حرمته ، سنة ثلاث عشرة واربعمائة .

وكتب على اول السفر الثاني : « السفر الثاني من الجامع الصحيح ، من مسند حديث الرسول صلى الله عليه وسلم تسليما ، مما عني بتصنيف ابوابه : ابو عبد الله : محمد بن اسماعيل البخاري رحمة الله عليه ومغفرته ، سماع « لأبي بكر بن ابي محرز السجماسي ، عن (63) ابي ذر عبد بن احمد الهروي رضي الله عنه ، بمكة فى المسجد حرسه الله آمين » .

وجاء اول السفر الثالث : « هذا السفر الثالث من الجامع الصحيح ، من مسند حديث الرسول عليه السلام ، عني بتبويبه ابو عبد الله : محمد بن اسماعيل البخاري رحمه الله ، سماع لأبي بكر بن ابي محرز السجلماسي ، من ابي ذر عبد ابن احمد بن محمد الهروي رضي الله عنه بمكة فى المسجد الحرام حرسه الله » .

4 ــ رواية **ابي القاسم مضر بن الحباب النفزاوي** عن ابي ذر :

ويشتمل عليها السفر الرابع الذي يتبع الأسفار الثلاثة الاولى من نسخة رواية ابن ابي محرز السجلماسي المذكورة اخيرا ، والتي تحمل بالمكتبة الملكية رقم 4330 ، وقد كتب على اول هذا السفر نقلا عن النسخة الأصلية :

« هذا السفر السادس (وهو هنا الرابع) من الجامع الصحيح من حديث الرسول عليه السلام ، عني بتصنيفه وتبويبه ابو عبد الله ، محمد بن اسماعيل البخاري ، رحمة الله عليه ومغفرته ، سمع جميعه ابو القاسم مضر ابن الحباب النفزاوي ، من ابي ذر : عبد بن احمد بن محمد الحافظ الهروي رضي الله عنه ، بمكة فى المسجد الحرام عظم الله حرمته ، سمعه منه سنة ثلاث عشرة واربعمائة ، وصار الجامع كله لابي القاسم مضر بن الحباب على وجه الشراء ، نفعه الله به » .

5 ــ رواية **ابن منظور** عن ابي ذر :

وجاء التنصيص عليها عند افتتاحية نسخة عشرينية من الجامع الصحيح كتب جميعها بفاس احمد بن علي بن قاسم بن محمد بن سودة المري (64) من انتساخها فى شهر ربيع الثاني عام 1029 هـ \ 1620 م ، وهي تبتدىء هكذا :

« حدثنا الفقيه ابو عبد الله بن احمد بن منظور القيسى رضي الله عنه ، قال : انا الشيخ ابو ذر بن احمد بن محمد الهروي ، قراءة عليه في المسجد الحرام عند باب الندوة بمكة ، سنة احدى وثلاثين وأربع بمائة ... » .

ولا تزال هذه النسخة ــ بكاملها ــ محفوظة بخزانة تمكروت تحت رقم \ 312 \ .

6 ــ رواية **ابن المفرج الصقلي** عن ابي ذر :

ويوجد منها السفر الاول فى نسختين بخط مغربي ، حيث يرد فى طالعتهما :

« اخبرنا الشيخ القاضي ابو الحسن علي بن المفرج الصقلي رضي الله عنه ، فى المسجد الحرام بمكة ، سنة خمس وستين وأربعمائة ، قال : انا ابو ذر ... » .

والنسختان ــ معا ــ بخزانة تمكروت تحت رقمي : 1431 و 1451 .

---

63 ــ فى الاصل ابن بدل عن

64 ــ انظر عن ترجمته ومنتسخاته : **محمد** المنوني : (**الوراقة المغربية**) : **القسم الثاني** ، مجلة البحث العلمي عدد 18 ، السنة 8 ص29 ــ 31

7 ـ رواية ابي علي الصدفي :

واسمه الكامل : حسين بن محمد بن فيارة بن حيون الصدفي السرقسطي الأصل ، المعروف بابن سكرة ، والمتوفى عام 514 هـ \ 1120 م .

اما روايته هذه فتوجد نسخة مقابلة عليها بالمكتبة الملكية رقم 5053 وهي في مجلد ضخم ، بخط اندلسي دقيق مدموج مليح ، مكتوب بالمداد الباهت ، مع تلوين ـ عند الاقتضاء ـ بالأحمر والأزرق والذهب المصور بالمداد ، على ورق متين عتيق .

ودون تحديد مكان الانتساخ . جاء في آخر المخطوط : في الرابع من جمادى الثانية عام خمسة وعشرين وثمانمائة » .

وفي هامش هذا الموضع وردت فقرة هكذا : « بلغت المقابلة على جهد الاستطاعة ، والحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد ، من نسخة الصدفي بخطه ، التي نسخ من نسخة القاضي الباجي بخطه ، وعلى الأول .. خطوط الشيوخ نحو خمسين ... » .

واسفل فقرة تاريخ الانتساخ ، يقع اطار مربع مزخرف ، غير ان كتابة داخله اقتطع موضعها بالمرة .

وستستفيد من فقرة المقابلة الآنفة الذكر ، ان الاصل الذي وقعت المعارضة به هو بخط الصدفي نفسه ، نقله ـ بدوره ـ من نسخة بخط ابي الوليد الباجي .

وهنا ننتقل الى اصل الجامع الصحيح المحفوظ في خزانة مدينة جغبوب بليبيا ، وسنجده ـ هو الآخر ـ بخط الصدفي ، غير انه ـ في هذه المرة ـ نقله من نسخة بخط محمد بن علي بن محمود .

وهكذا نتبين ان الصدفي كتب ـ بخطه ـ من صحيح البخاري نسختين كانتا ـ معا ـ معروفتين : احداهما من اصل الباجي ، والأخرى من اصل محمد بن علي بن محمود ، غير ان التي اشتهرت هي الثانية ، ولا سيما بعد انتقالها الى ليبيا ، بينما استمرت الاولى مجهولة حتى كشفت عنها نسخة المكتبة الملكية المتفرعة عنها ، دون ان نعرف عن الأصل الصدفي الأول اية معلومات اخرى ، ونجهل مصيره بالمرة (65) .

كما لا نعرف ـ الآن على جهة القطع ـ هل مر بالمغرب احد الاصلين ، غير انه من المؤكد ان نسخة ليبيا كانت في حوزة ابن مرزوق الجد : محمد بن احمد بن محمد العجيسي التلمساني ، حيث يوجد بأولها قراءته ، لبعض الجامع الصحيح في هذا الاصل ذاته ، على ابي جعفر الطنجالي : احمد ابن محمد بن احمد الهاشمي (المالقي (66)) بسنده ، مع اجازته له ولبنيه الثلاثة ، وذلك بمدينة غرناطة ، بتاريخ 8 جمادى الأول ، عام 754 هـ (67) 1555 م .

ومن المعروف أن ابن مرزوق استوطن مدينة فاس ـ بالخصوص ـ قبل هذا التاريخ وبعده مدة

---

65 ـ انظر عن ترجمة الصدفي واصله الباقي في ليبيا من الجامع الصحيح : « التنويه والاشادة بمقام رواية ابن سعادة » للمحدث المغربي محمدعبد الحي الكتاني ، وهي رسالة الفها تصديرا للسفر الثاني من أصل ابن سعادة من صحيح البخاري ،ونشرت معه بالتصوير الشمسي في 39 ص .
مع (فهرس الفهارس) لنفس المؤلف 2\110ـ 113
وثالثا : تعريف بأصل الصدفي الباقي في ليبيا ،بقلم محمد الطاهر بن عاشور مفتي الجمهورية التونسية ، حسب نشرة « أخبار التراث العربي » ، العدد 32 ص 5 ـ 8
رابعا : دراسة للدكتور عبد الهادي التازي بعنوان (صحيح امام البخاري بخط الحافظ الصدفي) ، مجلة (دعوة الحق) ، العددالثامن ، السنة الخامسة عشرة ـ ص 18 \ 34

66 ـ ترجمة في (الدرر الكامنة) 1\251 ـ252

67 ـ لا يزال نص السماع والاجازة موجودابأول نفس النسخة ، حسب محمد الطاهر بن عاشور : نشرة (اخبار التراث العربي) : العدد 32 ص 7 / 8 .

ليست بالقصيرة (68) ، ومن هنا يترجح ان هـذه النسخة الليبية كانت معه بالمغرب ، ان لم يكن اقتناها منه .

ونضيف الى هذا انه من المتوقع ان يكون ابن مرزوق هو الذي نقل نفس النسخة الى القاهرة ، لما استوطنها اخريات حياته حتى توفي بها عام 781 هـ \ 1379 م .

8 ـ اصل ابن ذر من الصحيح بخطه :

استجلبه الى المغرب الأمير المرابطي السالف الذكر : ميمون ابن ياسين الصنهاجي اللمتوني ، عندما ذهب الى الحج عام 497 هـ (69) 1104 م .

وكان اول من اشار لهذه القصة السلفي في كتابه : « الوجيز » بمناسبة ذكر ابي مكتوم عيسى بن ابي ذر الهروي ، وهو يقول في هذا :

« كان ميمون بن ياسين من أمراء المرابطين رغب في السماع منه « ابي مكتوم » بمكة ، واستقدمه من سراة بني شبابة ، وبها كان سكناه وسكنى أبيه ابي ذر من قبل ، فاشترى منه صحيح البخاري ـ اصل ابيه الذي سمع فيه على ابي اسحاق المستملي وغيره ـ بجملة كبيرة ، وسمعه عليه في عدة اشهر قبل وصول الحجيج » (70) .

والغالب ان نفس هذا الأصل صار الى ابي بكر بن خير الأموي الاشبيلي ، أحد الرواة عن الأمير المرابطي ، وبعده انتقل الي ابي الحسن الشاري ، وقد جاء عند ابي الحسن الرعيني عند ذكر شيخه الشاري سابق الذكر (71) : « قرات عليه بالجامع الاعظم بسبتة كتاب الجامع الصحيح البخاري ... وامسك على حين القراءة اصل ابي بكر بن خير ، رواية (ابن) ابي ذر الذي بخط ابيه رحمهما الله ، وبمعاناة ابي بكر وتصحيحه » .

وبعد هذا وقف ابن عبد الملك على اسفار ثلاثة من اصل ابي ذر ، وذكر انه من تجزئة سبعة (72) .

ويذكر ان قطعة من هذه النسخة ـ بعينها ـ كانت معروفة بمكتبة ابن يوسف بمراكش ، ثم اختلطت ـ مع مر الزمن ـ ضمن الخردم .

9 ـ نسخة القاضي عياض :

وهي من روايته عن ابي علي الصدفي ، وقد كانت معروفة بالمغرب خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر هـ ، حيث وقف عليها عبد السلام ابن الخياط القادري الفاسي ، لدى استاذه العراقي المحدث : ابي العلاء ادريس بن محمد بن حمدون الحسيني الفاسي ، المتوفى بها ـ عام 1183 هـ (73) \ 1769 م ، ومن هذا التاريخ يختفي خبر هذه النسخة بالمرة .

10 ـ اصل ابن الحطيئة من طريق ابي ذر :

واسمه ـ كاملا ـ ابو العباس أحمد بن عبد الله بن احمد بن هشام اللخمي الفاسي ساكن مصر ،

---

68 ـ انظر عن ترجمته واقامته بفاس : (التعريف بابن خلدون) ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة ص 49 \ 54

69 ـ ترجمته في (التكملة) ع 1137 مع (الذيل والتكملة) : مجلد الغرباء المصورة المتكررة الذكر . لوحات 189 ـ 191

70 ـ نقله ابن الآبار في (التكملة) ع 1137

71 ـ (برنامج شيوخ الرعيني) ـ ص 75 ، وهناك فرع لاصل ابن خير كان بتلمسان عند الامام محمد بن مرزوق الكفيف ، وفيه قرا عليه صحيح البخاري احمد بن علي البلوي الوادي اشي الاندلسي ، « ثبت البلوي » : نسخة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال رقم 1725 ـ لوحة 19 \ أ

72 ـ الذيل والتكملة : مجلد الغرباء الآنفة الذكر ـ لوحة 191

73 ـ انظر التعليق رقم 105

والمتوفى ـ بها ـ عام 560 هـ \ 1164 م ، وشهر بابن الحطيئة (74) .

ويعرف بالمغرب نسختان من هذا الأصل : اقدمهما يوجد منها السفر الأول في خزانة تمكروت رقم 1437 ، وجاء فيها بعد الترجمة الأولى ما يلي :

« قرات على سيدنا الشيخ الفقيه الامام ، ابي العباس احمد بن عبد الله بن احمد بن هشام ابن الحطيئة اللخمي رضي الله عنه ، بمسجده بشرف مصر في سنة سبع واربعين وخمسمائة ، قال : اخبرنا الشيخ الفقيه ابو عبد الله محمد بن محمد بن منصور بن الفضل الحضرمي (75) رضي الله عنه ، قراءة مني عليه بمسجده بالقاهرة بثغر الاسكندرية سنة احدى وخمسمائة ، قال اخبرنا الفقيه ابو القاسم عبد الجليل بن ابي سعيد مخلوف الجدامي (76) في الجامع العتيق بمصر سنة احدى وخمسين واربعمائة قراءة مني عليه ، قال اخبرنا ابو ذر ... قراءة مني عليه في المسجد الحرام بمكة .. » .

ونذكر الآن النسخة الثانية لابن الحطيئة ، وقد دخلت الى المغرب حديثا نحو عام 1358 هـ \ 1939 م ، حيث تحفظ بالمكتبة الاحمدية بفاس ، ويبدو ان هذه النسخة هي عين اصل ابن الحطيئة من طريق ابي ذر ، ويقع الموجود منها في مجلد ضخم يشتمل على جزءين وبعض الثالث .

الأول : يبتدي من افتتاح الجامع الصحيح ، وينتهي آخر كتاب العتق ، من ورقة 1 الى ورقة 155 .

الثاني : من اول كتاب الهبة الى آخر سورة الطور من كتاب التفسير ، من ورقة 156 الى ورقة 228 .

الثالث : من سورة النجم الى آخر كتاب التفسير ، ويشتمل على 15 ورقة غير مرقمة . مكتوب كله بخط شرقي نسخي مليح عتيق مقابل ، مع تنعيمه في بعض المواضع بخط مغاير وهو عار عن تاريخ النسخ واسم الناسخ .

وبالاضافة الى هذا فان هوامش كامل النسخة تكاد تكون مملوءة بالتعليقات الشارحة بخط مباين .

هذا فضلا عن تعليقات المقابلة والسماع ، ومن ذلك ما جاء في هامش ورقة 108 أ : « بلغ مقابلة على الشيخ صلاح الدين حالة السماع بالمسجد الاقصى ، بقراءة الصفري ... وعلى هامش ورقة 226 . أ :

« بلغ مقابلة على الحافظ صلاح الدين العلائي (77) بقراءة ابي محمود ، في الثالث عشر ، بالصخرة الشريفة ، سنة ثلاث وخمسين » .

---

74 ـ ترجمته في :
(انباه الرواة على انباه النحاة) لابن القفطي رقم 21
(وفيات الأعيان) لابن خلكان ، مطبعة بولاق 1299 هـ ـ 1\67 ـ 68
(غاية النهاية) لابن الجوزي رقم 315
(جذوة الاقتباس) لابن القاضي ، ط . ف ـ ص 46 ـ 47

75 ـ ترجمته في :
(طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي 4\186 ـ 189 ، مع (غاية النهاية) في طبقات القراء لابن الجزري رقم 3485
وقد ورد ذكره شيخا للمهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، خلال سند هذا الأخير الي (الموطا) برواية يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومي حسب طالعة (مختصر موطا مالك) لابن تومرت ، ج . ع . ج 840 ص 4 ، وسقط اسم الحضرمي الذي تعلق عليه من نسخة القرويين ، حسب سند نفس الكتاب المنقول في مقدمة (برنامج خزانة القرويين) ، المنشور بالمطبعة البلدية بفاس ص 6 ، أما الطبعة المنشورة بالجزائر فقد خلت من السند بجملته .

76 ـ ترجمته في (شذرات الذهب) 4\205 ، حيث يذكره باسم عبد الجليل بن ابي أسعد الهروي .

77 ـ هو ابو سعيد خليل بن كيكلدي الدمشقي المتوفى عام 761 هـ \ 1359 م وترجمته في (الدرر الكامنة) 2\90 ـ 92 .

وجاء عند ختام الجزء الثالث :

« بلغ مقابلة وسماعا على الشيخة المعمرة ، ام محمد : عائشة بنت عبد الهادي (78) ، بزاوية الشيخ الامام العلامة ، ابي اسحق ابراهيم — وهو حاضر — الموصلي ، فى مجالس آخرها حادي عشري مجلس ، فى شهر رمضان المعظم ، سنة احدى عشرة وثمانمائة ؛ والحمد لله وحده .

ومما يدل لاهمية هذه النسخة كاصل لابن الحطيئة نفسه : انه كتب على أول الجزء الثاني ما يلي :

« الجزء الثاني من الجامع الصحيح ، المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وايامه » .

تصنيف ابي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخارى رضي الله عنه .

رواية ابي عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربري عنه .

رواية الحموي والمستملي وابي الهيثم : ثلاثتهم عنه .

رواية ابي ذر عبد بن احمد بن عبد الله الهروي عنهم .

رواية الفقيه ابي القاسم عبد الجليل بن ابي سعيد عنه .

رواية الفقيه ابي عبد الله محمد بن منصور الحضرمي عنه .

رواية الفقيه ابي العباس احمد بن عبد الله احمد بن هشام بن الحطيئة اللخمي عنه .

ومن الجدير بالملاحظة ان رواية ابن الحطيئة بالذات ، تعتمدها النسخة اليونينية فى المقارنة برواية ابي ذر (79) .

والى هنا فقد استعرضت هذه الدراسة النسخ المعروفة — لحد الآن — من روايات البخاري الباقية بالمغرب ، وكان عددها عشرة .

وهناك اصل حادي عشر تقدمه نسخة ابن سعادة الأندلسية ، وقد بدا المغاربة يجتمعون على الاخذ بها من ايام السعديين ، وبالخصوص فى فاس وشمال المغرب ، ثم نافستها — فى جنوب المغرب — النسخة اليونينية الشرقية وهذه تمثل الرواية الثانية عشرة من اصول البخاري الباقية ، غير أن نسخة ابن سعادة هي التي استمرت معتمدة فى الدراسات الحديثة .

وستقدم تعريفا بالنسختين ، مع بيان مركز كل منهما بالبلاد المغربية .

11 — نسخة ابن سعادة :

وهي بخط ابي عمران موسى بن سعادة البلنسي ثم المرسي ، المتوفى عقب عام 522 هـ \ 1128 م .

وقد كتبها مجزاة الى خمسة اسفار ، وانتسخها من اصل شيخه وصهره أبي علي الصدفي ، وفرغ من تعليقها فى العشر الاخير من ذي القعدة ، عام 492 هـ \ 1099 م .

وترجع اهمية اصل ابن سعادة الى انه منقول من اصل الصدفي ، المكتوب من نسخة محمد بن علي بن محمود ، وهذه مقروءة على ابي ذر الهروي وعليها خطه ، وقد طاف الصدفي باصله من البخاري فى الأمصار ، وسمعه وقابله على نسخ شيوخه بالعراق ومصر والشام والحجاز والأندلس .

هذا الى ان ابن سعادة اعتنى — من جهته — بنسخته التي بخطه ، فقابلها ، وصححها ، وقرا بها على الصدفي ، حيث كتب هذا الأخير — بخطه —

78 — عائشة بنت محمد بن عبد الهادي العمري المقدسي الصالحي ، توفيت عام 816 هـ \ 1413 م ، وترجمتها فى (الضوء اللامع) 12\81

79 — يقع التصريح بها فى المطبوع على النسخة اليونينية ، حسب « صحيح البخاري » مطبعة البابي الحلبي بمصر 4\42 ، حيث ورد فى تعليق بالهامش : « وروى ابن الحطيئة ... » .

على اول السفر الثاني تصحيح سماع تلميذه لسائره عنه ، بتاريخ ربيع الاول عام 493 هـ \ 1100 م .

وبهذا صارت النسخة السعادية في الدرجة الأولى من الصحة ، ويقول ابن الابار عن ابي عمران بن سعادة : « وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه ، وسمعهما على صهره ابي علي ، وكانا اصلين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما ، حكى الفقيه ابو محمد عاشر بن محمد : انه سمعهما على ابي علي نحو ستين مـرة » .

وحسب الكتابات المرقومة على هذه النسخة ، فان المحدثين تداولوها بعد وفاة ابي عمران بن سعادة ، ابتداء من ابن اخيه محمد بن يوسف ابن سعادة ، وقد سمع هذا جميع الصحيح ـ في النسخة ذاتها ـ على ابي علي الصدفي ، وتم ذلك في ربيع الآخر ، عام 510 هـ \ 1116 م ، وكتب عليها ـ بخطه ـ تصحيحات كثيرة .

ثم سمعها على محمد بن يوسف بن سعادة غير واحد : اولا : حسين ابن محمد بن علي الانصاري : السفر الاول بالمسجد الجامع من مرسية عام 539 هـ \ 1144 ـ 45 م .

ثم ابن نوح : محمد بن ايوب بن محمد الغافقي : جميع الكتاب بتاريخ صفر عـام 556 هـ \ 1161 م ؛ وثالثا : ابن ابي العاص : احمد بن محمد بن علي التغزي ، في جماعة سمعوا سائر السفر الثاني .

وسوى هؤلاء يوجد على نفس الاصل خط ابي الخطاب بن واجب : احمد بن محمد بن عمر واجازة محمد بن يوسف بن سعادة له ، وكذلك خط اخيه ، وخط ابن بقي : عبد الواحد بن محمد القيسي ، وخط ابن عمرو عثمان بن محمد بن عيسى اللخمي (80) .

ولهذه الاعتبارات اعتمد المغاربة نسخة ابن سعادة في رواية صحيح البخاري ، غير انه لا يعرف ـ بالضبط ـ بداية هذا الاختيار .

واقدم ذكر لها لا يتعدى العقد الرابع من المائة الهجرية التاسعة ، حيث تمت مقابلة نسخة من الجامع الصحيح باصل ابن سعادة ، قراءة على محمد بن يحيي السراج ، بمسجد امامته من زنقة حجامة بفاس ، في مجالس عدة بين المغرب والعشاء ، وهو يمسك اصل ابن سعادة ، وكمل ذلك اواخر ربيع الثاني ، عام 836 (81) \ 1432 م .

ومن هذا التاريخ تنتقل الى عـام 838 هـ \ 1434 ـ 35 م ، حيث تمت فيه معارضة نسخة خماسية من صحيح البخاري باصل ابن سعادة ، وكان ذلك برسم خزانة الوزير على بن يوسف الوطاسي (82) .

وبعد هذا تأتي الاشارة الى نفس الاصل بمناسبة مقابلة نسخة اخرى وتصحيحها عليه ، بتاريخ رجب عام 846 هـ (83) \ 1442 م .

---

80 ـ (التنويه والاشادة بمقام رواية ابن سعادة) : بالتصوير مع السفر الثاني من نسخة ابن سعادة . مع مقدمة نفس النسخة بالفرنسية للمستشرق لافي بروفنسال .
وانظر ـ ايضا ـ السمعات المسجلة على الصفحة الاولى من النسخة المصورة ذاتها . مع وجادة مقيدة على مخطوط بالمكتبة الملكية رقم 7246 ، وهي بخط محمد الطيب بن عبد السلام بن الخياط القادري ، نقلا عن خط ابي العباس احمد ابن العربي بن سليمان الاندلسي ثم الفاسي .

81 ـ هذا يوجد في صيغة معارضة كانت بظاهر نسخة قوبلت على اصل ابن سعادة ، ثم نقلت الصيغة نفسها آخر الخمس الأخير من الجامع الصحيح ، في نسخة اخرى تشتمل عليه وعلى الخمس الثالث ، بالمكتبة الملكية رقم 9576

82 ـ يوجد من هذه النسخة جزءان من خمسة اجزاء بالمكتبة العاشورية بتونس ، حسب مجلة « المغرب » الصادرة عن وزارة الممثل الشخصي للعاهل المغربي ، العدد 6 ـ 7 « مزدوج » دجنبر 1965 \ ص 15

83 ـ انظر خاتمة نسخة الجامع الصحيح برواية ابن منظور ، وقد تكرر ذكرها ، وعلمنا انها بأجزائها الثلاثين بخزانة تمكروت رقم 312

ومن هذا التاريخ تختفي المصادر التي تردد ذكر هذا الأصل الى حوالي نهاية القرن الهجري العاشر . وهنا ينتظم الحديث عن نسخة ابن سعادة ، ويتأكد وجودها — بكاملها — محفوظة فى خزانة القرويين بفاس .

وفى الوقت ذاته شهد نفس الاصل مبادرة عملية جعلت يتركز فى الدراسات الحديثية بالمغرب عبر الفترات التالية ، وذلك بكتابة نسخة جديدة منه من خط ابي عمران بن سعادة مباشرة ، وتداول المعنيون بالأمر — الى العقود الاخيرة — هذا الفرع المستجد بالانتساخ منه ، والتصحيح به ، والتعليق عليه ، واسماعه ، ودراسته .

وكان هذا الاصل المغربي قد كتب برسم الشيخ ابي المحاسن يوسف ابن محمد الفاسي الفهري ، المتوفى عام 1013 هـ \ 1604 م ؛ وجاء فى خمسة اسفار موازية للمنتسخ منه (84) ، وهو بخط الوراق المعروف بالجزولي : محمد بن علي بن محمد الحسني المري ، الاندلسي ، ثم التلمساني ، ثم الفاسي (85) .

ويذكر فى « مرآة المحاسن (86) » عن نفس الفرع : انه صارت القراءة فيه عند سرد صحيح البخاري فى رمضان بمجلس الشيخ ابي المحاسن ، مع معارضته باصل ابن سعادة عند القراءة ، فكان ابو العباس احمد بن يوسف الفاسي يتولى سرد الفرع ، بينما يمسك عمه ابو زيد عبد الرحمن العارف ، الاصل الاندلسي ، وتعددت هذه المقابلة مرات .

كما ان ابا زيد الفاسي آنف الذكر ، سجل — بخطه — تعاليق على هامش النسخة الجديدة ، ومنها — مع اضافات — جمع حاشيته على الجامع الصحيح : « تشنيف المسامع ببعض فوائد الجامع (87) » .

وقد صارت نسخة هذا الفرع تعرف فى فاس « بالشيخة » ، نظرا لوفرة المنتسخات المغربية منها : مباشرة او بواسطة ، واعتبارا بكثرة تداول المحدثين لها ، واعتمادهم عليها .

والآن نذكر ان النسخة « الشيخة » هذه لا تزال بقيد الوجود ، وهي — بأسفارها الخمسة — فى حوزة السفير المغربي السابق : السيد الحاج الفاطمي ابن سليمان الاندلسي الغرناطي الاصل ثم الفاسي ، ومنها مصورة بالخزانة العامة بالرباط ، فى فيلم يحمل رقم 736 .

اما النسخة الاصلية التي بخط ابن سعادة فقد بقي منها — الآن — اسفار ثلاثة : 2 و 4 و 5 ، وهي بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د \ 1333 ، بينما : كان السفر الأول قد ضاع قديما ، وجدد — بامر السلطان العلوي محمد الرابع — بانتساخ آخر بدله من النسخة الشيخة ، وكتبه بخطه محمد الهادي بن عبد النبي بن المجذوب الفاسي ، حيث كمل فى 12 ذي الحجة عام 1285 (88) هـ \ 1869 م ، وهذا السفر محفوظ بدوره بنفس الخزانة رقم د \ 1332 ، ثم كان مصير السفر الثالث الذي بخط ابن سعادة ان استعاره مستشرق معروف ، ولعله كان يحاول تصويره نظير عمله فى السفر الثاني ، غير انه توفي ولم يعد المخطوط الى سفره بالخزانة العامة بالرباط .

---

84 — (مرآة المحاسن) ص 49 ، وفى فرع ميارة من الجامع الصحيح الماخوذة من هذه النسخة المستجدة ان هذه كتبت برسم الحافظ ابي العباس احمدبن ابي المحاسن ، حسبما يسجل هذا منتسخها فى افتتاحية مطولة كتبها بخطه على هامش الصفحةالأولى من نسخته التي سنذكر انها محفوظة بالخزانة العامة تحت رقم ج 662

85 — انظر ترجمته فى (سلوة الانفاس) 3\286

86 — (مرآة المحاسن) ص 49 — 50 : ويضيفميارة فى افتتاحيته الآنفة الذكر ، ان ابا العباس بن ابي المحاسن قام — من جهته — بتصحيحهذا الفرع غاية .

87 — نشر بالمطبعة الحجرية الفاسية على هامشحاشية محمد بن عبد الرحمن ابن زكرى على الجامع الصحيح ، فى خمسة اجزاء .

88 — (التنويه والاشادة) ص 37 \ 38

ومن الجدير بالذكر أن المستشرق الفرنسي الأستاذ لافي بروفنسال قام بنشر السفر الثاني من نسخة ابن سعادة منقولا بالتصوير الشمسي من خطه الأصلي ، مع تصديره بمقدمة بالعربية باسم « التنويه والاشادة بمقام رواية ابن سعادة » المحدث المغربي محمد عبد الحي الكتاني ، مع مقدمة اخرى بالفرنسية لنفس المستشرق ، ناشر هذا السفر فى باريز عام 1347 هـ \ 1928 م ، فى 177 ورقة عدا المقدمتين .

وما اجدر الأسفار الباقية من هذا الأصل بنشرها هي – الاخرى – بالتصوير ، مع طبع النسخة بكاملها ؛ طبعة علمية مصححة . وهو دين فى ذمة المعنيين بالامر من المغاربة .

ونذكر – الآن – نماذج من الفروع المستخرجة من النسخة « الشيخة »مباشرة او بواسطة :

أولا – نسخة ميارة : محمد بن محمد الفاسي شارح المرشد المعين وغيره ، المتوفى عام 1072 (89) هـ \ 1662 م ، ويقول عنها فى « التنوية والاشادة (90) » :

« وهي نسخة معتمدة تداولتها ايدي الأعلام ، ادركتها بفاس ، وقد انتقلت اليوم الى مراكش » ، ومن مراكش صارت هذه الى الخزانة العامة بالرباط ، حيث تحفظ بها تحت رقم ج \ 662 فى اربعة اسفار .

ثانيا – ابو السعود عبد القادر بن علي الفاسي الفهري ، المتوفى عام 1091 هـ (91) \ 1680 م ، وقد كان ينسخ الجامع الصحيح كثيرا ، وكان الناس يرغبون فى النسخ التى تكون بخطه ، ولا تزال الخزائن العامة والخاصة تحتفظ بجملة من منتسخاته للبخاري ، ومن المعروف منها بالخزائن العامة :

– نسخة خماسية التجزئة بخزانة الزاوية الحمزية رقم 398 .

واربع نسخ اخرى بخزائن مشهد ابي يعزى ، وجامع القصبة بالصويرة ، والجزائر ، وباريس مع السفر الخامس – من تجزئة ثمانية – بخزانة الجامع الكبير بمكناس رقم 449 (92) .

ثالثا – نسخة محمد بن علي الحريشي الفاسي ، المتوفى عام 1102 (93) 1690 – ، 91 م ، ويوجد منها ثلاثة أسفار بالخزانة العامة بالرباط ، موزعة بين ثلاثة ارقام : الاول : ك 1865 ، والثالث : د 444 ، والرابع الاخير : د 509

رابعا – نسخة محمد المهدي بن احمد بن علي الفاسي الفهري ، المتوفى عام 1109 (94) هـ / 1697 م وكانت موقوفة على مسجد زقاق الماء بفاس دون أن يعرف مصيرها بعد ، وهناك الخمس الاول من نسخة اخرى تحتفظ به خزانة خاصة ، ويقول القادري (95) عن خطة المترجم فى وراقته « انفرد بالاتقان الذي لا يعرف لغيره ، لاسيما فى نسخ الكتب ، فاذا كتب نسخة من تاليف ؛ لا يكاد بل لا يعثر على حرف واحد ، او على حركة فى غير محلها مع جودة الخط واتقانه » .

خامسا – نسخة احمد بن العربي بن سليمان الاندلسي الشراطي ، المتوفى عام 1141 (96) هـ \ 1728 – 29 م ، فى مجلد بخزانة القرويين .

---

89 – ترجمته ومراجعها (سلوة الانفاس) ، ط ٠ف . 1 \ 165 – 167

90 – ص 10

91 – ترجمته ومراجعها فى (سلوة الانفاس)1\309 – 316

92 – (التنوية والاشادة) ص 10 ، مع الوراقة المغربية : القسم الثاني ، مجلة البحث العلمي ، عدد 18 ، السنة 8 \ ص 35

93 – ترجمته عند القادري فى كل من (نشر المثاني) المطبوع ، 2\142 و (الاكليل والتاج . فى تذييل كفاية المحتاج) ، مخطوط المكتبة الملكية رقم 1897

94 – ترجمته ومراجعها فى (سلوة الانفاس)2\316 – 318

95 – انظر محمد المنوني : الوراقة المغربية :القسم الثاني ، مجلة البحث العلمي عدد 18 ، السنة 8 – ص 36

96 – ترجمته ومراجعها فى (سلوة الانفاس) ،1\291 – 292

سادسا ـ نسخة احمد بن قاسم جسوس الفاسي ، وهو اخو محمد بن قاسم جسوس شارح الشمائل وغيرها ، والمتوفى عام 1182 هـ \ 1768 م ، بعد وفاة اخيه احمد (97) كاتب نسخة البخاري المعنى بالامر ، وقد كتبها هذا ـ فى مجلد ـ من خط محمد المهدي الفاسي ، وفرغ منها عام 1121 هـ ، وهي بخزانة تمكروت رقم 952 .

سابعا ـ محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد (خمسا) بن عبد الرحمن الدلائي ثم الفاسي ، المتوفى عام 1197 هـ \ 1782 ـ 83 م دأب على كتابة نسخ من صحيح البخاري (98) ، ومنها واحد فى مجلد من خط ابى السعود عبد القادر الفاسي وغيره ، بالمكتبة الملكية ضمن المجموعة الزيدانية رقم 211 .

ثامنا ـ نسخة احمد بن عبد القادر بن احمد بن يحيى الفاسي ، كان بقيد الحياة عام 1206 هـ \ 1791 م انتسخها من خط ابي السعود ومحمد المهدي الفاسيين وغيرهما ، وهي بالمكتبة الملكية رقم 10571 .

تاسعا ـ محمد ـ محمود بن احمد الصقلي الحسيني الفاسي ، المتوفى عام 1232 هـ \ 1817 م ، كتب ـ حسب سلوة الأنفاس (99) ـ نسخا عدة من صحيح البخاري فى غاية الصحة ونهاية اتقان ، مع حسن الخط وتمام الضبط ، ويوجد من منتسخاته هذه اربعة اجزاء : 1 و 3 و 6 و 7 من نسخة كتب آخر الاول منها : انه بخط المترجم ، ومجموعها بالمكتبة الملكية رقم 6163 .

عاشرا ـ عبد العزيز بن محمد بن محمد المهدي الحلو المريني الفاسي ، المتوفى عام 1233 هـ \ 1818 م ، وتمتاز منتسخاته بجمال الخط ، وابداع الزخرفة والتلوين والتذهيب ، واجادة التسفير ، ومن خصوص صحيح البخاري كتب عدة نسخ ، من بينها نسختان كتبهما بقلم واحد : احداهما خماسية التجزئة ، والأخرى فى مجلد واحد (100) ، ومن الباقي من منتسخاته للجامع الصحيح نذكر ثلاثة كلها من خط محمد المهدي الفاسي :

ـ نسخة فى مجلد ، فرغ منها اوائل المحرم عام 1206 هـ \ 1791 م ، خ ، ع ، ج 695 .

ـ نسخة خماسية التجزئة ، كملت كتابتها يوم الخميس 19 شعبان ، عام 1227 هـ \1812 م بالمكتبة الملكية رقم 3275 .

ـ نسخة من عشرة اجزاء ، ورد وصفها فى « برنامج المكتبة الصادقية » بتونس (101) .

ـ وبالخزانة العامة بالرباط بخطه : نسخة رابعة فى مجلد تحت رقم د 1587 ، غير انها لم يسم فيها الأصل المنقولة عنه .

حادي عشر ـ محمد بن عبد العزيز الحلو ولد المذكور قبله ، ومشابهه فى خصائصه الوراقية ، وكانت وفاته بعد عام 1246 (102) هـ / 1831 م .

وبتونس نسختان من البخاري بخطه ، كل منهما فى مجلد ، احداهما : كتبها عام 1221 هـ ، والثانية عام 1227 هـ (102) مكرر .

---

97 ـ جاء ذكره دون تحديد تاريخ وفاته ، بخط اخيه محمد ، خلال تملك كتبه هذا الأخير ، على مخطوطة من شرح الحكم العطائية لابن عباد ،خ . ع . ك 159

98 ـ سلوة الانفاس عند ترجمته 2\100 ـ 101 نقلا عن « البدور الضاوية » حيث يعدد مؤلفها ذكر خمسة من المحمدين فى اسمه واسم آبائه خلاف الوارد فى السلوة .

99 ـ عند ترجمته 1\138 ـ 139

100 ـ انظر عن ترجمته وبعض منتسخاته : محمدالمنوني : (معرض المخطوطات العربية بمكناس) ، مجلة تطوان ، العدد 3 ـ 4 مزدوج ، ص99 ـ 100

101 ـ ج 2\66

102 ـ فى 4 شوال 1246 هـ ، كتب بخطه تقريظا على مخطوط بالمكتبة الملكية رقم 1663

102 مكرر ـ مجلة « المغرب » : نفس العدد الوارد عند التعليق رقم 82 \ ص 18

ثاني عشر – محمد الفضيل بن محمد الفاطمي الادريسي الشبيهي الزرهوني ، المتوفى عام 1318 هـ \ 1900 م .

كتب بخطه نسخة عشارية من صحيح البخاري ، وصححها وضبطها عشرات المرات ، واعتمد فيها على نسخة ميارة سالفة الذكر صدر هذه اللائحة (103) .

واخيرا فان اخذ المغرب برواية ابن سعادة لاقى بعض المعارضة المحلية : فمن الجنوب المغربي كان ابو مروان عبد الملك التاجموعتي ينكر ولوع المغاربة بهذه الرواية ، حيث انها – عنده – من قبيل الوجادة (104) ، وكأنه بهذا يميل الى ترجيح الاخذ برواية النسخة اليونينية الشرقية .

وسنرى – بعد هذا – ان ابا العباس احمد بن الشيخ محمد بن ناصر ، جلب من المشرق – فعلا – النسخة اليونينية من صحيح البخاري ، وصارت هي المعتمدة في قراءته بزاوية تمكروت وما اليها .

ومن جهة اخرى فان ابا العلاء ادريس العراقي الحافظ ، كان يفضل رواية القاضي عياض للبخاري عن الصدفي ، على رواية ابن سعادة عنه ، حسبما نقله عنه تلميذه عبد السلام بن الخياط القادري ، وهو يعقب على ذلك بقوله :

« وقفت على نسخة رواية عياض عن الصدفي المشار اليها عند مولاي ادريس المذكور وسمعت عليه جلها ، وقابلت عليه معها نسخة ابن سعادة المشار لها ، فباعتبار ما ظهر لنا : فقول شيخنا العراقي صحيح . (105)

غير ان معظم اعلام المغرب اخذوا برواية ابن سعادة واعتمدوا خلفا عن سلف ، وقد علق محمد الصغير السوسي الافراني على ملاحظة التاجموعتي هكذا :

« وقد انكر عليه ذلك شيوخ العصر ، وحق لهم الكاره ، فان تواريخ الاندلسيين ناطقة ببطلان دعواه . . . (106)

وسوى الافراني فان عالم سوس : يحيى بن عبد الله بن مسعود البكري الجراري (107) ، يعتمد

---

103 – التنويه والاشادة ص 110 – 111 ، مع اتحاف اعلام الناس خلال ترجمته ج 5\518 – 520

104 – (نفحة المسك الداري لقارىء صحيح البخاري) لأبي الفيض حمدون ابن الحاج الفاسي ، ط . ف ، عند الملزمة 16 ص 5

105 – (التحفة القادرية) ، مخطوط خ . ع ، ك 2321 \ المجلد الاول ، عند الباب السابع ، ونقله الكتاني في التنويه والاشادة ص 28 – 29 ، وفي فهرس الفهارس 2\368
ومن الذين اعتمدوا رواية عياض من المشارقة : الشرف اليونيني آتي الذكر ، وهو يروي الجامع الصحيح من طريق ابي ذر هكذا : عن شيخه ابي جعفر الهمداني ، عن أبي طاهر السلفي ، عن ابي الفضل عياض ، عن ابي علي الصدفي ، عن ابي الوليد الباجي ، عن ابي ذر (انظر مقدمة النسخة اليونينية) المحفوظة بالمكتبة الملكية رقم 10802
ومن الذين ذكروا هذه الرواية من المغاربة : علم الدين صالح بن محمد الفلاني المسوفي ، حيث يرفع سنده في صحيح البخاري الى محمد بن جابر القيسي الوادي آشي ، عن ابن مجاهد ، عن أبي محمد احمد بن خليل السبتي ، عن القاضيين : عياض وأبي بكر بن العربي ، عن ابي علي الصدفي . . . » (قطف الثمر) لصالح الفلاني المذكور ، مطبعة حيدر اباد بالهند ص 11
ومن المتاخرين ذكر نفس الرواية علامة فاس : محمد بن قاسم القادري الحسيني واسندها من طريق المنثوري الى عياض الصدفي عن الباجي عن ابي ذر . فهرس القادري المذكور ، المطبعة الفاسية ، عند الملزمة الثانية ص 5 ، وانظر ترجمة نفس المؤلف من فهرس الفهارس 2\293

106 – (نفحة المسك الداري) ، عند الملزمة 16 ص 6

107 – فهرس المذكور : ضوء المصباح في الأسانيد الصحاح » ، مخطوطة المكتبة الملكية رقم 4275

رواية ابن سعادة في سنده الى البخاري ، وهو يعقب على ذلك بقوله : « وينبغي المحافظة على هذا السند الفريد ، العالي القدر المجيد ، خصوصا عندنا بالمغرب : لان نسخة الامام ابن سعادة هي المعتمدة عندنا بالمغرب ... »

ولما ذكر محمد بن عبد السلام الناصري النسخة اليونينية ختم حديثها بقوله : « ورواية ابي عمران موسى بن سعادة اولى واوثق واضبط منها ، لاجماع المغاربة في امصار المغرب عليها (108) :

12 ـ النسخة اليونينية :

وستتبين أنها منسوبة الى القائم بتصحيحها على روايات البخاري : ابي الحسن علي بن محمد الهاشمي اليونيني الحنبلي ، وهي آخر الروايات ظهورا بالمغرب ، وكان اول من استجلبها من الشرق ابو العباس احمد بن الشيخ ابي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي التمجروتي ، المتوفى عام 1129 هـ (109) \ 1717 م ، وقد اشترى من مكة المكرمة ـ برسم الزاوية الناصرية ـ فرعا من هذه الرواية من 528 ورقة موزعة بين عشرة اجزاء ، مكتوبة بخط شرقي واضح مليح ، ووقع الفراغ منها تجاه الكعبة الشريفة ، في يوم الجمعة لسبع خلون من ذي القعدة ، عام 1117 هـ \ 1706 م ، على يد كاتبها : ابراهيم المكي بن علي القيصري الحنفي ، وهي منقولة من الاصل اليونيني مباشرة ، بخط محمد بن عبد المجيد بن زيد (110) ، وكتبه هذا في مدة آخرها يوم الاحد 28 رمضان ، عام 669 هـ \ 1271 م .

ولا يزال هذا الفرع اليونيني معروفا ، وهو ـ الآن ـ في الخزانة العامة بالرباط رقم ق 481 ، وعلى الجزء الاول منه بخط ابي العباس ابن ناصر : « ملك لله تعالى ، بيد احمد بن ناصر كان الله له ، بمكة المشرفة ، بثمانين دينارا ذهبا » .

وهناك نسخة من هذا الفرع ندب ابو العباس ابن ناصر الى انتساخها فكتبت بخط مغربي حسن في ثلاثين جزءا باعتبار واحد لكل يوم من رمضان ، ووقع الفراغ منها اواسط رجب عام 1128 هـ \ 1716 م ، على يد ناسخها : محمد بن محمد بن محمد حجي الفاسي ، وهي باقية بخزانة تمكروت باجزائها الثلاثين ، وتحمل رقم 949 ، وبها كانت تقع قراءة صحيح البخاري في رمضان بالزاوية الناصرية بتمكروت .

ويحتفظ المغرب بمخطوطة يونينية ثالثة بالمكتبة الملكية رقم 10806 ، وهي بخط شرقي في مجلدين كبيرين ، الاول : يتخلله بتر كثيرة ، والثاني : مبتور يسيرا من الآخر ، والغالب ان هذه النسخة كانت ضمن الكتب الحديثة التي استجلبها ـ من الشرق ـ السلطان العلوي محمد الثالث .

***

اما واقع هذه النسخة اليونينية فانها تنسب الى شرف الدين ، ابي الحسين علي بن محمد بن احمد الهاشمي البعلي اليونيني ، نسبة الى يونين من قرى بعلبك في لبنان ، ثم الحنبلي ، المتوفى عام 701 هـ \ 1302 م .

وكان قد استنسخ اصله من صحيح البخاري في المجلدين ، واهتبل به كثيرا . حتى انه في سنة واحدة قابله واسمعه احدى عشرة مرة (111) .

وهو في مقابلة اصله هذا ، قد اعتنى بضبط روايات الجامع الصحيح وقارن بينها . وصححها ؛ معتمدا في ذلك على اربعة اصول رئيسية :

اولا ـ اصل مسموع على ابي ذر الهروي من طريق ابي العباس احمد بن الحطيئة ، الفاسي

---

108 ـ كتاب المزايا : عند البدعة رقم 13

109 ـ انظر ترجمته من فهرس الفهارس 2\88ـ 90

110 ـ يظهر انه المترجم في « الدرر الكامنة »4\27

111 ـ انظر ترجمته من كتاب « الذيل على طبقات الحنابلة » لابن رجب 2\345 ـ 346 .

الاصل ثم المصري (112) ، حسب سنده السالف الذكـــر .

ثانيا ـ اصل مسموع على الاصيلي ، وعليه الحواشي بخط ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله النميري القرطبي (113) .

ثالثا ـ اصل سماع ابي القاسم بن عساكر : علي بن الحسين الدمشقي مؤرخ الشـام (114) ، وينقصه الجزءان : الثالث عشـر والثالث والثلاثون .

ربعا ـ اصل مسموع على ابي الوقت : عبـد الاول بن عيسى السجزي ثم الهروي (115) .

وقد بالغ الشرف اليونيني في المقابلة على هـذه الاصول ، فكان ذلك تحت نظر ابـن مالـك الامـام الشهير : محمد بن عبد الله الطائي الجياني نزيـل دمشق (116) ، وبمحضر جماعة من فضلاء المحدثين والحفاظ ، وهم بدورهم ناظرون فى نسخ معتمـدة مـن الجامع الصحيح ، حتى اذا مر بهم من التعابير ما يتراءى انه مخالف لقوانين العربية تسـاءل ابـن مالك هل الرواية فيه كذلك ، فان اجيب بالاثبات شرع فى توجيهها حسب امكانه ، وما اختاره ورجحه وامـر باصلاحه بادر الشرف اليونيني الى اصلاحه فـى اصله وصحح عليه ، وما ذكر انه يجوز فيـه اعرابان او ثلاثة عمل المشار له على ما اشار به رجحـه ، وهكذا حتى كملت المعارضة والتصحيح عند المجلس الحادي والسبعين ، وبهذه المناسبة وضع ابن مالـك تعليقه : « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح (117) » .

وعند نهاية المقابلة كتب ابن مالك ـ بخطـه ـ تصحيح السماع ، واثبته بحاشية ظاهـر الورقـة الاولى من النصف الثاني فى نسخة اليونيني ، وهـذا نصـه :

« سمعت ما تضمنه هذا المجلد من صحيـح البخاري رضي الله عنه ، بقراءة سيدنا الشيخ الامام العالم الحافظ المتقن ، شرف الدين ابي الحسيـن علي بن محمد بن احمد اليونيني رضـي الله عنـه وعـن سلفـه .

« وكان السماع بحضرة جماعة من الفضـلاء ، ناظرين فى نسخ معتمد عليها ، فكلما مر بهم لفظ ذو اشكال بينت فيه الصواب وضبطته على ما اقتضـاه علمي بالعربيـة .

« وما افتقر الى بسط عبارة واقامة دلالة اخرت امره الى جزء استوفى فيه الكلام مما يحتاج اليه مـن نظير وشاهد ، ليكون الانتفاع به عاما ، والبيـان تاما ، ان شاء الله تعالى .

وكتـب محمد بن عبد الله بن مالك ، حامـدا للـه تعالى » .

وكما علم وشيكا فان هذا السماع كتب علـى اول المجلد الآخرين من الأصل اليونيني ، وبالاضافة

---

112 ـ يقول الشرف اليونيني عن **هذا الاصـل** :وهي نسخة صحيحة معتني بها ، حجة . وينقل عـن شيخه ابي اسحاق بن الأزهر الصريفيني :« وهذه النسخة من صحيح البخاري مفـزع يلجـأ اليه ، اصحتها واتقانها » ، (انظر مقدمة النسخةاليونينية) المحفوظة بالمكتبة الملكية رقم 10802

113 ـ يقول عنه الشرف اليونيني حسـب نفسالمصدر : « واما الأصل المعزو الى الأصيلي فانه وقف فى مدرسة شيخنا : الحافظ ضياء الدين ابيعبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي ... وهـو اصل صحيح تظهر عليه مخايل النباهة والصحة »
وانظر عن مدرسة المقدسي الدمشقية كتـاب الذيل على طبقات الحنابلة) لابن رجب 2\238

114 ـ ترجمته فى (طبقات الشافعية الكبرى)للسبكي ـ 4 \ 273 ـ 277

115 ـ ترجمته فـى شذرات الذهـب 4\166 ،ويشير اليونيني فى مقدمة نسخته : الى ان اصلـه من الجامع الصحيح راجع الى هذا الأصـلالمسمـوع على ابي الوقت ، وقد ورد ذكـر ابـي الوقت وسنده الى البخـاري اول المجلـدالثانية من النسخة اليونينية ، حسب هامش صحيـح البخاري ، مطبعة البابي الحلبي بمصر 4\177

116 ـ ترجمته عند السيوطي فى بغية الوعاة ص53 ـ 57

117 ـ نشـر لأول مرة بالهند ببلدة اله ابـاد عـام1319 هـ ، واعيد نشره بالقاهرة فى مطبعـة لجنـة البيان العربي . عام 1376 هـ \ 1957 م .

الى هـذا كتب الشرف اليونيني بآخر نفس المجلد ما يلي :

« بلغت مقابلة وتصحيحا واسماعا بين يدي شيخنا ، شيخ الاسلام ، حجة العرب ، مالك ازمة الادب ، الامام العلامة ، ابي عبد الله بن مالك الطائي الجياني ، امد الله تعالى عمره ، فى المجلس الحادي والسبعين . وهو يراعي قراءتي ، ويلاحظ نطقي ، فما اختاره ورجحه وامر باصلاحه ، اصلحته وصححت عليه ، وما ذكر انه يجوز فيه اعرابان او ثلاثة ، فاعلمت ذلك على ما امر ورجح .

وانا اقابل باصل الحافظ ابي ذر ، والحافظ محمد الأصيلي ، والحافظ ابي القاسم الدمشقي . ما خلا الجزء الثالث عشر والثالث والثلاثين فانهما معدومان ، وباصل مسموع على الشيخ ابي الوقت ، بقراءة الحافظ ابي منصور السمعاني وغيره من الحفاظ ، وهو وقف بختقاه السميساطي .

وعلامة ما وافقت ابا ذر : ه

والاصيلي	: ص
والدمشقي	: ش
وابا الوقت	: ظ

فليعلم ذلك : وقد ذكرت ذلك ــ فى اول الكتاب ــ فى فرخة ، لتعلم الرموز . كتبه علي بن محمد الهاشمي اليونيني ، عفا الله عنه » .

هذا هو النص الذي نقله ــ مع سابقه ــ القسطلاني (118) فيما وجده على المجلد الثاني من اصل الشرف اليونيني .

وقد ورد آخر السماع الثاني فقرة تقول : « وقد ذكرت ذلك ــ فى أول الكتاب ــ فى فرخة لتعلم الرموز » ، وحسب الابياري (119) : فان فرخة تانيث فرخ من الورق ، وهو الصحيفة المعتادة ــ عرفا لا لغة .

وقد علق الشهاب العطار المكي (120) هنا هكذا : « يقول كاتبه احمد بن عثمان المكي غفر الله لهما : الفرخة التي عنى بها الشيخ اليونيني فى كلامه هنا ، كنت قد وقفت عليها فى سنة 1299 فى (بدوامري) بالهند ، وهي محفوظة عندي الى الآن ، نقلتها من خط من نقلها بالمدينة المنورة فى سنة 1260 ، من خط مفتيها ــ حينئذ ــ مولانا الشيخ العلامة المحدث : عبد السلام بن محمد امين الداغستاني المدني ، رحمه الله تعالى ، بين فيها جملة كبيرة من الرموز التي عينها فى نسخته » .

ومن حسن الحظ ان يكون المغرب يحتفظ ــ بدوره ــ بنسخة اخرى من هذه الفرخة ، وهي ثابتة اول النسخة اليونينية التي اشير ــ سلفا ــ الى انها محفوظة بالمكتبة الملكية تحت رقم 10802 .

* * *

وقد صار هذا الأصل اليونيني ــ فى فترة قديمة ــ وقفا على مدرسة اقبغا آص بالقاهرة (121) ، ثم فقد المجلد الأول منه ازيد من خمسين

---

118 ــ (مقدمة ارشاد السارى لشرح صحيح البخاري) ، الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية بمصر 1\41

119 ــ (نيل الاماني فى توضيح مقدمة القسطلاني) ، المطبعة الميمنية بمصر ص 114

120 ــ ورد هذا التعليق فى ذيل شواهد التوضيح لابن مالك : المطبعة الآنفة الذكر ص 121

121 ــ يحدد القسطلاني موقع هذه المدرسة بانها بسويقة العزى خارج باب زويلة من القاهرة ، (مقدمة ارشاد السارى) 1\40
وهذا الوصف انما ينطبق على التي يسميها المقريزي . مدرسة الجاي ، وهو يقول عنها : « هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل .. ويعرف الآن خطها بخط سويقة العزى ، انشاها الأمير الكبير سيف الدين الجائي فى سنة ثمان وستين وسبعمائة ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ، ودرسا للفقهاء الحنفية ، وخزانة كتب ... » (الخطط المقريزية) ، مطبعة النيل بمصر : 4\249 ، وحسب علي مبارك صارت هذه المدرسة تعرف بجامع الجائي ، (الخطط الجديدة) 6\5 .
على انه قد تكون قامت مدرسة اخرى فى نفس الخط ، وبنفس الاسم الذي ذكره القسطلاني ، واغفل المقريزي تسجيلها ، وقد قال ابن بطوطة فى هذا الصدد : « واما المدارس بمصر فلا يحيط احد بحصرها لكثرتها » (تحفة النظار) :المطبعة التجارية الكبرى بمصر 1\20

سنة ، الى أن وجد ينادى عليه للبيع فى سوق الكتب بالقاهرة . فعرف واحضر الى الشهاب القسطلاني وهو يشتغل فى شرح صحيح البخاري ، وكان قد قابل المتن المشروح على المجلد الثاني من نفس النسخة ، فاتم هذه المعارضة بالنسبة الى المجلد الاول (122) .

ويبدو أن موقوفات هذه المدرسة طرا عليها تبديد فى فترة لاحقة ، فضاع منها الاصل اليونيني بجملته ، الى ان عثر عليه العالم المغربي محمد بن محمد بن سليمان السوسي الروداني ثم المكي ، المتوفى – بدمشق – عام 1094 هـ \ 1683 م . ومن حوزته انتقل الى ملكية الشيخ محمد اكرم ابن محمد بن عبد الرحمن الهندي نزيل مكة المكرمة ، ثم استعاره من هذا الاخير محدث الحجاز : عبد الله بن سالم البصري فصار يسمع منه (123) ، وكان هو عمدته فى نسخته – آتية الذكر – التي كتبها من الجامع الصحيح ومن هنا يشتد الغموض على مصير اصل الشرف اليونيني .

1 – ومن الفروع القديمة لهذا الاصل يقول القسطلاني فى مقدمة شرح البخاري (124) « ولقد وقفت على فروع مقابلة على هذا الأصل الأصيل ، فرايت من اجلها الفرع الجليل الذي لعله فاق اصله ، وهو الفرع المنسوب للامام المحدث ، شمس الدين ، محمد بن احمد الغزولي (125) ، وقف التنكزية بباب المحروق خارج القاهرة ، المقابل على فرعي وقف مدرسة الحاج مالك واصل اليونيني المذكور غير مرة ، بحيث انه لم يغادر منه شيئا كما قيل . فلهذا اعتمدت – يقول القسطلاني – فى كتابة متن البخاري فى شرحي هذا عليه ، ورجعت فى شكل جميع الحديث وضبطه – اسنادا ومتنا اليه ، ذاكرا جميع ما فيه من الروايات . وما فى حواشيه من الفوائد المهمات » .

ولحسن الحظ فان فرع الغزولي المشار له لا يزال النصف الثاني منه بقيد الوجود بدار الكتب المصرية فى 177 ورقة ، وهو بخط الغزولي نفسه ، فرغ منه يوم الثلاثاء 12 جمادى الآخرة عام 735 هـ \ 1335 م ، وفى آخر سماعات لافاضل من العلماء (126) .

2 – ويوجد بدار الكتب نفسها فرع آخر من اليونينية فى مجلد يشتمل على 301 ورقة بها خروم فى اثنائها ، كتبه – بخطه الشرقي – محمد بن الياس بن عثمان المتصوف ، وفرغ منه يوم الاحد 20 ربيع النبوي عام 738 هـ \ 1347 م .

ومن حسنات هذا الفرع انه مقابل بالنسخة التي قوبلت بنسخة اليونيني ، قابله عليها العلامة احمد بن محمد بن عبد الرحمن العسجدي ، وقابله – مرة اخرى – العلامة احمد بن علي السبكي الشافعي ؛ فى مدة آخرها رمضان عام 761 هـ \ 1360 م . معتمدا على نسخة صححها جمال الدين المزي وشمس الدين الذهبي ، وعلى نسخة ثانية صححها تقي الدين علي السبكي وعلاء الدين التركماني ، هذا الى ان الفرع المعني بالامر يشتمل على خطوط جملة من الافاضل (127) .

---

122 – مقدمة ارشاد الساري 1\41

123 – ورد هذا خلال اجازة من عبد الرحمن بن محمد بن احمد ابن الحاج الى محمد بن موسى بن محمد بن الشيخ ابي عبد الله ابن ناصر ، وتقع اول مجموع خ . ع . ق 172 ، وانظر عن ترجمة الروداني » خلاصة الاثر « للمحبي 4/204 – 208 ، مع (الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام) 4\334 – 359

124 – (مقدمة ارشاد الساري) 1\41

125 – ترجمته فى (الدرر الكامنة) 3\319

126 – (فهرسة الكتب العربية الموجودة بالكتبخانة الخديوية) ط . مصر عام 1310 هـ ج 1\302 ، ويوجد ايضا بنفس الفهرس والجزء ص 310 : وصف نسخة اخرى من الجامع الصحيح ، بها 24 جزءا من تجزئة ثلاثين ، آخرها بخط محمد بن احمد المزي الحريري ، وعليها خط القسطلاني .

127 – المصدر الاخير 1\302

3 ـ على ان الفرع اليونيني الذي استمرت شهرته ، هو الذي كتبه ـ بخطه ـ امام هذه الصناعة : عبد الله بن سالم بن محمد البصري ثم المكي . المتوفى عام 1134 (128) هـ \ 1722 م .

وقد استغرق في كتابته وتصحيحه نحوا من عشرين سنة ، اعتمادا على اصل الشرف اليونيني وزيادة (129) ، وبهذا كانت هذه النسخة البصرية طبقة عالية في الصحة ، وصارت ـ حسب عالم من الهند ـ (130) هي اصل الاصول للنسخ الشائعة في الآفاق . وعن مصيرها يقول المحدث محمد عبد الحي الكتاني (131) : رايت في المدينة المنورة عند الحكيم المسند الشيخ طاهر سنبل ، نسخة عبد الله بن سالم البصري بخطه من الصحيح ثمانية ، وهي نهاية في الصحة والمقابلة والضبط والخط الواضح ، واخبرني انه احضرها الى الأستانة ليصحح عليها النسخة الأميرية التي طبعت هناك من الصحيح ، وفرقها السلطان عبد الحميد على المساجد والآفاق ، وعليها ضبطت ، ولا ادري من اين اتصلت سلفه » .

4 ـ ومن بين مطبوعات صحيح البخاري (132) كان اتقن طبعة هي التي نشرت بعناية السلطان العثماني : عبد الحميد الثاني ، في تسعة اجزاء ، بالمطبعة الاميرية بالقاهرة عام 1313 هـ \ 1895 م .

وقد اعتمد في نشرها على الأصل اليونيني المصحح الموجود بالخزانة العثمانية : « مكتبة يلدز » بالاستانة ، مع الرجوع الى المنشور ـ سابقا ـ من الجامع الصحيح ، والى مخطوطات اخرى صحيحة : منها الفروع الثلاثة الآنفة الذكر ، وهي فرع الغزولي ، والفرع المصحح على ما صححه المزي والذهبي ، وفرع عبد الله بن سالم البصري .

وبعد تصحيح هذه الطبعة بالمطبعة الاميرية ، قام بقراءة المطبوع ـ من جديد ـ نخبة من اكابر اعلام الازهر يبلغ عددهم 16 عالما ، وبعد ما دونوا ملاحظاتهم سجلوا ـ في النهاية ـ ان هذه الطبعة الجديدة هي المعول عليها في الصحة والاعتبار لنص الجامع الصحيح للبخاري (133) .

الرباط : محمد المنوني

---

128 ـ انظر عن ترجمته فهرس الفهارس 1\132-141
129 ـ ترجمة عبد الله بن سالم البصري التي كتبها الشيخ سالم بن احمد الشماع ، وهي منشورة في ذيل فهرس : (الامداد بمعرفة علو الاسناد) ، مطبعة حيدر اباد الدكن بالهند ص 91 ـ 92 ، مع طلعة المشتري ط ف 2\86
130 ـ فهرس الفهارس 1\140
131 ـ المصدر الاخير 1\140 ـ 141
132 ـ انظر عن بعض مطبوعاته معجم المطبوعات لسركيس ، ع 535 ـ 536
133 ـ الافتتاحية الاولى لطبعة البخاري المعنية بالأمر ، وهي عبارة عن تقرير موضوعي حرره الشيخ حسونة النووي شيخ الجامع الازهر ..
اما فروع اليونينية الثلاثة المشار لها ، فقد وردت الاحالة عليها في هوامش مطبوعة البخاري التي نعلق عليها ، حسب مطبعة الحلبي بمصر ، ومن نماذج هذه الاحالات :
ـــ فرع الغزولي : 3\164 ، حيث يسمى بالفرع التنكزي .
ـــ الفرع المصحح على ما صححه المزي والذهبي 4\193
ـــ فرع عبد الله بن سالم البصري : وتملأ المقابلة به كثيرا من هوامش مطبوعة البخاري المتكررة الذكر : ابتداء من 1\12 الى 9\199 . عند مقارنة آخر حديث من الجامع الصحيح .
ومن الأصول الأخرى المشار لها في هوامش نفس الطبعة :
ـــ اصل الحافظ المنذري 1\54 ، مع 2\53
ـــ اصل منقول من نسخة ابن ابي رافع 4\193



ان التحدث عن الجحيم بذكر اوصافها وخصائصها الواردة فى كتب الحديث يتطلب قبل كل شىء تحديد مدلول الجحيم وخاصة فى المصطلح الاسلامى حيث توجد نظريات واقوال فى المدلول الحقيقى لهذا اللفظ :

ولذلك سأتناول الموضوع حسب هذا التصميم : تحديد مدلول الجحيم ، **استخراج صورة للجحيم من الفاظ الحديث** ، بيان المقصود الحق من هذه الصورة .

1) **تحديد مدلول الجحيم** : تطلق الجحيم فى اللغة على النار الشديدة التأجج ، وعلى المكان الشديد الحر ، وعلى النار العظيمة فى مكان بعيد القعر .

قال فى القاموس : « الجحيم النار الشديدة الحر ؛ وكل نار بعضها فوق بعض ، وكل نار عظيمة فى مهواة ، والمكان الشديد الحر كالجاحم » وبهذا المعنى ذكرت فى القرآن فى قوله تعالى حكاية عن قوم ابراهيم: « قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم » (الصافات) ؛ اذ معلوم من الآيات الاخرى انهم جعلوا فى ذلك البنيان نارا عظيمة .

اما فى المصطلح الاسلامى فالجحيم فى نظر جمهور العلماء من مفسرين ومحدثين وفقهاء ومتكلمين ذلك المكان او الدار التى اعدها سبحانه على نمط خاص لا يعلمه الا هو لتعذيب طائفة من الخلق فى العالم الاخر لم تستعمل ما اوتيته من عقل وفكر وسمع وبصر فيما نصب فى هذا الكون من آيات وبراهن على وجوده وانفراده بالالوهية الحقة ، وما جاء به الرسل ودعوا اليه من وجوب الايمان به ، والتزام ما يجب له من الطاعة والامتثال . « ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم اعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون » (الاعراف) « وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير » (الملك) .

وسمى هذا المكان او الدار جحيما لتلظى ناره واشتداد حرارته ؛ فاللفظة ظاهرة فى انها صيغة مبالغة .

وعلى هذا يكون لفظ الجحيم مرادفا لسبعة الفاظ اخرى ؛ وهى : النار ، جهنم ، السعير ، لظى ، الحطمة ، الهاوية .

وذهبت طائفة قليلة من علماء الاسلام الى ان الجحيم درك من دركات النار تحمل الرقم السادس بحسب التدلى ، وقالوا : ان النار تتكون من طبقات سبع : اعلاها جهنم ، واسفلها الهاوية ، ولكل طبقة طائفة من المعذبين ، وقد نظم هذه الطبقات مع بيان اصحاب كل منها الشيخ الامير المصرى ؛ فقال :

جهنم للعاصى لظى ليهودها
وحطمة دار للنصارى اولى الغمم

سعيـــر عذاب الصابـــئين ودارهم
مجوس لهم سقر جحيم لذى صنـــم
وهاويـــة دار النفـــاق وقيـتـــها
واسال رب العرش امنا من النقـــم

وبهذا فسر البعض الابـــواب فى قوله تعالـــى : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطـــان الا من اتبعـــك من الغاوين ، وان جهنم لموعدهم اجمعين لهـــا سبعـــة ابواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم » (الحجر) .

وهذا الراى فى الحقيقة ان هو الا راى دخيل فى الاسلام غريب عنه ؛ ومن ثم فهو لا يصح ، وروايته عن على وابن عباس رضى الله عنهم ، ثم عن عكرمة وقتادة تلك الرواية التى حاول اصحابه ان يدعمـــوه بها لم يثبت فيها شىء صحيح كما يقول الامام عبـــد الرحمن بن احمد السهيلى المالقى ثم المراكشى المتوفى 581 هـ فى كتابه : التعريف والاعلام فيمـــا ابهـــم فى القرآن من الاسماء والاعـــلام . وحديـــث الاســـراء والمعراج الذى جعل منه الرواة والقصاصون معينـــا خصبا لما ابدعوه من صور للجنة والجحيم لم يرد فى ايـــة رواية من رواياتـــه المدرجة فى الكتب الثلاثة : الموطا ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم — وهى اصح كتب الحديث اطلاقا — تفاصيل عن الجنة والنار، وانما ورد فى بعض تلك الروايات اشارة مقتضبة لاهل الجنة والنار ، وهذه هى تلك الاشارة كما فى بعض روايات البخارى ومسلم لهذا الحديث : « فلما علونا السماء الدنيا فاذا برجل عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة قال : فاذا نظر عن يمينه ضحك ، واذا نظر قبل يساره بكى ، فقال : مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح . قال : قلت يا جبريل من هذا ؟ قال : آدم ؛ وهذه الاسودة التى عن يمينه وعن شماله هم بنوه ، فاهل اليمين اهل الجنة ، والاسودة التى عن يساره اهل النار ، فاذا نظر عن يمينه ضحك ، واذا نظـــر قبل شماله بكى » .

وكيف يصح هذا الراى عن اولئك الاجلة . وهو مناقض لظاهر الآيات القرآنية والاحاديث النبوية .

فمن الآيات القرآنية المناقضة لـــه قوله تعالى : « ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » (النساء) .

فهذه الآية صريحة فى مناقضة ما ذهب اليـــه اصحاب هذا الراى من ان جهنم طبقـــة من طبقات النار السبع ، وانها مخصوصة بعصـــاة المؤمنين ، وان المنافقين لهم الهاوية .

ومنها قوله سبحانه : « ان الذين ياكلـــون اموال اليتامى ظلما انما ياكلون فى بطونهم نـــارا وسيصلون سعيرا » (النساء) ؛ اذ هو يخالف ايضا هذا المذهب فى كون السعير طبقة خاصة بالصابئين .

ومنها قوله : « فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا ، واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » (الجن) ؛ اذ هو يبين ان جهنم ستكون مـــاوى للكافـــرين والمشركين لا لعصاة المؤمنين كما يزعم هذا الراى .

ومنها قوله تعـــالى : « وكفى بجهنم سعيـــرا » (النساء) وقوله : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا ؛ وهى تفور تكاد تميز من الغيظ كلما القى فيها فوج سالهم خزنتها الم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنـــا نذيـــر فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ان انتم الا فى ضلال كبير ، وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير » (الملك) ؛ اذ هما يدلان بصراحة على اتحاد مدلول جهنم والسعير على خلاف ما ذهب اليه ذلك الراى .

ومن احاديث النبوة المبطلة لهذا المذهب ما جاء فى حديث الاسراء والمعراج فى بعض رواياته : « ثم اتى (اى النبى) على واد ؛ فسمع صوتا منكرا ، فقال : يا جبريل ما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنـــم تقول : يا رب ائتنى اهلى وبما وعدتنى ؛ فقد كثرت سلاسلى واغلالى وسعيرى وجحيمـــى وغســـاقى وغسلينى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى . قـــال : لك كل مشرك ومشركة ، وخبيث وخبيثة (الحديث) .

فهذا الحديث يدل على ان كلا من الجحيم والسعير صفة من صفات جهنم لا انهما طبقتان مخالفتان لها .

وعلى كل حال فظاهر القرآن والحديث يدل على ان هذه الاسماء تستعمل تارة على انها من اوصاف النار ، وتارة على انها اعلام للنار مرادفة لها .

ثم الا يكون اختلاف اصحاب هذا الراى فى توزيع الارقام والمعذبين على هذه الدركات من اقوى الادلة على بطلان ما ذهبوا اليه ، فنحن نجد انه بينما البعض كالضحاك يعطى للحطمة مثلا رقم ثلاثة كما فى ابيات الشيخ الامير ، يعطيهـــا البعض الآخـــر رقم : 4 ، وبينما يمنح البعض للجحيم رقم : 2 يختار لها غيره

كالكلبى رقم : 6 ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على ان هذا القول لا ينبنى على اساس ، وليس له ما يسانده من عقل او نقل .

2) **صورة الجحيم** : وحتى اذا ما انتهينا الى هذا الحد واصبحنا على بينة من مدلول الجحيم فلنتساءل : ما هى صورة الجحيم كما رسمتها كتب الحديث ؟

والجواب ان الدارس لكتب السنة التى ترتقى آثارها عند نقاد الحديث وحفاظه الى درجة الاعتبار يرى ان تلك الآثار لا ترسم صورة واحدة للجحيم فحسب ولكنها ترسم لها صورتين تختلف احداهما عن الاخرى تمام الاختلاف شأنها فى ذلك شأن الآيات القرآنية .

فهى تارة تصورها فى شكل مهواة بعيدة القعر ، متعددة الابواب ، مترامية الاطراف ، شديدة الظلمة ، ملتهبة النيران ، عظيمة الحر ، تعلوها سرادقات من سحب دخانية سوداء كثيفة ينتظر المعذبون امطارها حتى اذا ما فعلت زادت نارهم التهابا ، وضاعفت سلاسلهم واغلالهم ، وتتخلل منازلها جبال نارية مفزعة يرمى من قممها المعذبون ، وجبال مخيفة ، واودية موحشة ملئت كلها صديدا ودموعا وقاذورة ، وتنتشر فى جنباتها حيات كالبخت وعقارب كالبغال ، وهوام سامة تجد لذتها فى اللدغ واللسع والنهش ، ليس لنيرانها من وقود سوى اجسام العصاة وكتل الصخر والكبريت ، فى اصلها ، بالرغم من النيران العظيمة ، شجرة غريبة الشكل كريهة المنظر ، خبيثة الاكل ، يتناول منها الظالمون ، ثم يشربون من غساق وغسلين وحميم ؛ فتتمزق امعاؤهم ، يدخلها اهلها فى اشكال غريبة ، واوضاع متنوعة ؛ فمنهم من يسحب ، ومنهم من يلقى ، ومنهم من يكبكب الى غير ذلك من الكيفيات ، حتى اذا ما اداركوا فيها جميعا واشتد بهم العذاب اخذوا يدعون فلا يسمع لهم دعاء ، ويستغيثون فيزداد لهم العذاب ، ثم يوتى بالموت على شكل كبش فيذبح على مراى منهم كعلامة للخلود فيما هم فيه ، تتشوه اجسامهم فتنمو فى غير ما تناسق ، وتسود على شكل رهيب حتى تصبح مناظرهم موحشة ، ومشاهدهم مفزعة ، يسلط عليهم البكاء الى ان يبكون الدم ، وهم مع كل هذا ليسوا متساوين فى العذاب بل كل حسب جرائمه ومخالفاته ، قد وكل امر المهواة الى ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ، بيدهم مقامع وسلاسل واغلال يتولون بها تعذيب العاصين .

ولعل الطف ما فى هذه الصورة ان تلك المهواة قد احيطت بمغريات ومفاتن جعلت الناس يقبلون عليها اقبالا عظيما غير مبالين بما فى داخلها من مكاره واهوال ، وبما ينتظرهم هناك من عذاب ومحن .

واين تقع المهواة ؟ انها قريبة من الجنة بحيث يتحدث اهلها مع اهل دار النعيم ، اما جهتها او مكانها فهذا ما لم يرد به اثر صحيح .

وهذه بعض الاحاديث التى تكون هذه الصورة سأسوقها من كثير من كتب الحديث مقتصرا على اقصر الروايات :

« سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتا هاله ؛ فأتاه جبريل عليه السلام ؛ فقال رسول الله : ما هذا الصوت يا جبريل ، فقال : هذه صخرة هوت من شفير جهنم من سبعين عاما ؛ فهذا حين بلغت قعرها ، فأحب الله ان يسمعك صوتها » (مسلم والطبرانى) » ناركم هذه التى توقدونها جزء من سبعين جزء من جهنم » (مالك والبخارى ومسلم وغيرهم) « اوقد على النار الف سنة حتى احمرت ، ثم اوقد عليها الف سنة حتى ابيضت ، ثم اوقد عليها الف سنة حتى اسودت فهى سوداء كالليل المظلم » (الترمذى والبيهقى وابن ماجه) « ينشىء الله سحابة سوداء مظلمة ؛ فيقال : يأهل النار اى شىء تطلبون فيتذكرون بها سحابة الدنيا فيقولون : يا ربنا الشراب ، فتمطرهم اغلالا تزيد فى اغلالهم وسلاسل تزيد فى سلاسلهم الحديث (الطبرانى) « ان لجهنم لجبابا فى كل جب ساحلا كساحل البحر فيه هوام وحيات كالبخت ، وعقارب كالبغال ، فاذا سأل اهل النار التخفيف قيل : اخرجوا الى الساحل فتاخذهم تلك الهوام بشفاههم وقلوبهم وما شاء الله من ذلك الحديث » (ابن ابى الدنيا) « من اتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع اقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يقول : انا مالك ، انا كنزك ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » (البخارى) « ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر اربعين خريفا قبل ان يبلغ قعره » (احمد والترمذى) « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : وقودها الناس والحجارة ؛ فقال : اوقد عليها الف سنة حتى احمرت الخ حديث البيهقى . « لو ان رجلا من اهل النار اخرج الى الدنيا لمات اهل الدنيا من وحشة منظره ونتن ريحه » (ابن ابى الدنيا) « ان اهون اهل النار عذابا رجل فى اخمص

تدميه جمرتان يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل بالقمقم » (البخارى ومسلم) « منهم من تأخذه النار الى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار الى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار الى حجزته (1) ، ومنهم من تأخذه النار الى ترقوته » (مسلم) « يرسل البكاء على اهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يصير فى وجوههم كهيئة الاخدود لو ارسلت فيها السفن بجرت » (ابن ماجة وابو يعلى) « اريت النار فاذا اكثر اهلها النساء يكفرن ، قيل : ايكفرن بالله ؟ قال يكفرن العشير ، ويكفرن الاحسان ، لو احسنت الى احداهن الدهر ثم رات منك شيئا قالت : ما رايت منك خيرا قط » (البخارى ومسلم) « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات حتى لقد كاد ان لا ينجو منها احد الا دخلها » (ابو داود والنسائى والترمذى) « اذا صار اهل الجنة الى الجنة واهل النار الى النار جيء بالموت فى صورة كبش حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ، ثم ينادى مناد : يا اهل الجنة لا موت ، ويا اهل النار لا موت . فيزداد اهل الجنة فرحا ، ويزداد اهل النار حزنا » (مسلم) .

وقرب الجحيم من الجنة المستفاد من هذا الحديث هو ما تشير اليه آيات القرآن بحسب ظاهرها ؛ مثل قوله تعالى : « ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم ، فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخرة كافرون وبينهما حجاب الآيات » (الاعراف) وقوله : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » (الحديد) وقوله : « فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون ؛ قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول ائنك لمن المصدقين ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لمدينون ، قال هل انتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم » (الصافات)

وكل هذا لا يدل على القرب الحقيقى ، لان امور الآخرة ــ كما سنرى بعد ــ على غير المعهود . والمحادثة والمكالمة والمحاجة بل وحتى الرؤية قد تتم مع تباعد المنازل والديار كما اثبت ذلك العلم الحديث فى عصرنا هذا .

وتارة اخرى تبين الاحاديث الجحيم فى شكل مخلوق عظيم هائج تأخذ بأزمته امة من الملائكة ؛ فتحد من هيجانه ، له ارادة وعقل ، وادراك ومنطق يكاد يتميز غيظا لدى رؤية ضحاياه ، لا يكفيه منهم عدد ، لذلك هو دائما يطلب المزيد .

وهذه بعض الاحاديث التى ترسم الجحيم بهذا الشكل : « يوتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون الف زمام ، مع كل زمام سبعون الف ملك يجرونها (مسلم) « لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة تبارك وتعالى فيها قدمه ، فتقول : قط ، قط وعزتك . ويزوى بعضها الى بعض » (مسلم) وروى عن ابن عباس انه قال فى قوله تعالى : « اذا راتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » (الفرقان) ذلك اذا جيء بجهنم تقاد بسبعين الف زمام يشد بكل زمام سبعون الف ملك ، لو تركت لأتت على كل بر وفاجر .

ثم هل الجنة والنار بصورتيهما مخلوقتان ؟ ذلك ماذهب اليه معظم علماء اهل السنة مستدلين بقصة آدم وحواء واسكانهما الجنة ، وبالآيات والاحاديث الظاهرة فى اعدادهما نحو قوله تعالى : « سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس الآية » (آل عمران) وقوله : « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » (البقرة) وحديث . «عرضت على الجنة ؛ فتناولت منها عنقودا ولو آتيتكم به لاكلتم منه ما بقيت الدنيا » (البخارى) وحديث : « اشتكت النار الى ربها ، فقالت : يا رب اكل بعضى بعضا فاذن لها فى نفسين : نفس فى الشتاء ، ونفس فى الصيف الحديث (البخارى ايضا)

وذهب اكثر المعتزلة الى انهما غير مخلوقتين الآن مستدلين بنحو قوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا » (القصص) بتفسير نجعلها نخلقها فى المستقبل واجاب الجمهور عن ذلك بما هو معلوم فى محله .

وذهب فريق ثالث من العلماء الى انهما مخلوقتان الا ان اعدادهما لا يتم الا بعد فناء الدنيا ، واستدلوا ببعض الاحاديث كقوله صلى الله عليه وسلم : « من بنى بيتا فى المسجد بنى الله له به بيتا فى الجنة » .

(1) الحجزة والجمع حجز كغرفة وغرف معقد الازار ، ومجمع سند السراويل .

وابن عربى الحاتمى من اصحاب هذا الراى الا ان دليله غير علمى ؛ اذ هو يستدل بالمشاهدة التى لا يقتنع بها سواه .

3) المقصود من الصورة :

هذه هى الجحيم كما ترسمها كتب الحديث التى ترقى الى درجة الاعتبار كما اشرت الى ذلك من قبل وان كانت لا تخلو من مطعن فى جملتها الا انه ينبغى التساؤل هل هذا التصوير محمول على الحقيقة ، بحيث نقول : ان بجهنم عقارب وحيات وسلاسل واغلالا وآبارا ووديانا وشجرة فى اصل الجحيم الى غير ذلك مما ورد فى الفاظ الحديث ؟

ان كثيرا من الذين لم يتعمقوا فى الدراسات الاسلامية حملوا ذلك التصوير على الحقيقة ، فوقعوا فى الخطأ ، وتجنوا على الاسلام ، وبالتالى عرضوه للنقد والطعن .

والواقع كما يراه السلف الصالح ، ان ذلك الظاهر غير مقصود بل ولا يجوز قصده ، وذلك لان امور الآخرة من عالم الغيب ؛ فلا ندرى كنهها وصفاتها الحقيقية من الالفاظ المعبرة عنها ، والواجب الايمان بالنصوص مع تفويض امر الكنه الى عالم الغيب سبحانه .

والحكمة فى خطابنا بذلك الظاهر هى تقريب العذاب الاخروى الى اذهاننا وافهامنا ؛ فيحملنا ذلك على الخوف والامتثال ، وهذا ما يفصح عنه كلام غير واحد من ائمة الاسلام .

يقول الامام الغزالى حسبما نقل ذلك عنه شراح البخارى ومسلم لدى كلامهم على حديث : « ناركم هذه التى توقدونها جزء من سبعين جزء من نار جهنم » « نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان اشد عذاب الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها ، وهيهات لو وجد اهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها هربا مما هم فيه »

واسلوب التقريب والتفهيم بحمل المجهول على المعلوم وابرازه فى صورته اسلوب معروف معمول به عند العرب ؛ فلقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن شجرة زقوم جهنم ، فوصف طلعها بانه كرؤوس الشياطين ، وما ذلك الا لكون الشياطين وان لم تكن مرئية مشاهدة فانها اصبحت متعارفة بين الناس وخاصة منهم العرب بكل بشاعة وقبح .

وهذا الذى ذهب اليه علماء السلف الصالح هو ما تفيده آيات القرآن واحاديث النبى صلى الله عليه وسلم .

فلقد اشار الله سبحانه فى غير ما آية الى ان جهنم وكذلك الجنة مما تتعذر معرفة كنهه على البشر، ولا طاقة لهم بادراك حقيقته ، وغاية ما ينبغى لهم ان يطلبوه فى هذا الباب من علم هو معرفتها بصفاتها الواردة فى الوحى او على لسان النبى صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : « سأصليه سقر ، وما ادراك ما سقر » ؟ وقال : « فأمه هاوية ، وما ادراك ماهية » ؟ وقال : « لينبذن فى الحطمة ، وما ادراك ما الحطمة ؟ واذا كان المخاطب فى هذا كله هو صاحب الرسالة على ما يراه كثير من المفسرين فكيف لغيره ان يتطلع الى معرفة ما تعذر عليه من امور الغيب وعالم الآخرة .

ولما ذكر الوحى فى صفة النار ان عليها تسعة عشر ، وجعل الكافرون والمتشككون يتساءلون : ما هؤلاء التسعة عشر ؟ ولماذا كانوا تسعة عشر ولم يكونوا عشرين ؟ اما لرب محمد اعوان الا تسعة عشر ؟

بل ذهبوا الى ابعد من هذا ؛ فقال ابو جهل لقريش : « ثكلتكم امهاتكم ايعجز كل عشرة منكم ان يبطشوا بواحد من هؤلاء الخزنة التسعة عشر ؟ فقال ابو الاسد الجمحى — وكان مشهورا بالقوة والبطش — : « انا اكفيكم سبعة عشر فاكفونى انتم اثنين فقط» انزل الله على سبيل الرد والتوبيخ قوله الكريم : « وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا » (المدثر)

اى ما جعلنا عدة الخزنة بهذا المقدار الا لتكون النتيجة والعاقبة للوثنيين الجاحدين الجامدين على ما ورثوه من تقاليد ، وما الفوه من تفكير ان يفتتنوا ويضلوا ويزيغوا ويعرضوا فيتساءلون : ماذا اراد الله بهذا مثلا ؟ ما هؤلاء التسعة عشر ؟ ولماذا كانوا تسعة عشر ؟ الى غير ذلك من اسئلة السخرية والهزء . اما بالنسبة لاهل الكتاب الذين تمرسوا الوحى واسلوبه ، ولهم عهد بالكتب المنزلة فستكون عاقبة تلك العدة ان يوقنوا بصحتها لورود نظائر لها

فى كتبهم المقدسة ، فكم فى هذه الكتب من اخبار عن العالم الاخروي وعالم الغيب ارسل القول فيها ارسالا ؛ واودعت من الاغراب فى الوصف ، والايغال فى التمثيل ضروبا واشكالا ، ومع ذلك فقد آمنوا بذلك وحملوه على انه رموز واشارات لا يمكن فهمها على حقيقتها . وكذلك الامر بالنسبة للمؤمنين ؛ فهذه العدة سوف لا تترك فى نفوسهم اثرا من شبهة وان خفيت الحكمة عليهم فيها ، بل ستقوى من ايمانهم وتضاعف من يقينهم .

وقال سبحانه متحدثا عن الجنة التى اعدها لعبادة المؤمنين : « فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون » (السجدة) .

قال الامام الزمخشرى : « لا تعلم النفوس كلهن ؛ ولا نفس واحدة منهن لا ملك مقرب ، ولا نبى مرسل اى نوع عظيم من الثواب ادخره لاولئك واخفاه عن جميع خلقه لا يعلمه الا هو ؛ مما تقر به عيونهم » .

وكما اشارت آيات القرآن الى تعذر معرفة امور الآخرة بالحقيقة والكنه اشارت الى ذلك ايضا الاحاديث والآثار فقد اخرج ابن جرير عن التنوخي رسول هرقل قال : « قدمت على رسول الله بكتاب هرقل ؛ وفيه : « انك تدعونى الى جنة عرضها السموات والارض ؛ فأين النار ؟ » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! واين الليل اذا جاء النهار ؟

والمعنى كما يقول ابو الثناء الالوسى فى تفسيره : « انه لا معنى لهذا السؤال ؛ اذ القادر على ان يذهب الليل حيث شاء قادر على ان يخلق النار حيث شاء .

وفى الحديث القدسى : « اعددت لعبادى الصالحين مالا عين رات ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »

وهذا يكاد يكون صريحا فى ان امور الآخرة على غير المعهود ؛ وان ما ورد فيها من الفاظ لا ينبغى حملها على ظاهرها ؛ لانه انما قصد بها التقريب والتفهيم ، ولم يقصد التصوير المطابق للواقع ؛ لان هذا الواقع مما لا ترقى عقولنا لادراكه .

وقد رايت من المفيد ان اسوق فى النهاية كلمة فى الموضوع للشيخ المرحوم عبد القادر المغربى نائب رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق وعضو المجمع اللغوى بالقاهرة سابقا اوردها لدى تفسيره قوله تعالى فى سورة الحاقة : « واما من اوتى كتابه بشماله الآيات » قال : « وبعد ، فان ما اتى على ذكره كتاب الله من وصف دار النعيم والمنعمين ودار العذاب والمعذبين انما هو تنزل فى الخطاب الى ما اعتدناه من الاساليب ، وتقريب لحقائق الغيب فى مألوف التراكيب ، والا فان افهامنا ذلك بالكنه والحقيقة متعذر ما دام العالم الآخر مباينا لعالمنا فى سننه ونواميسه وطبيعته التى ركبها الله فيه . وكما يستحيل على الكاتب — مهما تفنن فى الوصف — ان يفهم غلاما فاقدا احدى الملذوذات الجسدية حقيقة تلك اللذة قبل بلوغه زمنها ، كذلك يستحيل علينا ان نفهم حقيقة نعيم الدار الآخرة وعذابها قبل بلوغنا زمنهما (2) .

ثم ان عجزنا عن تعقل الجنة والنار بكنههما وحقيقتهما لا يستلزم انتفاء وجودهما ما دام الوارد بشانهما غير محال عقلا ، اذ كم من امر ثابت الوجود فى دنيانا هذه ، بل يكون علمنا به بديهيا احيانا لا نقدر ان نتعقله بكنهه ، وانما نتعقله بأثره الصادر عنه والدال عليه . لا نمثل لك بالكهربائية والاثير والمادة واجزائها الفردة التى تتركب منها مما لا يزال مجهول الحقيقة فى العالم الطبيعى ، وانما نحيلك على نفسك التى بين جنبيك ؛ فانك بالطبع تعترف بانها موجودة ، لكنك تعجز وتفحم اذا قلنا لك صفها لنا وصفا يوصلنا الى كنه امرها وحقيقة سرها ، وكل ما تقدر عليه من التعريف بها هو قولك : اننى اريد ، وافعل ، واهم ، واعمل ، وانسى ، واتذكر ، وافكر ، واتصور ، وكل ذلك لا يكون الا بقوة موجودة بالفعل فى بدنى تصدر عنها تلك الآثار ؛ اذ لا يصدر موجود عن معدوم ولاسيما ان تلك القوة اذا زايلت بدنى لم تعد تلك الآثار تصدر عنها ، مع ان البدن سالم لم ينقص منه شىء . تامل — يا اخى — ثم اعترف معى بان للدين مجهولات ، كما ان للعلم مجهولات ، وانه ليس من الانصاف ان نطاطىء رؤوسنا بين يدى الثانية ثم نشمخ بانوفنا امام الاولى .

فاس : عبد الرحمن العمرانى الادريسى

---

(2) اصل هذا التنظير لابى حامد الغزالى .

شريعة الاسلام وقانون الرومان

المعاصر

للاستاذ محمد المنتصر الريسوني

يقتضى هذا الموضوع عقد مقارنة مسهبة بين شريعة الله والقانون الوضعى وخاصة الرومانى ، غير ان هذا سياخذ منا جهدا جهيدا فى الشرح والتحليل لبيان الفروق وخصائص كل منهما ، وقد سبق الى هذا الميدان غير واحد من الباحثين العلماء كما سنذكر قريبا ؛ لذلك سنحاول قدر الاستطاعة القاء نظرة سريعة — لا تخلو من جدة ومناقشة مفيدة تشهد بالمجهود — تكفى لدحض افتراءات الحاقدين على شريعة الله تعالى .

ومن بين الذين اثاروا اكذوبة تاثر الشريعة الاسلامية بالقانون الرومانى المستشرق اليهودى جولد تسهير فى كتابه (العقيدة والشريعة فى الاسلام) حين قال (وليس غريبا ان تكون هذه التعاليم الفقهية والتفصيلات المستعملة قد تاثرت كذلك بثقافة اجنبية ، كما ان المعارف الفقهية الاسلامية تحمل — على سبيل المثال — كما حقق ذلك البحث الحديث تحقيقا ثابتا آثارا غير منكورة من الفقه الرومانى سواء فى ذلك من ناحية الطريقة او من ناحية الاحكام الفرعية) (1) ، وكذلك المستشرق (شاخت) فى محاضرة له تحت عنوان (القانون البيزنطى والشريعة الاسلامية) (2) ، وتبعهما فى ذلك غليب حتى فى كتابه (تاريخ العرب) (3) .

---

(1) ص 56 ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين ط 2 ، وقد وضع عالم غربى منصف هو متنى جيران كتابا فى الرد عليه على جولد تسهير عنوانه (الدين المزعوم للقانون الرومانى على القانون الاسلامى) ووصف آراءه بالميول السياسية ، انظر انور الجندى الاسلام والثقافة العربية ... ص 227 .

(2) راجع انور الجندى الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب ص 288 — مطبعة الرسالة .

(3) ج 2 ص 310 ط 2 — 1953 . ظهر لمؤلف هذا الكتاب ، كتاب جديد منذ شهور هو (الاسلام منهج حياة) نقله الى العربية الدكتور عمر فروخ ط ببيروت 1972 ، وفيه تراجع المؤلف عن بعض الاخطاء التى وردت فى كتابه (تاريخ العرب) كرايه فى تاثر الشريعة الاسلامية بالقانون الرومانى ، واورد هنا ما قاله بالحرف الواحد « الفقه يمكن ان ينظر اليه على انه علم اسلامى خالص وهو بخلاف عدد كبير من العلوم كالرياضيات والطب والفلسفة — نتاج البيئة الاسلامية نفسها ، ثم اننا لا نكاد نلحظ فى تطوره اثرا من الفكر الهندى الايرانى او الفكر الهندى الاوروبى ، ومؤسس الفقه فى الاسلام لم يلتفت الى الاستعانة بالقانون الرومانى ، ولا بالفلسفة اليونانية مع ان المؤلفين المتاخرين فى الفقه قد لجاوا فى مناهجهم فى التعليم وفى تاليف الكتب فى الرد على خصومهم الى الادلة المنطقية التى تكشف عن اثر المنطق الارسطوطاليسى) ص 100 — 101 .

والمهم ان الكتاب — وقد جعل المؤلف عنوانه (الاسلام منهج حياة) مما يدل على اقتناعه الى حد لا باس به بحيوية هذا الدين واستقطابه لقضايا الحياة — نقل فيه الاخطاء بالقياس الى كتابه (تاريخ العرب) والزمن كفيل لتفسير الحقائق لمن يجهلها او يتعمد جهلها ليكون تقدميا مزيفا .

انها لعمرى اكذوبة لم يحسن صاحبها نسجها باحكام ، اذ هى متداعية لا يرفدها برهان عقلى وتاريخى ، وقد يحسبها القارىء لاول وهلة حقيقة واقعة حين يقرا قوله السالف (كما حقق ذلك البحث الحديث تحقيقا ثابتا) ، فانظر الى هذه العبارة تجدها تقطر حقدا ؛ لانها تؤكد دون شك ان البحث الحديث قد انتهى من التحقيق فى كون شريعة الاسلام استعانت بالفقه الرومانى ؛ لماذا ؟ ؛ لانها عاجزة — وهذه هى النتيجة عنده — عن الاكتفاء بما لديها .

ونسأل متى انتهى البحث من هذا ؟ وما هى النتائج التى تمخضت عنه ؟ ومن قام بها ؟ وهل اعتمدت هذه النتائج على براهين يقينية او حتى ظنية ؟ ، لست ادرى ، الجواب عند صاحب الادعاء .

هذا هو منهج الغلاة من المستشرقين وقس عليه فى بقية القضايا الاسلامية ، وتأكد ان شعارهم الغش والتمويه والغدر والمكيدة والمراوغة ؛ اما البحث العلمى المعتمد على الاستقراء والاستنباط والتجرد فهو فى عرفهم ستار خادع ، وواجهة مغرية انخدع بها البعض فسار فى ركابهم معصوب العينين يصدر الاحكام العشوائية .

ولو تتبع اولئك شريعة الله بنزاهة لا تضح لهم انها والقانون الرومانى على طرفى نقيض ؛ لان الاختلاف بينهما جذرى لكون الاولى — يعنى شريعة الاسلام — ربانية مستمدة من الكتاب والسنة ؛ لذلك كانت نظرتها الى الانسان والحياة عميقة الابعاد تستهدف رسم الخط الذى ينبغى ان يسير عليه ركب الحياة ، وطريقة الرسم هذه تقوم على اساس تصور توحيدى للوجود ، وبيان ذلك ان كل النواميس التى تحكم الكون خلقها خالق مدبر حكيم ؛ لذا هى تعمل بارادته المطلقة وفق سنة محكمة (وخلق كل شيىء فقدره تقديرا) (4) والانسان — فى تصور الاسلام — قضية هامة من قضايا هذا الكون الرحيب ، مرتبط به وتهيمن عليه نفس النواميس المعجزة سواء فى تكوينه الجسمى او النفسى .

اذن ، الله الذى ابدع هذا الكون العجيب وابدع معه الانسان على احسن تقويم هو الذى وضع شريعة كاملة لتوجيهه الوجهة الصالحة ، من اجل ذلك كانت شريعة الاسلام جزءا لا يتجزا من القوانين التى خلقها الله ، تلك القوانين التى نطلق عليها فى احاديثنا العلمية القوانين الطبيعية .

هنا يتبين الفارق الجوهرى بين شريعة الله والقانون الوضعى ومنه الرومانى الذى وضعه الانسان تحت ضغط من تاثير اهوائه المتعددة ، وظروفه البيئية ، غير مراع الفطر البشرية والاحوال النفسية والعقلية والزمنية للانسان القديم والحديث الذى سيوجد فى عصور مقبلة الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وغير معترف بالجزاء الاخروى الذى يحدد مسئولية كل فرد فى الحياة ، واطار اضطلاعه بالامانة العظمى ، اذ يجازى فى العالم الآخر من افلت من يد الشريعة الاسلامية بطريقة او اخرى ، ومن قدم العمل الصالح لنفسه ، وغير العمل الصالح لاذاية الآخرين (ولله ما فى السموات وما فى الارض ليجزى الذين اساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى) (5) .

واذا انتفت من ذهن الانسان الحقيقة الاخروية لم يعد هناك مفهوم للخلافة الارضية التى كلفه الله بها ، فاعطاه حرية التصرف والاختيار ليعمل فى عالمه بجد ونشاط ، مقدرا وظيفته ، ولم يعد هناك كذلك عدل بالنسبة للمظلومين الذين عاشوا اثناء حياتهم عيشة المذلة والهوان رغم تطلعهم الدائم الى غد افضل .

لهذا كانت شريعة الاسلام مخالفة كل المخالفة للقانون الرومانى فى كل شيىء فى النظرة الى الرجل والمراة ، فى النظرة الى الحياة والكون ، ونظام الحكم والاقتصاد والتعليم والعلاقات الدولية ، عموما نظرة الاسلام تستقطب كل الجزئيات التى يعايشها الانسان فى حياته ، بعكس ما يتشدق به البعض من انها لا تتعدى العبادات قياسا على الشرائع الاخرى السابقة التى جاءت مصححة مفاهيم فترة معينة كعلاج محلى مؤقت .

ولم توجد امة — وهذا تحد وتحد — على وجه الكرة الارضية قديما وحديثا كتبت فى الفقه ، واشتغلت به اشتغالا يبعث على العجب ، وبالتالى على الفخر والعز كالامة الاسلامية ، وبراهين ذلك لا تكاد تحصى

---

(4) سورة الفرقان الآية 2 .

(5) سورة النجم الآية 31 .

— وكيف يحصى عدد الحصى والرمل — تتمثل فى كثير من المجلدات الضخام والكتب العديدة التى تناولت الفقه الاسلامى على مختلف مذاهبه فى المشرق والمغرب ، مما يدل على عبقرية العقل الاسلامى المعطاء ، الثرى ، الخصب ، الندى ، ومع ذلك لا نعثر على اشارة الى مصدر رومانى او اجنبى او مصطلح غريب على الحس الاسلامى ، فى حين نقع فى لغتنا على كلمات اجنبية الاصل استعملها العرب بحكم الاتصال الحضارى ، واستعملها القرآن الكريم نفسه ليساير لغة القوم الذين يخاطبهم ، ككلمة الصراط والفردوس ، فلم اذن لا نقع على مثل هذا فى الفقه الاسلامى ، وهذا ينفى بتاتا ما يسمى بالاقتباس او النقل المزعوم .

وكيف يجرؤ علماؤنا على نقل ما عند الرومان فى المجال الفقهى وكتاب الله وسنة رسوله منبع غنى ، مورق ، سخى ، حى خالد على مر الادهار والعصور ، لا يحتاج الى مصدر آخر يستقى منه ، على حين لم يتوان البعض منهم عن نقل علوم اليونان وغيرهم لما وجدوا فيها ما يساعدهم على تطعيم رصيدهم المعرفى ، ولم يتخوفوا من الاطلاع على انواع المعارف الاخرى لمواجهة كل ما يمكن ان ينجم من تحديات للعقيدة .

وما وقع فى مجال الفقه وقع بالفعل فيما يتعلق بالادب اليونانى حين وقف المسلمون عليه فلم ينبهروا به — كما ينبهر مثقفونا اليوم بالادب الاجنبى بشكل بشع — لان الشعر العربى كان قد حدد موضوعاته وطرائقه فاكتفوا بما لديهم من التراث الشعرى (6) ، مع ما فى هذا الادب من وثنية صارخة ينبو عنها ذوق المسلم كالصراع بين الآلهة والانسان ، وما شئت من هذه الوثنيات التى تدل على انحراف مزر فى الصورة السوية للنفس الانسانية (7) .

وقد نجد تشابها بين شريعة الله والقانون الرومانى او الوضعى عموما فى بعض الامور كقاعدة (البينة على من ادعى واليمين على من انكر) الموجودة فى القانون الرومانى ، وكلمة (الفقه) المستعملة عند الرومان بمعنى الفهم وهى كلمة Juris.

وهذا سخف بين ، لان القاعدة المذكورة حديث شريف صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى ذلك البيهقى والطبرانى باسناد صحيح ، قبل اتصال المسلمين بالرومان ، ولو لم يؤمر الرسول باذاعتها ما اطلقها لتاخذ طريقها الى التشريع .

ولفظة (الفقه) او (الفقيه) وجدت مع وجود اللغة فتداولتها السن العرب ، فاستعملها القرآن الكريم فى غير ما آية وتعنى هذه الكلمة الفهم قال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين) (8) ، وتحدثت عنها المعاجم فقال ابن منظور فى (لسان العرب) (الفقه العلم بالشيىء والفهم له ، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر انواع العلم كما غلب النجم على الثرايا والعود على المندل قال ابن الاثير واشتقاقه من الشق والفتح، وقد جعله العرف خاصا بعلم الشريعة شرفها الله تعالى ، وتخصيصا بعلم الفروع منها) الى ان يقول (وفقه عنه بالكسر فهم) (9) وقال الفيروزابادى فى القاموس (الفقه بالكسر العلم بالشيىء والفهم له وغلب على علم الدين لشرفه وفقه ككرم وفرح فهو فقيه ففتيه كنصر غلب فيه) (10) .

وفى العربية مادة (فقه) تجيىء على ثلاثة معان تبعا لاختلاف حركة عين الفعل — يعنى وسطه ذلك انها اذا كانت مفتوحة العين فى الماضى ومضمومة فى المضارع صار معناها التفوق فى مجال الفقه ، واذا كانت مكسورة العين فى الماضى — وهو المقصود عندنا — ومفتوحة فى المضارع اصبحت تعنى العلم والفهم ، واذا كانت مضمومة العين فى الماضى والمضارع اصبحت تفيد كونه فقيها وقد تحدث عن هذه

(6) انظر هذا الموضوع عند البهبيتى نجيب محمد فى كتابه القيم (تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى) ص 252 وما بعدها ط مصر 1381 .

(7) ومن المؤسف اننا نلمس هذه الوثنيات فى اعمال شعرية ومسرحية عند شعرائنا مع العلم ان تاريخنا مليىء بالابطال والشخصيات التى يمكن ان نستغلها فى هذه الاعمال فلا نحتاج الى الاستيراد السخيف الذى ينبو عنه الحس الاسلامى السليم .

(8) سورة التوبة ، الآية 122 .

(9) ج 17 ص 418 — المؤسسة المصرية العامة للتاليف والانباء والنشر .

(10) انظر ج 4 ص 289 — مؤسسة فن الطباعة .

الفروع ابن مالك — وان لم ينص على عين المضارع — فى كتابه (الاعلام بمثلث الكلام) فقال :

وقل لمن فاق بفقـه قد فقـه (11)
وفهم الشيء استفد من قد فقه (12)

وقل لمن صار فقيـها قد فقه (13)
فقاهة واستغن عن اسهـاب (14)

ثـم اطلقت هذه الكلمـة على علـم خاص هو (التشريع) ، لان هذا العلم يستدعى الفهم والمعرفة لمصدرين اثنين (الكتاب والسنة) ، كما حدث فى كثير من الالفاظ العربية — وما زال يحدث — ذلك انهـا تنتقل من مدلولها اللغوى الى المدلـول الاصطلاحى الجديد وهو الواقع فعلا فى كل اللغات حين يظهـر ما يتطلب استحداث لفظة لمسمى طارىء ، ورغم هذه العملية تبقى العلاقة جامعة بين المعنـيين القديـم والحديث ، والامثلة على ذلك لا تقع تحت الحصر فى كل العلوم من نحو وبلاغة وعروض وفلسفة وجغرافية ومنطق وغيرها .

اقول قد نجد تشابها بين القانونين ، وهذا ليس غريبا لانه بدهى يحدث لا فى المجال التشريعى فقـط بل فى المجالات الفكرية الاخرى نظـرا لوقوع حالات متشابهة فى اقليمين والقولة العلمية تقـول نظـائر الاسباب تولد نظائر النتائج ، وذاك بالضرورة لا يسمى نقلا ابدا ، او لحدوث اتفاق يأتى نتيجة لامر واضح العدالة لا يختلف فيه اثنان ، لذلك اقر الاسلام القاعدة السابقة فى اليمين ، وهـذا اذا صـح ان القانون الرومانى فى مراحله الاولى نص عليها .

وهذه القاعدة اسهب الاسلام فى تفريعها مما يبرهن على انها امر الهى لا شك فيه ، شأنه فى ذلك ما جرى عليه فى بعض الاحكام الجاهلية التى اقرها ، لانها فى تصوره موافقة للانسان (الا يعلـم من خلـق وهو اللطيف الخبير) (15) كالقطع فى جريمة السرقة زاد عليها شروطا دقيقة للغاية ، وتفصيلات عجيبة جـد عجيبـة .

والحقيقة المنطقية هى ان القانون الرومانى هو الذى اقتبس من شريعة الاسلام ، ذلك ان الرومان لم يكونوا يعرفون هذا القانون الا فى القرن الثانى او الثالث الميلادى ، اما الزعم القائل بأن الفقه الرومانى اختفى ستة قرون ثم ظهر بعد ذلك فانه فرية لا يساندها برهان ، وقد فندها القانونى الشهير سانتيه حين قال (ان القوانين الرومانية لم تختف لانهـا ظلت معمولا بها حتى اليوم من غير انقطاع) (16) ، وبهذا يكون الفقه الرومانى متأثرا بالفقه الاسلامى لانه اسبـق وجودا منه نصا وتصنيفا ، وسيأتى الحديث عن فضل الاسلام على الغرب فى الميدان التشريعى .

ومما يزيـد هذه الحقيقة وضوحا الفروق الكبيرة التى تميـز شريعة الاسلام عن القانون الرومانى — بجانب الاختلاف الجذرى الذى مر بنا — ، من ذلك على سبيل المثال ان شريعتنا تضم احكاما ينعـدم وجودها كلية فى القانون الرومانى منها ، ا — الشفعة ب — الوقف ج — موانع الزواج بسبب الرضاع .

واحكام اخرى متضاربة فى تفصيلاتها وجزئياتها مع احكام القانون الرومانى منها ا — نظـام الزواج ب — نظام الطلاق ج — نظام حوالة الدين د — نظام الارث .

وهناك نظم قانونية رومانية لا نجد لها ادنى اثر فى الفقه الاسلامى مثال ذلك ا — السلطة الابويـة ب — الوصاية على المراة حتى انهـا لا تستطيـع التصرف الا باذن من صاحب الوصاية .

بالاضافة الى هذا فقد تفوق تشريعنا — لانـه ربانى — فى ميدان القانون الجنائى على كل القوانين من ذلك نظام العقاب بالتعزير ، كما تفوق فى عديد من المبادىء القانونية مثل مبدا انتقال الملكية بمجرد الرضى ، والاتفاق من المتعاقدين من غير احتياج الى اجراءات رسمية او شكلية ، ونيابة انسان على غيره عن طريق الوكالة .

(11) بفتح العين .
(12) بكسر العين .
(13) بضم العين .
(14) راجع ص 147 — ط 1 — 1329 بتصحيح الشيخ احمد الامين الشنقيطى .
(15) سورة الملك الآية 14 .
(16) انظر انور الجندى . الاسلام والثقافة العربية ص 290 .

وسبقت الشريعة الاسلامية القوانين كلها باربعة عشرة قرنا بمبدا الشورى ، ولم يعترف بهذا المبدا الا بعد الثورة الفرنسية باستثناء القانون الانجليزى الذى نص عليه فى القرن السابع عشر ، وقانون الولايات المتحدة بعد منتصف القرن الثامن عشر ، وسبق ايضا بمزية عظمى هى تقييد سلطة الحاكم وتحديد علاقته بالمحكوم ، وفى القرن السابع عشر يعنى بعد ظهور الاسلام بأحد عشر قرنا نص القانون الانجليزى على هذه النظرية الاسلامية ، ثم انتشرت بعد ذلك حين قامت الثورة الفرنسية (17) .

وبالمناسبة اذكر هنا ادعاء آخر له علاقة وثيقة بالموضوع هو قول اولئك بان العرب بعد الفتح الاسلامى لسوريا والعراق قد عرفوا معاهد مسيحية للحقوق مما كان له تأثير فى الفقه الاسلامى ، بيد ان هذا مناقض كل المناقضة للواقع التاريخى ، ذلك ان المسلمين فتحوا العراق وسوريا حوالى سنة 635 م وقبل ذلك بسنين لم توجد معاهد للحقوق عند الرومان غير ثلاثة واحد فى رومة وواحد فى القسطنطينية وواحد فى بيروت هدم سنة 551 قبل ميلاد الرسول عليه السلام نتيجة زلزال خرب بيروت ، ويقول الاستاذ (ذكو للنبيه) (ان مدينة بيروت حتى عام 600 كانت خرابا وقد سقطت بين ايدى العرب بسهولة سنة 635 دون ان تكون مدرسة بيروت قد عادت الى الحياة) (18) .

وبالمناسبة — ثانيا — اذكر هنا ان اولئك يذهب بهم الوهم اشواطا بعيدة جدا ، فيزعمون ان الامام الاوزاعى بحكم ولادته بالشام قد تأثر بالقانون الرومانى ، ولو ان مذهبه لم يندثر لوجدت فيه آثار لذلك .

انه والله افتراء ما بعده من افتراء ، ان الامام الاوزاعى عالم محدث قام مذهبه على الحديث فكيف يمكن عقلا ان يتأثر بقانون اجنبى ، ومعلوم ان علماء الحديث يتشددون — وهم على صواب — فى قبول الاحكام اذا لم تكن معتمدة على القرآن والحديث ، ويعرف عن هذا العالم الجليل انه كان يكره القياس وتلك حجة دامغة .

وخلاصة القول ، ان شريعة الاسلام بريئة البتة من هذا البهتان ، وغيرها من القوانين هو الذى ينبغى ان يوضع فى قفص الاتهام ، لانه استقى منها بالفعل كالقانون الفرنسى ، ويعزز هذا التاريخ والمقارنة ، ذلك ان الاسلام غزا اوروبا ، وبعد ذلك اتاحت الظروف لفرنسا ان تستمد كثيرا من الاحكام من المذهب المالكى لتضيفها الى قانونها الناشىء الفقير الذى وضعه نابليون سنة 1804 ، وقد استعانت الدولة الفرنسية فى هذا الصدد بمختصر خليل فى الفقه المالكى الذى ترجمه الدكتور (بيرون) بايعاز من الحكومة الفرنسية (19) .

ونظرة سريعة جدا جدا على القانون الفرنسى نجد انه يضم احكاما واضحة جلية نص عليها المذهب المالكى كحرية المتعاقدين وانتقال الملكية للموكل وعقد الايجار والتزامات المؤجر وغير ذلك .

وقد لفتت ظاهرة تأثير التشريع الاسلامى فى القانون الفرنسى بعض علمائنا فبادروا الى بيان هذه الحقيقة بالدراسة والمقارنة والتأليف فألف الشيخ مخلوف المنياوى المالكى فى اواخر القرن الهجرى الماضى كتابا فيما اخذه الغرب من مذهب مالك وهو يوجد بدار الكتب المصرية تحت رقم 1085 (20) ، والف كذلك الاستاذ سيد عبد الله حسين احد علماء الازهر والدارس القانون بفرنسا كتابا تحت عنوان (المقارنات التشريعية) (21) .

---

(17) راجع بتفصيل ما قاله عن المميزات الجوهرية التى تميز الشريعة الاسلامية عن القانون الوضعى الاستاذ الشهيد عبد القادر عودة فى كتابه القيم التشريع الجنائى مقارنا بالقانون الوضعى ج 1 ص 24 وما بعدها ط 5 — 1388 .

(18) انظر انور الجندى الاسلام والثقافة العربية ص 292 .

(19) راجع الدكتور محيى الدين علم الدين فى دراسته تحت عنوان فضل الشريعة الاسلامية على القوانين الفرنسية المنشورة بجريدة العلم — العدد 8457 ص 8 — 25 رجب 93 = 25 غشت 73

(20) انظر الشيخ محمد الغزالى دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ص 115 — ط 2 — 1383 .

(21) طبع بالقاهرة سنة 1948 .

وانهى الحديث بايراد بعض شهادات المستشرقين وغيرهم ليتأكد مرضى العقول من بهتان الزعم الاستشراقى ، ويقتنعوا بقول من هو بعيد عن هذا الدين ، اما الحقيقة الناصعة هى ان الشريعة الاسلامية اسمى من ان يشهد لها احد بالاستقلال عن كل مصدر اجنبى لكونها بحقائقها الفذة تعلن لمن له فكر متفتح قويم وعقل تقدمى رزين عن اعجازها الالهى وتفردها فى الاصول والفروع بين كل القوانين الوضعية .

يقول (سانتيلانا) (ان فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم نقل ان فيه ما يكفى للانسانية كلها) (22) ؛ ويقول سليم باز القانونى المسيحى اللبنانى (اعتقد بكل اطمئنان ان فى الفقه الاسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات واقضية والتزامات ، وليس الشاهد على ذلك ما هو ماثل للانظار ، فى دار الكتب المصرية ، وخزانة الكتب فى البلاد الاسلامية فحسب ، بل فى خزائن دار الكتب الاوروبية ايضا من لندن وهولندة الى روما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى بل الى المكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان .

يقول جرجى زيدان على ما لـه من هفوات فى كتبه سواء منها رواياته الاسلامية او غيرها فى كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) : (واما المسلمون فانهم استخرجوا احكامهم من القرآن والحديث ولم يمض عليهم قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقههم وهو من افضل شرائع العالم) (24) .

تطوان : محمد المنتصر الريسونى

---

(22) انظر انور الجندى الاسلام والثقافة العربية ,, ص 295 .
(23) نفس المصدر السابق والصفحة .
(24) ج 1 ص 216 — منشورات مكتبة الحياة — بيروت .

قيمة كتاب الاغانى . . .

قالوا : ان الاصفهانى لما اهدى كتابه الاغانى الى سيف الدولة الحمدانى اجازه بألف دينار اعتذر له من عظم الهدية ، وصغر الجائزة ...

ويقول الصاحب بن عباد :

« لقد قصر سيف الدولة ، وانه يستحق اضعافها ، اذ كان مشحونا بالمحاسن المنتخبة ، والفقر العربية ، فهو للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة وزيادة ، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة ، وللبطل رجلة وشجاعة ، وللمضطر رياضة وصناعة ، وللملك طيبة ولذاذة ، ولقد اشتملت خزانتى على مائتين وستة آلاف مجلد ، ليس منها سميرى غيره ، ولم يرقنى منها سواه .»

الإسلام الواحد والماركسيات المتعددة

للأستاذ عبد الواحد الناصر

يتخوف كثير من الغيورين على الاسلام من اكتساح الماركسية لبعض العقول فى البلدان التى كانت تشكل الى غاية القرن العشرين دار الاسلام . وبموازاة هذا التخوف ، يتبجح الماركسيون بانتصاراتهم الجزئية ، ويصفونها بأنها نصر يبدد ضباب الخطأ ، وعلم يحل مكان الجهل .

وبين هذا التخوف والتبجح ، ينسى الجميع ، ان الماركسية لا تحظى بنفس الاهتمام والتأييد الذى تستأثر به فى البلدان غير الاسلامية ، وان الماركسيين فى اغلبهم لم يستطيعوا التخلص من الرواسب الاسلامية ، ويضيقون ذرعا بالمزاحمة الاسلامية ، التى تكتسح العقول فحسب ، بل وتجعلها اشد العقول مقاومة للماركسية . ثم ان التخوف من الاكتساح الماركسى ، كان مناسبا لمرحلة سابقة من الصراع الاسلامى الماركسى ، يوم كانت المواجهة تقتصر على ردود فعل دفاعية ، تتركز كلها حول ما فعلته الماركسية فى البلاد التى تحكمها ، وما يصحبها من الحاد ومروق والغاء للملكية الفردية ، وهذه كلها انتقادات لا تختلف فى جوهرها عن الانتقادات الغربية .

فالتخوف من الاكتساح الماركسى ، لم يعد مناسبا للمرحلة الراهنة من الصراع الاسلامى الماركسى ، لان الاسلام لم يعد الآن فى قفص الاتهام ، او فى طور الدفاع ، لظهور حركة بعث اسلامى تستهدف استئناف الحياة الاسلامية . ولهذا السبب لم يعد يسوغ للاسلاميين ان يكتفوا ببيان محاسن الاسلام ، وببيان تناقضه مع الماركسية ، وانما اصبح من اللازم عليهم ان يقوموا بهجومات مضادة ، تدعم مسيرة الحركة الاسلامية المعاصرة ، على اساس تقييم جدى لامكانيات نجاح الماركسية وعوامل اخفاقها .

على ان هذه الملاحظات ، تؤدى بنا منذ البداية ، الى الاعتراف بأن الواجهة الفكرية للصراع الاسلامى الماركسى ، مفتقرة الى نقد اسلامى يستطيع ان يخرق حرمة الفكر الماركسى ، ومفتقرة الى اقلام تتناول القضايا الماركسية بعقلية اسلامية خالصة ، وتستطيع بالتالى ان تبين تناقضات الماركسية القاتلة ، واقلاسها فى البلدان الاسلامية .

ومن هنا فانه من الواجب على الكتاب المسلمين ان يبينوا فى المقام الاول ، ان الاسلام واحد لا يعرف التناقضات ، ولا يعرف ازمة الحلول والمواقف ، ولا يقبل سيادة الطابع القومى عليه ، وهذه كلها امور لم تنج منها الماركسية ، واصبحت بسببها ماركسيات متعددة .

— * —

التناقضات الماركسية :

فاذا كان الاسلام ، بالنسبة لاتباعه واعدائه على السواء ، لا يعنى سوى الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتطبيقه ، واتخاذه اساسا للتفكير والعمل ، فان الماركسية ، وان كانت من

بنات افكار شخص واحد ، لم تعد الآن تعبر عن اتجاه معين للتفكير او طريقة معينة للعمل ، بل انها اصبحت تجرد مؤسسها نفسه من ماركسيته في بعض الاحيان .

ان الماركسيين يلتقون جميعا في تعريف الماركسي بانه الشخص الذي يفكر بالطريقة التي فكر بها ماركس وصديقه انجلز ، ويعمل وفق الطريقة التي عمل بها لينين . لكن هذا الاجماع ، تبدا بعده طرق خاصة للتفكير ، تجرد ماركس نفسه احيانا من الصفة الماركسية ، كما تأتي بعده طرق متعددة للعمل الماركسي تجعل من اللينينية ومشتقاتها ، اساسا لخلاف عميق ، يهدم الاصول النظرية للماركسية ، وحتى بعض انجازاتها واجتهاداتها العملية .

فرغم الصفة الوحدوية التي يخلعها الماركسيون على انفسهم ، تبدو تناقضاتهم الفكرية والعملية ، بادية على صعيد المجموعات الماركسية من ناحية ، وعلى صعيد سياسة كل بلد يتحكم فيه الماركسيون من ناحية اخرى . ورغم ان هذه الحقيقة تضيع بين زخرفة الدعاية ، وحماسة الكلمات ، وبريق الشعارات ، فانها مع ذلك ازمة داخلية ناسفة .

فلم يعد خافيا الآن على ان الماركسية تفرض على معتنقيها ، تناقضا مبدئيا ، يتمثل في مطالبتهم بالخضوع الايماني المطلق للنظرية الماركسية من جهة ، وفي الزامهم بقبول تطبيقات تبتعد بهم بعدا ساحقا عن الاصول النظرية للماركسية من جهة اخرى . ولذا بذلت القيادات الماركسية ، منذ بداية التطبيق الماركسي ، مجهودات لا تشكر ، في الدفاع عن العقائد الماركسية وتمجيدها وتقديسها ، ومنعت في نفس الوقت ، التدقيق في مواقفها العملية ، وتحديد مركزها على ضوء التعاليم الماركسية النظرية .

على ان هذه المحاولات ، لم تنجح في اخفاء التناقضات الماركسية ، لان الانتقادات المرة التي يشبرها بين الفينة والاخرى ، اعضاء في القيادات الماركسية ، او مفكرون ماركسيون ، جعلت الماركسيين يعترفون طوعا او كرها بهذه التناقضات . كما ان هذه الانتقادات بدورها ، كانت اساسا لصياغة الاسطوانة الماركسية الجديدة ، التي تسلم بوجود طرق متعددة لفهم الماركسية وتطبيقها .

لكن النقد الذاتي ، الذي صار الماركسيون يعجبون به في الاعوام الاخيرة ، لا يقتصر على الاعتراف بتناقضاتهم الفكرية فحسب ، بل يبين بما لا يقبل الشك ، انهم كانوا على خطأ اصيل ، يسترونه بالتشويهات الفكرية ، وبالانحرافات عن التعاليم الماركسية النظرية ، التي تتسبب فيها اكثر فاكثر ، مواقف المكاتب السياسية واللجان المركزية والصراعات من اجل السلطة .

— * —

ازمة الحلول والمواقف :

ورغم ان الماركسيين يشتركون في المفاهيم الاساسية ، الا ان تباين المواقف النظرية والحلول العملية التي يقدمونها ، جعلت من الماركسية فلسفة غامضة غير محدودة ، يستطيع المرء في ظلها ان يحصل على صفة الماركسي دون حاجة الى شروط مسبقة . بل انه اصبح من غير الممكن الآن ، التمييز بين الماركسي الحقيقي والماركسي بالاسم فقط .

وبالاضافة الى ذلك ، يمكن للشخص الآن ان يكون ماركسيا في مواقفه تجاه مشكلات معينة ، ويكون غير ماركسي في مواقفه بالنسبة لمشكلات اخرى . وهذا الازدواج ، لا يحول دون خلع الصفة الماركسية على الشخص المذكور ، بل انه يمكنه ان يدعي ان خصمه ، الذي يتبنى الخط الماركسي الصحيح في جميع مواقفه ، تحريفي ، ولا يفهم الماركسية على حقيقتها .

ويسهل على المرء الآن ان يلمس هذا التناقض بوضوح في موضوعات اساسية يعتبرها البعض متوافقة مع الماركسية الحقيقية ، في حين يعتبرها البعض الآخر النموذج المضاد للماركسية . والاهم في كل هذا ، هو ان كل فريق يدعم نظريته ببراهين ماركسية جيدة ، تبرر هذا التناقض ، وتخلع عليه لباس الشرعية .

وهذه الازمة ، تتجاوز نطاق الفكر والدراسات النظرية ، لتطفح على السلوك السياسي للمجموعات والقيادات الماركسية ، بل وتنعكس آثارها على الحلول الاقتصادية والاجتماعية لكل دولة شيوعية على حدة . ورغم التقليل من اهمية هذه الازمة ، فان الحقيقة التي لا جدال فيها ، هي ان الماركسية شهدت ردة في التفكير والعمل ، جعلت كل مجموعة ماركسية تدعي انها تقدم الوصفة المعصومة التي تتضمن

الدواء السحرى لجميع المشاكل التى يعانى منهـــا العـــالم .

على ان الخلافات الماركسية تتخذ ابعادا خطيرة على صعيد السياسة الدولية ، لانها تعنى الاختيـار بين الاساليب الدموية او الاساليب السلمية للسيطرة على الحكم ، وتعنى من جهة اخرى الانتصار للنعرات القومية او للنزعة الاممية . ومن هنا فان هذه الخلافات قد تؤدى فى المستقبل الى صدامات عسكرية بين الدول الشيوعية ، وهو ما لاحت بوادره فى حشــد القوات العسكرية بين اكبر دولتين شيوعيتين حول حدودهما الاستعمارية .

— • —

غلفة الطابع القومي :

على ان تعدد الماركسيات ، لم يتسبب فيه غموض النظرية الماركسية فقط ، واحتمالها لتفسيرات متناقضة فحسب ، بل تسبب فيه ايضــا عــدم استطاعــة الماركسية التحكم فى الشرط الانسانى . فالماركسية لم تستطع القضاء على النزعات القومية للشعوب التى حكمتها . ولهذا فان القيادات الماركسية راحت منــذ البداية تهتم بالمصالح القومية : فتمــيزت الخصائص العملية ، وتميزت النظريات ، وتبــاينــت الحلــول والمواقف ، وسقطت بذلك النزعة الانسانية التــى تعدها الماركسية من دعائمها الاساسية .

ولهذه الظاهرة انعكاســاتها فى صفوف الماركسيين، لان دعاة النزعة الانسانية منهم ، اصبحوا نظــريين اكثر من اللازم ، لكون الماركسيين القوميين ، رغــم نزعتهم القومية التى تكرهها الماركسية ، قد استطاعوا فى النهاية نزع الاعتراف بماركسيتهم ، بالرغم من ان تجاربهم تجمع آراء وافكارا ليست من الماركسية فى شىء .

على ان تسليم هؤلاء الماركسيــين النظــريين بوجود ماركسيات متعددة ، او انكارهم لهذا التعدد عن طريق اخــراج المــذاهب الاخــرى من نطــاق الماركسية ، لا يؤثر فى شىء على فشل النزعــــة الانسانية للماركسية . فاقدم تجربة ماركسية عرفت منذ بدايتها رغبات متباينة فى تسيير المجتمع وفــق طريقة او اخرى ، كما عرفت صراعات على السلطة واعدامات جماعية يعبر عنهــا بالحركات التطهيرية للثورة المضادة ، ادت الى انتصار الستالينية ، وتنمية الشعور القومى ، واعطاء الاسبقية للمصالح القومية على حساب التعاليم النظرية .

لم تكن التجارب الماركسية اللاحقة باحسن حال من التجربة الستالينــية ، فقــد اتخذت كل تجربــة خصائص تميزها عن الاخرى ، واصبح للشعــــور الوطنى ، وللمصالح القومية ، الاثر البارز فى تحديد السياسات الداخلية والخارجية لكل دولة شيوعية على حدة ، وصار لذلك الحديث مالوفا عن الشيوعية الصينية او الشيوعيــة اليوغوسلافية او الشيوعيــة الكوبية او غيرها .

بل ان النزعة القومية تجلت على صعيد الصراع بين الدول الكبرى نفسها . فالدول الكبرى الماركسية دخلت مرحلة المنافسة الدائمة مع الدول الراسمالية الاستعمارية ، ولم تعد تعبــأ بالتعاليم النظريــة فى معاملاتها مع الدول غير الماركسية . بل انهــا لجأت كالدول الراسمالية الى فرض وصايتها على الــدول وعلى الاحزاب والمجموعات الماركسية التى تعيش فى الدول الاخرى ، والى اكتساب مناطق النفوذ بغض النظر عن المبادىء والاصول النظرية .

الرباط : عبد الواحد الناصر

الإمام البخاري
والتطور العلمي والتكنولوجي الحديث

للدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
وكيل الأزهر الشريف

لقد قام بناء الدين الاسلامي على اساسين هامين واستمدت شريعته من مصدرين رئيسيين :

1) القرآن الكريم .

2) وسنة خاتم النبيئين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه ويوضح هذا قوله عليه الصلاة والسلام :

تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي . واذا كان القرآن الكريم المصدر الاول للاسلام قد نزل بواسطة الوحي المعصوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه الى الناس كافة وليصدع بما جاء فيه من عقائد وتشريعات ووصايا واحكام فانه عليه الصلاة والسلام قد كلف بجانب التبليغ ـ بمهمة كبرى ورسالة عظمى هي بيان ما اجمل في هذا القرآن او صادق فهمه وغمض معناه او اشتبه امره على الناس ومعنى ذلك ان السنة المثلة في اقوال الرسول (صلعم) وتقريراته هي الشارح او الموضح او المكمل لفهم معاني القرآن وكشف اسراره وفتح مغاليقه يوضح المولى عز وجل في القرآن الكريم هذه المهمة فيقول مخاطبا الرسول محمد (صلعم) .

(وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم). وبهذا اوجب المولى عز وجل على جماعة المؤمنين طاعة الرسول (صلعم) لان طاعته من طاعة الله (من يطع الرسول فقد اطاع الله) (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) . وكذلك خص المولى عز وجل الاستجابة له ولرسوله بنداء واحد وقرنهما في امر واحد فقال : (يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) فدعوة المؤمنين للايمان بالقرآن الكريم والعمل بما فيه انما هي دعوة لمصدر حياتهم وسر قوتهم ونجاحهم وكذلك دعوتهم للايمان بالسنة النبوية المطهرة والعمل بما فيها انما هي دعوة لما يحييهم .

العناية بالسنة

من هذه المنطقة نشأت عناية المسلمين بالسنة منذ صدر الدعوة المحمدية حتى الآن ، وصارت المصدر الثاني من مصادر التشريع . لانها اوفى شروح القرآن ثم هي تستند كذلك الى الوحي المعصوم لانه سبحانه يؤيد رسوله فيما يقول ويفعل فيقول عز من قائل (وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى) وغني عن البيان ان ذلك خاص بأمور التشريع وما يتعلق بالاحكام الدينية اما ما يتعلق بالامور العادية والشؤون الخاصة بدنيا الناس فليس كلها موحى بها . وانما غاية امرها انما منطبقة على ما ينبغي أن يكون طبقا لنواميس البشر وطبائع حياتهم.

وقد امر رسول الله (صلعم) بما اقر به في قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر) فلم يكف عن بيانه

ما انزل الله اليه ولم يقصر فى ايضاحه فامر باحكام ونهى عن اخرى وقرر امورا ونفى غيرها ومارس افعال الحلال والمباح وكف عنه فعل محظورات واقر بالسكوت بعض ما يقول اصحابه او يفعله فى حضرته ولم يقتصر الرسول على ذلك ـ وانما رغبة منه (صلعم) فى اداء التبليغ على اكمل وجه واكده استعان باصحابه الخلص الامناء فى تبليغ ما لم يتيسر له المشاهدة منهم او اللقاء به فقال : (ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ اوعى من سامع) .

وقد ادى اصحابه رضوان الله عليهم الامانة التى حملوها على خير وجه . فتفرقوا فى الاقاليم والامصار بعد ان دعوا عنه (صلعم) وحفظوا احاديثه كل على قدر طاقته ومقدرته فى الوعي والحفظ والاستذكار . ونشطوا فى نشر السنة وتبليغها الى كل من يتصلون به منذ وعيه بالاخلاص فى الضبط .

الوضع فى الحديث

الا انه عدم تدوين الحديث فى عهد الرسول (صلعم) والاكتفاء بالحفظ قد فتح الباب لغير المخلصين فى اسلامهم وغير الامناء فى اعمالهم للوضع فى الحديث وتزييف فيه ونسبة الكذب الى الرسول (صلعم) خدمة لمصلحة او ترويجا لراي خاطىء او عقيدة باطلة رغم انه عليه السلام قد حذر من ذلك بقوله : (من كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار) .

تدوين الحديث وتصنيفه

وعندئذ نهضت همم القلوب من التقاة من المسلمين ممن هم اهل بصر بالرواية والرواة والدراية باحوال الرجال لتمحيص الروايات والبحث فى الاسانيد ووضع كل فى مقامه مما نشأ عنه تصنيفهم فى طبقات من حيث الضبط والاتقان وفى درجات من الحفظ واليقظة . وها هنا نشأت فكرة تدوين الحديث وبدا ذلك فى العصر الثاني للهجرة واول من امر بتدوين الحديث وجمعه فى كتاب هو الخليفة عمر بن عبد العزيز خوفا من اندراسه كما فى الموطأ وخاصة وقد كثر موت العلماء والحفاظ .

اما فى فتح الباري فقد جاء ان اول من جمع الحديث وكتبه هو الربيع بن صبيح وسعيد بن ابي عمرة وغيرهما وايا كان فقد صنف الامام مالك بن انس كتابه الموطا بالمدينة وعبد الملك بن جريج بمكة وعبد الرحمن بن سلمة بالبصرة ثم تلاهم الكثيرون كل على حسب طاقته ودرايته .

وكان من مصنفي الحديث من اتخذ الاسانيد اساسا لتركيبه كأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وابي بكر بن ابي شيبة .

ومنهم من اتخذ العلل اساسا للترتيب كأنه يجمع فى كل متن طرقه واختلاف الرواة فيه بحيث يتضح ارسال ما يكون مرفوعا او غير ذلك فمنهم من رتب على الابواب الفقهية وغيرها ونوعه انواعا وجمع فى باب واحد ما ورد فى كل نوع وفى كل حكم اثباتا ونفيا بحيث يتميز ما يدخل فى (الصوم) مثلا عما يدخل فى (الصلاة) وقد انقسم اهل هذه الطريقة الى فريقين :

1) فريق يتقيد بالصحيح من الاحاديث كالشيخين العظيمين والامامين الجليلين الامام البخاري والامام مسلم .

2) وفريق لم يتقيد بذلك كأصحاب الكتب السنة .

وكان من اجل من كتب فى القرن الثالث الهجري من الفريق الاول . وهم المتقيدون بالصحيح من الاحاديث الامام محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري صاحب كتاب (الجامع الصحيح) .

وكان سبب تاليف هذا الكتاب اطلاعه على ما سبقه من تصانيف فى الحديث واسانيدها فوجد منها القبيح ومنها الحسن . بل والكثير منها يشمله التضعيف وكان ذلك مرآة لتجديد همته لجمع الحديث الصحيح الذى لا يرتاب احد فيه .

وقوى عزمه لذلك ما سمعه من استاذه اسحاق بن ابراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه .

وقد حدث البخاري نفسه عند ذلك فقال : كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول (صلعم) قال : فوقع ذلك فى قلبي فاخذت فى جمع (الجامع الصحيح) .

وقد التزم البخاري فى مؤلفه هذا ان لا يثبت الا الاحاديث الصحيحة على معياره هو الذي دقق فيه الى ابعد حدود الدقة وشرط صحة الحديث

شروطا تجعله فى منتهى الحذر والحيطة ومن هنا كانت الثقة فى صحيح البخاري .

ولست هنا وفى هذه الكلمة القصيرة العاجلة بصدد التاريخ لحياة البخاري او بيان قدرته فى حفظ الحديث والدفاع عن السنة والا لاقتضاني ذلك وقتا طويلا . ولكني احب فقط فى هذه الكلمة المختصرة ان اشير ما بين صحاح البخاري لصفة خاصة ومؤلفاته الاخرى بصفة عامة وبين القضايا العلمية المعاصرة وعلى الاخص ما يتعلق منها بالمنهج العلمي الحديث من صلة وثيقة ومناسبة حية .

المنهج بين البخاري والمحدثين

لقد فاخرت اوربا كلها بما استحدثه علماؤها وفلاسفتها فى عصر الفلسفات والعلوم الحديثية من منهج علمي وبحث موضوعي واتجاه تطبيقي . ولا اظن انني اكون متجاوزا فى القول او مبالغا فى الحكم اذا قررت ان هذه المظاهر الثلاثة (المنهج ـ الموضوع ـ التطبيق) قد بدت بشكل واضح فى اعمال الامام البخاري .

كان على راس هؤلاء العلماء الذين اسسوا هذه النزعات العلمية الحديثة الفيلسوف الانجليزي فرنسيس بيكون الذى عاش فى القرن السادس عشر الميلادي والذى اعتبر فى نظر علماء اوروبا مؤسس العلوم التجريبية الحديثة او كما لقبوه فيما بعد (ابو الفلسفة الحديثة) . وواضح ان المنهج العلمي المعاصر ذلك المنهج الذي بني على الملاحظة والتجربة ولعبت فيه شهادة الغير دورا كبيرا .

فقد كان الغرض العلمي يمحص اما عن طريق الملاحظة البحتة واما عن طريقة اجراء التجارب واما عن طريق النقل عن الغير والاعتماد على شهادته فى الامور العلمية التجريبية . وقد اقتضى ذلك علماء العصر الحديث بان يعتوا عناية خاصة بتمحيص شهادة الغير وادعوا الى انهم يتحرون فيها الدقة والحذر ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ولم تقتصر عناية هؤلاء على المنهج وانما تجاوزوه الى العناية ببحث الموضوع فى ذاته فلم يلتفتوا باسلوب الحديث فى قضية علمية والتسليم بها نظريا . وانما اعطوا عناية فائقة لبحث موضوع القضية ومادتها ومعرفة ما اذا كانت صادقة فى الواقع ونفس الامر ام كاذبة .

ويأتي بعد ذلك دور التطبيق فى حياتهم العملية فلم يغفلوا استخدام نتائج ابحاثهم واستثمارها فيما يعود عليهم وعلى مجتمعاتهم بالسعادة والرفاهية والازدهار .

يقول فرنسيس بيكون الفيلسوف التجريبي (اما ان تطلب المعرفة لذاتها فحرب من الخمول واما ان تزدان بها فحب للظهور واما ان تصدر فى رايك عنهما فذلك جانب الطرافة من العالم) .

البخاري والمحدثون
(منهجا ـ وموضوعا ـ وتطبيقا)

وبينما كان الفلاسفة المحدثون يتركون كثيرا من الثغرات الهامة فى منهجهم وعلى الاخص فيما يسمونه (بتمحيص شهادة الغير) كان البخاري يعمل جاهدا فى منهجه على سد هذه الثغرات .

لم يكن بعض هؤلاء من الامر الا ان ينقل عن شخص خبر او حكم او تجربة او ملاحظة فسرعان ما ياخذون هذا الخبر مسلما ثم يستعينون به فى ابحاثهم التي يتوصلون بها الى نظرياتهم وكثيرا ما كان يظهر خطا هذه النظريات لانهم لم يبحثوا حال ناقل الخبر ولم يمحصوا روايته ولم يحاولوا ان يتعرفوا عليه فى جانبه الاخلاقي اصادق هو ام كاذب ؟ امفرح فى خبره او نزيه فيه ؟ اصالح هو لرواية الخبر ام به علة تجعله تنحرف به ؟ لم يعنهم ذلك فى قليل او كثير .

ولكن امامنا البخاري فى عنايته بالرواية والرواة كان يبحث عن احوالهم وعن مبلغ الثقة فيهم ويصنفهم تبعا لذلك فى درجات متفاوتة أعرفوا بالكذب او الصدق . اعهد منهم وضع فى الخبر والحديث او لم يعملا وهل اثر عنهم تدليس او جرب عليهم هوى شخص فى اسناد الحديث او سنة . كل ذلك قد اعتنى به البخاري الى حد انه جعل حال الراوي جزءا فى صحة الخبر او فساده وسببا فى قبوله او رفضه فهو مع عنايته باهم مقومات المنهج العلمي الحديث وقد قطع الطريق على الكذابين والوضاعين (المدللين) والمدلسين بحيث يكون الصدق فيه متيقنا ، لا يتطرق اليه شك وتكون صحته مسلما بها من الجميع . هذا عن الناحية المنهجية . اما من الناحية الموضوعية فلم يقتصر البخاري على تحرير الرواية وفحص احوال الرواة وانما نظر بجانب ذلك الى ما

يسميه المحدثون والمعاصرون ب (الموضوعية) ويسميه علماء الحديث في الاسلام ب (الدراية) اعتنى البخاري بمعنى الحديث ومدلوله ومفهوم الخبر ومغزاه ونظر هل هو مشتمل على ما يتفق مع الاسلام في اطاره العام عقيدته وشريعته ووصاياه وروحه العامة حسبما صورها القرآن الكريم وقررتها السنة النبوية المطهرة ؟ ام انه ناقص من الاصول او حكما من الاحكام المسلم بها ، مناقضا بداء ؛ يعيد النظر في رواية ، وانطلق بعمل عقله وفهمه في الدراية ، اما بتاويل في اللفظ ، او حمل على نوع من المجاز مما يتفق واساليب اللغة العربية ، واما بتخصيص بعموم او تفصيل لمجمل او نسخ بقول ، او بقول آخر ، و لحكم ، و بحكم آخر. وهكذا حتى ليستقر به الامر على موضوعية سليمة ومعنى خالص صحيح لا يتطرق اليه شك ولا يتسرب اليه ريب .

وعلى هذا الاساس كان استنباطه لاحكام من احاديث الرسول ولذلك كان كتابه (الجامع الصحيح) حجة كبرى عند العلماء ومصدرا تشريعيا موثوقا به عند العلماء والمشرعين من الائمة الاعلام فاذا ما انتقلنا بعد ذلك الى الجانب التطبيقي لاعمال الامام البخاري وهو ما يسمى في العرف الحديث ب (التكنولوجي) نجد ان حياته الخاصة والعامة كانت صورة لما روى عن رسول الله (صلعم) بما في ذلك الحث على العمل وطلب الافضل وتحري الاحسن من كل نبي في الاقوال والاعمال والعبادات . ولم يؤثر عنه رضي الله عنه انه تنكر لما روى من احاديث رسول الله (صلعم) او خالفها في سلوكه الشخصي وانها كانت صورة صادقة لما جاء في صحيحه . وكان يؤمن بان العمل بالقرآن الكريم والتاسي برسول الله (صلعم) في اقواله وافعاله مما يزيد المرء ايمانا ويزيده معرفة فكان ينمي معارفه بالعمل وتقوى الله تطبيقا لقول الله عز وجل (واتقوا الله ، ويعلمكم الله) واخذ بقول الرسول (صلعلم) : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) .

وتلك ظاهرة اخرى وميزة كبرى يمتاز بها البخاري عن الباحثين المحدثين فقد قصر الكثير منهم تطبيقه للمعارف على مبدا التجربة دون ان يصحب ذلك بتقوى الله او خشيته ومن غير ان يقوم نفسه بالفضائل ويروضها على عمل الخير وحب الايثار لصالح الناس اجمعين .

فاذا اضفنا الى كل ما تقدم ما تطلبه الروح للدين الاسلامي التي شب عليها وتشبع بها الامام البخاري من حث على العمل وتشريف العاملين وتكريمهم والامر بالسعي بالارض واستثمار مواردها واستخراج خيراتها واستغلالها في تحقيق حياة افضل للانسان والداب على تطوير هذه الحياة بالانتقال بها من الحسن الى الاحسن ومن الفاضل الى الافضل بما لا نظن انها في حاجة الى الاستثمار له او عليه .. اقول اذا اضفنا هذا الى ذلك نستطيع ان نخرج بحقيقة واضحة وهي ان الامام البخاري لم يعش لعصره فقط ولم يدون ما دون او يكتب ما كتب عن رسول الله (صلعم) في صحاحه لجيل القرن الثالث الهجري او التاسع الميلادي وانما كان في ذلك كله سابقا لعصره بنحو سبعة قرون حيث كان اولا مبشرا بنهضة التطور العلمي ونشاة البحث التجريبي والتطبيق التكنولوجي ، وكان ثانيا مثبتا ان الاسلام في معناه دينا صالحا لكل زمان ومكان لذلك لا ينافي روح التطور ولم يقف حجر عثرة في سبيل التقدم الانساني ولكن في اطار من العدل والحق والبر والخير لصالح البشرية عملا بذلك النداء الرباني الذى خاطب به المولى عز وجل به رسوله حين قال : (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) .

فما لم يعتصم العاملون على تقويم الانسانية وتطوير حياتها بالقيم الروحية والمبادىء الانسانية الرفيعة التي جاءت بها الاديان السماوية والرسائل الملائمة لطبائع البشر ، ستظل الحروب قائمة والخلافات مستحكمة ، وسيبقى الصراع بين الاقوياء والضعفاء والاخيار والاشرار فتنذر بشر مستطير .

وان العلم والتقدم التكنولوجي ما لم يحكم الاخلاق وما لم توضع النية الخيرة كصمام الامان من الانحراف والانزلاق في مهاوي الفتنة يكون وبالا على الانسانية ان وضعه حينئذ سيكون كسيارة من غير سائق تخرب وتدمر .

ونحن نرى في ايامنا المعاصرة رغم تقدم العلوم وابحاث غزو الفضاء لا تزال البشرية تشقى بهذا التقدم العلمي والتكنولوجي لانها لم تحسم خلافاتها ولم تسيطر على نزعاتها في حب التسلط واستلاب حقوق الغير . بل ربما استخدمت علومها ومعارفها فيما يمكنها من اعتداء ظالم او استعلاء مستبد او

تسلط ممقوت ما ذاك الا لانها ـ مع احرازهـا من المصارف قدرا كبيرا قد افقدت نفوسها من القيـم الرفيعة كالعدل وحب الخير للآخرين وقد عانت من مخمصة اخلاقية وفقر روحي .

ويوم ان ترجع الامم كل الامم والشعوب جميع الشعوب الى مبادىء الحق والامن والسلام فتحتكم اليها ووضعها على منصة القضاء فى خلافاتها وصراعاتها عندئذ فقط تقوم العلاقات بين الجميـع على اسس من المحبة والاخـاء والاحتـرام المتبـادل والتعاون المشترك . عندئذ يسود الامن ويعم الرخاء والتقدم الذى حضت الاديان كلها وطلبته كل شعوب العالم واممه والا فويل للانسان من الانسان .

الازهر الشريف ـ د. محمد عبد الرحمن بيصار

فما تـرى يـا ربـنـا . . . ؟

قال الاصمعي : اصابت الاعراب مجاعة ، فمررت برجل منهم قاعد مع زوجتـه بقارعة الطريق وهو يقـول :

يـا رب انـى قـاعـد كـمـا تـرى
وزوجـتـى قـاعـدة كـمـا تـرى
والـبـطن منى جـائـع كـمـا تـرى
فما تـرى يـا ربـنـا فـيـما تـرى

أبو محمد عبد الله بن ياسين

للأستاذ محمد التاودي بنسودة

وبعد فاليوم ما احرانا وقد حلت الذكرى الالفية لهذا المؤسس العظيم لهذه الدولة العظيمة ذكراه الالفية ان نقيم له مهرجانا عظيما يليق بمقامه يشارك فيه العلماء والادباء والرؤساء فى الاقطار الثلاثة من المغرب العربى ونحتفل بهذه الذكرى الالفية احتفالا شعبيا وعلى مستوى رؤساء الاقطار الثلاثة واقطار موريطانيا والسودان وما وراءهما الى غانـة حيث مازال الكل مدينا له بالعقيدة الاسلامية فعسانا ان نكون قد ادينا بعض ما لـه علينا من حق ونوفيه ما لـه علينـا من واجب الاعتراف بدوام الدولـة الاسلامية فى هذه الربوع الشاسعة الاطراف .

اعظم شخصية استشهدت فى ميدان الجهاد بأرض زعير دفاعا عن العقيدة الاسلامية وتثبيتا لاركانها .

عبد الله ابن ياسين هذا الرجـل الذى شـاءت الاقدار ان يكون الاستشهاد خاتمة حياته البطوليـة التى قضاها فى سبيل نشر مبادىء الاسلام الصحيحة وانقاذ الامة المغربية من الفرقة والانقسام ، فقـد ناداه الاجل المحتوم وهو فى حومة الجهاد بارض زعير فى حروبه مع البرغواطيين .

مولده واوليتـه :

هو ابو محمد (1) عبد الله ابن ياسين بن ملكو (2) بن بسر (3) بن على ابن ياسين (4) الجـزولى

1) ويكنى ايضا بابى سالم حسبما وقفت عليه فى كتاب ترجمة الشيخ محمد الكتانى رحمه الله .

2) من مفاخر البربر خطى يوجـد بالخزانة العامة بالرباط تحت الرقم 1020 مجهول المؤلف .

3) ابن يسر من مقال الاستاذ على الكتانى المنشور فى مجلة دعوة الحق عدد 12 السنة الاولى ذو القعدة 1377 — يونيه 1958 .

4) ذكر الاستاذ العلامة المرحـوم محمد المختـار السوسى فى كتابه المعسول : ج 11—46 انه يوجد فى احواز وجدة من ينتسب اليه اليوم كما ان من بين بيوتات فاس المضمحلة اليوم من تنتسب اليه ايضـا ثم قال الاخ المختار رحمه الله : وقد كنت وقفت بين انساب السملاليين على نسبة له بينهم وقد تسلسـل ذلك بين انسـاب الايجكاكين هـ .

واقول : انه قد افادنى صديقى الفقيه القاضى السيد عبد القادر ابن العالم انه توجد فرقـة تعرف باولاد على بن ياسين من قبيلة بنى يزناسن ببنى وريمش تسكن بالجبل بملحقة تافوغالت بدائرة ابركان ولا يمكن الجزم بانهم من ذريته لان الناس كثيرا ما يسمون اولادهم باسمه تبركا به كما هو مشاهد اليوم .

السنهاجي ولد بتامنارت من بلاد جزولة فى تخوم صحراء سوس حسبما قاله القاضي التامنارتي في فوائده وقد سكت المؤرخون عن تاريخ ولادته فلم يتعرضوا لها ولهذا لا يمكننا ان نعرفها بالضبط كما لا يمكننا ان نعرف عن اوليته شيئا اما منحدره الذى ينحدر منه فقد وقفنا فى كتاب التشوف لابن الزيات المعروف بالتادلي على ان جده ابا عثمان بن ميمون ابن ياسين كان فقيه المسامدة ومفتيها وانه الازيقول ابن الزيات فقيد الحياة وانه كان من اكابر العلماء والاولياء وناهيكم بها من شهادة من صاحب رجال التصوف فلولا مقامه فى العلم والولاية لما عده من رجال التصوف المرموقين .

فعلى هذا هو سليل العلم والولاية ورضيع المجد والعرفان وقد افادنا هذا السند التاريخي ان والده ياسين سمى باسم جده الاعلى ومع ان المؤرخين لم يتحدثوا لنا عن نشأته الاولى وعن دراسته فى الكتاب او المسجد فاننا نجدهم يقولون انه رحل فى اول القرن الخامس الهجرى الى بلاد الاندلس لطلب العلم وانه اقام بقرطبة مدة تزيد على سبع سنين مما يستنتج منه ان ولادته كانت على سبيل التقريب اواخر المائة الرابعة من العلم الهجرى ويمكننا ان نقول : انه ولد فى نحو عام 385 هـ حيث يكون له من العمر نحو خمس عشرة سنة او ازيد من ذلك اذ لا يتصور ان يفارق موطنه الى بلاد الاندلس دون هاته السنين ودون ان يكون قد تلقى المبادىء العلمية التى تؤهله لطلب العلم خارج مسقط راسه اذ العادة الجارية تقضى بأن المرء لا يسافر الى الكرع من ينبوع المعارف العالية الا بعد حفظه لكتاب الله الكريم والا بعد حصوله على شذرات من اصول الدين ومقومات اللسان .

وايا ما كان فان خروجه من وطنه الى قاعدة الاندلس التى كانت تموج فى هذا العصر بالذات بكبار العلماء وتطاحل رجال الفكر الاسلامى من اولئك الذين عرفتهم هذه الارض الطيبة المعطاء هؤلاء الذين هاجروا اليها من بلاد المشرق العربى الى الجزيرة الخضراء من الذين تفتحت افكارهم وعقولهم على كل ما كان محيطا بالديار المشرقية من علم وحضارة وتقدم وعمران بعد ان شهدت بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية تطورا عظيما من جراء العلوم التى ترجمت من اللغات الاجنبية والحضارة القديمة من يونان وهند ورومانية وفارسية ومصرية وغيرها من الامم ذات الشهرة قبل ظهور الاسلام مثل هؤلاء الذين وفدوا على هاته الجزيرة او ممن انبتتهم العاصمة الغربية — قرطبة — وانجبتهم فكانوا اساتذة للحضارة الغربية وايمة صالحين اذ كانت قرطبة وغرناطة فى هذا العصر الذهبى للاسلام مركزين عظيمين للعلوم الاسلامية والفكرية وغيرهما مما كان معروفا فى هذا الجانب الغربى للبلاد الاندلسية من اجل السمعة الذائعة الصيت والشهرة الفائقة التى كان يتوفر عليها الفردوس المفقود .

من اجل ما ذكر قصد صاحبنا عبد الله ابن ياسين هاته الديار للارتواء من حياض منابعها والاغتراف من معينها لانه لا يمكن ان يشار الى الرجل بالعلم الصحيح والمعرفة الكبيرة الا بعد هجرته العلمية لبلاد المشرق العربى او الى بلاد الاندلس الغربية من المغرب الاسلامى وليشاهد عن كثب حالة البلاد السياسية وما طرا عليها من ركود وعجز وتفرقة وانقسام الشىء الذى يؤذن بأفول شمس الهداية الاسلامية وانطفاء لنورها الذى اضاء عليها منذ اول دخول عبد الرحمن الداخل الذى احيى فيها مجد بنى امية واسس اعظم دولة بها .

اذا عرفنا هذا القدر وادركناه تماما عرفنا ان صاحبنا ابا محمد عبد الله ابن ياسين قد تزود من العلوم الاسلامية والحضارة العربية الاصيلة بعد هجرته الى بلاد الاندلس بالقدر الكافى لتلقيح افكاره وتنوير بصيرته وانه قد اضطلع بما يؤهله لما هو عازم على القيام به من زعامة واصلاح دينى واجتماعى لوطنه الذى ينتظر منه ان يغير الله به وعلى يده حالة شمال افريقيا وبلاد السودان والجزء الغربى من اوربا الذى كان حينئذ فى حوزة الاسلام واعنى به ذلك الفردوس المفقود رده الله الى حظيرة الاسلام ، لان حالة الاندلس فى وقته وايام دراسته بها كانت تبعث على الاسى وكانت خطيرة جدا فقد انقسمت كلمة ملوكها وتوزعتها الاغراض والشهوات واصبح بعض ولاتها يوالى الكفرة الذين يستولون على اطراف البلاد فيتحكمون فيهم وربما اخذوا منهم الاتاوة والجزية عن يدوهم صاغرون بعد ما كانوا يخشون بأسهم ويجبنون امامهم .

ولكن هى الفرقة والانقسام ادتا بهم الى ضعف شوكتهم وتكونت على رقعتهم التى اصبحت اضيق

من سالفة الذباب (5) بضع (6) عشرة دولة تدعى بملوك الطوائف حتى قال قائلهم :

مما يزهدنى فى ارض اندلس
اسماء معتضد بها ومعتمد

القاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

وقد صور هاته الحالة المؤلمة لسان الدين ابن الخطيب حيث قال :

حتى اذا سلك الخلافة انتثر
وذهب العين جميعا والاثر

قام بكل بقعة مليك
وصاح فوق كل غصن ديك

هكذا اصبح الحال بالاندلس اما المغرب فانه كاد ان يكون شبيها بهاته الحالة المؤسفة ، فقد توزعته (7) هو الاخر الاطماع واصبح رؤساؤه متعددين يبلغ عددهم خمسا قسموا المغرب بينهم هكذا : بنويفرن بسلا واغمات وتادلا والمغراويون بفاس والبرغواطيون بتامسنا ودكالة والخزريون بسجلماسة وسقوت البرغواطى وبقايا بنى حمود بطنجة وسبتة ، فالحالة بالعدوتين لا تبشر بخير .

فادرك عبد الله ابن ياسين ما وصلت اليه الحالة هنا وهناك كما ادرك ما يحاك لبلاد الاسلام بهذين الجناحين من مؤامرات وما يكاد لهما من دسائس وما يدبر لوطنه من تقلبات تهز كيانه وتؤخره عن القيام برسالته التى هى نشر الاسلام فى ربوع افريقيا التى كانت لم تصلها الدعوة الاسلامية والحضارة العربية اذ ذاك .

بدء دعوته لتجديد الدعوة الاسلامية :

فبعد ان ملأ وطابه بالعلوم والمعارف وحصل على علم كثير كما يقوله صاحب الحلل الموشية وشحن ذهنه بما يؤهله لما هو مقبل عليه من معرفة لحقيقة الدين الاسلامى على وجهها الصحيح وادراكه بان الحاجة ماسة جدا الى تخليص العقيدة الاسلامية الصافية التى تلقاها من فطاحل العلماء واكابر القادة مما يشوبها من ضلالات وخرافات واوهام .

لذلك نجده لما رجع من بلاد الاندلس قصد توا عالم سوس ومعلم ابنائها واجاج (8) بن زلواللمطى نزيل مدينة نفيس الذى كانت له مدرسة علمية تدعى بمدرسة اجلولان عبد الله ابن ياسين احب ان لا يخرج عن محيطه العلمى الى ان تحين له الفرصة للجهر بما هو عازم عليه ولانه اراد من وراء ذلك ان تظهر للقوم اهليته وفى الوقت نفسه يزداد علما بتدريسه بهاته المدرسة الوحيدة الموجودة بقطره وذلك هو الباعث له على الاقامة بهاته المدرسة مدة الى ان تهيأ له الجو المناسب للقيام بدعوته التى طالما فكر فى ابرازها لحيز الوجود وكم من معلم ومرب للناشئة فى اول امره اصبح قائدا لحركة من حركات الانقلاب التى غيرت الاوضاع وبدلت الافكار وحولت الناس من طور الضعف الى طور القوة والعزة وهذا ما وقع على يد مترجمنا رحمه الله .

ولنسق هنا ما عند صاحب القرطاس فى بداية حياته الاصلاحية فقد قال بدأ بنشرها اى الدعوة فى حوالى 430 هجرية فقد عز فى نفسه ان يرى الناس بالصحراء يتزوج الواحد منهم باكثر من عشر نسوة وانهم لا يعرفون شيئا عن دين الاسلام فقد غلب عليهم الجهل وليس لاحدهم كثير من علم ليس فيهم

---

5) المعسول ج 11 — 41 .
6) راجع كتاب ملوك الطوائف لدورزى فى تراجمهم .
7) المعسول ايضا .
8) واجاج بن زلو اللمطى ترجم له صاحب التشوف فقال : انه من اهل سوس الاقصى رحل الى القيروان فاخذ عن ابى عمران الفاسى ثم عاد الى السوس فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه واذا اصابهم قحط استسقوا به ثم ذكر له **كرامة من كراماته كما ذكره صاحب المعسول** فى الجزء 11 — 48 ، وعقد فصلا خاصا برجال الوكاكيين عد منهم ستين شخصا ثم قال : وهذه الاسرة من الاسر المتفرعة التى يكثر فيها العلماء وغيرهم ثم قال : وهاك ما عندنا عنهم بعد جدهم واكاك وترجم لكل واحد منهم بما يناسبه وبما اشتهر به فانظره ان شئت .

من يقرا القرآن الا انهم يحبون الخير ويرغبون فيه ويسارعون اليه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم فى دينهم بهذا اجاب يحيى بن ابراهيم الكدالى حين رجوعه من الحج ومروره بالقيروان اجاب بذلك ابا عمران الفاسى (9) الذى رغب منه يحيى بن ابراهيم ان يوجه معه من يقوم بهاته المهمة فكتب ابو عمران له رسالة الى تلميذه (واجاج) بن زلوالمطى المتقدم الذكر ثم ان يحيى بن ابراهيم لما رجع الى بلاده بكدالة فرحت به قبائل لمتونة واكرموه وعظموه وبعد استراحة توجه بتلك الرسالة الى واجاج الاستاذ ليبعث مع يحيى من يقوم بهاته المهمة فانتدب لها واجاج عبد الله ابن ياسين لما يتوسم فيه من كفاءة ومقدرة وحينما وصل معه عبد الله ابن ياسين الى بلاده وجد عند يحيى ابن ابراهيم تسع نسوة (10) فساله عنهن فقال هن زوجاتى فقال له هذا لا يجوز فى الاسلام وامره ان يفارق خمسا ويترك بعصمته اربعا ففعل ثم قال له ان جميع الرؤساء من كدالة ولمتونة على مثل حالى فعند ذلك انذرهم وعرفهم حكم الله وقام خطيبا فيهم فقال : انكم تتزوجون بما شئتم من النساء حتى ان الشخص منكم يجمع بين العشرة وليس هذا من السنة وانما السنة والاسلام ان يجمع الرجل بين اربع نسوة حرائر وله سعة فيما شاء من ملك اليمين، وهذه اول خطبة خطبها فيهم بين لهم فيها ما يجب على المسلم ان يعمل به داخل اسرته الصغيرة التى يجب ان تتربى على مبادىء الاسلام .

الا ان اكثرهم لا يصلون ولا يزكون وليس عندهم من مبادىء الاسلام الا الشهادة ولما راى اعراضهم عن دعوته وسوء معاملتهم له رحل عنهم الى بلاد السودان للعبادة وتطهير النفس .

دخوله الى الجزيرة لينعزل فيها عن الناس وللعبادة :

تقع هاته الجزيرة (11) على نهر النيل على ما فى العبر وهو نهر النيجر الكبير الذى كان يسمى حينئذ نهر النيل ، فقد قال له يحيى (12) بن ابراهيم حينما حبب اليه ان يرافقه فى عزلته ان ببلادنا جزيرة فى البحر اذا انحسر عنها الماء ندخل اليها على اقدامنا واذا امتلأ دخلناها فى الزوارق وفيها الحلال المحض من اشجار البرية وصيد البر واصناف الطير والوحش والحوت فحبذ عبد الله ابن ياسين فكرته ودخلاها ومعهما سبعة اشخاص من كدالة فابتنيا بها — رابطة — واقاموا بها يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة اشهر فتسامع الناس باخبارهم وانقطاعهم هناك بعيدين عن اصحاب الزيغ والفساد وعباد الهوى فعند ذلك كثر الوافدون عليهم والتوابون فاخذ عبد الله يقرئهم القرآن ويرشدهم الى دينهم فلم تمر عليهم الا ايام حتى اجتمع عنده من التلاميذ نحو الالف من اشراف صنهاجة سماهم — المرابطين — للزومهم رابطته .

---

9) ابو عمران الفاسى ترجم له القاضى عياض فى كتابه المدارك فقال : اسمه موسى ابن عيسى ابن ابى حاج الغفجومى وغفجوم فخذ من زناتة وقال السمنطاوى من هوارة اصله من فاس وبيته به مشهور ويعرفون ببنى ابى حاج ولهم عقب وفيهم نباهة الى الان واستوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم انظر تمام ترجمته فيه كما ترجم له ابن الدباغ وابن الزيات فى التشوف وابن فرحون فى الديباج وغيرهم توفى عام 430 .

10) استبعد الاستاذ العلامة عبد الله كنون صدور مثل هذا العمل من يحيى ابن ابراهيم مع العلم انه قد مر فى حجه على العلامة الكبير ابى عمران الفاسى انظر ما كتبه فى العدد 4 من مجلة الثقافة المغربية ، وفى الكتيب الصغير الذى افرده بترجمة خاصة .

11) ويرى هنرى طيراس الفرنسى فى كتابه تاريخ المغرب من اصوله نقلا عن فرانسوى دى لاشابيل وهو الذى درس تاريخ المرابطين فى عين المكان يرى ان هاته الجزيرة تقع فى تجاه الساقية الحمراء وهى ساحلية يجزم بذلك جزما .

12) يحيى بن ابراهيم الجدالى قال فى حقه صاحب مفاخر البربر هو اول ملوكهم فى الصحراء وكان فيهم رؤساء فى القديم ولهم بطون ضخمة وبلادهم فى آخر بلاد المسلمين مما يلى ارض السودان وهم يحاربونه ولهم بأس ونجدة وبعده يحيى بن عمر وبعده ابو بكر اخوه وقد ولى ابو بكر هذا يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب قائدا وهؤلاء الملثمون متمسكون بالعدل ومتعلقون بالشرع .

خروجه من هاته الجزيرة :

لما تهذبت نفوسهم ومرنت قلوبهم على محبة العبادة والطاعة والانقياد وتمكنت منهم العقيدة الاسلامية الصافية كما يراها الدين الحنيف وكما ارادها عبد الله ابن ياسين واحس منهم الاستعداد للجهاد عند ذلك قام فيهم خطيبا وقال :

يا معشر المرابطين انكم اليوم جمع كثير وانتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم وقد اصلحكم الله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم فوجب عليكم ان تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ، فقالوا ايها الشيخ المبارك ، مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ولو امرتنا بقتل ءابائنا لفعلنا فقال لهم اخرجوا فان تابوا ورجعوا الى الحق واقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم وان ابوا وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين وهذه هى خطبته الثانية منذ شروعه فى تنفيذ برنامجه الهادف الى تجديد العقيدة الاسلامية برجوعها الى منابعها الاصيلة والعمل على مقتضى تشريعها حتى يصبح المعتنق لها مسلما حقيقيا وبذلك يتسنى له استرداد مكانته السامية ويحقق وجوده فى هذه الحياة .

دعوته الى الجهاد الحربى :

لكن القوم صعب عليهم ان يفارقوا عاداتهم التى تمكنت فى نفوسهم لاسيما رؤساؤهم الذين كانوا يتمتعون بنفوذ قوى وسلطة تامة لا ينازعهم فيها احد من الاتباع والنفس دائما تميل الى الملذات والانغماس فى الشهوات ان النفس لامارة بالسوء الا من رحم ربى .

فلما لم يكن فيهم من يقبل دعوته ولا من يرجع عن غيه عند ذلك خرج اليهم عبد الله ابن ياسين فجمع اشياخ القبائل ورؤساءهم وكانوا نحو سبعين شيخا من فقهائهم واهل الخير ممن انقادوا اليه انقيادا عظيما ووالوه برا وتكريما ولازموه مدة طويلة فاجتمع عليه منهم عدد وافر من قبائل جدالة فامرهم بغزو لمتونة بأن قال لهم : تعين علينا الآن جهادهم فاغزوهم على بركة الله تعالى ومن انذر فقد بصر وحذر ؛ بعد ان اجلهم سبعة ايام .

فهذه هى اول اشارة الى الشروع فى العمل الشاق الطويل الذى سيخوضه هذا المنقذ العظيم والمصلح الكبير ولن تدرك المعالى الا بالبذل والعطاء والتضحية والفداء .

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى تراق على جوانبه الدم

لا بد للشهد من نحل يمنعه
لا يجتنى النفع من لم يحمل الضرر

شروعه فى تنفيذ خطته :

بدا اولا بقبيلة كدالة فغزاهم فى ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه فقتل منهم خلق كثير واسلم الباقون اسلاما جديدا وحسن اسلامهم وادوا جميع ما يلزمهم من جميع ما فرض الله عليهم وذلك فى شهر صفر من عام 434 هجرية هكذا تحدثنا المصادر التاريخية التى سقنا منها هاته الاخبار الا انها سكتت عن التفاصيل لهاته المعركة الاولية فكيف دارت رحى الحرب بين الفريقين وكم دامت ايامها ؟ . كما سكتت عن الاحصاء لقتلى الفريقين نعم سكتت عن كل ذلك ولكنها تابعت حديثها من توجهه الى لمتونة فقالت انه حاربهم حتى دخلوا فى طاعته وغزوا معه قبائل الصحراء وحاربوهم وقوى امر جدالة وزاد فى ظهورهم وهم ممتثلون لامره منقادون لحكمه وكان معه فى هاته الحروب الامير ابو زكرياء يحيى بن عمر اللمتونى كان اذا تقدم بجيشه قدم امامه ابو زكرياء الشيخ ابا محمد عبد الله ابن ياسين والشيخ فى الحقيقة هو الامير وهو الذى كان يأمر وينهى وكان يقول لهم انما انا معلم لكم دينكم وكان يلى لمتونة جبل فيه قبائل من البربر على غير دين الاسلام فدعاهم الشيخ ابن ياسين الى الدخول فى الدين فامتنعوا عليه فاشار على الامير ابى بكر يحيى بن عمر بغزوهم فغزاهم بلمتونة وكانوا حينئذ ازيد من الف فارس فهزموهم وسبوهم وفقد منهم فى هذه المعركة كثير وعند ذلك سماهم الشيخ بالمرابطين لما راى من شدة صبرهم وحسن بلائهم على المشركين قال ابو عبيد البكرى وكان

للمتونة فى قتالهم (13) شدة وبأس ليس لغيرهم وبذلك ملكوا الارض وكان قتالهم على النجب اكثر من الخيل وكان معظم قتالهم مرتجلين يقفون على اقدامهم صفا بعد صف يكون بايدى الصف الاول منهم القنا الطوال وكانوا يختارون الموت على الانهزام — ولا يحفظ لهم فرار من زحف — فهذا النص التاريخى اوقفنا على كيفية القتال فى ذلك العهد وهى وقوف الجيش على الاقدام صفا بعد صف ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص كما اوقفنا على آلة الحرب التى هى القنا الطوال والرماح المعهودة للطعن كما وضع بين ايدينا صلابتهم وشهامتهم فى قتالهم لاعدائهم حتى انهم لا يعرفون التقهقر ولا التولى يوم الزحف وهى الخطة القويمة التى بين الله عواقبها فى كتابه الكريم وتفر من سوء فعلها حيث قال : ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومثواه جهنم .

بهذه الطريقة (14) انتصرت الجيوش الاسلامية فى محاربة اعدائها وبها وحدها انتصر اللمتونيون على اعدائهم وما زال الفرار من ساحة القتال امرا عظيما يعاقب عليه مرتكبه عقابا شديدا لانه يجر الهزيمة على الجيش .

ومن لمتونة توجه عبد الله ابن ياسين الى قبائل مسوفة فغزاهم وبايعوه على ما بايعته قبائل لمتونة وكدالة ولما راى ذلك قبائل صنهاجة سارعوا الى التوبة ثم لما انطوت القبيلتان العظيمتان اكدالة ولمتونة تحت لوائه اصبح له نفوذ عظيم فى اعظم القبائل الصنهاجية فتزلزلت لوحدتها اركان الوثنية فى المغرب الاقصى وتقلص ظلها فتابت بقية القبائل من عاداتها واتوه تائبين ولكنه شرط لقبول توبتهم ان يجلد التائب منهم مائة سوط لاختبارهم على مقدار صبرهم عن مفارقة العوائد التى كانت متحكمة فيهم ، وللساسة (15) تشريع خاص فى ظروف خاصة تقتضيها الاحوال السياسية ، تراعى فيها الظروف والاحوال الخاصة لبعض الاشخاص وقد لا نعدم وجود ما يشهد لذلك من اصل تشريعى اخذا او تركا ، وقد نصوا على ان للامام الاكبر ان يعزر بما يرى فيه مصلحة الجماعة .

وقد انشا عبد الله ابن ياسين صندوقا خاصا لجمع ما يتوفر لديه من الاموال التى يجمعها من الزكوات والمغانم وسماه (بيت المال) فهو اذا بمثابة بنك دينى تجبى اليه اموال الدولة لشراء العدة والدرق اللمطية والسلاح .

الامير يحيى بن عمر بن تكلاكين اللمتونى :

لما توفى يحيى بن ابراهيم الذى رافق عبد الله ابن ياسين فى اول ظهوره الى حروبه السالفة قدم على جيش المرابطين يحيى بن عمر اللمتونى الذى كان شديد الطاعة لرئيسه وبذلك برهن عبد الله ابن ياسين على اخلاصه ووفائه لمبدئه وانه لا غرض له بالرياسة الدنيوية فقد فضل ان يبقى زعيما روحيا لحركته الاصلاحية التى التزم بها من اول يوم بدا به جهاده فى سبيل تجديد العقيدة الاسلامية .

وانما اختار يحيى بن عمر هذا من البيت اللمتونى لما كان له اولا من مواقف حميدة ولان قبيلة لمتونة اصبحت اقوى قبيلة بالصحراء ولما اراده الله لها من

---

13) من كتاب الحلل الموشية فى الاخبار المراكشية لمؤلف مجهول طبع بالمطبعة الاقتصادية بالرباط قام بطبعه الاستاذ علوش .

14) ورد فى مجلة العربى ، عدد 184 صفر عام 1394 — مارس 1974 مقال تحت عنوان : « تقاليد القتال » بقلم الدكتور احمد العدرى جلب فيه كلام ابن خلدون حول انواع الحروب فقال : ان الحرب لم تزل واقعة منذ ان برا الله الخليقة وهى امر طبيعى فى البشر لا تخلو منه ثم قسمها الى اربعة انواع ، الاولى تسببها المنافسات واعمال الغيرة والثانية تخلقها النزعات العدوانية الفطرية والثالثة تقوم دفاعا عن الدين وتدسيته والرابعة تفرضها سلامة الامة وسلطانها ثم قال : فالصنفان الاولان حروب بغى وفتنة والاخيران حروب جهاد وعدل وقد حرم الاسلام الصنفين الاولين واذن بالصنفين الاخيرين واليوم تعرف فى الديلوماسية العالمية بالحروب المشروعة قانونا هـ .

15) من كتاب جامعة ابن يوسف فى سبعمائة سنة لمؤلفه الاستاذ العلامة محمد بن عثمان المسفيوى رحمه الله .

ظهور ونجاح حتى اصبحت الخلافة الاسلامية معقودة فى لوائها .

ومن تمام الطاعة الحاصلة لهذا الامير لزعيمه الروحى انه لا يعارضه فى اى شىء حتى انه قال له ذات يوم انه وجب عليه ادب فاجابه فيم يا سيدى فقال له لا اعرف به حتى آخذه منك فكشف له عن بشرته فضربه عشرين سوطا ثم قال له : انما ضربتك لانك باشرت القتال واصطليت الحرب بنفسك وذلك خطا منك فان الامير لا يقاتل وانما يقف ويحرض الناس ويقوى نفوسهم فان حياة الامير حياة عسكره وموته فناء جيوشه ، وهذه النظرية الحربية لازالت هى النظرية السائدة الصائبة الى يومنا هذا فان كبار الجيش ورؤساءه يكونون فى مكان بعيد مشرف على تسيير العمليات الحربية ليوجهوا منها الجيوش المقاتلة الوجهة الصائبة ويراقبوا عن كثب حركات العدو فى تقدمه وتأخره وما الحرب الا خدعة كما يقولون فى القديم وان هى الا مبارة لا يتوقف النصر فيها على تقدم الاستعدادات الحربية وتنوع وسائلها من طيران ودبابات وغاز وغير ذلك فحسب بل ان الفوز فى هذه كذلك بالمفاجآت كما هو مشاهد اليوم فى عصرنا .

اما تأديبه لاميره يحيى بن عمر فان المصلحة اقتضت ذلك بدلا من ابعاده بالكلية كما يفعل اليوم وللرئيس الاعلى سلطة كبيرة فى نوع التاديب الذى يصدره فى حق مرءوسه وخصوصا وان تأديبه له يوافق روح عصره .

استيلاء عبد الله ابن ياسين على جميع بلاد الصحراء

وقد تابع عبد الله ابن ياسين خطته الحربية وكان النصر حليفه فى جميع غزواته لعاملين اساسيين اولهما انقياده تمام الانقياد لتعاليم الاسلام من محافظته على فروضه وواجباته والزام متبوعه وجيشه بالتمسك بقواعد الدين الحنيف من اداء الصلوات جماعة ومن اخذ الزكوات من اغنيائهم وتوزيعها على فقرائهم واهل الفضل والعلم وذوى الحاجات وثانيهما ابتعاده عن المطامع والاغراض الشخصية اللذين كثيرا ما يكونان سببا فى الانهزام والفشل كما هو مشاهد فى الغائب والحاضر ولا ادل على اخلاصه من زهده فى الرئاسة الدنيوية واسنادها لغيره وبهذا وحده افتتح بلاد الصحراء والكثير من بلاد السودان .

هذا هو السبب الحقيقى فى هاته الانتصارات الباهرة التى حققها هذا الرجل العظيم وهو ما ذكره المؤرخون من العرب والمنصفون من الاجانب وهناك نظرة لصاحبها هيرنى طيراس فى كتابه تاريخ المغرب فى اصوله وهو معروف بنزعته الاستعمارية فقد ارجع خروجه وقومه من صحرائهم التى ضاقت بهم حسب زعمه الى انه انما خرجوا لطلب العيش والاستيلاء على المزيد من الاراضى التى يجدون فيها مشاربهم ولبسط نفوذهم وسلطتهم على جيرانهم وعلى من خالفهم فجعل السبب الوحيد فى نظره سببا اقتصاديا لا دينيا ولا اصلاحيا مع ان هذا الامر لا يوافق سيرة الرجل الذى كان زاهدا فى كل شىء فقد عرضت عليه الرئاسة فعزف عنها عزوفا لا يعهد الا من العظماء القلائل من الناس وكل اناء بما فيه يرشح فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض .

نعم شاءت الاقدار ان تشيع خطته الاصلاحية وفتوحاته المتوالية فى الانحاء البعيدة عن الصحراء وتسامع الناس بذلك وتمنوا ان ينخرطوا فى حزبه وان ينضموا الى جيشه ولهذا اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا اليه والى اميره يحيى بن عمر والى اشياخ المرابطين كتابا يرجون منهم تطهير بلادهم من عسف اميرهم مسعود بن وانودين المغراوى الزناتى فتهيأ لهذا الامر الجلل مجاهدنا الكبير فجمع جيوشه الجرارة المنتصرة وقصد بلاد سجلماسة فى العشرين من شهر صفر عام 447 موافق يوم الاحد 21 مايو 1055 م ولما وصل الى درعة اخرج منها عامل امير سجلماسة مسعود المغراوى وقد دارت بينهما حروب عظيمة منح الله تعالى المرابطين فيها النصر على مغراوة فقتل مسعود واكثر جيوشه وفر الباقون فأخذ عبد الله ابن ياسين اموالهم ودوابهم واسلحتهم مع الابل التى اخذها من درعة فاخرج من ذلك الخمس جميعه وفرقه فى فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهما وقسم الباقى على المرابطين وفى البكرى ان عدد الجيش الذى توجه به ابن ياسين الى سجلماسة يبلغ نحو ثلاثين الف جمل سرج ولما دخل سجلماسة اصلح احوالها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع المزامير واحرق الديار التى كانت تباع بها الخمر وازال المكس واسقط المغارم المخزنية وقدم عليها عاملا من لمتونة ومن اجل هاته المنكرات

قام بحربه المثالية ضدهـا وطهـر ارض المغرب من خبثها هذا وقد توفى الامير يحيى بن عمر اللمتونى فى جهاده ببلاد السودان فقدم عبد الله ابن ياسين اخاه ابا بكر مكانه وذلك فى شهر المحرم عام 448 هـ موافق مارس — ابريل 1056 م وهكذا يقيم عبد الله ابن ياسين مرة اخرى الدليل على اخلاصه فى عمله وانه لا يريد امارة ولا رئاسة وهذا النوع من البشر قليل اذ كل الاسباب التي تؤهله للارتقاء الى سلم الامارة متيسرة ومع ذلك يدفعها بيـده وينصب هو للامارة غيره ممن يراه صالحا لها .

وهنا تحدثنا المصادر التاريخية ان الامير ابا بكر بعد تسلمه مهامه الجديدة توجه الى بـلاد السودان فتقول : انه فتح جميع البلدان التى مـر عليها من جزولة وماسة ورودانة وقد كان بهذه البلدة قوم من الروافض (16) وهـم اصحاب عبـد الله البجلـى الرافضى اشاع هناك مذهبه منذ قدومه ايام عبد الله الشيعى جيلا بعد جيل ، فقاتلهم ابو بكـر بن عمر وعبد الله ابن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة وقتل من اصحابه خلق كثير واخذ اموالهم فجعلها فيئـا بين المرابطين .

ثم ارتحل الى بلاد المصامدة ففتـح جبـل درن وبلدان رودة وشيشاوة — ونفيس وسـائر بـلاد كدميوة وقبائل رجراجة وحاحة كما فتح بلاد اغمات بعدما فر عنها لقوط بن يوسف بن على المغراوى الى ناحية تادلا فنزل بها فى حمى بنى يفرن اربابها وكان ذلك سنة 449 .

وبعدما قضى باغمات نحو الشهرين توجه الى بلاد تادلا ففتحها وقتل من بها من بنى يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوى فقتله ؛ ثم سـار الى بـلاد تامسنا ففتحها واخبر ان بساحلها قبائل — برغواطة — فتوجه اليهـم .

تحقيق القول فى اصل برغواطة ونحلتها الضالة :

ننقل هنا مـا جلبه المؤرخون من العـرب الذين تعرضوا للكلام على هذه النحلة المذهبية التى شاعت فى جهة تامسنا واقتطعت بـلادا شاسعة من وادى ابى رقراق الى وادى ام الربيع ، من لدن معاصريهم الى يومنا هذا فقد تكلم عليهم صاحب — مفاخر البربر والحلل الموشية وابو عبيـد البكـرى — فى كتـابه المغرب وابن خلدون فى العبر وابن ابى زرع صاحب القرطاس والناصرى فى الاستقصا والدكتور حسين مؤنس فى كتابه فجر الاندلس والمؤرخ الكبير الاستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه دول الطوائف والاستاذ المرحوم محمد بن عثمان المسفيوى فى كتابه جامعـة ابن يوسف فى سبعمائة سنة والاستاذ عبد الله كنون ومؤرخ الدولة المغربية الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فى كتابه قبائل المغرب وغيرهم ممن تكلم عن منشـا الدولة المرابطية وان كانوا كلهم يستقـون من كتاب المغرب للامام البكرى وهو جـزء من كتابه المسالك والممالك وهو اقدم مصدر عن هاته الطائفة .

وما دام حديثـنا عن البرغواطيين فلننسـق اولا بعض ما جلبه على بن ابى زرع فى كتـابه القرطاس قال : ان اصلهم من برباط بفتح البـاء فى اولـه وهو

16) الروافض : قال صاحب القاموس : الروافض كل جند تركوا قائدهم والرافضة الفرقة منهم وفرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على ثم قالوا له تبرا من الشيخين (ابو بكر وعمر) فابى وقال كانا وزيرى جدى (على) فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه والنسبة رافضى هـ وجاء فى مقدمة ابن خلدون فى جمل مذاهب الشيعة ما نصه : والزيدية نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن على بن الحسين السبط الى ان قال ولما ناظر الامامية زيدا فى امامة الشيخين وراوه يقول بامامتهما ولا يتبرا منهما رفضوه ولم يجعلوه من الايمة وبذلك سموا (رافضة) ومثل هذا يوجد عند صاحب الملل والنحل للامام ابن حزم ، وقد رفضوه كذلك لانه لم يذهب الى ماذهبوا فى ان الخلافة تستحق بالوراثة بل راى انهـا لا تستحق الا بشرطين وهما : ان يخرج الامام ويدعو الى نفسه وان يبايعه معظم المسلمين وهذا زيادة على اشتراطه ان يكون الخليفة من نسل فاطمة الزهراء كما هو راى الشيعة على العموم واما قول الشاعر العربى :

ان كان رفضا حب آل محمد   فليشهـد الثقـلان انى رافـض

فهو تعبير منه لحبه لال البيت المطلوب شرعا ولا يقصد منه ظاهره بالمعنى الذى قدمناه

حصن من عمل شدونة من بلاد الاندلس فنسب اتباعه اليه فقيل برباطى فعربته العرب وقالوا برغواطى بعدما قلبوا الباء الثانية واوا فقالوا برغواطى فسموا بهذا الاسم وزاد فقال ان اصل صالح بن طريف نبيهم (يهودى) من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام .

اما صاحب كتاب المطرب فى اشعار اهل المغرب لمؤلفه : ابن دحية فقد تحدث عنهم فى الصفحتين (88 — 89) من كتابه فقال : وانشدنى ابى موسى بن عيسى السمار (البلغواطى) فى غلام اهدى اليه بنفسجا :

مـا كان الطفـه بـروح محبـه
اذ سلـهـا منـه بغيـر تحـرك

اهـدى اليـه بنفسجـا يشتمـه
فاذا به رفقـا دعا يـا نفس جى

ثم تابع حديثه فقال : وهذه القبيلة يقال لها (بلغواطة) بلام مفتوحة واسكان الغين والنسب اليها بلغواطى قراته فى كتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان للقاضى الجليل ابى حفص عمر بن خلف الحميرى المازرى قال اخبرنى بذلك اللغوى النحوى ابو بكر محمد بن البر التميمى عن اللغوى الكبير ابى عبد الله القزاز قال : والعامة تقوله بالراء برغواطة والصواب بلغواطـة انتهى كلام ابن دحية ، ولنـتبع كـلام ابن ابى زرع بكلام الناصرى فى كتابه تاريخ المغرب الاقصى لانـه استوفى الحديث عن ملوكهـم الذين تعاقبـوا على الامارة بأرض تامسنا ولعل الناصرى فى الحديث عن ملوكهم اطلع على ما عند الوزير لسـان الدين ابن الخطيب فى كتابه اعلام الاعلام فيمن بويع من الملوك قبل الاحتلام الذى تام بتحقيقه والتعليق عليه الدكتور احمد مختار العبادى والاستاذ محمد ابراهيم الكتانى فلعل هذا الكتاب هو عمـدة الناصرى بعد الامام ابى عبيد البكرى .

قال صاحب كتاب الاستقصا :

والتحقيق ان برغواطة قبائل شتى ليس يجمعهم اب واحد ، وانما هم اخلاط من البربـر ، اجتمعوا الى صالح بن طريف الذى ادعا النبوة بتامسنا سنة 125 هجرية فى خلافة هشام بن عبد المالك ابن مروان وتسمى بصالح المؤمنين (وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) وشرع لاتباعه الديانة التى اخذوها عنه وكان صالح قد شهد مع ابيه طريف حروب ميسرة المضغرى كبير الصفرية لعهده .

وكان طريف يكنى ابا صبيح ومن كبار اصحاب ميسرة المذكور ويقال انه ادعى النبوة ايضا وشرع لقومه الشرائع ثم هلك سنة 127 هجرية وقام بأمره صالح فعفت مخارقه على مخارق ابيه وكان اولا من اهل العلم والدين ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوة النبوة وكان خرج الى المشرق سنة 174 بعد ان ملك امرهم 47 سنة ووعدهم بأنه يرجع اليهم فى دولة السابع منهم واوصاهم بشريعته .

ثم ولى من بعده ابنه الياس ولم يـزل اليـاس هذا مظهر للاسلام مصرا على ما اوصاه به ابوه من كلمة كفرهم وكان متظاهرا بالعفاف والزهد الى ان هلك سنة 224 لمضى خمسين سنة من ولايته ، ثـم ولى من بعده ابنه يونس فاظهر دينـهم ودعـا الى

17) ان تامسنا هذه التى كانت فى حكم البرغواطيين الحائزة لاعظم بلادات فلاحية بالمغرب والتى يحق ان يقال فى حقها انها من المغرب النافع كما كان يقوله الاستعمار الفرنسى قد تعرض للكلام عليهـا المؤرخ الكبير الحسن الوزان الفاسى المعروف بليون الافريقى عند الاوربيين فقال تحدثا عنها انهـا كانت تشتمل على اكثر من ثلاثمائة قصـر واربعين مدينة لكنه زعم ان عرب جشم والخلط ورياح الذين جاء بهم المنصور الموحدى فى حدود سنة 1188 الى ارض المغرب خربوا هاته الحضارة وقضوا عليها فاصبحت اثرا بعد عين بفعل النهب الذى سلط عليها من طرف هؤلاء الاعراب هذا ما نسبه اليـه الاستاذ اوبير الفرنسى ، فى النشرة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب مجلد عـدد 86 — 87 نونبـر 1960 — ببراير 1961 فقد صور لنـا الوزان الفاسـى حالة المغرب فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ، وهذا القدر ما لم يذكره المؤرخون من العرب فيما اعلم ولعل هناك نقطـا استفهـامية ، لا سبيل الى الجزم بما انفرد به الوزان وحده عن بقية المؤرخين وستنكشف الحقيقة عندما يعززها علم الحفريات والاثار ان كان لذلك من وجود بل ان يونس بن اليـاس من البرغواطيين هو الذى احرق 380 مدينة كما نبه على ذلك الناصرى فهم المخربون لهاته الحضارة لا المرابطون .

كفرهم وقتل من لم يدخل فى امره حتى حرق مدائن ــ تامسنا ــ وما والاها يقال انه حرق منها 380 مدينة واستلحم اهلها بالسيف لمخالفتهم اياه وقتل منهم بموضع يقال له : (تاملوكالات) وهو حجر عال نابت وسط الطريق 7770 نفسا وحج يونس ولم يحج احد من اهل بيته قبله ولا بعده وهلك سنة 268 لاربع واربعين سنة من ملكه .

ثم تولى امرهم بعد ابو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة واخذ بدين ابائه واشتدت شوكته وعظم امره وكانت له فى البربر وقائع مشهورة ، وايام مذكورة ، اشار الى شيء منها سعيد بن هشام المصمودى فى ابيات منها قوله :

وهذى امة هلكوا وضلوا
وغاروا لاسقوا ماء معينا

يقولون النبى ابو غفير
فاخزى الله ام الكاذبينا

سيعلم اهل تامسنا اذا ما
اتوا يوم القيامة مقطعينا

هناك يونس ابنو ابيه
يقودون البرابر حائرينا

واتخذ ابو غفير من الزوجات 44 زوجة لانهم يبيحون فى ديانتهم الخسيسة ان يتزوج الرجل ما شاء وكان له من الولد مثل ذلك او اكثر وهلك اواخر المائة الثالثة ، لتسع وعشرين سنة من ملكه .

ثم ولى ابنه ابو الانصار عبد الله فاقتفى سنته وكان كبير الدعوة مهيبا عند ملوك عصره يهابونه ويداعونه بالمواصلة ، وكان يلبس الملحفة والسراويل ويلبس المخيط من الثياب ، ولا يعتم فى بلاده الا الغرباء ، وكان حافظا للجار وفيا بالعهد وتوفى سنة 341 هـ لاربع واربعين سنة من ملكه ، ودفن بتاسلاخت وبها قبره .

وولى بعده ابنه ابو منصور عيسى بن ابى الانصار وهو ابن 22 سنة ، فسار مسيرة آبائه وادعى النبوة واشتد امره وعلا سلطانه ، ودانت له قبائل المغرب وكان عسكره يناهز ثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم ، وكان للملوك العدوتين فى غزو برغواطة اثر عظيمة من الادارسة والاموية والشيعة وغيرهم الى ان جاءت دولة المرابطين على ما سيأتى هذه هى رواية الناصرى رحمه الله عنهم .

وقد اطلعنا من خلالها على عدد ملوكهم السبعة وعلى دولتهم التى هى فى الحقيقة دولة المتنبئين الكاذبين ، فقد ادعى النبوة فيهم اربعة اشخاص منهم ، ولم يقض على نحلة هؤلاء الدجالين الا صاحبنا عبد الله بن ياسين كما سنقف على ذلك فيما بعد ، اعنى بأرض تامسنا .

اما بقية الكلام عنهم فقد تحدث عنها باسهاب : ابو عبيد البكرى فى كتابه المغرب ، فقال : ولم تزل برغواطة فى بلادها معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها ، الى ان قام فيهم تميم اليفرنى وذلك بعد سنة 420 هجرية فغلبهم على بلادهم وجلا من بقى منهم ، واستوطن ديارهم ، وانقطع امرهم وعفا اثرهم ، ولم يبق لضلالتهم باقية ولا من اواصر كفرهم آصرة وتميم الامير هذا كان ذا جد وايثار للحق والعدل وهو الذى قتل احد بنيه لاغتصابه جارية من التجار بوادى سلة (وادى ابى رقراق) وجميع بلاد برغواطة على ملة الاسلام فهذا النص من ابى عبيد يبين لنا ان برغواطة قبيلة من قبائل البربر وهو ما افصح عنه الدكتور حسين مؤنس فى كتابه فجر الاندلس حيث قال وكان وضع العرب فى بلاد المغرب بعيد الفتح وضعا فريدا فى ذاته فان بربر المغرب على ما نعرف ينقسمون الى بتروبرانس او الى بدو وحضر فاما البتر فقد تسارعوا الى الانضمام للعرب فى اول الامر واشتركوا معهم فى فتح البلاد ولولا مساعدة قبائل بترية مثل لواتة ونفوسة وهوارة .. و (برغواطة) لما استطاع العرب الوصول فى المغرب الى هاته النتيجة الباهرة التى وصلوا اليها بعد جهد طويل متصل انتهى كلام الدكتور فعلى هذا يكون البرغواطيون يرجعون الى فرقة البتر البدو من البربر وان كان هذا لا يتعارض مع من ذهب اليه من قال ان اصلهم من (برباط) الحصن من عمل شدونة بالاندلس اذ لعلهم حينما نزلوا هناك بعد الفتح الاسلامى اطلق عليهم اسم برغواطى بعد عملية القلب التى سبقت الاشارة اليها عند صاحب الروض .

هذا ما عند المؤرخين من العرب وتوجد نظرية طريفة يمكننا ان ناخذ منها اصلهم الاصيل وهى لبعض المؤرخين الاجانب افادنى بها الاستاذ الصديق

السيد عبد الكريم الحمياني ختات المستشار بالمجلس الاعلى وهاته النظرية هى لصاحبها المؤرخ الفرنسى ايدموند فريزولس Edmond Fresouls فى مقاله الذى نشره فى المجلة المغربية للاثار ج : 2 سنة 1957
Les Baquates et la province Romaine de Tingitane. Bulletin d'Archéologie. Tome II - 1957.
ناقلا كلامـه عـن المـؤرخ الكبـير الفرنسـى جيروم كاركوبينو Jérôme Carcopino المتوفى فى مارس 1970 الذى كان له الباع الطويل فى معرفة تاريخ الاغريق والرومان خاصة والمغرب عموما فى كتابه المطبوع بباريز سنة 1943 والمسمى (المغرب القديم) Le Maroc Antique عندما تحدث عن وجود قبيلة ذات جاه وسؤدد تدعى (الباكواط) آخاذا بحثه من الحفريات التى عثر عليها فى (وليلى) من عدة نصب حجرية مكتوبة بالاحرف اللاتينية يبلغ عددها احدى عشرة قطعة ذكر فى هاتـه القطـع اسم للقبـيلة (البكواطيين) وقال الاستاذ فريزولس صاحب المقال تبعا له تاله الاستاذ كاركوبينو ان هذه القطع يرجع عهدها الى عهد الامبراطورية الرومانية السفلى وقد ترجمت الى الفرنسية .

فيستنتج من هذه البحوث الوجود الفعلى للبكواطيين وهل كانوا يوجدون داخل المغرب الطنجى او خارجه . لا الا انه قال : ان طائفة من البكواطيين كانت تعمر الاطلس المتوسط كما ان طائفة منهم كانت تعيش خارج المغرب الطنجى تقطن بالغرب من الاطلس المتوسط كما كانت توجد طائفة منهم على بعض جوانب ملوية وفى الريف ، وزاد صاحب المقال فقال : ان المؤرخ (بلين) القديم
Pline l'Ancien (23 ap. J.C.—79).
الذى تحدث عن الامبراطور (هادريان) Hadrien بأنه استعمل البكواطيين فى ابعاد قبيلة (اوطولول) Antololes عن مدينة سلا عندما هاجموها فى عهده ، وهناك قبيلة اخرى تدعى (بافريس) Bavares كانت توجد بدورها داخل المغرب القديم .

وهؤلاء البكواطيون كانت لهم صداقة مع الرومان وقد تاثروا بعوائدهم ولهجتهم لدرجة ان اعيانهم كانوا يرسلون اولادهم الى روما لطلب العلم وللمحافظة على ابقاء العلاقة الطيبة بينهم وبين سادات العهد القديم .

وعندما ذهبت روما من المغرب بقيت لغتهم برهة من الزمن بين البكواطيين ممتزجة بدمائهم لدرجة انهم زيادة على قوتهم الجسمية واساليبهم الحربية المقتبسة من الرومان فانهم بذلك استطاعوا ان يقفوا فى وجه العرب زمن الفتح الاسلامى ، وزاد صاحب المقال تدعيما لنظريته هاته فقال : وقد حفظ لنا التاريخ وخصوصا فى عقد حسن الجوار التى عثر عليها بمدينة وليلى تسعة اسماء لامراء بكواطيين وهم : ا اليوس توكدا Aelius TUCCUDA فى عهد الامبراطور انطونان Antonin واوكميت Uemet فى عهد الامبراطور مارك اوريل الحكيم
Marc Aurèle — le philosophe
واورليوس كانارطا Aurelius Canart (h) a
واوريت Uret فى عهد الامبراطور كمود Commode
وايليزن Illilasen فى عهد الامبراطور سبتيم سفير Septime Sévère وسبمزن Sepemazin فى عهد الامبراطور فيلب العربى Philippe l'Arabe
وفرليوس ماتيف Lulius Matif وبوليوس نفوزى Lulius Nuffusi وبوليوس ميرزى Lulius Mirzi فى عهد الامبراطور ابروبوس Probus وهؤلاء الامراء كانوا يحملون تارة اسمهم المحلى واخرى يضيفون اليه لقبا لاتينيا حسب الاختيارات التى يرونها انتهى فعلى هذا قد تبين من هذا ان البكواطيين الذين تحدثت عنهم هاته المصادر الاجنبية المدعمة بعلم الحفريات والاثار هم البرغواطيون الذين تعرض لهم مؤرخو العرب فكل ما هنالك ان النطق بهم بالراء قد حل فى محل اللام مع التفخيم فى الواو من البكواط لانه كثيرا ما يقع التصحيف فى الاسامى حين تعريبها كما نبه على ذلك ابن ابى زرع نفسه .

وحيث اشبعنا الكلام حول اصل هاته النحلة فسنحاول بقية الكلام حول مذهبهم الذى فصله المؤرخون لاسيما ابن ابى زرع فقد قال : نشأ صالح بن طريف ببرباط السالفة الذكر وكان فى اول امره رحل الى بلاد المشرق فقرا على عبيد الله المعتزلى القدرى واشتغل بالسحر وقدم الى المغرب فنزل ببلاد تامسنا فاظهر لهم الاسلام والزهد والورع فاستمالهم بسحره ولسانه ثم تقدموه عليهم واتبعوا امره فادعى النبوة وتسمى بصالح المؤمنين الذى ذكره الله فى كتابه (وان تظاهرا عليه الآية) .

ثم شرع لهم ديانته الجديدة فى سنة 127 هجرية ومما شرعه لهم صيام شهر رجب واكل شهر رمضان وفرض عليهم عشر صلوات خمسا بالليل وخمسا بالنهار واوجب عليهم الاضحية يوم 21 من شهر

محرم كما شرع لهم فى الوضوء غسل السرة والخاصرتين وصلاتهم ايماء لا سجود فيها ويسجدون فى آخر ركعة خمس سجدات ويقولون عند الطعام والشراب باسم (باكش) وزعم ان تفسيره باسم الله وامرهم ان يخرجوا العشر من جميع الثمار واباح لهم ان يتزوج الرجل ما شاء من النساء ولا يتزوج من بنات عمته ويطلقون ويراجعون الف مرة فى اليوم ولا تحرم المراة بشىء من ذلك وان يقتل السارق حيث وجد وامرهم بالدية من البقر وحرم عليهم راس كل حيوان والدجاجة يكره اكلها وتدوتهم فى الاوقات الديكة وحرم عليهم ذبحها واكلها ومن ذبح ديكا واكله اعتق رقبة وامرهم ان يلحسوا بصاق ولاتهم تبركا به فكان يبصق فى اكفهم فيلحسونه تبركا (18) ويحملونه الى مرضاهم يستشفون به ووضع لهم قرآنا وزعم انه نزل عليه وانه وحى من الله تعالى ومن شك فى ذلك فهو كافر وهو يشتمل على ثمانين سورة سماها باسماء الانبياء وغيرهم منها سورة آدم وسورة نوح وسورة ايوب وسورة يونس وسورة موسى وسورة هارون وسورة الاسباط وسورة فرعون وسورة بنى اسرائيل وسورة « الديك » وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة الجمل وسورة هاروت وماروت وسورة ابليس وسورة الحشر وسورة (غرائب الدنيا) وفيها العلم العظيم عندهم وامرهم ان لا غسل عليهم من الجنابة الا من الحرام واعلن على هذا فاقول : هذه هى ديانة هذا الدجال المفترى وتلك هى المبادىء التى جعلها لصدق دعوته والتى اضل بها اتباعه ومشيعيه البله الذين يتبعون كل ناعق ويغترون بمثل هاته الاوهام ولقد احب ان يضفى على دعوته هذه ثوبا من القديسة بقرءانه المفترى الذى حاك به بعض سور القرآن العظيم الذى هو المعجزة الكبرى لصاحبه ولو كان صادقا فيما اتى به لتكفل (منزله بزعمه) بحفظه مدى الدهر من الاضمحلال اذ لو كان صادقا فى دعوته لما انقرض كصاحبه من الوجود فكم من انبياء كاذبين ظهروا بعد آخر الانبياء عليه الصلاة والسلام فاظهر الدهر كذبهم وافتضح مع مر العصور امرهم ولقد دخلت دعوته وقرآنه المفترى فى خبر كان وفى ذلك دليل لمن يحتاج الى دليل على صدق نبينا سيدنا محمد الرسول المؤيد من الله بالمعجزات الباهرة واعظمها هى القرآن الكريم الذى يتحدى ببلاغته ومضامنه البشر كافة فى كل عصر ومكان الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) والله غالب على امره ولكن اكثر المفترين لا يفلحون وصدق الله العظيم ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

شروع عبد الله ابن ياسين فى قتال هاته الطائفة الضالة المضلة :

لما صفا لعبد الله ابن ياسين امر الصحراء وما وراءها من بلاد المصامدة وانتصرت جيوشه على سائر الجهات الجنوبية ورفرفت اعلامه على سجلماسة ودرن وغيرهما مما تيسر له فتحه بلغ الى علمه خبر تلك الطائفة الضالة التى تمكن قدمها بارض (تامسنا) واستفحل شرها وعظمت فتنتها بهذا الجزء من المغرب العزيز ولم تستطع الدول التى تعاقبت على مقاليد الحكم بالمغرب من لدن الدولة الادريسية الى ظهور عبد الله ابن ياسين اقول لم تستطع تلك الدول ان تقضى على البرغواطيين القضاء المبرم الى ان قام عبد الله ابن ياسين وبلغه امرهم .

وكان على راس هذه الطائفة فى عهد صاحبنا هو ابو حفص عبد الله بن ابى عبيد بن مقلد ابن اليسع ابن صالح بن طريف البرغواطى المتبنىء الكاذب فسار اليه عبد الله ابن ياسين فى جيوش عظيمة من المرابطين ومعه ابو بكر بن عمر اللمتونى وكانوا فى نحو خمسين الف راجل وراكب فجالت جيوشه بين البرغواطيين جولة عظيمة فرت بسببها برغواطة امامه فى جبالهم وغياطهم وتقدمت العساكر فى طلبهم وانفرد عبد الله ابن ياسين فى قلة من اصحابه فلقيه جمع كثير فقاتلهم قتالا شديدا فاستشهد فى ميدان المعركة مجاهدنا الكبير بسبب جراحات اصابت جسمه .

فلما اصيب بما اصيب به من تلك الجراحات وثقل جراحه حمله اشياخ المرابطين ورؤساؤهم من وسط المعركة ثم خطب فيهم فى هاته الساعة الرهيبة

---

18) لعل هذا البصاق فى الطعام والشراب الذى هو شبيه بما يفعله اليوم اهل الطرق ومشايخهم ماخوذ من لدن هاته الطائفة البورغواطية الضالة نبه على ذلك الاستاذ محمد بن عثمان المسفيوى فى كتابه : « ابن يوسف » .

من حياته خطبته الاخيرة فقال : يا معشر المرابطين انكم فى بلاد اعدائكم وانى ميت فى يومى هذا لا محالة فاياكم ان تجبنوا وتفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا الفة واعوانا على الحق واخوانا فى ذات الله تعالى واياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فان الله يوتى ملكه من يشاء ويستخلف فى ارضه من احب من عباده، ولقد ذهبت عنكم فانظروا من تقدمونه منكم يقوم بأمركم ويقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم بينكم فيئكم ويأخذ زكاتكم واعشاركم .

هذه هى وصيته الاخيرة قبل مماته اخذ فيهـا العهد على من يخلفه ان يتم ما بدا به فى اول ايامه الى ان سقط شهيدا فى معركة القتـال من اتخاذهم لرئيس يسير على خطته الحربية ويوزع ما افاء الله عليهم من النوافل فيهم بمقتضى الشرع فرحمك الله يا بن ياسين لقد وفيت بعهدك وثبت على مبدئك الى ان لقيت ربك هادىء البال مستريـح الضمير على مصير العقيدة الاسلامية التى نذبت نفسك لاعـلاء كلمتها وثبت قدمها بهذه الديار .

ولما اتم خطبته اتفق رايهم على تقديم امر الحرب الى ابى بكر بن عمر اللمتونى رفيقه فى الجهاد والكفاح فقدمه عليهم عبد الله ابن ياسين باجماع من اشياخ المرابطين فى عشية ذلك اليوم الذى توفى فيه وهو يوم الاحد 24 جمادى الاولى سنة 451 هجرية موافق 8 يوليوز سنة 1059 على ما فى القرطاس او سنة 450 على ما فى العبر ودفـن هذا المجاهد الكبيـر بموضع يعرف (بكريفلة) بتامسنا بقبيلة زعـيـر بفخذة تعرف باولاد حادة من بطن اولاد كثيـر فوق هضبة معروفة بهضبة مولاى عبد الله — مول الكارة — على بعد 45 كلم من الرباط وبنى على قبره مسجد فيكون قد عاش بين المرابطين نحو عشرين سنة كلها كفاح وجهاد ، هذا وما ذكرناه من كون عبد الله بن ياسين توجه لقتال البرغواطيين بارضهم بتامستا الى ان توفى هناك لا يتعارض مع ما ذكره ابـو عبيـد البكرى من ان الامير تميم اليفـرنى هو الذى قضى عليهم لان وقعة الامير تميم التى اشار اليها البكرى كانت سنة 420 هجرية وعبد الله بن ياسين لم يقم بدعوته الا فى سنة 430 اى بعد تلك الوقعة بعشر سنين فلعل البرغواطيين رجعوا الى غيهم ونقضوا عهدهم وبذلك يمكن الجمع بين ما عند ابن ابى زرع وغيره وما عند البكرى والله اعلم .

ثم تـابع ابو بكر جهـاده فى البرغواطيين حتى اعادهم الى الاسلام وتركوا نحلتهم الضالة ورجعوا الى الاخذ بالشريعة الاسلامية ، وتابع امير المسلمين يوسف بن تاشفين جهاده فيهم الى ان قتل سقوت البرغواطى بطنجة سنة 471 هجرية كما قتل ولده ضياء الدولة الذى التجا الى سبتة فى معارك طاحنة كان النصر فيها لامير المسلمين وبذلك تم القضاء عليهم ولم تقم لهم قائمة وطهر الله بلاد المغرب من رجسهم وتوحدت كلمة المسلمين بأرض المغرب وكتب ذلك فى صحيفة هذا المجاهد العظيم عبد الله ابن ياسين ، بيد ان صاحب كتاب المغرب فى تاريخ المغرب لابـن عذارى يرى ان القضاء الاخير عليهم انمـا تـم فى ايام الموحدين وفى الاستقصا : كان للملوك المدونين فى غزو برغواطة هؤلاء وجهـادهم آثـار عظيمـة من الادارسة والاموية والشيعة وغيرهم .

اوصاف هذا الرجل العظيم واخلاقه وما قيل فى حقه :

لقد كان عبد الله ابن ياسين شديـد الورع فى المطعم والمشرب فكان لا ياكل طول حياته فيهم شيئا من لحمانهم ولا يشرب من البـانهم بل كان يتصيد ويتعيش من لحوم الصيد ، وقد قال القاضى عياض فى كتـابه المدارك : عبد الله بن ياسين ذو الانبـاء العظيمة والقصص الغريبة القائم بدعـوة المرابطين المزين لدولتهم اول خروجهم وان المرابطين كانـوا يحفظون من فتاويه واجوبته ما لا يعدلون عنه وقال ابن عذارى المراكشى : ان لمتونة كانت لا تقدم احدا للصلاة الا من صلى خلف عبد الله بن ياسين ، ووصفه على بن ابى زرع فى روضه فقـال : كان من حذاق الطلبة الاذكياء النبهاء النبلاء من اهل الدين والفضل والورع والادب والسياسة ، مشاركا فى العلـوم وحلاه بالفقيه المجاهد المرابط الورع الزاهد الصوام القوام مهدى المرابطين ، اما الوزير لسان الدين ابن الخطيب فقال : انه كان رجلا ورعا سنيا وقال العلامة الكبير الحافظ ابو بكـر بن العـربى المعافـرى فى العارضة : المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصـر الدين فلو لم يكـن للمرابطين وسيلـة ولا فضيلة الا وقعة الزلاقة التى انسى ذكرها حروب الاوائل وحروب داحس مع بنى وائل لكان ذلك من اعظـم فخرهم ورابح متجرهم وقال ايضا : فى كتابه شواهد الجلة والاعيان فى مشاهد الاسلام والبلدان حينمـا تعرض لذكر يوسف بن تاشفين وعظمة مملكته التى اسسـها عبد الله ابن ياسين ، الى ان صـار جميع

من بالمغرب على سعتها وامتدادها له طاعة ، واجتمعت كلمته بحمد الله على دعوته الموفقة الجامعة فيخطب الان للخلافة بسط الله انوارها واعلى منارها على اكثر من الفين وخمسمائة (2500) منبر .

فان طاعته ضاعفها الله من اول بلاد الافرنج استاصل الله شافتهم ودمر جملتهم الى آخر بلاد السودان مما يلى بلاد غانة وهى بلاد معادن الذهب والمسافة بين الحدين المذكورين مسافة خمسة اشهر، هذه اقوال هؤلاء العلماء الاقدمون وقال ابو عبد الله محمد بوجندار من المتاخرين فى كتابه الاغتباط : هذا الرجل العظيم هو المؤسس لاعظم دولة من دول المغرب العزيز اعظم من دفن بارض زعير بل اعظم من دفن بالمغرب بعد الامامين الادريسيين الفاتحين الاكبرين باعتبار اعماله وفتوحاته التى دوخ بها المغرب الى ان صار يدين بتعاليم الاسلام بعد ان كاد يتقلص منه ، وحسبك انه مؤسس لدولة المرابطين وقال الاستاذ العلامة عبد الله كنون من المعاصرين فى حقه : وان المغرب ليدين له كما يدين للفاتحين الاولين بالتمهيد لدين الحق والقضاء على نزعات الشرك والالحاد .

وقد ذكروا من كراماته : ان المرابطين حينما كانوا فى جهادهم بأرض السودان نفذ ماؤهم فى احد الايام حتى اشرفوا على الهلاك فقام عبد الله بن ياسين وصلى ركعتين ودعا الله تعالى وامن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم : احفروا تحت مصلاي هذا فحفروا فوجدوا الماء تحته مقدار شبر من الارض فشربوا وسقوا دوابهم ، وملأوا اوعيتهم ، بماء عذب بارد .

ايه ، انها لامبراطورية عظيمة ، لم يتقدم لها مثيل فى مغربنا العزيز ، فالذى اسس بنيانها ، وارسى قواعدها ، هو هذا الجل العظيم ، اى ما يقرب من الف سنة كانت الصحراء جميعها فى حكم المغاربة وملوكها ، فاين اقوال الخراصين الذين يزعمون ان سلطان المغرب لم يصل حكمه الى الساقية الحمراء ، ووادى الذهب ، الا فليخسا المبطلون ، ولتسقط دعوتهم ، التى يتعنون فيها بان هاته الجهات كانت مواتا لا حكم لاحد عليها وليعلموا ان التاريخ المحفوظ المكتوب المدروس لا يحابي ولا يداهن احدا وهل يحتاج النهار الى دليل .

فقد قضى رحمه الله وبواه اعلى الجنان على نحلتين ضالتين كانتا شائعتين بالمغرب وهما الروافض الذين كانوا بالقطر السوسى بتارودانت والبورغواطيين بتامسنا الذى ختمت حياته بالجهاد فى قتالهم وكان استشهاده على يدهم الخبيثة ولم يفارق الحياة حتى توحدت الامة المغربية واجتمع شملها وعظم شانها وجاء من بعده امير المسلمين يوسف ابن تاشفين فاتم خطته ونفذ برنامجه وسار على نهجه حتى استردت دولته المجد الاسلامى والفتح المحمدى الى عنفوانها وشبابها بالعدوتين وتمت كلمة الله العليا ، وامتد عمر الاسلام بعد وقعة الزلاقة بارض الاندلس المسلمة اربعة قرون وهاته الوقعة الشهيرة هى التى استطاعت ان ترد هجوم جموع المسيحية الاوربية التى ارادت القضاء على الاسلام هناك ولهذا السبب نجد المؤرخين المسيحيين ومن على شاكلتهم يرمون دولة المرابطين بالعنصرية ويحطون من قدرها للتشفى من موقفها البطولى .

نعم كتب كل ذلك فى صحيفة صاحبنا وصدق فيه قول الرسول الاكرم (ص) فى حقه من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

وقبل ان اختم كلمتى حول هذا الرجل العظيم احب ان اتقدم باقتراح لى موجه الى السلطة المحلية التى يوجد ضريحه بها وتحت رعايتها ملحا عليها فى اقتراحى الذى هو اصلاح الطريق الموصلة الى مرقده الاخير حتى يتسنى للمترحمين على روحه الطاهرة زيارته والوقوف على قبره للعظة والذكرى والاعتبار فكم زاره من عالم فى القديم والحديث مقدرا لجهوده التى بذلها بهذه الديار المغربية فمنهم العلامة الكبير المؤرخ المؤلف الشهير ابو القاسم الزيانى فقد قال فى الترجمان المعرب : وقفت عليه وزرته عام 1186 هجرية وعليه قبة تضعضعت اركانها الى ان قال : ولعل هذا البناء يرجع الى عهد المرابطين متاسفا على الاهمال الذى يوجد عليه ضريحه الذى قال عنه انه مهدى المرابطين وبهاته المناسبة اقول : اننى قد زرته لاول مرة حينما كنت قاضيا بزعير فى علم 1374 موافق 1954 صحبة خالى المرحوم العلامة السيد عبد القادر ابن محمد ابن سودة وكانت معنا زوجى ام كلثوم بنت يحيى ابن سودة وكان السائق لسيارتى هو السيد محمد بن عمر الزعرى الحرارى فاما الخال فانه حينما تركنا السيارة بأسفل الجبل لم

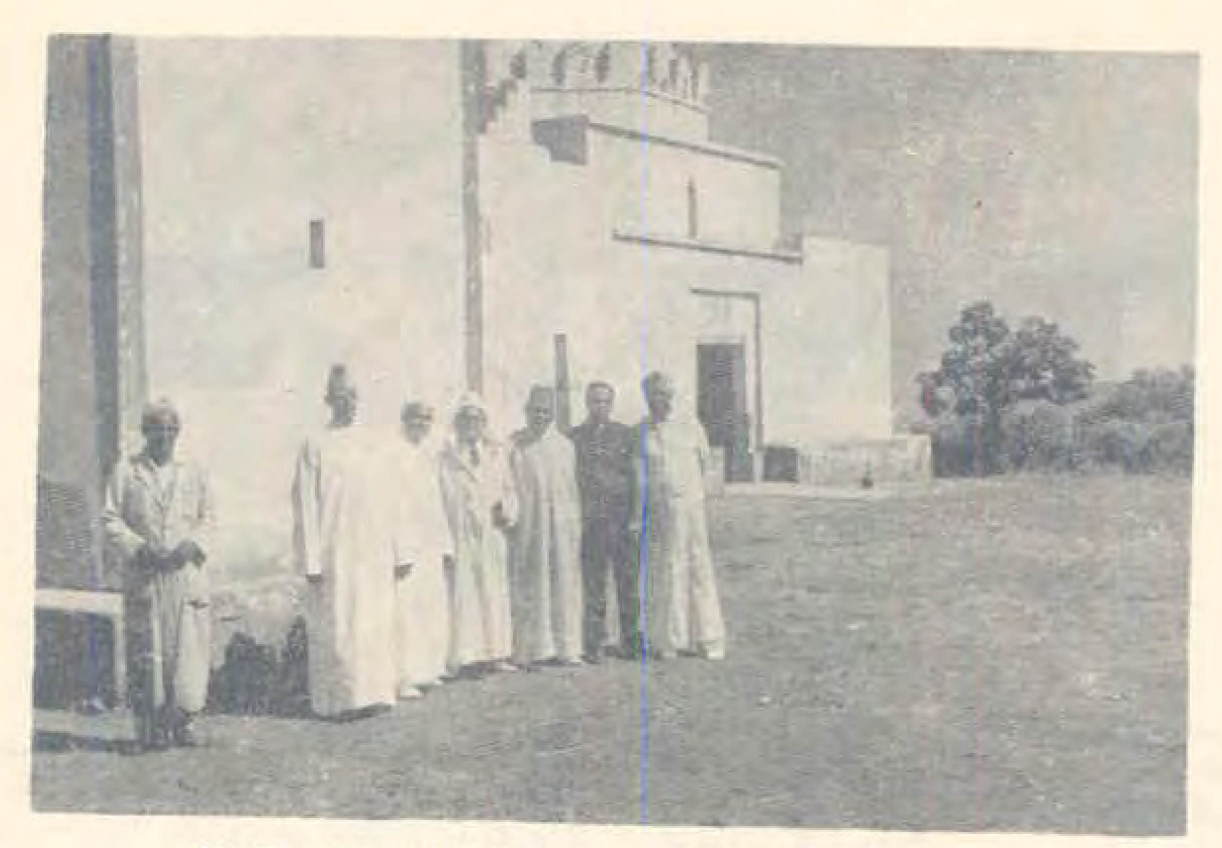
يستطع ان يصل الى ضريح عبد الله ابن ياسين وقال لى ولزوجى ابنت اخيه دونكما يا ابن الاكرمين وعبد الله ابن ياسين واشار بيده الى جهة قبره وقال : اننى سازوره من هنا ومكث بمحله والحق يقال اننا ما وصلنا الى ضريحه الا بعد جهد جهيد لصعوبة المحل .

وهذه اول زيارة لى الى قبره وثانيها كانت يوم الاحد 24 جمادى الاولى عام 1394 موافق 6 يونيه 1974 وشاءت الاقدار ان تكون الزيارة الثانية صحبة زمرة من العلماء الاجلة الاساتذة وهم الاخوة السادة محمد بن العباس القباج الحافظ بالخزانة العامة ومحمد ابراهيم الكتانى الحسنى رئيس قسم المخطوطات بها ومحمد المنونى والحاج احمد معنينو وقد يسر الله فى هاته الزيارة بواسطة اخينا المفضال الاديب السيد الحاج عبد الله بن شيخ الاسلام ابى شعيب الدكالى الصديقى فقد انتقلنا من داره بالرباط على متن سيارته الفخمة وحينما وصلنا الى اسفل الربوة التى يوجد بها الضريح تركنا السيارة وركبنا سيارتين احداهما من نوع (جيب) والاخرى من نوع (بكوب) اللتين هيأهما لنا الشريف السيد الطيب الطاهرى الجوطى الحسنى رئيس قسم الفلاحة بمركز الرمانى الذى كان على موعد مع الحاج عبد الله الدكالى فامتطينا السيارتين ورافقتنا سيارة ثالثة خصصت لركوب زوجتى الدكالى والطاهرى واستانفنا المسيرة على بركة الله ولم نقطع المسافة الصاعدة فى الجبل الا بشق الانفس اذ لولا مهارة الشريف الطاهرى الذى كان يسوق احداهما ومهارة السائق الثانى الذى اتى به الطاهرى لما تمكنا من قطع المسافة الصعبة المقدرة بنحو 3 كلم تقريبا اذ كلها انفراجات وشقوق على وجه الارض فلو كانت معبدة لسهلت زيارته على كل الذين يتشوقون اليها ويا ما اكثرهم ، وحينما دخلنا الى ضريحه قرانا الفاتحة ترحما على روحه الطاهرة واهدينا ثوابها لروحه التى تتنعم فى جنان الخلد وصلينا هناك ركعتين ، اما الضريح فهو عبارة عن قبة مربعة الشكل والقبر وسطها عليه دربوز طويل قديم وقد لفت نظرنا ما هو مكتوب بالحائط الشرقى فى الرخامة المبنية بهذا الحائط التى تضمنت نبذة وجيزة من حياته منقولة من كتاب الاستقصا قام بنقشها وزخرفتها السيد محمد بن عبد الله ابن العباس الزعرى العبيدى العونى من دكالة بتاريخ 20 صفر الخير عام 1381 والبناء حديث العهد اذ لم يكن شىء من ذلك فى زيارتى الاولى

ويوجد بشمال الضريح مسجد صغير ذو بلاطين وبه محراب وهو مفروش بحصير جديد يسع المسجد نحو الخمسين من المصلين وبجانبه الايسر صومعة صغيرة متوسطة الارتفاع واخبرنا بانه لا تقام به الجمعة واخذنا صورا تذكارية بهذا الضريح ، وموقع الضريح مرتفع عن سطح البحر ب 287 م وتبلغ مساحة هاته الكارة الموجود بها الضريح 8—10 هكتار وهى تطل على حافة وادى امل بيور وتحدها من الجنوب غابة تتخللها اراضى مزروعة وبالقرب من الضريح توجد مطفية طولها 90—6 م وعرضها 3.35 وهى مبنية بطريقة قديمة محكمة ومتينة ولعل هذا البناء من عهد المرابطين وبعد الفراغ من هاته الزيارة الخاطفة توجهنا صحبة صديقنا السيد الحاج عبد الله الدكالى الى داره المشيدة بوسط ضيعة فلاحية موجودة بأرض مفشوش من قبيلة زعير وتناولنا طعام الغذاء على مائدة هذا الرجل المضياف فجزاه الله احسن الجزاء حيث يسر لنا هاته الزيارة التى كانت فى صحبته .

ومما يتعجب له كل العجب ان اهل القبيلة لا تعرف شيئا عن هذا الرجل الموجود ضريحه بين اظهرهم فيتعين على اهل القبيلة وعلى رجال السلطة ان يعتنوا بهذا المجاهد الذى استشهد بترابهم فى محاربة اهل الزيغ والضلال ، وذلك بان يعبدوا الطريق الموصلة اليه وان يوسعوا مسجده ويقيموا بازائه مدرسة قرآنية لحفظ كتاب الله عز وجل تقوم هاته المدرسة بدراسة مبادىء العلوم الاسلامية لتكون قائمين برسالته التى قام بها من لدن نشاته الاولى فى محاربة طرق الفساد كيفما كان نوعه وتتخرج من هاته المدرسة طائفة صالحة من شبابنا تكون مهمتهم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة الى الجهاد فى سبيل الله لاستكمال تحرير صحرائنا المغتصبة من طرف الاستعماريين الاسبانيين وان تقوم القبيلة كل سنة باحياء ذكراه تشيد فيها باعماله الخالدة . . ومواقفه البطولية بعيدة عن البدع والمناكر حتى لا تشاب بشىء يتنافى مع المبادىء التى دعا اليها طيلة حياته .

كما اقترح على جلالة الملك مولانا الحسن الثانى القائد الاعلى للبلاد نصره الله ان يسمى فوجا عسكريا من افواج المدرسة العسكرية باسم فوج عبد الله ابن ياسين يكون مقره بالقرب من ضريحه يستوحون من حياته المثل العليا فى الكفاح والتضحية والدفاع عن العقيدة الاسلامية بهذا الوطن العزيز تيمنا بشخصية



ضريح البطل العظيم ابو محمد عبد الله بن ياسين الجزولي ، وقد ظهر في الصورة الاساتذة من اليسار محمد المتوني والحاج أحمد معنينو وكاتب المقال محمد التاودي بن سودة ومحمد عباس القباج ، والطيب الطاهر الجوطي وعبد الله بن ابن شعيب الدكالي الذي هيا الجو المريح لاصدقائه العلماء في ضيعته التي توجد قرب ضريح عبد الله بن ياسين .

هذا الجندى العظيم الذى كان له الفضل فى ارساء قواعد هذه الامة المغربية على اسس حربية متينة وكما اقترح ان يسمى سد من السدود الحسنية باسمه ايضا ؛ وان شهرة هذه الشخصية لمنطبعة فى اذهان كثير من المثقفين والادباء فالكل معجب بسيرتـه ومواقفه البطولية الخالدة ولا ادل على ذلك من كون الاخ العلامة الشريف سيدى محمد ناصر الكتانى قد اوصى قبيل وفاته بدفنه بازاء ضريح صاحبنا وفعلا نفذت وصيته ودفن هناك صبيحة يوم الثلاثاء 2 ذى الحجة الحرام عام 1394 موافق 16 دجنبر سنـة 1974 م ، وما ذاك الاعتراف من الشهيـد الكتانى الذى اودت حياته بحادثة سير حينما كان يسـوق سيارتـه بالقـرب من سلا الا اعتـراف منـه بعظمة هذه الشخصية (19) المتمتعة بالخلود فى جنان النعيم والشهداء عند ربهم .

هذا ومما يثلج الصدر انه توجد بالمركز الرمانى مدرسة ثانوية تحمل اسم عبد الله ابن ياسين فجزى الله المخلصين العاملين على احياء تراثنا الخالد وامد الله فى عمر ملكنا المحبوب المصلح المكافح عن المثـل العليا جلالة الحسن الثانى نصره الله وحفظنا المولى فيه وفى ولى عهده المحبوب وصنـوه الاميـر مولاى رشيد وكافة الاسرة المالكة التى هى رمز عزنا ومجدنا وفخرنا بهذه الديار وامطر شئابيب رحمته الواسـعة على روح بطل الاستقلال والحريـة ومجدد التـراث الاسلامى بهذا القطر السعيد انه نعم المولى ونعـم المجيـب .

الربـاط : محمد التاودى ابن سودة

---

(19) سأفرد لهذا العلامة سيدى محمد ناصر الكتانى ترجمة خاصة بحياته فى الجزء الثانى من كتابى زعير قديما وحديثا .

بحث ثقافي تاريخي حول :

الثقافة العربية المعاصرة في شمال المملكة المغربية

للدكتورة آمنة اللوه

— 5 —

مؤسسات اولى تعليمية :

ترتيبا عما سبق ، وفيما يخص تطوان وما اليها

اشير ، اولا ، الى مؤسسات طلائعية (حديثة) خاصة بتعليم الاطفال المغاربة التى ظهرت بتلك الناحية فى غضون العشر الاولى من هذا القرن العشرين ، اى قبل نشوب براثين الحماية الاسبانية .

حيث انه اثناء سنة 1908 انشئت مدرسة (عصرية) للاطفال المغاربة بتطوان التى عرفت بالمدرسة القنصلية لكونها تابعة للقنصلية الاسبانية وكان مقرها الاول فى زنقة الزاوية القريبة من ساحة الفدان . وهى التى تطورت فيما بعد الى ان صارت المدرسة الابتدائية المغربية المعروفة الآن باسم « مدرسة مولاى اسماعيل » ، الامر الذى يمكن معه اعتبارها اول مدرسة حديثة بتطوان خاصة بالاطفال المغاربة . الا انها فى اول امرها لم تصادف عند الاباء الا اقبال ضئيلا جدا لما كانوا يتوجسونه من خيفة الانزلاق والانحراف على اولادهم ، بدليل انها مرت عليها سنوات ولم يسجل فيها الا نحو ثلاثين تلميذا

وفى نفس السنة 1908 والتى بعدها انشئت مدارس مماثلة فى كل من القصر الكبير والعرائش واصيلا وكبدانة بالريف ، بمبادرات فردية من بعض الاسبان واهل الخبرة من المغاربة ، وقد كانت كلها نواة للمدارس الابتدائية فيما بعد كالآنفة الذكر .

وكان القائمون على هذه المدارس ، وجلهم من الاسبان ، يحرصون ان يكون القرآن الكريم ومبادىء الدين الاسلامى والعربية بين المواد المقررة ، وان كانوا فى الحقيقة يرمون من ورائها الى تركيز نفوذهم الفكرى ، لذلك كانوا يجلبون اطر التدريس والتسيير من اسبانيا راسا ، مثل المعلم « نيتو » NIETO الذى يعتبر اول معلم رسمى مجلوب للتعليم المغربى الذى عين اولا بالعرائش ثم باصيلا .

كما اشير الى مدرستين قرويتين للاطفال المغاربة كانتا قائمتين قبل اعلان الحماية فى قبيلة بنى شيكر القريبة من مليلية بمبادرة بعثة قنصلية ، وكانتا مزدوجتى اللغة وبها مدرسون مغاربة الى جانب معلمين اسبان ، وهذا النوع الازدواجى كانوا يطلقون عليه اسبانية — عربية HISPANO-ARABE

وبديهى اننى فى هذا البحث لا اتعرض للمؤسسات الاسبانية الصرفة الخاصة بابناء الاسبان وان كانت تقبل ابناء مغاربة ، ولا للمؤسسات الاسرائيلية المتميزة عن غيرها فى سائر اطراف المملكة .

مؤسسات ثانية . . .

ولما اعلنت الحماية المنصوص فى بنودها ان على الدولة الحامية ان تؤسس منشآت مدنية واصلاحات

حضرية لصالح الرعايا المحميين — ترددت الادارة الاسبانية الاستعمارية طويلا فى هذا الشأن وحارت فى اى السبل تسلك لايجاد سياسة تعليمية وتثقيفية تلائم الوسط المغربى ، ولا سيما ان التجارب السالفة لها فى هذا المضمار ابانت عن عدم جدواها كما دلت عليه نتائج المؤسسات الآنفة الذكر ، وايضا فان اعلان الحماية والشروع فى توطيد اركان القوات العسكرية هيج الخواطر واثار العزائم وكتل القبائل والجماعات لمقاومة المستعمر وعرقلة خططه ومشاريعه .

لذلك ظلوا حائرين غداة تسلمهم زمام الادارة بالشمال واخذوا يتشاورون : هل يطبقون على المغاربة نفس السياسة التعليمية الخاصة بالاسبان ام يسيرون على نفس التجربة الضئيلة المحصل عليها فى المؤسسات الطلائعية الاولى ، ام يقتبسون السياسة التعليمية التى اخذت الحماية الفرنسية تطبقها فى الجنوب ، ام يبتكرون سياسة تعليمية جديدة ؛ ام يتركون المغاربة يتعلمون على طريقتهم التقليدية المعهودة

ويظهر انهم تحت وطأة الاحداث ارتأوا الاخذ بالراى الاخير الداعى الى ترك ما كان على ما كان مع اضافة بعض التحسينات والتجهيزات المناسبة .

تعليمات عليا وخطط :

يتجلى ذلك فى التعليمات الموجهة فى 27 فبراير 1913 من السلطة المركزية بمدريد الى قائد القوات الاسبانية بسبتة الموكول اليه العمل لتسلم مقاليد السلطة بتطوان ، تقول الفقرة الخاصة بالتعليم : تشكيل « لجنة للتعليم » من اهدافها اتخاذ التدابير اللازمة ليكون تعليم المغاربة الاهالى فعالا وشاملا وان الدولة تتكفل بما يتطلبه ذلك .

وبعد ذلك جاءت تعليمات مفصلة توصى بالمبادىء الآتية فيما يخص التعليم المغربى :

1 — توحيد التعليم بدون فروق اقليمية او لغوية .

2 — اعتبار اللغة العربية وسيلة التكوين الثقافى حتى فى القبائل البربرية ، وتسمى المدارس كلها المدارس الاسبانية العربية ، ولا تكون هناك مدارس اسبانية بربرية .

3 — تستغل التجارب المكتسبة مع المسلمين (فى سبتة ومليلية) فى التكوين الثقافى بالمنطقة .

4 — يكون القرآن اساسا فى التعليم الابتدائى

5 — رعاية تعليم اللغة العربية والدين الاسلامى بكيفية متوازية عند بناء المدارس وكذلك فى اعانة التربية الدينية بصفة عامة .

6 — تعليم اللغة الاسبانية كوسيلة للثقافة العصرية فى السنوات الاولى وكلغة فقط فيما بعد .

7 — تشجيع التعليم التقليدى الدينى والشرعى لتكوين الفقهاء والقضاة مع تطوير مراكز هذا التعليم ونظمه .

8 — جمع وانقاذ بقايا الفنون الصناعية

9 — المحافظة على الاثار الفنية والتاريخية .

10 — ترتيب المخطوطات والكتب والوثائق والمراجع .

11 — منع خروج المخطوطات وكل الاشياء ذات القيمة الفنية والعلمية .

12 — دراسة وضعية الموسيقى العربية الاندلسية وجمع المواد اللازمة لنشرها

13 — العمل على تقوية وايجاد البحث العلمى والادبى والتاريخى .

وعلى الاثر تكونت لجنة عليا من الاساتذة الجامعيين الاسبان من بينهم مستشرقون كبار : اسين بلاثيوس ، ريبيرا ، ميتيندث بيدال وآخرون . . لاجل دراسة الوضع وابداء الاقتراحات . فراوا ان يتصلوا اولا بشخصيات مغربية قريبة من مفاهيمهم فزاروا عدة شخصيات ، وبالذات وزير العدل للحكومة الخليفية الفقيه الحاج احمد الرهونى الذى اشار عليهم ضمن تقرير قدمه لهم :

1 — بتنظيم التعليم الاسلامى تنظيما اسلاميا خالصا فى المسجد الجامع والمحافظة عليه حسب المواد التقليدية المعروفة .

2 — باحداث مركز علمى يتعلم فيه المغاربة المواد العلمية الحديثة غير الدينية . تكون الدراسة فيه اجبارية على من سيتولون مهمات ووظائف عمومية .

3 — باحداث مدارس ثانوية تهيىء للالتحاق بالتعليم العالى .

ثم اخذت اللجنة توالى استشاراتها ودراساتها وتقوم **بأعمالها التمهيدية خلال السنوات 1913 — 1914 — 1915 .**

وفى 30 دجنبر 1916 وقع اجتماع فى المجلس البلدى بتطوان حضره مائة مغربى وسبعة اسبان ، بهدف انتخاب اعضاء لتأسيس هيئة ثقافية تسمى « المجمع العلمى المغربى » او « المجلس العلمى » ، وبعد التصويت السرى انتخب خمسة عشر مغربيا وخمسة اسبان على النحو التالى :

الرئيس : الباشا الحاج احمد الطريس

نائب الرئيس : وزير العدل الحاج احمد الرهونى

الكاتب : كاتب الصدارة الحاج محمد راغون

الاعضاء : مدير الاحباس : على السلاوى — المحتسب : الحاج عبد السلام بنونة — كاتب الصدارة : احمد غنمية — كاتب العدل : محمد المرير — كاتب العدل : محمد افيلال — كاتب الصدارة : محمد الزواق — كاتب نيابة المالية : احمد غيلان — الاستاذ احمد الزواق — الاستاذ محمد ابن الابار — الاستاذ محمدن المؤدن — التاجر : عبد القادر الرزينى — عضو البلدية : **عبد الكريم اللبادي .**

ومهمة هذا المجمع او المجلس هى اتخاذ الاجراءات اللازمة للشروع فى تنظيم التعليم الدينى واحداث تعليم عصرى .

وقد شعر هذا المجلس بحاجته الى اصدار جريدة تنشر مخططاته ومقرراته وتعلن البرامج والنظم . فاصدروا جريدة الاصلاح سنة 1917 التى تحولت فيما بعد الى مجلة كما احدثوا مطبعة عربية لنفس الغاية .

وفى فاتح يناير 1918 تمكن المجلس من اصدار ظهير نال التعليم الاسلامى بموجبه شيئا من التنظيم مع تعيين تسعة فقهاء اساتذة بالجامع الكبير بكيفية رسمية .

توقف واهمال :

ثم ان نشاط هذا المجلس **قد توقف عند هذا** الحد او تضاءل شيئا فشيئا ، اذ اعتراه فتور ولم يستطع انجاز مخططاته ومشاريعه طوال نحو خمسة عشر سنة اى من سنة 1918 الى سنة 1935 . فاننا فى هذه الفترة الطويلة لا نجد من المنجزات التعليمية الحكومية الا ما يسمى بمدارس « الشرطة الاهلية » التى ظهرت فى بعض نواحى المنطقة ابتداء من سنة 1917 الا انها كانت مدارس قروية محضة خاصة بابناء البادية وكانت تدار من ضباط الشرطة وعرفت باسمهم . وهى اشبه ما تكون بحقول زراعية او باوراش اعمال ، اذ لا تتوفر على بناءات ولا تجهيزات وانما يجرى التعليم بها فى الهواء الطلق وباسلوب بدائى . واغلب ما يعلم فيها هو المواد الفلاحية وطرق الصحة مع شىء من مبادىء العلوم والقرآن والدين .

وقد علل الذين كتبوا عن هذه الفترة القاحلة بأن ذلك الاهمال الملحوظ للجانب الثقافى يرجع الى حالة الحرب المتصلة من زعماء القبائل ضد الحماية . ولكن هذا العذر ان صح فى اكثر القبائل والبوادى فهو لا يصح فى معظم الحواضر التى استتب فيها الامن والسلام . وكذلك فان المقاومة العسكرية قد انتهت كلية فى يوليوز 1927 ومع ذلك لم تظفر المنطقة بشىء ذى بال من العناية بالثقافة والتعليم المغربى من طرف المسؤولين الاسبان .

والشىء الوحيد الذي ظهر فى فترة ما بعد حروب المقاومة هو شىء بالعناية بمدارس الشرطة الآنفة الذكر حيث حظيت بتطوير وتحسين وتعميم ابتداء من سنة 1928 فلقد اخذوا فى تطعيمها بمواد اخرى وجهزوها ببناءات وادوات وبمعلمين ومدربين وجعلوها تحت ادارة المراقبات ، لذلك غدت تسمى « مدارس المراقبات » .

هذا فى البادية واما فى الحواضر فان الادارة الاسبانية ظلت تتعثر فى اذيال الحيرة والاهمال تاركة الاجيال الصاعدة لآفات الضياع .

فكانت اصوات الوطنيين بسبب ذلك لا تفتأ تجأر بالشكوى وتنادى بوجوب المبادرة الى تاسيس المعاهد والمدارس لتثقيف الشباب واعدادهم لحياة افضل .

التعليم الحر :

ولم يكتف الوطنيون بالمطالبة والمناداة بل اتكلوا على انفسهم وعلى مجهودات المواطنين ، فاخذوا يفتحون منذ العشرينيات مدارس حرة ويؤسسون نوادى ثقافية وينشرون صحفا ومجلات وطنية .

وكانت المدرسة الحرة الاولى بتطوان هي التى حاول احداثها الفقيه استاذنا السيد العربى الخطيب عقب عودته من مصر وقد درس بالازهر وبمدرسة الشيخ رشيد رضا . الا ان مدرسة السيد العربى الخطيب لم تعش طويلا .

ثم كانت المدرسة الاهلية هى بحق المدرسة الحرة الاولى للتعليم العصرى بتطوان التى اعطت نتائج سارة ومثمرة . تاسست سنة 1925 بحماس جماعة من شباب تطوان على راسهم استاذنا الحاج محمد دواد المؤسس الحقيقى لها وقام بادارتها وتسييرها مجانا وبمساعدة بعض الاعيان ومنهم الوطنى المشهور الحاج عبد السلام بنونة

وكان من الذين تعاقبوا على ادارة هذه المدرسة الاساتذة :

استاذنا المرحوم محمد بن عبد السلام ابن عبود ، والاستاذ المرحوم التهامى الوزانى ، والاستاذ محمد المكى الناصرى .

وكان للمدرسة الاهلية فروع مستقلة فى جل مدن المنطقة كالعرائش والقصر الكبير وشفشاون . وكان لها جميعا فضل كبير لتنشئة الشباب نشاة عربية اسلامية .

ثم تلتها المدرسة الحرة للبنات المسلمات التابعة للجمعية الخيرية الاسلامية بتطوان . تاسست سنة 1934 بغية توفير التعليم للبنات النازلات فى الجمعية الخيرية ثم اتسعت المدرسة فصارت تقبل جميع البنات (فكانت اول مدرسة حديثة للبنات بتطوان) وقد اسندت ادارتها للاستاذ محمد بن علال الخطيب الذى ظل على ادارتها بحزم الى آخر ايا محياته رحمه الله . واضافت الجمعية اليها سنة 1935 مدرسة اخرى للبنين .

وبعد ذلك ، اى فى سنة 1936 ، تاسست بتطوان المؤسسة الكبرى المعروفة بـ « المعهد الحر » بمنزلة الاستاذ عبد الخالق الطريس وتحت ادارته

الاولى ، تقصد استكمال حلقة التعليم الثانوى للمحصلين على التعليم الابتدائى من المدارس الحرة . وقد حقق هذا المعهد ما كان مأمولا منه والذى ما زال يواليه فى صبر وثبات.

وفى سنة 1939 بادر الاستاذ الشيخ محمد المكى الناصرى واسس بصفة حرة وتحت ادارته « معهد مولاى المهدى » باقسامه الاربعة : روض الاطفال ، قسم ابتدائى ، قسم ثانوى ، قسم داخلى لايواء الطلبة واطعامهم . وكان من جملة اساتذته ، اساتذة مصريون مستقدمون لهذه الغاية بجانب الاساتذة المغاربة والاسبان .

وفى هذه الاثناء عرفت جمعية الطالب المغربية نشاطا ثقافيا ملحوظا كان من نتائجه تأسيس مدارس ابتدائية كان اثرها المحمود منها مدرسة مولاى الحسن ومدرسة الشعب ومدرسة للا عائشة وللا فاطمة ومدرسة الفضيلة التى ما زالت توالى اداء رسالتها التعليمية والثقافية .

هكذا استطاعت المؤسسات الحرة التعليمية على ايدى رواد الوطنية الاوائل ان تسد ذلك الفراغ الهائل فى حقل الثقافة والتعليم الذى احدثه تهاون الادارة الاسبانية واهمالها الشنيع للواجبات التمدينية الملقاة على كاهلها .

التعليم القرآنى :

لكن السلطات الاسبانية لما رات ازدهار مؤسسات التعليم الحر اخذت تحس من جديد بما عليها من مسؤوليات وتذكرت مشاريعها القديمة وتخطيطاتها الاولى الهزيلة فبادرت واستصدرت ظهير 18 يوليوز 1935 الخاص بتشريعات جديدة تناولت اصلاح بعض النواحى فى التعليم المغربى — او الاسلامى كما كانوا يسمونه — وفى نفس الوقت وضعت قيودا وشروطا فى وجه تأسيس المدارس الحرة . ثم جاء اصلاح آخر فى 29 يناير 1937 وآخر فى 25 ماى 1938 بهدف انشاء المدرسة المغربية العصرية باللغة العربية مع اسناد تعليم الاسبانية وبعض المواد الى اساتذة اسبان . واسناد الاشراف عليها ووضع الخطط التعليمية وبرامجها الى مجلس اعلى للتعليم الاسلامى المخول له احداث شهادة ابتدائية .

وقد راى هذا المجلس تطبيقا لتلك النصوص التشريعية الصادرة ان يجعل من التعليم الدينى ومن التعليم القرآنى المنطلق الاساسى ونقطة البداية **للمدارس المغربية .. فادخلوا بعض الاصلاحات على** المعاهد الدينية . . وارادوا ادخال اصلاحات على الكتاتيب (المسايد) القرآنية وان تكون هى النواة للمدرسة الحديثة المزمع احداثها على الصعيد الحكومى محليا واقليميا

لذلك توجهوا اولا الى المسايد يحصون اعدادها واعداد اطفالها فى سائر مدن الاقليم . فوجدوا ما يلى :

فى مدينة تطوان : 29 مسيد
فى مدينة العرائش : 8 مسايد
وفى القصر الكبير : 18 مسيدا
وفى اصيلا : 4 مسايد
وفى شفشاون : 6 مسايد

بمعدل حوالى 30 طفل فى كل مسيد ، فيكون مجموع المسايد 65 ومجموع الاطفال 1950 . وهو قدر ضئيل جدا بالنسبة الى السكان . مما يدل على تدهور حالة التعليم عموما آنذاك .

وتداركا للحالة راوا ان يجمعوا مسايد كل مدينة فى مقر واحد تتوفر فيه بعض الشروط الصحية والتربوية وتخصيص فقهاء ومدربين لكل مجموعة . وترتيب معلمين مختارين لتلقين الدروس والمواد الابتدائية .

وهنا تجدر الاشارة الى انه كان بتطوان اذ ذاك مسايد خاصة بالبنات الصغيرات تتولاها سيدات حافظات لكتاب الله ويتقن الخياطة والتطريز من ذلك مسيد البنات بحومة الجامع الكبير الذى ما زالت الامهات والجدات يتحدثن عنه ومن معلمته بكل اعتزاز واكبار .

وقد تمت الخطة المرسومة من طرف المسؤولين، ففتحت مدارس تعرف بـ « مدارس قرآنية » فى اطراف المنطقة على حساب الكتاتيب القرآنية . . وكان المقر الاول للتى بتطوان فى بناية تقع بنزقة المشور وقد دشنت فى فاتح اكتوبر 1936 . ولتسيير هذه المدارس القرآنية ومثيلاتها احدثت ادارة للتعليم المغربى عليها مدير مغربى ومعه مفتشون مغاربة واسبان ومجلس علمى . . . غير ان المؤسسات التعليمية المغربية الحكومية ظلت محدودة وقليلة العدد فى مجموع الاقليم لا تتجاوز عدد اصابع كلتا اليدين بما فيها مدارس البنين ومدارس البنات التى اخذت فى الظهور اذ ذاك — وكانت تعرف بالارقام لا بالاسماء ، كمدرسة البنات رقم 1 المفتوحة فى تطوان سنة 1937

المؤسسات الاخيرة :

الا ان الحالة التعليمية تحسنت كثيرا خلال الاربعينيات حيث اخذت المدارس الابتدائية والمعاهد الثانوية والصناعية والمهنية والفنية تظهر فى تطوان وما اليها بشكل بارز وباسلوب عربى شامل تتولاها الادارة المغربية ويسيرها مديرون مغاربة ومديرات مغربيات مع وجود مستشارين اسبان ومستشارات اسبانيات ، وصدرت تشريعات تنظيمية تكفل لها النظام والاستمرار كما جهز معظمها ببناءات مناسبة وادوات حديثة ولا سيما بعد ان اقيمت مجموعة البناءات المدرسية القائمة بتطوان المعروفة بالمدينة المدرسية .

وهكذا تاسست المدارس الابتدائية : التعليمية والصناعية والمهنية فى سائر اطراف المنطقة للبنات والبنين . . وان كانت لم تستطع ان تفى بالحاجة وتستوعب جميع الاطفال رغم صدور ظهير اجبارية التعليم فى 26 اكتوبر 1946 الذى لم يطبق الا فى حدود ضيقة فبقى حبرا على ورق . وعلى اى حال فان **حالة التعليم الابتدائى تحسنت كثيرا وانتظمت** وانتشرت فى الاربعينيات وخاصة خلال السنوات الاخيرة منها ما بين 48 الى 1950 حيث صدرت ظهائر ومراسيم تنظيمية يطول ذكرها .

وكذلك التعليم الثانوى اخذ يزدهر باحداث المعهد الثانوى الرسمى فى سنة 1942 (منافسة للمعهدين : المعهد الحر ومعهد مولاى المهدى) ثم اسس المعهد الثانوى للبنات فى سنة 1949 كما اسس قبل ذلك المعهد البوليتكنيك فى سنة 1946 للتعليم المهنى : الزراعة — التمريض — التجارة — مسك الدفاتر — الضرب على الآلة الكاتبة ومهن اخرى .

وبجانب ذلك مدرستا المعلمين والمعلمات — ومدرسة الصناعات اليدوية — ومدرسة الرسم — والمعهد الموسيقى . . وغير ذلك من المؤسسات

الثقافية المصرية ، وغالبها معرب تعريبا كمــلا ، والبعض مزدوج اللغة .

كما تاسس المعهد الثانوى الدينى — والمعهد العالى الدينى لتخريج المدرسين الدينيين والقضـاة الشرعيين .

وفتحت اقسام داخلية حديثة تاوى الطلبـة والطالبات كل فى قسمـه الخاص ، حيث يتمتعـون جميعا بمنح واعانات مدرسية .

وبجانب هذه المؤسسات كانت هنـاك ادارة مغربية مسيرة : المجلس الاعلى للتعليم المغربى ، ورئيسه الاول السيد الحاج احمد الرهونى ، ثـم مديرية التعليم المغربى ، ومديرها الاول السيد عبد الكريم اللوه ، ثم وزارة المعارف ووزيرهـا الاول السيد محمد زربوح . . وبجانب كل هذا هيئـة التفتيش التى تعاقب عليها الاستاذ الحاج محمد داود والاستاذ محمد عزيمان والاستاذ محمد ابـن عبود وآخرون

وختاما لهذه الحلقة اورد احصائيات رسمية فى خصوص المنشآت الابتدائية ، اجريت عند انتهـاء عهد الحماية وبزوغ فجر الاستقلال على تلك الربوع من الوطن العزيز :

عدد المدارس المغربية الابتدائية : 204 بهـا 568 قسم يعمـل بها 136 معلم ومعلمـة مغربيـة و 213 مدرس و 236 مـدرر و 26 معلمة خيـاطة مغربية و 50 مساعدا للتعليم الابتدائى .

يتعلـم فى هذه المدارس 19.555 تلميـذا و 7.144 تلميذة

وفى هذه المدارس اقسام للكبار بلغ عددهـم 5.247 تلميذ .

وفى 13 مؤسسـة للتعليم الابتدائى الحر يتلقى التعليم 1.139 تلميذ و 725 تلميذة .

وفى مدرستى المعلمين والعلمات نحو مائـة طالب وطالبة ، **يتخرج منهما كل عـام دراسى نحـو** عشرين معلم ومعلمة .

واجمالا فان الاحصاءات المدرسية بتاريخ 31 مارس 1955 كانت 96.229 تلميذ و 84.773 تلميذة وكان باقيـا خارج المدرسة حوالى 120.000 مـن الجنسين ، الامر الذى كان يفرض انشاء حوالـى 3000 قسم جديد حسب التصميم ثلاثى كان يرمى الى انشاء 150 مدرسة قروية جديـدة ومدارس جديدة حضرية .

وفى الحلقة القادمة اتعرض لبقية انواع النشاط الثقافى العربى هناك ان شاء الله .

الرباط — الدكتورة آمنة اللوه

اذن ، فاتبـاع الجهل قـد كان احزمـا . . .

اذا قيـل هـذا منهـل ، قلـت قـد ارى
ولكـن نفـس الحـر تحتمـل الظمـا

يقـولون لى فيـك انقبـاض وانمـا
راوا رجلا عـن موقـف الذل احجمـا

اشقى بـه غرسـا ، واجنيـه ذلـة
اذن فاتبـاع الجهـل قـد كان احزمـا



تاليف: الاستاذ ليفي بروفنصال ـ 1922
تعريب: الاستاذ عبد القادر الخلادي - 1974

- 2 -

القسم الاول

مفهوم التاريخ

الفصل الاول : المغاربة والتاريخ

(1)

صرح الكتاني في مقدمة كتابه « سلوة الانفاس » (1) بأن المغاربة قليلو الاعتناء بالتاريخ ، واكد تصريحه هذا ، الذي قد يستغرب ان يفوه بمثله عالم من اكابر علماء فاس ، بل الذي قد يستوجب لصاحبه الانكار والعتاب من لدن معاصريه ، للمزه اياهم بالنقص والاهمال ، اكده بحكم مماثل اورده اليوسي في محاضرته (2) وذكره محمد بن العربي الفاسي في « مرآة المحاسن » حيث قال :

« ... كم من عالم عرف برجاله واوسع الخطو في مجاله ... ولم يكتفوا بما ادوا من الواجب ، وابدوا من ذلك دون حاجب ، حتى ازروا .. بمن اقصر عن ادائه او قصر في ابدائه ؛ ووسموا المغاربة بالاهمال ، ودفنهم فضلاء هم في قبري تراب واخمال ؛ فكم فيهم من فاضل نبيه طوى ذكره عدم التنبيه فصار اسمه مهجورا كان لم يكن شيئا مذكورا » (3) .

ان عددا لا يستهان به من الكتاب المغاربة افصحوا ، في فترات تاريخية مختلفة ، عن هذه الظاهرة ؛ واذا ماكانوا اقدموا على استنكارها بكامل الوضوح ، فما ذلك الا لاقتناعهم باعراض العلماء المغاربة عن الاهتمام بماضي بلادهم اعراضا لا مثيل له .

والحقيقة انه يكفينا ان نسال جماعة من رجال الفكر المشهورين بالاضطلاع في العلم والمعرفة ، **لنقف على جهلهم المطبق للكثير من** احوال اسلافهم . فانك قد تجد نفسك امام عالم ممن تزدهي بهم المحافل الادبية ، واعترف لهم معاصروهم بالتبحر في الثقافة لانه ، مثلا : « القى محاضرة حول نقطة باء « بسم الله » (4) فلا تلبث ان تدرك انه لايعرف من تاريخ بلاده الا ان « العلويين خلفوا السعديين » لان ذاكرته التي تركزت فيها معلومات جمة ، لا تساعده على ضبط الترتيب الزمني للدول التي توالت على المغرب ؛ فانه قد لا يكون يجهل ان ادريس الثاني هو الذى بنى مدينة فاس ،

---

1) ج 1 ص 3 (قلة اعتناء اهل المغرب بالتاريخ)
2) ص 59 من المرجع المذكور
3) ص 4 طبعة فاس
4) نزهة الحادي ط هوداس ص 132 من النص العربي و 219 من الترجمة .

وان المولى اسماعيل هو الذي شيد تصور مدينة مكناس ، الا انه قد يكون من باب الاعجاز الا يعتبر ذينك الاميرين متعاصرين !!

اذا كان العالم المغربي لا يعير اهتماما كبيرا لمعرفة الاحوال التاريخية وتسلسلها الزمني ، فما ذلك الا لانه يعتبر التاريخ من المسائل الدنيوية وان الاشتغال به من باب اللهو والعبث . !

ومما يزيده التشبث بهذا الراي هو انه لم ير ، مدة طيلة للعلم ، شيخا من شيوخه حثه على دراسة ماضي المغرب ، سواء السياسي منه او الادبي . وان البرامج التعليمية المغربية لم تكن تعتني بالمظان التاريخية . فكيف والحالة هذه ، الا يولي ظهره بمادة لم تخصص لها ولو ساعة واحدة من تلك الساعات العديدة المخصصة للنحو او للفقه مثلا ؟

وبناء على هذا فان المؤرخون القلائل الذين عاصروا اولائك العلماء الجلهدين كانوا ، بدون شك ، يعدون من الثائرين او على الاقل ، من الادباء المشكوك في صلاحهم وخيارتهم ، وذلك لاعراضهم عن المجلات التعليمية المقررة ، واقبالهم ولو لمدة قصيرة ، على المواضيع التاريخية ؛ وعليه فاذا ما استثنينا الزياني ، فاننا لانكاد نجد مؤرخا لم يخصص قسطا من حياته للدراسات الاسلامية ولم يقم بتحرير شرح او حاشية او غير ذلك ليسترضي اولائك الذين سيقبلون على مطالعة تآليفه التاريخية ويبين لهم انه لم يحد عن الطريق المستقيم .

وبالاضافة الى ذلك فان المؤرخين المغاربة لا يغفلون في غالب الاحيان عن تصدير مصنفاتهم بحجج تثبت حسن نيتهم وتؤكد فوائد التاريخ ، معتمدين في هذا الشأن على مصادر اشتهر اصحابها بمتانة ديانتهم ورسوخ عقيدتهم . وهكذا نرى احمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج (5) ومن بعده اكنسوس في الجيش العرمرم (6) . يكرران في المقدمتين قولا يؤكد فائدة التاريخ ومنسوبا للعالم الشهير ، جلال الدين السيوطي ، وهو : « الجاهل بالتاريخ راكب عمياء ، وخابط عشواء ، ينسب الى ما تقدم اخبار ما تاخر ، ويعكس ذلك ولا يتدبر » (7) .

يتجلى اهتمام المؤرخين بلفت الانظار الى قيمة مصنفاتهم ، بل باستمالة الناس الى مطالعتها ، في اهتمامهم بتخصيص جزء من مقدماتها للفض من الجاهلين للتاريخ وكذلك لتبيين فوائد ذلك العلم الجديد بان يتخذ محل لائق به ضمن العلوم الاسلامية .

(2)

اكد اليفرني في مقدمة كتابه « نزهة الحادي » ان التاريخ يعد من « العلوم الشرعية » وان ذوي الافكار النيرة من الكتاب « يعدمونه » (8) ومثله في الفائدة ، بالنسبة للزياني والناصري ، مثل علم الانساب لدى العرب : « وكفاه شرفا ان الله تعالى شحن كتابه العزيز من اخبار الامم الماضية والقرون الخالية بما افحم به اكابر اهل الكتاب .. ثم لم يكتف تعالى بذلك حتى امتن به على نبيه الكريم وجعله من جملة ما اسداه اليه من الخير العميم (9) .

لاتوجد مقدمة (10) لم يذكر فيها صاحبها آية قرآنية او حديثا شريفا للاستدلال على مافي التاريخ من فوائد جليلة ؛ وكثيرا ما تكون طريقة ذلك الاستدلال صبيانية او على الاقل ، لا تتسم بالابتكار اذ كلها ترمي الى معنى واحد وهي ان القرآن وكتب السنة هي المصادر الاولى للتاريخ الاسلامي ومن

---

5) ص 4 (المؤلف)
6) ج 1 ص 2 (المؤلف)
7) حققت النص من هامش كتاب الديباج ص 22 ط مصر 1329 هـ (المعرب)
8) طبعة هوادس : النص العربي ص 2 الترجمة ص 3
9) تصرفت شيئا في ترجمة هذه السطور فاثبت بنص الجملة الواردة في الاستقصا (ج 1 ص 5 طبعة الدار البيضاء) التي اكتفى المؤلف بالاشارة الى فحواها واضاف اليها في التعليقين 1 و 2 من ص 25 بعض المصادر التي تشتمل على مثل هذه الحجج المستدل بها على فائدة التاريخ .
10) اي من المقدمات التي صدرت بها كتب التاريخ .

اجـل ذلك يجمل بذوي الفضل والدين ان يلهوه او يستنقصوا قيمتـه (11) .

وبجانب هذه الحجج الدينية فان هنـاك وقائع مشهورة تثبت فائـدة التاريـخ ولا يغفل الاخباريون وكتاب التراجم المغاربة عن ذكرها فـي صـدور مؤلفاتهم ، من غير ان يدخلوا عليها اي تغيير فـي الاسلوب او في المضمون ؛ وغالبا مـا تكون مـن جملتها واقعـة رئيس الرؤساء التي استشهد بهـا كتاب غيـر مغاربة منهم ياقوت (م 626 هـ 1229 م) في « معجم البلدان » وابن خلكان (م 681 هـ 1282 م) في وفيات الاعيان والصفدي (م 764 هـ 1363 م) والسيوطي (م 911 هـ 1505 م) (2) وبـدر الدين القرافي (م 1008 هـ 1600 م) ؛ (12) واستشهد بهـا من بعدهم كتاب مغاربـة ، منهم احمد بابا في نيل الابتهاج (13) ومحمد الدرعي في الدرر المرصعـة (14) والقادري في نشر المثاني (15) والزياني فـي الترجمـان المعرب (16) واكنسوس فـي الجيش العرمرم (17) والناصري في الاستقصـا (18) وابـن الموقت في السـعادة الابديـة (19) .

واليكم نص الواقعة كما ذكرها خليل بن ايبـك الصفدي في صدر معجمه « الوافي بالوفيات » (20) « .. مـن فوائـد التاريخ واقعة رئيس الرؤسـاء (21) المشهورة مع اليهود ببغداد ، وحاصلها انهـم اظهروا رسما قديما يتضمن ان رسول الله صلى اللـه عليه وسلم امـر باسقاط الجزية عن يهـود خيبـر ، وفيه شهادة جماعة من الصحابة منهم علي بن ابي طالب رضـي الله ، عنه فرفع الرسم الـى رئيس الرؤسـاء وعظمت حيرة الناس في شانه ، ثم عرض على الحافظ ابـي بكر الخطيب البغدادي ، فتامله وقال ، هـذا مزور . فقيـل له ، بم عرفته ؟ فقال : « فيه شهادة معاوية ، وهو انما اسلم عام الفتح سنة ثمان مـن الهجرة ، وخيبر فتحت سنة سبع ، وفيه شهـادة سعاد بن معاد وهومات يوم بني قريظة ، وذلك قبل فتح خيبر ، فسر النـاس بذلـك وزالت حيرتهـم اهـ . »

ان هذه الواقعة لا تثبت في حقيقة الامـر الا غلطـة بسيطـة في توقيت احداث تاريخية ولم يكـن فيها ما يدعو الـى اشهارها بهذه الصورة (22) .

هذا ولابـد ان نشير ، فـي هذا الصـدد ، الى الجهود التي لم يفتا يبذلها المؤرخون المغاربـة ليضيفوا الى الحجج العامة السابقة المثبتة لفائـدة التاريخ ، حججا اخرى مستخلصة مـن احـوال البيئة القومية (23) واننا نجـد من بينهم من يبـرد اهتمامه بالتاريخ بما يكنه لبلاده من حب وقـد افصح (24) ابن عسكر عن هذه العاطفة في كتابة « دوحـة الناشر » حيث قال : « ... وانما جعلته مختصـا بمشـائخ المغرب لكونه وطني ومغرس شبابي ومعطفي » ولم يلبث ان اشفع ذلك بذكر حديث نبوي يرفع مـن شان المغرب وورد نصه في صحيح مسلم ، وهـو

---

11) من المعلوم ان كتب التاريخ الاولـى هـي كتـبالمغازي (المؤلف)
12) حسـب ما ذكره المؤرخون المغاربـة انفسهـم
13) ص فاس ص 4
14) مخطوط في خزانة عبد الحي الكتاني
15) ط فاس ج 1 ص 5
16) مخطوط سـلا
17) ط فاس ج 1 ص 3
18) ط القاهـرة ج 1 ص 3
19) ط فاس ج 1 ص 7
20) نقلت هذه الواقعة مـن كتاب الاستقصـا (طالدار البيضاء ج 1 ص 4) (المعرب)
21) وزير القائم بامر الله العباسي علي بن الحسـنالمعروف بابن المسلمة (عن الاستقصا ط البيضاء) (المعرب)
22) اني استغرب هذا التهوين من لدن الاستـاذبرونتصال !! (المعرب)
23) انظر ما ذكره صاحب الاستقصا فـي هـذاالموضوع (المقدمة)
24) ص 23 ص 2

قوله (صلى الله عليه وسلم) : « لاتزال طائفة من امتي بالمغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » (25) ونحن نعرف ان الخاتمة التي كانت عليها حياة ابن عسكر لا تنبىء بشدة حبه لبلاده لانه مات ، (سنة 1578) ، فى واقعة وادي المخازن وهو يقاتل ابناء قومه فى صفوف الجيوش البرتغالية (26) .

صدر بالمطبعة الحجرية الفاسية اخيرا كتاب عنوانه : « السعادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ، كرر صاحبه محمد بن الموقت ، فى مقدمته كثيرا مما ورد فى المصنفات التاريخية من كلام عن فوائد هذا العلم ، واضاف اليها حججا قد يكون رآها ذات صبغة فلسفية اذ تعمد فيها التمييز بين فوائد التاريخ الدنيوية وفوائده الاخروية حيث قال : « من فوائد التاريخ الدنيوية .. ان الملوك ومن اليهم الامر والنهي اذا وقفوا على سيرة اهل الجور والعدوان وراوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس .. ونظروا الى ما اعقبت من سوء الذكر وقبيح الاحدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الاموال وفساد الاحوال استقبحوها واعرضوا عنها واطرحوها ... واذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وان بلادهم وممالكهم عمرت ، واموالها درت ، واستحسنوا ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليه ، وتركوا ما ينافيه ؛ هذا سواء ما يحصل لهم من الاراء الصائبة التي دفعوا بها مضدة الاعداء وخلصوا بها من المهالك ، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث ، وما تصير اليه عواقبها ... واما الفوائد الاخروية فمنها ان العاقل اللبيب اذا تفكر فيها وراى تقلب الدنيا باهلها وتتابع نكباتها على اعيان قاطنيها وانها سلبت نفوسهم وذخائرهم واعدمت اصاغرهم واكابرهم ... زهد فيها ورغب فى دار تنزهت عن هذه الخصائص وسلم اهلها من هذه النقائص ..) (27)

(3)

لا غروان الابحاث التاريخية لم تكن تحظى ، فى المغرب ، برضى اهل العلم ، ولكن قد يكون من الشطط ان نزعم انه لا توجد بهذه البلاد كتب تاريخية مطابقة لسنن الادب اي « كلاسكية » ، جديرة بالدراسة ، من غير ان نعني بذلك انها كانت معتمدة فى المدارس ؛ اذ البرامج التعليمية المتبعة لم تكن لتخصص حصصا لشرح كتب التاريخ ، كما كان عليه الامر فى كل ما يتعلق بالمواضيع الاسلامية الصرفة .

عبر الاستاذ دلفان DELPHIN عن نفس الملاحظة حيث قال : « اذا كان التاريخ لايدرس شفويا ، ومثله فى ذلك مثل الجغرافية ، فان بعض الطلبة كانوا يدرسون فى كتب الفن بالمغرب او خارجه » (28) واما القائمة التي زوده بها مخبره ، فان الكتب التي كانت تشتمل عليها تنم عن تبصر فى وقع اختيارهم عليها ، اذ نجد من بينها ، من جهة ، مصنفات ابن الاثير والسيوطي ، ومن جهة اخرى ، كتب الزياني وحمدون بن الحاج .

والاهم من ذلك فى نظرنا هو اننا نرى المؤرخ اكنسوس يذكر من تلقاء نفسه ، مجموعة من المصنفات التاريخية اعتبرها جديرة بالتقدير ، وان كان ، حسب ما نرجح ، لم يطلعها كلها ، وقال فى مقدمة الجيش العرمرم : (29) « فمن المؤلفين فى التاريخ المشاهير ، الامام البخاري وابن اسحاق والواقدي ، وسيف بن عمر الطبري ، وابن الكلبي ، والذهبي والمسعودي ، وغيرهم مما لا يحصى ، هذا فى العموم واما فيما يخص قوما اوجيلا باعيانهم او دولة معينة دون غيرها فكثير ايضا كابن الرقيق فى دول افريقية ، وابن حيان المؤرخ فى الدولة الاموية بالاندلس ، وصاحب دور الالمان فى دولة آل

---

25) نفس المصدر ص 3 . وقد ذكر ايضا هذا الحديث اليفراني واكنسوس والشاطبي صاحب كتاب « الجمان فى عجائب الزمان (المؤلف)

26) كان مواليا للامير السعدي محمد بن عبدالله الذى استغاث بملك البرتغال ضد اخيه عبد الملك (المعرب)

27) ط 4 ط. فاس ـ وقد خفي عن المؤلف ان هذا الكلام منقول عن ابن الاثير . (المعرب)

28) فى كتابه « فاس وجامعتها » (ص 36 فقرة 16) ومخبره هو ادريس بن ثابت (المؤلف)

عثمان ، (29) وكتاب القرطاس فى دولة الادارسة ، (30) وابن خلدون فى بغية الرواد فى دولة بني عبد الواد ، والتنسي في نظم الدرر والعقيان فى بني زيان ، واحمد بن عبد السلام الجراوي فى صفوة الادب فى دولة الموحدين ، وروضة النسرين فى دولة بني مرين ، والفشتالي فى مناهيل الصفا فى دولة السعديين . (31)

ان الكاتب اكنسوس هو ، حسبما ما يظهر ، الوحيد الذي ذكر لنا ، فى قائمة خاصة ، المؤلفات التاريخية التي يمكن الرجوع اليها ، اما باقي المؤرخين فانهم غالبا ما يكتفون بان يسوقوا عرضا اقوال بعض اعلام العلم التاريخي المشهورين ، وذلك اما لتوكيد نظرية او راى فى شان واقعة ذكروها فى مصنفاتهم او لاقامة مقارنة سواء ان كانت تلك المقارنة موالية ام لا .

ان كانت تلك الاقتباسات تساعد على معرفة المراجع التي اعتمد عليها المؤرخ ونقل منها ، بطريقة مباشره او غير مباشرة ، فانها تبين لنا كذلك ان مفهوم التاريخ بقي هو هو فى اذهان المؤرخين خلال اجيال متوالية .

ومن الجدير بالملاحظة ، ان ذلك المفهوم المشترك لا تدرك ماهيته بكامل الوضوح لمن يستقرىء الكتب المؤلفة بالمغرب .

ان كل المؤلفين المغاربة يتبارون فى التنويه بقيمة فن التاريخ وفى توضيح ماله من فوائد جمة ، ولكنهم قلما يعنون عناية مرضية بشرح مفاهيم التاريخ وتحديد ماهيته ، من غير ان يلفوا افكارهم فى جملة كثيفة من المحسنات البديعة والتعابير الرنانة ، التي لا تسير استيعابها وادراك معناها الحقيقي .

لقد حاول صاحب « الجيش العرمرم » (32) ان يحدد فى مقدمته بعض تلك المفاهيم ولكنه لم يزد على ان لف ذلك فى عبارات مسجوعة قليلة الفائدة ، حيث قال : « .. فان النفوس والارواح لها بالاخبار السالفة انبساط واسترواح ، تدير فى المجامع كؤوسها وتجلى على منصات المحاضرات عروسها ... والمتكفل بها هو التاريخ .. ناهيك فنا يفيد موعظة وعلما ويمنح العقلاء لسانا وفهما تسمو اليه الهمم العالية ، وتحيا به الرمم البالية » !!

ومن جهة اخري فان مؤرخين آخرين ، ومنهم ابن الموقت (33) اكتفوا بنقل الفصل الذي خصصه ابن خلدون فى مقدمته للتعريف بفضل التاريخ والذي صرح فيه بقوله : اعلم ان فن التاريخ غزير المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية .. »

يبدو ان وضوح ذلك الفصل قد اثار اعجاب الاخباريين المغاربة ، ولكن يبدو كذلك ان اولئك الاخباريين لم يكونوا يعتبرون ذلك المؤرخ الفيلسوف الواسع الافق قدوة لهم يسلكون مسلكه فى البحث ، وينزعون نزوعه الى التحقيق ، وان كانوا ، مع ذلك ، يعدونه من اعلام المغرب الذين يستطاب الاعتزاز بذكر مفاخرهم ، والتنويه بمحاسنهم .

كان من اللازم ان يبقى التاريخ معدودا من العلوم ذات الصيغة الشرعية التي لا يستنكر مضمونها لان المغاربة المعروفين بشدة المحافظة ، لم يكونوا ليحاولوا بناءه عن اسس جديدة تنم عن خاصية ذاتية او ميزة اصيلة ، ولا ليقدموا على تطوير مفهومه ، ذلك المفهوم الذي اتفق على احترامه كافة الكتاب العرب بالشرق وبالغرب .

ان لفظة التاريخ « تعنى » فى اللغة العربية اول ما تعنى « تعريف الوقت » وعليه ينبغى الا نعتبر

---

29) دور الاثمان فى اصل منبع آل عثمان لابن السرور محمد الصديقي المصري حسب ماورد فى كشف الظنون ص 745 (المعرب)

30) قال ليفي بروفنصال فى اخر هذه الفقرة ان كنسوس غلط فجعل « القرطاس » اسما للمؤلف ، وليس فى النص العربي المنقول عن المخطوط ما يؤيد لمزه هذا . (المعرب)

31) اشار ليفى بروفنصال الى المصادر الاوربية التي ذكرت فيها هذه الاعلام واهمها بروكلمان وهيار

32) الجيش ج 1 ص 2 (نقلت النص عن المخطوط الذي بقسم الوثائق بالرباط رقم 965 د ص 2) (المعرب)

33) السعادة الابدية ج 1 ص 5

كتب التاريخ من مجاميع احداث توافقت اوقات وقوعها .

ولا يخفى على احد ان هذا التعريف غير دقيق لانه يتسع للتاريخ الادبي والتاريخ السياسي وعلم الانساب وتراجم الاعلام من ذوي السلطان او ذوي الصلاح ، ويتسع حتى لعلم الجغرافية لان المسلمين اذا ما وصفوا قطرا من الاقطار يرون من الضروري ان يتكلموا عن الاعيان الذين يعيشون فيه والبيوتات التي اشتهرت في ربوعه .

لقد حدد حاجي خليفة مجالات هذا المفهوم بصورة تمتاز بالدقة والايجاز وذلك في معجمه « كشف الظنون » حيث قال : وعلم التاريخ هو معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع اشخاصهم وانسابهم ووفياتهم الى غير ذلك ، وموضوعه احوال الاشخاص الماضية من الانبياء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم » (34) والظاهر ان هذا الترتيب وضع على هذا الشكل عن قصد ووعي ، للتنبيه على ان كتاب التاريخ يهتمون قبل كل شيء بتراجم الاعيان من مختلف الطبقات ، وغالبا مايكون التاريخ السياسي آخر ما يعتنون به .

وعليه فلا ينبغي ، ونحن نتكلم على بلاد عرف اهلها بالاغراب في المحافظة على التقاليد والنواميس السلوكية ، ان تعجب من ميل مؤرخيه الى الاشتغال بسير المتقدمين من الاشراف والنبلاء سواء منهم الملوك والحكام الذين تعاقبوا على مسرح السياسية وكانت بأيديهم ازمة الامور الدنيوية ، او العلماء والصالحين المعروفين باخلادهم الى الحياة الروحية ، فكانوا في نفس الوقت اخباريين وكتاب تراجم ، سالكين المسالك التي سبقهم عليها المؤرخون في باقي اقطار العالم الاسلامي .

ومن المعلوم ان الملاحظات والاستنتاجات التي سنصل اليها في بحثنا حول الحركة التاريخية بالمغرب ومجالاتها منذ اربعة قرون ، ستكون في جملتها ، مطابقة للتي قد تستخلص من دراسة باقي التاريخ الاسلامي .

الرباط : عبد القادر الخلادي

---

(34) طبعة فولجل ج 11 ص 95 – 96 (المؤلف) واعتمدت انا على الطبعة التركية فنقلت النص من باب «التاء» « تاريخ » وقد لاحظت خلافا طفيفا في ترتيب الاشخاص (المعرب)



المغرب على عهد العلويين



الوزن الدولي للمغرب في غضون القرن الثامن عشر

للأستاذ المهدي البرجالي

- 2 -

هذه الصورة عن المناخ الدولي في القرن الثامن عشر ، تتيح انطباعا واضحا عن الوضع الذي وجد فيه المغرب ساعتئذ ، وجسامة المسؤوليات التي طرحها عليه الظرف ، وما تنطوي عليه من ملابسات دقيقة .

لقد شكل الكيان المغربي ساعتها ، واجهة اساسية ازاء كل هذه التيارات الدولية الرائجة في العالم وفي المنطقة الموجودة فيها بلادنا ، وتمكن – بحكم ذلك – من امتصاص هذه التيارات كلما دنت منه ، وتحويلها – في الكثير – الى حيث تلتقي معه على خط الصداقة والمودة وتتعاون واياه في مجالات شتى مما يعنيها ويعنيه ، بل ان المغرب استطاع بدينامية هذه ، ان يحافظ على صورة للعرب قوية وكفؤة ومشرقة جدا ، وتجاه العالم العثماني ، وذلك في الحال الذي كان فيه العثمانيون يمسكون بمقاليد الوطن العربي شرقه وغربه ، واستطاع بنفس المقدار ، بلورة صورة عن المسلمين ، قوية وكفؤة ومشرقة كذلك ، واجه بها القوى التوسعية الغربية ، التي كانت قد ذهبت شوطا مهما في استصفاء الوجود الاسلامي الفعال في المحيط العالمي ، ولم تفتأ تواصل سعيها للاجهاز على فاعلية الباقي من هذا الوجود ان كان في شرق او غرب ، واستطاع المغرب في محط آخر ، الاحتفاظ بصورة عن الافارقة قوية وكفؤة ومشرقة هي بدورها ، هذا فيما كانت القارة السوداء آخذة في التهاوي ازاء سطوة البعثات الغربية ، المزودة بكافة الممكنات لفرض وجودها على المجتمعات الافريقية .

لقد تهيأ للمغرب ، في نطاق هذا الظرف ، القيام بدور استقطاب ضخم ، مقابل الاستقطاب الذي مارسته الدولة العثمانية في حوض البحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج ، وحالة الاستقطاب الذي اخذت اوروبا الغربية تمارس اسبابه بحركتها التوسعية عبر العالم .

الا ان الاستقطاب المغربي ، كان شيئا آخر ، غير ذلك الاستقطاب الذي اتسمت به حركة الآخرين .

كان الاستقطاب اولئك ، استقطابا ، قوامه الهيمنة والتوسع ، اما الاستقطاب المغربي ، فكان مبناه ، الاخذ بزمام فاعليات الصمود الافريقي الاسلامي ، تجاه توسع الغرب ، واستجماع صفات الاصالة العربية في وجه حركة الاستيعاب التركي للوطن العربي وهذه وظيفة ذات صفة تاريخية فريدة ، أهل الظرف المغرب لها ، ليكون فيها محورا ومرتكزا ، وكان البلد فعلا في مستوى الاضطلاع بها ، وادائها على الوجه اللائق ، التي اداها به .

كما نلمحه من ثنايا هذه الملاحظات ، فان وزن المغرب على الصعيد الدولي ، قد سجل خلال القرن الثامن عشر مستوى جيدا ، تتناقض كثافته ، مع

الاحوال المهزوزة التي ادت بمختلف مناطق افريقيا وآسيا الى الوقوع تحت طائلة التبعية ، وهذه المناطق تصلها بالمغرب ـ كما يعلم ـ صلات انتماء متعددة ، اما في نطاق جغرافي (افريقيا) او في اعتبار سلالي (العالم العربي) او على مستوى روحي وثقافي (العالم الاسلامي) او في مضمون حضاري (العالم الثالث) .

وتتجلى معايير هذا الوزن الذي اتيح للمغرب في مظاهر شتى نجمل بعضها فيما يلي :

1) من منظور الاحوال الداخلية :

لقد شهد المغرب في غضون القرن الثامن عشر ، عهدين عظيمين بالمدلول الكامل لهذا الوصف ، هما عهد المولى اسماعيل الذي امتد فيما بين القرن السابع عشر ، والربع الاول من القرن الثامن عشر ، ثم عهد المولى محمد بن عبد الله وقد استغرق هذا العهد ما بين العقد السادس من القرن الثامن عشر الى ما يشارف متم العقد التاسع منذ القرن تقريبا .

وقد بلغ المغرب في هذين العهدين اللامعين ، من متانة الوضع في الداخل ، مالا مزيد عليه بالنسبة لدولة راسخة قوية وطامحة ، فقد تحررت الثغور التي كانت رازحة تحت الاحتلال الاجنبي (طنجة العرائش ، اصيلا ، المهدية ، الجديدة) وتم تنفيذ خطط انمائية وتعميرية ذات نطاق واسع لصالح تلك المدن ، الامر الذي نشأت عنه حالات جيدة من الاستقرار فيها ، مقرون بنمو عوامل تطور اجتماعي ، وتوسع في المرافق اللازمة له على مختلف المستويات .

وقد استتب القانون والنظام في ارجاء البلاد ، نتيجة لتماسك البنيان الاجتماعي ، ودقة تنظيم المؤسسات ، ويقظة مراقبة الدولة ، وتشير بعض الوثائق التاريخية ، الى حادث سفينة فرنسية كانت قد غرقت في منطقة من مناطق الساحل الصحراوي المغربي ، فكتب المولى محمد بن عبد الله الى القطر الذي يعنيه امر السفينة ، مطمئنا اياه على سلامة الافراد الذين نجوا من الغرق ، وانهم سيرجعون آمنين الى بلادهم ، الامر الذي يعطي انطباعا عما كانت عليه سلطة الدولة من شمول يستوعب اقاصي البلاد شمالها والجنوب ، وتآطر السكان اينما كانوا في نطاق هذه السلطة .

2) من ناحية اقتصادية :

ان متانة الوضع الاجتماعي والسياسي ببلد ، تنعكس بالضرورة على حالة الاقتصاد فيه ، زراعة وصناعة وتجارة وتوسعا في المبادلات ، واطرادا للرواج عموما .

وكذلك كان الحال في العهدين العظيمين اللذين تميزت بهما حياة المغرب في غضون القرن الثامن عشر .

وتومىء مؤشرات النشاط المينائي في تلك الحقبة ، الى جانب من فعالية حركة التجارة التي كانت قائمة بين المغرب والبلدان الاخرى ، خاصة البلدان الاوروبية ، وبحسب ما يستفاد من المعاهدات المعقودة مع هذه البلدان ، فان الصلات التجارية التي تكونت للمغرب مع الاوروبيين ، كانت على نطاق واسع ، بحيث شملت مجموعة كبيرة من دول القارة ، سواء منا دولتا شبه الجزيرة الايبرية ، او دول بحر المانش ، او الدول الاسكندنافية ، او منطقة جنوب وسط اوروبا ، او بعض جزر البحر المتوسط .

وقد ادخلت في عهد المولى محمد بن عبد الله تجهيزات مينائية مهمة ، وفي طليعتها انشاء ميناء الصويرة ، وتجهيز ميناء الجديدة ، وكلاهما اعد ليقوم بمهام واسعة في مضمار التجارة الخارجية ، هذا الى سعة النشاط الذي عرفته الثغور الاخرى ، خاصة منها الثغور الواقعة على الساحل الاطلسي .

ومثل هذه النشاطات المينائية ، تقتضي عادة وجود ارضية اقتصادية في الداخل ، ذات جذور وروافد سليمة ، وقد عرفت الزراعة المغربية في تلك الحقبة ازدهارا مرموقا ، مما يدل عليه اشهاد شعري للزياني ، نقله عنه صاحب الاتحاف ويستفاد منه ، في ضمن ما جاء فيه ، ان فترات الامطار كانت مطردة بقدر ملائم ، وكان من غزارتها ان كثرت الثمار ، وعم الرخاء ، ورخصت اسعار الحبوب والدهون والمواشي ، ووفرت المواد بمقادير غزيرة .

من زواية ديبلوماسية :

يدخل فيض النشاط التجاري الذي عرفته الموانيء المغربية خلال القرن الثامن عشر ـ في

اطار النشاط العام والفعال الذى سجلته العلاقات المغربية مع الخارج ، وهو نشاط مضبوط وممنهج ، استوعبت فاعليته ديبلوماسية واسعة الافق فى مبادراتها ، وما تقيمه من صلات .

لقد استطاعت ديبلوماسية المولى اسماعيل ، والمولى محمد بن عبد الله ، ان ترسم للمغرب اطارا من العلائق المتنوعة والجيدة ، مع مختلف القطاعات الدولية بحوض البحر المتوسط ، وغيره ، وامكنتها بذلك ان توفر للمغرب ميزتين اساسيتين ، كانتا من عوامل توفقه فى الاحتفاظ بوضعه الدولى السليم اثناء تارجحات السياسة الدولية فى تلك الفترة ، فمن جهة ، انصرف اهتمام تلك الديبلوماسية ، الى تجنيب المغرب مختلف انعكاسات او مضاعفات الصراع الدولى الناشب حينئذ ، وتحصينه من آثار السياسة التوسعية الاوروبية ، الآخذة ساعتها فى التصاعد ، كما انصب من جهة اخرى ، على استقصاء امكانيات التعاون مع الدول التى ترغب فى التعاون ، والافادة من ذلك على الصعيد الاقتصادى وما يتصل بـه .

وتعكس سلسلة المعاهدات التى عقدت بين المغرب ودول اوروبا ، اهتماما جليا بهذه المسائل من جوانبها المختلفة . وهذا ما يظهر فى المعاهدات المبرمة مثلا مع فرنسا والسويد والدانمارك والبرتغال وغير هذه الدول ، والملحوظ ان بعض المعاهدات من هذا القبيل ، كان ينطلق من مبدا الصلح بعد تصفية حالة من حالات النزاع بين المغرب والبلد المتعاهد ، والملحوظ كذلك ، انه كان يحدث احيانا ان الدولة الاوروبية المتنازع معها ، كانت هى التى تتهافت على طلب ود المغرب ، والارتباط بمعاهدة للصلح والتعاون معه ، ومرجع ذلك ، ماكان يحصل لـدول كهذه من يأس من النيل من المغرب عن طريق الصراع معه ، ومن ثم ، لم تكن تجد أجدى لها من نفض يدها من مشادته ، والاقبال على الافادة من التعاون معه ، اقتداء بسلوك دول كثيرة اخرى فى علاقتها بالمغرب على صعيد التعاون .

وثمت مبعث مخصوص للنشاط فى اطار الديبلوماسية المغربية فى ذلك العهد ، وهو النشاط الناجم عن شعور التعاطف مع الاقطار الاسلامية ، والحرص على توثيق روابط الاخوة بها .

ولقد انطبعت العلاقات المغربية العثمانية ، بطابع يحمل فى طيه اكثر من دلالة على هذا الشعور ، وتعدت هذا النطاق نفسه ، فشملت افقا مهما من التعاون بين الدولتين ، خاصة ما يتصل من ذلك بالشؤون الحربية .

والى هذا ، كانت هبات المغرب ـ بحدوه شعوره الاسلامى العميق ـ الى شد ازر المسلمين بكل ما لديه من ممكنات مالية ، ونفوذ ديبلوماسى ، مبديا من الحرص فى ذلك ، والدؤوب عليه ، ما يتجاوز الحد العادى فى مثل هذه الاحوال .

من وجهة الاعتبار العسكرية :

ايجاد جهاز عسكرى موفور التنظيم والتدريب ، ومزود بالوسائل الحربية المناسبة : هذه خلفية ضرورية لحماية العمل الديبلوماسى ، ان وجد فى حاجة الى مثل هذه الحماية ، والحفاظ على الكيان بمجموعه ، ازاء تيارات التناقض والتضارب فى الحياة الدولية .

وبالنسبة للمغرب فى غضون القرن الثامن عشر ، فان هذه الخلفية ، كانت طليعة عمل وطنى تاريخى ، قاده المولى اسماعيل ، والمولى محمد بن عبد الله ، اجلاء للاجانب عن الثغور التى كانوا يحتلونها ، وتقويما للوضع غير المعقول الذى كان يجسمه اولئك الاجانب بوجودهم الاحتلالى هناك .

ويبدو من ملاحظة التقنيات الحربية التى استعملت حينئذ (كالحالة الماثلة فى عملية فتح مدينة العرائش حيث انشئت تحت الميناء خنادق ملغمة ، كان من تاثيرها ان نسفت مداخل المدينة ، وامكن للمجاهدين اقتحامها) أن الخبرة العسكرية كانت قد قطعت فى ذلك العهد بالمغرب اشواطا مهمة ، وتهيأت اطر قيمة للعمل بمقتضاها ، استمدادا من المعلومات الحديثة المتوفرة حينئذ .

وبطبيعة الحال ، فان تنظيم الجيش على عهد المولى اسماعيل ، وتقوية تسليحه بالمعدات المتطورة ، وتجديد اوراش الصناعة البحرية العسكرية ، وتطوير الاسطول الحربى على عهد المولى محمد بن عبد الله ، كل ذلك ، كان معلمة ضخمة فى تعزيز طاقة المغرب الدفاعية ، وقد منح بلادنا

اعتبارا هاما فى موازين القوى الدولية وكان من شانه ان يساند خطها الديبلوماسي السلمى ، بما يكفل له القدر اللازم من الاحترام فى الاوساط العالميـة .

وتعاون المغرب مع الدولة العثمانية فى المضمار الحربى ، كان ذا قيمة عملية ، بقدر ما اكتسى قدرا كبيرا من الاهمية نفسيا وسياسيا وديبلوماسيا ، وقد افاد المغرب فى تدريب وحدات جيشه ، من خبرة الترك العسكرية ، كما افاد ايضا منهم فى مضمار الصناعة المتصلة بهذا القطاع ، وبالمقابل ، اغدق المغرب على العثمانيين مساعدات مادية ومعنوية مختلفة ، ذات طابع سياسي وما شاكله .

على ان مهارة المغرب الديبلوماسية ، قد استدرجت الاوروبيين بالذات ، الى تزويده بمساعدات قيمة فيما يخص تجهيزه الحربى ، ويقول صاحب نشر المثاني ، فيما نقله عنه ابن زيدان فى (الاتحاف) « وطوع الله له الروم . اى للمولى محمد بن عبد الله ؛ فلا يامرهم بالاتيان بشيء ، الا بادروا لامتثاله ؛ . . »

وبدهى ان مكانة المغرب ساعتذاك ، وبراعة ديبلوماسية المولى محمد بن عبد الله ، هما اللتان يمكن ان تفسرا هذه الطواعية لدى اوربيي ذلك العهد ، للاستجابة لمتطلبات المغرب .

= ※ =

هذه لمحات عابرة حول مغرب القرن الثامن عشر ، حيث تمكنت هذه البلاد من تجاوز كافة الظروف الدولية المعقدة التى عرفها العالم آنذاك ، ووسعها ان تقيم لنفسها ـ وسط ذلك الخضم ـ اسس مناعة ذاتية مترسخة ، وتكتسب ـ بحكم ذلك ـ قيمة دولية لا تدانيها فيها اكثرية الاقطار التى تشاكلها فى الانتماء الجغرافى والتاريخي والحضارى .

ولا جدال فى ان هذا الوزن الذى تأتى للمغرب فى عالم القرن الثامن عشر ، لم يكن ـ البتـة ، مجرد نتاج ظروف خارجية ملائمة ، بل كان مدعاه ـ كما يلاحظ بوضوح ـ ما توفر للكيان المغربى من مؤهلات خاصة ، كانت فى مستوى مواجهة الظرف ، وتحمل تبعاته ، بل والاقتدار على اخذ زمام المبادرة فى تياره لنجدة الاخرين ، او للدفاع عن وجهة نظر مبدئية ، تتعلق بالحق الدولى ، او بالتضامن الاسلامى ، الى مثل هذا .

وبدهى ان حسن القيادة ، وجودة عطائها ، كان ذا تاثير اساسى فى هذا المجال ، فقد اوتى المولى اسماعيل ، والمولى محمد بن عبد الله مواهب القادة الكبار ، الذين يعرفون كيف ياخذون بزمام التاريخ ، ويراقبوا اتجاهات تياراته ، ويلموا باعمق خلفيات المنطق ، المتحكم فى وجهته ، وينجحوا فى صياغة احوال ، مستمدة من هذا المنطق ما فيه من ايجابية ، متحاشية ملابسات السلب ، التى قد تروج فى محيطه .

وتهيا للقيادة فى مقدرات هذا الوطن ، وما هو موفور له على هذا الصعيد ، من اصالة محتد ، وعراقة مقومات ، ورسوخ قدم فى الفكر والحضارة ، ووفرة طاقات بشرية ، وموارد طبيعية ، ما مكن من صنع هذا الانجاز التاريخى ، المتمثلة قيمته فى ان قطرا وحده فى القطاع الغربى للبحر الابيض المتوسط ، قد استطاع ان يتحدى بمفرده كل عوامل التقهقر التى اخذت تحيط خلال القرن الثامن عشر بالقارة الافريقية ، وبعالم العروبة والاسلام ، وباغلبية الشعوب خارج النطاق الاوروبى ، وامكنه ان يوفر لنفسه ـ تجاه جبهة الاستعمار الحديث حصانة ، جعلت القوى العالمية الكبرى آنئذ ، تقبل على خطبة موده ، والتماس صداقته .

سلا : المهدي البرجالي

كتاب التعريف بالقاضي عياض

تحقيق الاستاذ محمد بنشريفة . تقديم وتعليق الاستاذ محمد بن تاويت

مما يحمد لوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، قيامها على نشر الامهات من كتبنا المغربية والاندلسية خاصة ، وعلى راسها « ترتيب المدارك » لعياض ، ويتصل به كتاب التعريف ، المذكور لولده ابى عبد الله محمد .

وقد احسنت الوزارة صنعا فى نشر هذا الكتاب الصغير الحجم العظيم الفائدة ، بعد ما اعده الدكتور محمد بن شريفة لذلك ، بما يحمد له من اعداد علمى ، نعرفه لطالبنا المفضل لنا وزميلنا العامل فى حقلنا .

وان كان لنا من ملحظ ، يؤخذ به فى ذلك التحقيق ، فهو فى هذه القلائل التى نذكرها هنا :

فى الصفحة 20 والسطر 2 صحفت كلمة «حدثنا» بكلمة « حدثك » ثم تكرر هذا فى الصفحة 68 بالسطر الاول منها .

وفى الصفحة 28 بالسطرين 11 و 12 نشعر بفجوة او اضطراب فيما يلى : عن معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اخذ بيده وقال : يا معاذ والله انى احبك ، فقال : اوصيك يا معاذ ...

فنجد فى « فقال اوصيك يا معاذ » عدم انسجام بما قبله مباشرة ، الا ان تكون بينهما جملة ساقطة او يكون « فقال » مصحفا او محرفا عن « ثم قال له » او يستغنى عن ذلك كله بالمرة ، فتتصل الجملة ، « اوصيك بما قبل » فقال فتكون مقحمة فى النص ، وقبل هذا وبعده فليبحث عن الحديث فى مظانه ، ولا شك انه سيوجد على غير ما هو به عندنا فى هذا الكتاب .

وفى الصفحة 30 والسطر 13 تصحف « حدثتنا » بكلمة « حدثنا » .

وفى الصفحة 38 تصحفت كلمة « ولدا » بالالف ، وهى من نص القرآن الكريم ، بكلمة « ولد » بدونها ، فهى « وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا » وفى الصفحة 40 وجدنا التعليق 96 ينص على ان البيت :

مخرق على الناس ومخرق بهم   فانما الدنيا مخاريق

ورد فى محاضرات الراغب 1 : 292 هكذا :

خرق على الناس وخرق لهم   فانما الدنيا مخاريق

وهو كذلك فى هذه الطبعة التى كتبنا عنها وكشفنا معايبها التصحيفية فى عددين من مجلة دعوة الحق ، فكان من تلك التصحيفات بها هذا البيت الذى شكل فيه كلمة « خرق » مرتين بضم القاف . وسواء اشكل بذلك ام اعتبرت الكلمة فعل امر ؛ فهو تصحيف لا معنى له يلتمس . فكان على الدكتور بن شريفة ان يراعى ذلك ، ولا يضعه موضع الاحترام حتى ينص على وجود البيت به ، بل كان عليه ان ينص على

التصحيف فيه ، ان اراد افادتنا بذلك . ثم انه كتب البيت في الاصل ، هكذا :

ومخرق على الناس ومخرق بهم

بزيادة الواو اولا ، كأنه جزم به ان كان . والمخاريق معروفة ، وهي مذكورة في معلقة عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم　　مخاريق بأيدي لاعبينا

واحدها مخراق ، وهو ما يلعب به الصبيان من الخرق . وبذلك يكون « مخرق بهم » هو الصواب ، كما عندنا ، لا « لهم » كما صحف في المحاضرات اما المخارق التي وردت في الخطبة الثانية لعباض ، بهذا الكتاب ، فهي جمع مخرقة ، من خرق العادات .

وفي الصفحة 41 ورد في التعليق 98 ان برغواطة، حسب النطق العامي ، والصواب بلغواطة ، كما في تثقيف اللسان والمطرب والتاج والصواب غير ما ذكر هؤلاء جميعا ، فكلمة برغواطة ، انما هي تحريف لكلمة « بربط » كما نص على ذلك ابن حزم وغيره ، وهي بلدة تبعد عن مدينة طريف ، ببضعة اميال ، شمالا في غرب ، ومازالت تعرف حتى الآن في الاسبانية هكذا BARBATE والكلمة في اصلها لعلها فارسية معناها العود الذي يعزف عليه ، واشتقاقها المنتهي « صدر البط » لان هذه الآلة تشبه بصدر البط . وانتقال الاسم الى المغرب له قصته التي ذكرها ابن حزم وغيره كابن الخطيب ، وان صالحا المصمودي الاصل ، كان قد نشأ بقرية برباط من الاندلس ... وقدم المغرب فعرف بالبرغواطي بالراء محرفا عن برباطي ، اما تثقيف اللسان فليس محقا في كل ما ذكر، فله اخطاء غير هذه ، تابعه الناس فيها ، فكان منهم صاحبا المطرب والتاج ، وفي الصفحة 68 — 69 ورد بيتان — انشدهما ابو الحسين سراج بن عبد الملك — هكذا :

علمته مهما ازور احبتي
دلج السرى وكذاك فعل مخاطر

واذا احتبى قربوسه بعنانه
علك اللجام الى انصراف الزائر

البيتان ينسبان ليزيد بن مسلمة الاموي ، كما ينسبان لغيره ، مما نبهنا عليه في تعليقنا على كتاب دلائل الاعجاز للجرجاني ... وقد وقع فيهما بالصفحتين المذكورتين ، تصحيفان ، اولهما بالبيت الاول ، حيث صحف « فيما » بكلمة « مهما » فلم يتنبه لذلك بالرغم من مجيء الفعل « ازور » هكذا مرفوعا ، وكان حقه ان يجزم ، لو كانت « مهما » في محلها غير مصحفة .

وثاني التصحيفين ، ان كلمة « قربوسه » شكل سينها بفتحة ، مع ان الواجب ضمه ، لكونه فاعلا لفعل « احتبى » اللازم لزوما تاما لا محيد عنه ولا مناص ، اذ هو من الاحتباء المعروف ، وبذلك كانت الصورة المنوه بها في كتب البلاغة والبيان خاصة .

وفي الصفحة 70 علق المحقق ، على ابن القبطرنه بأن الاصل « القبطرنوى » وان رسمه المعروف ما اثبته (وهو القبطرنو) والواقع ان القبطرنو ، هكذا هو اصل الكلمة اللاتينية ثم الاسبانية ، ولكن التعريب فرض الا تبقى الكلمة هكذا كما لم تبق كلمة « سيبو » كذلك لقاعدة انه لا توجد كلمة بالعربية تنتهي بواو قبلها ضمة لازمة . وكالعربية ما عرب فيها ، فلا بد من ان يخضع الى قانونها ، وبذلك صارت كلمة « سيبو » او « سيبيو » صارت « سيبويه » كمسكويه ونفطويه وشيرويه ونحوها من عشرات الكلمات المعربة التي خضعت لقانون العربية، وكأن الذي رسمها « القبطرنوى » سلك طريقا آخر تنكب به سلوك المحذور « واو قبلها ضمة لازمة » فزاد ياء النسب فيها ، وزيادتها تكون حتى فيما لا ضرورة له ، كما في احمرى ، مثلا . وعلى هذا فلا لزوم لحذف تلك الياء ، الا عند كتابة الكلمة هكذا « القبطرنه » كما هو معروف في كتبنا التاريخية والادبية ، قديما وحديثا . اما « القبطرنو » هكذا فلا ، ونحن خاضعون لقوانين العربية العرباء ...

وفي الصفحة 85 وردت تصحيفات عديدة ، اولها ان المحقق شكل كلمة « اقل » بالفتح من قوله تعالى « فسيعلمون من اضعف ناصرا واقل عددا » وصوابها الضم ، لانها معطوفة على كلمة « اضعف » ولا وجه لغير هذا ، وخصوصا ان المحقق مثقف ثقافة عربية خالصة ولا شائبة فيها لغيرها ، وهو يحفظ القرآن الكريم ، او كان يحفظه ويقدره قدره ، ويجله اجلاله ، فلا اقل من ان يعود الى المصحف ، فلا يقع فيما وقع له مرة اخرى وفي نفس الصفحة المذكورة ، فقد وضع بين قوسين مكررين ما اتى هكذا « وحشر المجرمون يومئذ زرقا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا »

ووضعه هذا ، يشير الى انه نص القرآن ، كما هو بين تلك الاقواس ، مع ان النص هكذا « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » تتميما لقوله تعالى من سورة طه « يوم ينفخ فى الصور ... » اما ما ورد فى الكتاب موصولا بما سبق على انه تتمته ، داخلا فى نطاق الاقواس ، فليس كذلك ، بل هو من سورة الكهف بالاية 46 ، وما ذكر مصحفا ، ان قصد به القرآن ، فانما هو بالاية 102 من السورة التى ذكرت سابقا ويتخلل التصحيف الاول والثانى فى الصفحة نفسها ، تصحيف آخر ، فى قوله « ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا صرفا » فقد تصفحت كلمة « صرفا » بكلمة « حرفا » . وربما كان هذا من الطباعة ، لا من المحقق الفاضل ، وعلى كل حال ، فهو تصحيف وجب عليه التنبيه .

وفى الصفحة 94 وردت عبارة هكذا « وخجلت عين ويد للوداع » والصواب فيها « وخلجت عين ويد للوداع » من قولهم خلجت العين او اليد خلجانا ، اذا تحركت حركة غير ارادية ، بدافع عصبى اضطرارى

وفى الصفحة 104 نجد تعليقا على ابن زنباع هكذا « ابو الحسن على القاضى السبتى ، القلائد ... والحريدة ... وفى الاصل ابن بباع ، وهو تحريف »

اولا كون القاضى من سبتة ، او هو قاضى سبتة ، هذا لا نعرفه بالمرة ، والمعروف انه قاضى طنجة ، التى نسب اليها فى كتاب صبح الاعشى قديما ... ثانيا ، التنبيه على التحريف بابن بباع فى الاصل ، جعلنا نفهم ان المحقق ، رجع الى الاصل المخطوط ، ولكنه احالنا على المطبوع بالجزء والصفحة ، ففهمنا ان التحريف فى هذا المطبوع الذى ذكره ، فلما عدنا اليه ، لم نجد هذا التحريف ، بل وجدنا « ابن زنباع » هكذا غير محرف ، ووجدنا المحققين ، يذكران ، هما انفسهما ، فى تعليقهما ، ان الاصل فيه تحريف ببباع المذكور ، فكان على صاحبنا ان يكتفى بهما ، كما اكتفى ، عن حسن نية ، فى غيرهما ، فلم يذكرنا محققين ، لكتابين ، بل ذكر بدلنا بحسن نية ايضا ، من نشر احدهما متأخرا عنا ببضع عشرة سنة ، وذكر فى الآخر انه رجع الى المخطوط ، بالرغم من كونه ، سلمه الله ، قرأ ما نشرناه واستفاد منه ، كما استفاد من غيره ، فلم يبخل بذكره ، وان لم تكن الحاجة ماسة اليه ، اللهم الا حسن النية ، والنية وحدها بحسنها . واخيرا وجدنا فى الصفحة 146 ذكر رجل فى الملحق بابن بشرق ، ثم ذكر مرتين بابن مشيرق ، والغى من فهرس الاعلام ، وسكت عنه والسلام .

تطوان : محمد بن تاويت

مع الامام الشافعي

لما قدم الامام الشافعى مصر قال له عبد الله بن الحكم :

اذا اردت ان تسكن هذا البلد ، فليكن لك قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزز به . . .

فقال له الشافعى :

يا ابا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له . . . ولقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز ، وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعا قط ...

وابن الخطيب ؟..

للاستاذ
أحمد زياد

قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الاحتفال بالذكرى الالفية للشاعر ابن زيدون ، ومن غير شك فان هذه المبادرة من لدن الوزارة المكلفة بالشؤون الثقافية تعتبر عملا مبرورا ، وسعيا مشكورا ، ذلك ان الشاعر ابن زيدون قد شغل الناس بأمره وبشؤونه وشجونه واحزانه التى كانت مادة خصبة لاشعاره وعواطفه ونزواته كذلك ، على انه اذا كان يحسن بدولة الادب والشعر ان تحتفل بهذا الشاعر لتتاح الفرصة لتقييم حياته المتسمة بالوان شتى من متناقضات ابرز ما فيها ان الشاعر ابن زيدون هو ايضا سره زمن بينما ساءته ازمان .

نقول : انه اذا كان يحسن بدولة الشعر ان تقيم مثل هذا الاحتفال ، فان هنالك شخصية اخرى لها شأنها ووزنها فى عالم الثقافة والادب ، وذلك بالاضافة الى انها اقرب الى المغرب من حبل الوريد ، ونعنى بها شخصية لسان الدين ابن الخطيب .

ان ابن الخطيب اشتغل بأمره الناس اكثر مما اشتغلوا بأمر ابن زيدون ، حتى انه ليكفى فى الدلالة على هذا النوع من اشتغال الناس به الاشارة الى العناية الخاصة التى اولاها اياه ابو العباس المقرى بتاليف كتابه الشهير : « نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب » ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب .

ولعله من المتعذر القيام بمقارنة او محاولة للمقارنة فيما بين ابن زيدون وابن الخطيب فلكل منهما وجهة هو موليها ، ولئن ائتلفا فى بعض الجوانب من حياتهما السياسية — وبالاخص فيما منى كل واحد منهما به من محن ونكبات تختلف هى الاخرى من حيث حجمها — فانهما قد اختلفا اختلافا يكاد يكون بينا من حيث التكوين والاتجاه فى الميدانين الثقافى والسياسى على السواء . ولست هنا بصدد تبيين عوامل الائتلاف والاختلاف ونوعيتها لان هذه المهمة ربما تكون خارجة عن الموضوع الذى حددته لكتابة هذا المقال ، وهو **موضوع احياء الذكرى السثمائة « للكاتب البارع والمؤرخ الساطع لسان الدين ابن الخطيب » ، فمن واجبنا ان نعطيه الاسبقية على ابن زيدون لسبب واحد من جملة اسباب عديدة** . وهو ان لسان الدين ابن الخطيب قضى شطرا لا بأس به من عمره فوق ارض بلدنا ، واحتفظ لها بأجمل الذكريات ، وخلد بعض معالمها وشخصياتها فيما تركه من تراث فكرى يمتاز بالصدق ، كما انه يتميز بشىء غير قليل من الوان الاصالة والرصانة ، وهو تراث بعضه مغربى بحكم مواضعه ومضامنه ، وطابعه ، وبعضه اقرب الى المغرب بحكم دوافعه ونوازعه ، ولهذا فانه يكون من الاحراج لنا ان نطالب شخصية علمية مثل الاستاذ محمد عبد الله عنان باحياء الذكرى الستمائة لابن الخطيب دون ان تجد هذه المطالبة استجابة من طرفنا هنا فى المغرب بصفة خاصة ، ثم ان الحيثيات التى

تعطى الاسبقية لان يحتفل المغرب الثقافى بلسان الدين ابن الخطيب ، تعتبر حيثيات طبيعية ان لم تكن « قانونية » ان جاز لنا ان نستعير المدلول القانونى كعامل معنوى فى هاتيك الحيثيات ، وهى حيثيات كثيرة لا يوجد لها بالقطع ولا شبيه واحد فى حيثيات الاحتفال بالذكرى الالفية للشاعر ابن زيدون .

ولا ينبغى ان نفسر هذه الدعوة بكونها انتقادا او ايلاما او تأنيبا لفكرة الاحتفال من حيث المبدأ ، اذ لا حدود فى مجالات الفكر الانسانى على سعتها وكل ما فى الامر ان القضية قضية اسبقية وقضية انصاف كذلك .

ومن المناسب ان نسوق هنا بعض تلك الحيثيات التى تفرض علينا مراعاة « الوضع القانونى » — ان جاز التعبير مرة اخرى — لعلاقتنا الخاصة بابن الخطيب حتى لا يطاردنا ذلك الوصف الذى توصف به النخلة حينما يقال فى حقها انها تظلل البعيد ، بينما تبخل بظلها الوارف على القريب القريب .

وها هى بعض تلك الحيثيات :

اولا — ان لسان الدين ابن الخطيب مارس وجرب موهبته الدبلوماسية فى المسعى الذى قام به يوم ان حضر الى المغرب كمبعوث خاص من طرف السلطان ابو عبد الله الملقب بالغنى بالله ، الى حضرة السلطان المرينى العظيم ابى عنان المرينى ، وذلك فى منتصف السنة الثامنة للهجرة ، وكان القصد من هذه السفارة « هو مواصلة توطيد اواصر المحبة والاتصال التى كانت قائمة بين ابن الحجاج والد الغنى بالله والدولة المغربية » وانتهز ابن الخطيب هذه الفرصة ليعبر عن عواطفه التلقائية نحو المغرب فى شخص السلطان وليقدم بضاعة من شعره بقصيدته التى مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر   علاك ما لاح فى الدجى قمر

وتشهد جميع القرائن على ان ابن الخطيب قد احب الارض المغربية حبا يغلب على الظن ان مصدره كان عفويا وميوليا على حد تعبير بروفنسال .

وبعد اربع سنوات ونيف رجع ابن الخطيب الى المغرب مرة اخرى الا انه عاد اليها مكرها لا بطلا ، وكان ذلك فى اثر حركة تمرد وعصيان على السلطان الاندلسى الغنى بالله الذى التجا هو ايضا الى المغرب على اثر تدخل عاهل المغرب لصالحه لدى النظام الجديد بغرناطة « ثم عاد السعد فابتسم للسلطان المخلوع الغنى بالله ووزيره ابن الخطيب حيث طرأت ظروف اخرى كانت لصالحهما فقفلا راجعين الى الاندلس ومع ذلك فان قلب ابن الخطيب بقى متعلقا بالمغرب وعرساته الفيحاء على حد تعبير ابن دحية .

الا انه سرعان ما حلت بابن الخطيب المحنة الثانية وكانت اشد من الاولى ، يوم ان جمع منافسوه وحاسدوه امرهم وشركاءهم وعلى راسهم مساعده وتلميذه ابن زمرك « وآه من عقوق التلاميذ » ، فعاد الى المغرب ليستقر فيه الا ان تآمر المنافسين والحساد عليه طارده بجيش عرمرم من ضروب الوشاية والدس والوقيعة الى ان وقعت الواقعة .

وكانت محنته الاخرى التى وضعت حدا لحياته هنا فى المغرب فى شكل مثير لا اريد ان اكرر وصف مشاهده رفقا بروح ابن الخطيب رحمه الله ، وتلافيا لازعاجها بعد قرون خلت من السكينة والاطمئنان .

ثانيا : ان ابن الخطيب يذكر فى مذكراته « انتفاضة الجراب وعلالة الاغتراب » اما موضوعيا واما على سبيل الاستطراد ، هذه الارض التى يصفها بانها طيبة يرجو لاهلها كثرة الوفاق وعدم الافتراق ، ولعرساتها افانين من الخضرة والماء الرقراق .

ثالثا : ان ابن الخطيب قد قتل فى المغرب فى ظروف سيئة ، وبوسائل اسوا ، نتيجة دس وكيد واتهام بالالحاد الذى كان الكفرة وعملاؤهم وخصوصا فى عهد الطوائف يلصقونه بالاتقياء بغية التخلص منهم .

وهذا ما يضفى على اسبقية الاحتفاء بذكراه صفة تكاد تقرب من المشروعية ان لم تكن هى المشروعية فعلا .

ولئن ابتلى ابن الخطيب بتلميذه العاق ابن زمرك مثلما ابتلى ابن زيدون بمنافسه الخطير ابن عبدوس ، وهذا وجه من وجوه المقارنة بينهما فى ميدان المحن والابتلاء ، فان ابن زيدون قد وجد فى ابنه ابى بكر ، نعم الابن البار ، ونعم المواسى الرؤوف ، حيث ظل الابن يرعى اباه ويقوم بعلاجه من مرضه الجسمى والنفسى ، فى حين ان ابن الخطيب لم يجد سوى قلوب قاسية لا تلين ، وتلك سيئة ارتكبت فى حق ابن الخطيب فوق هذه الارض التى كان رحمه الله ينعتها بالطيبة

فمن الطبيعي ومن المنطق ان يبادر المغرب الى احياء ذكرى هذا الرجل في مشهد يليق بمقامه كرجل ثقافة ، ويليق بعواطفه نحو المغرب ، لعله ينسخ مشاهد قتله التي لها في كل كتاب تحدث عنها ، فن تجريدي وآخر تشكيلي . وفي انتظار تحقيق امنية مثل هذا الاحتفال فانني اقترح على القائمين بامر مجلة « دعوة الحق » ان يناصروا دعوة الحق هذه ، وذلك باصدار عدد خاص عن لسان الدين ابن الخطيب . كما انني اطلب بهذه المناسبة من الصديق العزيز الاستاذ عبد الله كنون ان يهب لنجدتي في هذه الدعوة، خصوصا وانه كان قد سبق له ان هب لنجدتنا بالسلاح خلال ايام الكفاح المسلح ، فلا يعز عليه ، ان يهب لنجدتي اليوم بقلمه وآرائه وخصوصا في ميدان ابن الخطيب الذي يعد الاستاذ من فرسانه الشجعان الاشداء .

ان الشاعر ابن زيدون شخصية ادبية يستحق ان يحتفى بها ما في ذلك من شك . ولكن احتفاءنا نحن المغاربة بابن الخطيب يقتضي الاسبقية لانه سيكون احتفاء ورد اعتبار قبل ذلك .

الرباط : احمد زياد

يقول الكاتب الانجليزي (توماس كارليل) الذي وقف يرد على هؤلاء الذين رموا رسول الله صلى الله عليه وسلم — جهلا وكنودا — بقوارع الهجاء ، وقوانف الذم ، وقد رد عليهم بمقالة رائعة بعنوان : « البطل في صورة رسول الاسلام » وهي موجودة في كتابه الرائع : « في البطولة والابطال وعنصر البطولة في التاريخ » والتي يقول فيها :

« لقد اصبح من اكبر العار على اي فرد متمدين من ابناء هذا العصر ان يصغي الى ما يظن من ان دين الاسلام كذب ، وان محمدا خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التي اداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير لملايين من الناس طيلة هذه القرون » .



للأستاذ عبد القادر العافية

هذا كتاب جليل القدر كثير الفائدة ، وهو بالرغم من شهرة نسبته الى مؤلفه الامام البخارى رحمه الله فان نسخه الاصيلة قليلة لا يوجد منها الا عدد ضئيل يعثر عليها بصعوبة فى بعض المكتبات الاسلامية الكبرى وكثير من نسخ هذا الكتاب محشوة بالأخطاء والتصحيف ... وهو بالرغم من انه طبع منذ اول القرن الرابع عشر الهجرى الا انه كان يطبع طبعات رديئة مملوءة بالاخطاء غير مقابلة على النسخ التى يظن — على الاقل — انها تعتمد على الاصل اعتمادا صحيحا ... وبهذا بقى هذا الكتاب الجليل المفيد غير مطبوع طبعة صحيحة يطمأن اليها ، وغير متناول بالدراسات والتعليق تناولا يشفى الغليل .

ولعل اول من حاول محاولة جدية فى هذا الموضوع هو العالم الجليل السيد فضل الله الجيلانى الهندى الاستاذ بالجامعة العثمانية بحيدر آباد — الدكن — الذى عانى كثيرا من المشاق فى البحث عن نسخ « كتاب الادب المفرد » وعانى كثيرا فى المقابلة بينها ، ثم وضع للكتاب شرحا قيما سماه « فضل الله الصمد في توضيح الادب المفرد » .

وبذل الاستاذ فضل الله مجهودا مشكورا فى تصحيح سند الاحاديث ومقارنة سند بعضها بالاسانيد الاخرى ثم الاحالة على الكتب والابواب التى وردت فيها هذه الاحاديث من تصانيف المحدثين الكبار ، ومشيرا الى المواطن التى ورد فيها الحديث فى الجامع الصحيح للامام البخارى رحمه الله ، وبذل الاستاذ فضل الله الجيلانى مجهودا آخر فى التعليق على متن الحديث ، وبيان غوامض اسراره لغة ومضمونا مع ابداء الراى والتعقيب والتنبيه ، معتمدا فى ذلك كله على التآليف المفيدة والهامة فى الموضوع — كالفتح ، والارشاد ، وشرح الامام النووى على صحيح مسلم وغيرها ...

وكل هذه اعمال جليلة قدمها الاستاذ فضل الله خدمة لكتاب « الادب المفرد » للامام البخاري ، تلك الخدمة التى هي في الواقع خدمة لاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحدث الاستاذ الجيلانى فى مقدمته المفيدة عن الدوافع التى دفعته الى تحمل مشاق هذا العمل فى هذا الميدان المبارك فقال : « وقد جمعت بهذا العمل بين اربعة خلال ، اولاهن التيمن بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر اسوته المباركة وآدابه النافعة والتشرف بخدمة سنته وبالصلاة عليه لعل الله يحشرنى فى زمرة اولئك السعداء ، ثانيها الاخذ والتاسى بهذا العلم النافع لعل الله يغفر لي خطيئتي يوم الدين ويدخلنى جنة النعيم ، ثالثها ان ابرز لاخوانى المسلمين نسخة هذا الكتاب صحيحة سليمة من العيوب بقدر ما يسعه جهدي لعل دعوة واحد منهم تبلغني فانتفع بها ، رابعها ان اضع للناشرين مثالا يهتدون به اذا حدثتهم انفسهم ان يطبعوا كتابا من كتب اسلافنا » (1)

1) كتاب فضل الله الصمد فى توضيح الادب المفرد — ج — 1 — ص 19 و 20 — نشر وتوزيع المكتبة الاسلامية بحمص سنة 1388 هـ —1969 م .

وبهذه الاخراج المفيد لكتاب « الادب المفرد » مع التوثيق والتحقيق يكون العلامة فضل الله الجيلاني الهندي قد اسدى للامة الاسلامية خيرا مشكورا وعملا مهما ذا نفع عميم ...

والكتاب يقع في جزئين بضمان اكثر من اربعمائة والف صفحة . اما موضوع الكتاب فهو يستفاد من عنوانه الذي وضعه له مؤلفه الامام البخاري رحمه الله « الادب المفرد » والمراد به آداب النبي صلى الله عليه وسلم واخلاقه الكريمة وتوجيهاته وارشاداته القيمة ، وبوبه الامام البخاري الى اربعة واربعين وستمائة باب ، والباب الواحد قد يشمل احاديث وآثارا من توجيهاته وارشاداته القيمة صلى الله عليه وسلم ، تلك التوجيهات والارشادات الثمينة التي كان « ص » يتخلق بها ويوصي بها اصحابه والمؤمنين به ، وهي اخلاق وآداب عالية سامية ما احوج المسلمين اليوم الى التادب بها والتخلق بروحها .

عمل الامام البخاري رحمه الله في كتابه « الادب المفرد » على جمع الاداب النبوية في مختلف الميادين برواية ذلك عن الثقات من اساتذته وشيوخه مسندا كل حديث الى رواته مبينا اسماءهم او القابهم او كناهم ، بذلك تجمعت لديه مادة الكتاب الذي رتب احاديثه حسب الابواب التي يدل كل باب منها على الخلق الكريم من اخلاقه « ص » ، ومجموع هذه الاخلاق هو الدستور الاخلاقي لهذه الامة المحمدية التي وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » (2) وهو مصداق قوله « ص » « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ومصداق قول ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ لما سئلت عن اخلاقه (ص) : « كان خلقه القرآن » .

وبدا الامام البخاري كتابه هذا ـ بعد البسملة مباشرة بقوله رحمه الله : « باب قوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » ثم قال : « حدثنا ابو الوليد (3) قال حدثنا شعبة قال الوليد بن العيزار اخبرني (4) قال سمعت ابا عمر والشيباني (5) يقول : حدثنا صاحب هذه الدار واوما بيده الى دار عبد الله (6) قال سالت النبي (ص) : اي العمل احب الى الله عز وجل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم اي ؟ قال : ثم بر الوالدين ، قلت ثم اي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » قال : حدثني بهن ولو استزدته لزادني (7)

وهذا حديث جليل وعظيم ، لانه يشتمل على امهات الطاعات ، واتى به الامام البخاري رحمه الله بعد الاية الكريمة التي هي قول الله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » (8) منبها الى ما بين القرآن الكريم والحديث النبوي من التناسق والترابط ، والحديث الذي افتتح به كتابه الامام البخاري يشمل اهم الطاعات التي هي : الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد في سبيل الله . ثم عقب بعد ذلك بحديث آخر في نفس الموضوع الذي يتحدث عنه فقال : « باب بر الام » واتى على عادته بسلسلة الرواة « حدثنا ابو عاصم عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده ، قلت : يا رسول الله من ابر ؟ قال امك ، قلت من ابر ؟ قال : امك ، قلت من أبر ؟ قال : امك ، قلت من ابر ؟ قال : اباك ثم الاقرب فالاقرب »

---

2) الاية الرابعة من سورة القلم .

3) هو هشام بن عبد الملك الباهلي الطيالسي الحافظ متقن ثبت توفي سنة 227 هـ روى البخاري عنه في الجامع الصحيح مائة وسبعة احاديث .

4) من تقديم اسم الراوي على الصيغة اي اخبرني الوليد .

5) ابو عمر والشيباني هو : سعد بن اياس صاحب عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

6) دار عبد الله ، اذا اطلق الامام البخاري اسم عبد الله فالمقصود به هو : عبد الله بن مسعود .

7) ضمير الفاعل في زادني يعود على النبي صلى الله عليه وسلم ، وضمير المفعول الذي هو الياء بعد نون الوقاية يعود على عبد الله بن مسعود ، قال ابن حجر : وانما خص هذه الثلاثة بالذكر لانها عنوان ما سواها من الطاعات... فمن ضيعها فهو لما سواها اضيع .

8) الاية الثامنة من سورة العنكبوت المدنية .

وهكذا يسترسل الامام البخارى فى الاتيان بالاحاديث النبوية ، والآثار الموقوفة على الصحابة رضوان الله عليهم وكلما فرغ من باب فتح بابا اخر الى ان عقد اربعة وستين وستمائة باب كلها فى بيان كيفية الاداب مع الله ومع الخلق واحيانا حتى مع الحيوان الاعجم .

وفى موضوع بر الوالدين وحده عقد الامام البخاري اربعة وعشرين بابا ، ثم اردف ذلك بابواب فى وجوب صلة الرحم والحث عليها مع ذكر الوعيد الذى يهدد قاطع الرحم ... وتكلم عن ذلك فى ستة عشر بابا ، ثم بعد ذلك تكلم عن الاداب مع الموالى والاماء ... ثم مع الابناء والبنات ، ومع الجيران ... وآداب معاملة الايتام . والتواضع مع الخدم وحب الخير لهم ، ومعاملتهم بالحسنى ، ثم الحث على التعاون بين الناس والسعي في قضاء مصالحهم ...

وهي آداب شتى واخلاق كريمة تحث على المعاملة الطيبة بين الناس وتنظم علاقتهم على البر والمعروف والرأفة والرحمة ، والخير والتسامح ، والصفاء والمحبة والتنبيه الى ما يجب على الانسان من احترام الاخرين ، والسعى فى مصالحهم ، وعدم التكبر والتحقير والسخرية ... مع الحث على الصبر وحسن المعاملة ولين الكلام ، واماطة الاذى عن الناس وحتى عن طريقهم .. وعدم التحريش بين البهائم ...

فكتاب الادب المفرد للامام البخارى رحمه الله جمع كثيرا من الآداب التى حث عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي آداب جمة وكثيرة تشمل سلوك الانسان مع نفسه ومع غيره فى الرضى والغضب والسفر والحضر ، والدين والدنيا ، والآلام والآمال ، وفى المحافل والماتم ، وفى المنشط والمكره ... لان حياة الناس بعضهم مع بعض تحتاج الى كثير من الآداب ومن الانظمة الخلقية التى على الناس ان يتعودوها حتى يطمئنوا اليها ويتخلقوا بها ، وبتعودهم على ذلك تقل او تنعدم نوازع الشر فى الانسان من شر ، وظلم ، وطغيان ، وجفاء ، وعدم المبالاة بالآخرين ، وبما يقاسمونه من حرمان وتعاسة وشقاء ...

تلك آداب نبوية سامية تنظم حياة الافراد والجماعات الانسانية على وجه هذه الارض ، وهي آداب واخلاق تتضاءل امامها الاخلاق الفلسفية والحكم البشرية ، لانه صلى الله عليه وسلم قال : « أدبني ربى فاحسن تاديبى » فهي اذا آداب ربانية أدب بها خالق الخلق عبده ورسوله محمدا (ص) ليكون قدوة واسوة حسنة للعالمين ، وليكون نبراسا اخلاقيا وطبيبا نفسانيا يداوى بالآداب التى ادبه بها ربه ما جبلت عليه النفوس البشرية من انانية وزيغ وهوى وشره وبطر ...

هي آداب اوحى بها عالم السر والنجوى ، الخبير بالخفايا والخبايا الذي خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه فهو وحده سبحانه القادر على معالجة هذه النفوس التي هو خالقها وهي صائرة اليه .

هي آداب تصغر امامها كل آداب لا تنهل من فيض معينها ...

ورحم الله الامام البخارى خادم السنة النبوية والآداب المحمدية فهو بحق امير المؤمنين فى الحديث، وطبيب علله وخبير اسراره وناظم لآلئه ودرره ، ومنسق جواهره ويواقيته وجمانه ، رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عن الاسلام والمسلمين احسن الجزاء ، واثابه اثابة المتقين الاوفياء ، ونفع الامة الاسلامية بكتبه القيمة التى هي على قيد الوجود ، ويسر سبحانه العثور على ما هو منها مفقود ، حتى تزيد الفائدة وتعم . ومن المؤسف ان بعض مؤلفات الامام البخارى لا تزال مفقودة لانه رضى الله عنه له مؤلفات عديدة ، منها كتابنا هذا الذى نتحدث عنه « الادب المفرد » ، ومنها الجامع الصحيح ، و « بر الوالدين » ، و « كتاب الهبة » ، و القراءة خلف الامام » ، « و رفع اليدين فى الصلاة » ، و « خلق افعال العباد » ، و « التاريخ الكبير » ، و « التاريخ الاوسط » ، و « التاريخ الصغير » ، و « الجامع الكبير » ، و « المسند الكبير » ، و « التفسير الكبير » ، و « كتاب الاشربة » ، و « كتاب العلل » و « اسامي الصحابة » ، و « ثلاثيات البخاري » ، و « كتاب المبسوط » ، و « كتاب الكنى » ، و « كتاب الفوائد » .

وبعض هذه الكتب مفقودة لحد الآن

وهذه جولة قصيرة مع الامام البخارى فى كتابه الادب المفرد ، وهي جولة كنا نتمنى ان تطول لانها تعرفنا بمصدر من مصادر آدابنا واخلاقنا كامة اسلامية ، تلك الآداب والاخلاق التى تنكرنا لكثير منها

اليوم ، والتي اصبحت تحل محلها آداب واخلاق بعيدة كل البعد عن روح الاسلام الصحيح ، وبعيدة عن مقومات الانسانية الحقة ، آداب واخلاق صادرة فى معظمها عن جاحدى مهمة الرسل ومنكرى البعث والحشر ... وهي اخلاق تنظم الدنيا تنظيما ماديا ينظر الى العاجل ولا ينظر الى الآجل ، تحترم القوى ولا يهمها امر الضعيف ، وهي اخلاق لا تعرف للحياء معنى ، وهي اخلاق جعلت من الناس عناصر وطبقات ، وميزت بين الوانهم واجناسهم ، ولا تعترف بان الناس سواسية كاسنان المشط ، ولا بان الناس كلهم من آدم وآدام من تراب .

انظمة لها مذاهب وتيارات بعضها ينسفه بعضا ، جعلت من الناس طوائف متصارعة متنابزة ، حاقدة على بعضها ، ناقمة ... وجعلت من الجاسوسية والمؤامرات والكيد والمخابرات ... جعلت من كل ذلك شرعة ومنهاجا ، هي اخلاق شرعت فيما شرعت : ـ الغاية تبرر الوسيلة ـ مهما تكن هذه الوسيلة ... زنى او قذف او قتل .... وتنكرت للروح وللوزاع الخلقى فى الانسان .

تلك هي بعض الآداب المستوردة والتى اصبحت تحل فى مجتمعنا الاسلامى محل الآداب النبوية ، والاخلاق المحمدية التى هي اخلاق القرآن الكريم المنزل من عند رب العالمين

فكتاب الادب المفرد للامام البخاري رضي الله عنه هو تسجيل لما صح عند مؤلفه من آداب النبي صلى الله عليه وسلم ، مع ان آدابه صلى الله عليه وسلم هي آداب جمة لا يسعها كتاب واحد ، ولا عدة كتب ، لانها آداب رسول بعث ليتمم مكارم الاخلاق ... وعلى المسلمين ان يتخلقوا فى سلوكهم ومعاملاتهم باخلاق نبيهم الكريمة التى حثهم على التخلق بها ، والتى ان تخلقوا بها لبث عزهم ورجحت مكانتهم ولله در شوقى القائل :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت
فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فالامم الاسلامية يثبت عزها وترسخ مكانتها بقدر بقاء اخلاق نبيها فيها ، فان هي حادت عن اخلاق رسولها الذى هو رسول رب العالمين حاد عنها التوفيق وحاد عنها الفلاح والنصر ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، وصدق الله العظيم ورحم الله الامام البخارى الذى اتحف الامة الاسلامية بكتابه القيم « الادب المفرد » .

تطوان : عبد القادر العافية

الانبياء للهداية ...

كتب احد الولاة الى الخليفة عمر بن عبد العزيز ان الجزية نقصت فى بيت المال ، لكثرة الداخلين فى الاسلام ، ويستاذنه فى ابقائها مع ان الاسلام يوجب رفع الجزية عمن اسلم ، فقال عمر :

قبح الله رايك ، ما بعث الله محمدا جابيا ، بل هاديا ...



مع ابن الازرق في مخطوطته

للدكتور عبد الهادي التازي

- 2 -

رتب الكاتب ابن الازرق مؤلفه ترتيبا دقيقا وفصله تفصيلا متقنا أمكن معه ان نستخلص للمخطوط فهرسا تقريبا يستوعب سائر مادته ويعطي فكرة عن محتوياته سواء منها رؤوس الاقلام او ما يتدرج او يتفرع على تلك الرؤوس .

ولعل من المفيد ان نتحمل استعراض هذا الفهرس أمامنا لتشوق الباحثين لمراجعة المخطوط واستشارته وذلك قبل ان نقدم الفن الذي وقع عليه اختيارنا ...

يستهل الكتاب بمقدمتين الاولى في تقرير ما يوطن للنظر في الملك عقلا وفيه عشرون سابقة ... بينما تعالج المقدمة الثانية تمهيد اصول من الكلام في الملك شرعا وفي هذه عشرون فاتحة .

وبعدها يجزيء المخطوط الى كتب اربعة ، وخاتمة .

الكتاب الاول : في حقيقة الملك والخلافة وسائر انواع الرياسات وفيه بابان : الاول في حقيقة ذلك وفيه ثلاثة انظار ، النظر الأول في حقيقة الملك وفيه خمس مسائل .. النظر الثاني في حقيقة الخلافة وفيه خمس مسائل ... النظر الثالث في سائر انواع الرياسات ... اما الباب الثاني فهو في سبب وجود الملك وشرطه والنظر في طرف سببه وما به قضى الله ذلك الشرط وهو الحرب والقتال وفيه ثلاثة اطراف : الطرف الاول في سبب وجود الملك ، الثاني في شرط وجود الملك وهو العصبية او ما يقوم مقامها ، الثالث في الحروب التي تفضي اليها العصبية في طلب الملك او الدفاع عنه او غير ذلك وفيه ذكر الامم في ترتيبها وما يلزم في تدريبها من الأدب والمكائد .

الكتاب الثاني : في اركان الملك وقواعد مبناه ضرورة وكما لا وفيه بابان : الاول في الافعال التي تقام بها صورة الملك ووجوده وهي عشرون ركنا : الركن الاول ، نصب الوزير وفيه مقدمتان وثلاثة مطالب — الثاني ، اقامة الشريعة — الثالث : اعداد الجند — الرابع : حفظ المال — الخامس تكثير العمارة وفيه مقدمتان وثلاثة مقاصد — السادس : اقامة العدل — السابع : تولية الخطط الدينية — الثاني : ترتيب المراتب السلطانية — التاسع رعاية السياسة — العاشر — مشورة ذوي الراي وفيه مقدمات ومقامات الحادي عشر : بذل النصيحة — الثاني عشر في احكام التدبير — الثالث عشر : تقويم الولاة والعمال — الرابع عشر : كثرة اتخاذ البطانة واهل البساط — الخامس عشر : تنظيم المجلس — السادس عشر : تقدير الظهور والاحتجاب — السابع عشر : رعاية الخاصة والبطانة — الثامن عشر : ظهور العناية لمن له الحق — التاسع عشر : مكافاة ذوي السوابق — العشرون : تخليد مفاخر الملك ومئاثره ، اما الباب الثاني ففي الصفات التي تصدر منها تلك الافعال على أفضل نظام ، والمقرر منها عشرون قاعدة ومقدمات

القاعدة الاولى : العقل وفيها مسائل .

الثانية : العلم وفيها مسائل .

الثالثة : الشجاعة وفيها نظران .

الرابعة : العفة وفيها مسائل .

الخامسة : السخاء والجود ، وللنظر فيهما منهاجان .

السادسة : الحلم وفيها مسائل

السابعة : كظم الغيظ والغضب ، وفيهما طرفان .

الثامنة : العفو وفيها مسائل .

التاسعة : الرفق وفيها مسائل .

العاشرة : اللين .

الحادية عشرة : التثبت وفيها مسائل .

الثانية عشرة : الوفاء بالعهد وبالوعد وفيه طرفان .

الثالثة عشرة : الصدق والكذب وفيها مسائل .

الرابعة عشرة : كتم السر وفيها مسائل .

الخامسة عشرة : الحزم وفيها مسائل .

السادسة عشرة : الدهاء والتغافل وفيهانظرات

السابعة عشرة : التواضع وفيها ثلاثة مطالب .

الثامنة عشرة : سلامة الصدر من الحقد والحسد وفيه طرفان .

التاسعة عشرة : الصبر وفيه مسائل .

العشرون : الشكر وفيه مسائل ...

الكتاب الثالث : فيما يطالب به السلطان تشييدا لاركان الملك وتأسيسا لقواعده وفيه مقدمة وبابان .

المقدمة فى التحذير من محظورات تخل بذلك المطلوب شرعا وسياسة .

الباب الاول : فى جوامع ما به السياسة المطلوبة من السلطان ومن يليه وفيه ثلاثة فصول : الفصل الاول ، فى سياسة السلطان ويندرج تحته سياسات الاولى سياسة الرعية .

الثانية : سياسة الامور العارضة التي هي الجهاد والسفر والشدائد النازلة والرسالة والوفود .

الفصل الثاني : فى سياسة الوزير وفيه ثلاثة سياسات ...

الفصل الثالث فى سياسة سائر الخواص والبطانة فى صحبة السلطان وخدمته .

اما الباب الثاني ففي واجبات يلزم السلطان سياسة القيام بها وفاء بعهدة ما تحمله وطلب منه :

والواجب الاول حفظ الدين .

والواجب الثاني تنفيذ الاحكام بين المستشارين وقطع الخصام بين المتنازعين .

والواجب الثالث اقامة الحدود وفيه مسائل ، والواجب الرابع فى عقوبة المستحق وتعزيره .

الواجب الخامس رعاية اهل الذمة وفيه مسائل...

الكتاب الرابع فى عوائق الملك وعوارضه وفيه بابان :

الاول فى عوائق الملك المانعة من دوامه وفيه ثلاثة انظار :

النظر الاول فى التعريف بالعوائق :

العائق الاول حصول الترف والتعميم للقبيلة .

الثاني لحاق المذلة للقبيل .

الثالث : استحكام طبيعة الملك .

الرابع : ارهاف الحد .

الخامس : الحجاب الواقع دليلا على الهرم .

السادس : حجر السلطان والاستبداد عليه .

السابع : استظهار السلطان على قومه .

الثامن انقسام الدولة الواحدة بدولتين .

النظر الثاني : فى التعريف بكيفية طروء الخلل الى الدول .

النظر الثالث : فى التعريف بان مقتضى الانذار يمنع دوام الملك .

اما الباب الثاني ففي عوارض الملك اللاحقة لطبيعة وجوده وفيه اربعة فصول :

الفصل الاول فى عوارض الملك من حيث هو وفيه مسائل .

الثاني فى اختيار المنازل الحضرية وفيه مسائل.

الثالث فى اكتساب المعاش بالكسب والصنائع وفيه مسائل .

الرابع فى اكتساب العلوم وفيه مسائل ...

الخاتمة فى سياستى المعيشية والناس وفيها مقدمتان وسياستان :

المقدمة الأولى فى التقوى ، والثانية فى حسن الخلق وفيها مسائل .

السياسة الاولى : سياسة المعيشة ، وفيها ثلاثة مطالع ، المطلع الاول فى كليات مما تدبر به المعيشة من جانب الوجود وفيه اثارات ... المطلع الثاني فى امهات مما تحفظ به من جانب العدم وفيه اضاءات .

المطلع الثالث : فى مهمات دينية يعتبر بها حفظ المعاش من جانبي الوجود والعدم وفيه لوامع ...

السياسة الثانية : سياسة الخلق وفيه مقدمات وست مسائل :

الاولى فى ملك اللسان .

الثانية ملك الحواس .

الثالثة فى صورة الانسان ظاهرا وباطنا .

الرابعة فى احوال الانسان الخارجة عنه .

الخامسة فى الاخوان والصديق .

السادسة فى المعارف ...

وضمن الكتاب الثالث : حول ما يطالب به السلطان تشييدا لاركان الملك وتاسيسا لقواعده يوجد الباب الاول فى جوامع السياسة المطلوبة من السلطان ...

وهذا الباب يتفرع الى ثلاثة فصول الأول فى سياسة السلطان ، وتحت هذا سياسات كما اسلفنا .. وفى مبحث السياسة الثانية نجد تفصيلا عن الامور العارضة كما تقدم وقد عالج العارض الرابع موضوع الرسالة كما عالج العارض الخامس موضوع الوفود،

وكلا العارضين الرابع والخامس نقترح على القراء مطالعتهما معنا تاكدا من اسلوب الكتاب وعلو نفس مؤلفه وبعض المصادر التي يعتمدها او يتأثر بها ... مؤملين من ذلك مزيد التفات النظر لهذا المؤلف الجميل:

قال ابن الازرق تحت عنوان العارض الرابع :

« ... ولموقعها — اي الرسالة — من الملوك عند الحاجة اليها تخصها رعايات من السياسة سابقة ولاحقة .

الرعاية الاولى : تحقق ان موقع الرسول من السلطان موقع الدليل من المدلول والبعض من الكل، ففي سياسة ارسطو (1) : اعلم ان الرسول يدل على عقل من ارسله اذ هو عينه فيما لا يرى واذنه فيما لا يسمع ولسانه فيما غاب عنه . وقالوا : الرسول قطعة من المرسل قلت : ومن المشهور قولهم ثلاثة دالة على صاحبها : الرسول على المرسل والهدية على المهدي والكتابة على الكاتب .

الرعاية الثانية اختيار من يرضى لها لاجل هذا الموقع ففي بقية كلام ارسطو المتقدم مقررا لما يترتب عليه : « فيجب ان تختاره ارفع من فى حضرتك عقلا وبصيرة وهيبة وأمانة تجنبا لجميع الريب .

اذا كنت متخذا رسولا
فلا ترسل سوى رجل نبيل
فان النجح فى الحاجات ياتي
لطالبها على قدر الرسول

الرعاية الثالثة : تقسيم الارسال بحسب اتصالهم بما يطلب فيهم الى ثلاثة كما يظهر من كلام ارسطو : اولهم الكامل الاتصاف بما شرط فيه وهو المفوض اليه بعد المعرفة بغرض مرسله ولذلك لا يوصى لاحتمال ان يرى عند المشاهدة ان الصواب فى غير ما وصى به ، قال :

اذا كنت فى حاجة مرسلا
فارسل حكيما ولا توصه
وان باب امر عليك التوى
فشاور لبيبا ولا تعصه (2)

---

1) الف ارسطاطاليس كتابه السياسة فى تدبير الرياسة لتلميذه الملك الاسكندر بن فيليس اليوناني ، وفى مكتبة برلين نسختان منه ، وقد نقله الى العربية يوحنا البطريق .

2) البيت لعبد الله بن جعفر بن ابي طالب . راجع كتاب رسل الملوك تاليف ابن الفراء تحقيق الدكتور .. صلاح الدين 8 الفخرى فى الآداب السلطانية ص 70 .

بقية ارسطو المتقدم معنى الحكاية [illegible] عليه فيجب ان تختار وارفع من بين حضرته
عقله وبصيرة ونبه واهلية وتجنب الجميع الريب
اذا ما كنت في حاجة مرسلا
فلا ترسل سوى رجلا نبيل
وان انفع في الحاجات [illegible]
تطالبها على قدر الرسول
الى علية الثالثة تقسم الرسل بحسب اختلافهم فيما يطلب منهم الى
ثلاثة لا يخرج من كلام ارسطو احدها الا [illegible] شيء [illegible]
وهو [illegible] بعضهم [illegible] ولذلك لا يوصى [illegible]
[illegible] الصواب في [illegible]
اذا كنت في حاجة مرسلا
فارسل حكيما ولا توصه
وان باب [illegible] التوى
[illegible] ولا تعصه
الثاني المتوسط بين الاختلاف [illegible] على التفنن [illegible]
وهو المقتصر على ما القي اليه من غير زيادة [illegible] الجواب عليه [illegible]
[illegible] الثالث المقتصر على [illegible] وهو الموجب [illegible]
[illegible] والعجب [illegible] انه لا يعطى من [illegible] الرسال وانما [illegible]
ورقته [illegible] عنهم [illegible] الى [illegible] اجتنابا بتخصيص الوزير [illegible]
كان متصفا باكمل الصفات وجمعها [illegible] ارسطو [illegible]
[illegible] فانه [illegible] الوزير
من السلطان [illegible] السلطان [illegible] عن السلطان
[illegible] الوزير [illegible]
[illegible]
[illegible] كما يحكي ابن رضوان ان الوزير الشهير ابا عبد الله بن
الحكم لما وفد رسولا عن سلطانه ملك الاندلس على السلطان ابي يعقوب
ملك المغرب قال له ما طلب سلطانك بعد ان فعلنا له كذا واسعفناه بكذا و
عدد ما قدمه اليه من الصنائع الحسنة فقال له نعم يا مولانا رضي الله عنكم
كل ذلك كان ولم ينكره مولاي ولا جهله لكن لسان حاله ينشد

ابا ملبس

النسخة د / 582 ... كما يحكي ابن رضوان ان الوزير الشهير ابا عبد الله بن الحكم (صوابه : الحكيم) لما وفد رسولا عن سلطانه ملك الاندلس على السلطان ابي يعقوب ملك المغرب قال له : ما طلب سلطانك بعد ان فعلنا له كذا واسعفناه بكذا .. وعدد ما قدمه اليه من الصنائع الحسنة ، فقال له نعم يا مولانا رضي الله عنكم ، كل ذلك كان ولم ينكره مولاي ولا اجهله لكن لسان حاله ينشد : ابا ملبس (البيت)

الثاني المتوسط للاتصاف اقتصارا على الثقة والامانة والتقيظ وهو المقصور على ما القى اليه من غير زيادة ولا نقص ليؤدي الجواب عليه كما سمعه .

الثالث المقتصر على الامانة فقط وهو الموجه بكتاب ليأتي بجوابه . قلت : والعرف الآن انه لا يعد من الأرسال وانما يسمى رقاصا ورتبته مختلفة عنهم بكثير .

الرعاية الرابعة : اجتناب تخصيص الوزير بها وان كان المتصف بأكمل الصفات وأجمعها ، ففي سياسة أرسطو : اياك ان ترسل وزيرك ولا تخرجه من حضرتك فان فى ذلك فساد ملكك » قلت : لان منزلة الوزير من السلطان منزلة السلطان من الرعاية فكما لا تستغني الرعية عن السلطان لا يستغني هو عن الوزير ، وقد تقدم تقريره ..

الرعاية الخامسة اعتماد التلطف فى الوصول الى المقصود بها والتيقظ لوجوه التصدي اليه تحصيلا واستجلابا كما حكى ابن رضوان (3) ان الوزير الشهير ابا عبد الله بن الحكيم (4) لما وفد رسولا عن سلطانه ملك الاندلس على السلطان ابي يعقوب ملك المغرب قال له : ما مطلب سلطانك بعد ان فعلنا له كذا واسعفناه بكذا وعدد ما قدمه اليه من الصنائع الحسنة فقال له : نعم يا مولانا رضي الله عنكم ، كل ذلك كان ولم ينكره مولاى ولا اجهله لكن لسان حاله ينشد :

ايا ملبسي النعما التي جل قدرها
لقد خلقت تلك الثياب فجدد !

قال فاكمله مطالبه ووفي بحسن تلطفه مآربه

الرعاية السادسة : اتقاء التساهل فى اختيار الرسول لما يؤدي اليه من عظيم الضرر مع الموالي والمعادي ، فعن بعض الحكماء : « اختر رسولك فى الحرب والمسالمة فان الرسول يلين القلوب ويخشنها ويبعد الامور ويقربها ويصلح الود ويفسده » وكان اردشير يقول : كم من دم سفكه الرسول بغير حق ، وكم من جيوش قد قتلت وعساكر قد انتهكت وقال قد نهب وعهد قد نقض بخيانة الرسول وكذبه (5) .

الرعاية السابعة : امتحان الرسول عند ترشيحه للرسالة ، قال الجاحظ : « من الحق على الملك ان يمتحن رسوله محنة طويلة قبل ان يجعله رسولا » ثم حكى عن ملوك الاعاجم انها كانت تمتحن من تختاره للرسالة بجعله رسولا الى بعض خاصته مع جعل عين عليه ، فاذا طابق ما احصاه العين عليه

---

3) هو رئيس الكتاب الصدر البليغ ابو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري من اهل مالقة كان من اعيان كتاب السلطان المستعين بالله سالم المريني — النفح ج 6 ر 107 .

4) اجمعت النسخ المخطوطة التي اشرنا اليها على تسميته هكذا : ابن الحكم والصواب ابن الحكيم وهو ذو الوزارتين ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم عبد الرحمن بن ابراهيم بن يحيى اللخمي الرندي واهل سلفه من أعيان اشبيلية ثم انتقلوا الى رندة فى دولة بني عباد ، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطبه ، وقد تقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة ايام السلطان ابي عبد الله محمد بن محمد ابن نصر اثر عودته من الحج فى رحلته التي رافق فيها العلامة ابا عبد الله بن رشيد الفهري فالحقه السلطان بكتابه الى ان توفى هذا السلطان وتقلد الملك بعده ولي عهده ابو عبد الله المخلوع فقلده الوزارة والكتابة ثم لقبه بذي الوزارتين ، ولكن السياسة لم تشغله عن المطالعة والدرس .. الى ان توفى بحضرة غرناطة قتيلا غدوة يوم الفطر شوال سنة ثمان وتسعمائة يوم خلع سلطانه ، ومن شعره :

فقدت حياتى بالعراق ومن غدا بحال نوى عمن يحب فقد فقد
ومن اجل بعدي عن ديار الفتها جحيم فؤادي قد تلظى وقد وقد !

وقد ورد ابن الحكيم سفيرا على السلطان ابي يعقوب يوسف عام 701 صحبة الوزير عبد العزيز الداني لاحكام عقد الموالاة بين الاندلس والمغرب وقد تم اللقاء بضواحي تلمسان ، مما قيل فى رثائه :

قتلوك ظلما واعتدوا فى فعلهم حد الوجوب
ورموك اشلاء وذا امر قضته لك الغيوب
ان لم يكن لك سيدي قبر فقبرك فى القلوب

الاحاطة 2ر180 — النفح 2ر618 — 5ر598 الاستقصا 3ر82 .

5) التازي : تاريخ المغرب الدبلوماسي — طبعة فضالة ص 8 — 9 .

وعلم صدق لهجته جعله رسولا الى عدوه مع بعث العين ، فان اتفقا فيما رجعا به وعلم ان قد صدقه صيره رسولا الى ملوك الامم ووثق به وأتام بعد ذلك خبره مقام الحجة . انتهى ملخصا .

الرعاية الثامنة : ارداف الرسول بثان أو ثالث او رابع ؛ وان كانا اثنين فذلك مما أخذ به بعض حكماء الملوك مبالغة في التحفظ من خيانة الرسول او تقصيره فعن اردشير انه كان يقول : « يجب على الملك اذا وجه رسولا الى ملك آخر ان يردفه بآخر . وان وجه رسولين ان يتبعهما باثنين فان امكنه ان لا يجمع بين رسولين في طريق ولا ملاقاة ولا يترافقا فيتوافقا فعل (6) . قلت : وهذه مبالغة بعسر العمل بها والميسور منها لا يترك .

الرعاية التاسعة : تربص العمل بمقتضى ما ورد به الرسول حتى يوقف على حقيقته من جهة اخرى ، ذكر الجاحظ قائلا (7) على السلطان اذا عاد اليه رسوله بكتاب او رسالة من ملك في خير او شر ان لا يحدث في ذلك امرا حتى يكتب اليه مع رسول آخر بحكاية كتابه الاول حرفا فان الرسول ربما احرم بعض ما امل فافتعل الكتاب وحرض المرسل على المرسل اليه واغرى به كذبا عليه . ثم حكى ما اتفق لرسول عن الاسكندر لما أمر بخلع لسانه من قفاه حين وقف على زيادة منه تعرفها باعادة الرسول الى من كذب عليه ذلك الرسول . قلت : « الوقوع في ذلك نادر والتحفظ منه بهذه المبالغة ربما يتعذر فلا توقف لما ذكر ، والصواب ما يقتضيه الحال والله تعالى المرشد اليه والمعين لمن شاء عليه .

الرعاية العاشرة : تعلم الرسول ما يجب عليه شرعا وسياسة ؛ فقد قال النووي في فضل معرفة ما يحتاج اليه المسافر حسبما تقدم عنه : « ان كان رسولا عن سلطان او نحوه اهتم بتعلم ما يحتاج اليه من آداب المخاطبات واجوبة المحاورات وما يحل من الضيافات والهدايا وما يجب عليه من رعاية النصيحة وتوقي الغش والخداع والنفاق والحذر ومن التسبب في مقدمات العذر الى غير ذلك مما يتعين عليه . انتهى. تتميم . من مستحسن ما وفت به الارسال من حقوق مرسلها في الثناء عليه بحسن السيرة على ابلغ بيان فأحدث به الجاحظ عن الفضل بن سهل قال : كانت رسل الملوك اذا جاءت بالهدايا للمامون يجعل اختلافهم الي ، فكنت اسأل رجلا منهم عن سير ملوكهم واخبار عظمائهم ؛ فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم فقال : بذل عرفه وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة ، لا يبطر جنده ولا يحوج رعيته سهل النوال حزن النكال ، الرجاء والخوف معقودان في يده ، فقلت : وكيف حكمه ؟ قال: يرد الظلم ويردع الظالم ويعطي كل ذي حق حقه ، فالرعية اثنان راض ومغتبط . قلت : وكيف هيبتهم له؟ قال : يتصور في القلوب فتغضى له العيون . قال فنظر رسول ملك الحبشة الى اصغائي له واقبالي عليه فسأل ترجمانه : ما الذي يقول الرومي ؟ قال له : يذكر ملكهم ويصف سيرته . فتكلم مع الترجمان بشيء فقال لي الترجمان : انه يقول : ان ملكهم ذو اناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب وذو سطوة عند المغالبة وذو عقوبة عند الاحترام ، وقد كسى رعيته جميل نعمته وخوفهم عنيف عقوبته فهم يتراؤنه ترائي الهلال خيالا ويخافونه مخافة الموت نكالا وسعهم عدلهوردعتهم سطوته ، فلا تمتهنه مزحة ولا توهنه غفلة ، اذا اعطى اوسع واذا عاقب اوجع ، فالناس اثنان راج وخائف فلا الراجي خائف الامل ولا الخائف بعيد الاجل ، قلت فكيف هيبتهم له ؟ قال : لا ترفع العيون اليه اجفانها ولا تتبعه الابصار ان ساءها ، كأن رعيته قطا رفرفت عليهم صقور صوائد (8) فحدث المامون بهذين الحديثين فقال : كم قيمتهما عندك ؟ قلت : الفا درهم . قال : يا فضل ان قيمتهما عندي اكثر من الخلافة ؛ اما علمت قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه : قيمة كل امرىء ما يحسن ، فتعرف احدا من الخطباء البلغاء يحسن ان يصف احدا من خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هذه الصفة ، فقد امرت لهما بعشرين الف دينار واجعل العذر مادة بيني وبينهما في الجائزة فلولا حقوق الاسهام واهله لرايت اعطاءهما ما في بيت مال العامة والخاصة دون ما يستحقانه .

وبعد هذا مباشرة ينتقل ابن الازرق للفصل التالي تحت عنوان (العارض الخامس الوفود) .

وللسياسة الفاضلة بهم عنايات .

العناية الاولى احتفال السلطان للقائهم باظهار زينة الملك وجماله ، فقد كان للنبي صلى الله عليه

---

6) رسل الملوك ص 25 .
7) التاج في اخلاق الملوك .
8) رسل الملوك ص 31 .

وسلم حلة يتجمل بها للوفود والعظماء ، قال القرافي: وذلك اهيب واوقع في النفوس واجدر لحصول التعظيم في الصدر ، قال ابن رضوان : فهو امر عادي شرعي .

العناية الثانية : اكرام من يرد منهم من ذوي النباهات في قومه ، وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لماوفد عليه زيد الخيل بسط له رداءه واجلسه عليه وقال : اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه .

العناية الثالثة : حسن الاقبال عليهم بالتلطف لهم في الخطاب تانيسا لهم وادلالا ، ففي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رفيقا بالوفود ، قلت كقوله صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس : مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى .

العناية الرابعة : الاذن في الكلام لمن هو اهل في المقام السلطاني ليلا يتجاسر عليه من لا يستحقه ، ففي وفادة قريش على سيف بن ذي يزن قوله لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان لا يعرفه واراد ان يتكلم : « ان كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد اذنا لك » ، وفي وفادة الحجازيين على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قوله للغلام الذي تصدر للكلام : ليتكلم من هو اسن منك)

العناية الخامسة : افاضة الاحسان على وفد التهنئة مبالغة في البر بهم وادخال السرور عليهم ، قال ابن رضوان : وهي من سنن الملوك الحسنة وكانها في معرض شكر الله تعالى بادخال المسرة على خلقه على النعمة المهنا بها ...

انتهى .

شرح اشارة تقدمت بحكايتين فيهما جمل من آداب هذا المقام .

الحكاية الاولى : قضية وفادة قريش على سيف ابن ذي يزن : يروى عن ابن عباس رضي الله عليه وسلم اتاه وفد العرب واشرافهم وشعراؤهم لتهنئته ومدحه ، واتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم وامية بن عبد شمس وخويلد بن اسد في عدة من وجوه قريش واهل مكة واتوه بصنعاء وهو في قصره الذي يقال له غمدان ، فاستاذنوا عليه وهو متضمخ بالعنبر يبض المسك من مفارقه وعن يمينه ويساره الملوك وابناء الملوك ، فاستاذن عبد المطلب في الكلام وكان اجل القوم قدرا واعظمهم فخرا واعلاهم نسبا واكرمهم حسبا ولم يكن سيف يعرفه فقال له : ان كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد اذنا لك ، فقال عبد المطلب: ايها الملك ان الله عز وجل قد احلك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا وانبتك نباتا طابت ارومته واعزت جرثومته وثبت اصله وبسق فرعه في اكرم معدن واطيب موطن ، وانت راس العرب وربيعها الذي به تخصب وعمودها الذي عليه العماد ومعقلها الذي يلجا اليه العباد ، سلفك خير سلف وانت فيهم خير خلف ولن يخمل ذكر من انت خلفه . ايها الملك نحن اهل حرم الله وسدنة بيته ، اشخصنا اليك الذي بابهجنا بك ، فنحن وفد التهنئة لا وفد التعزية . قال : فايهم انت ايها المتكلم ؟ قال : انا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، قال : ابن اختنا ؟ قال : نعم ، قال : ادن . فادناه ، ثم اقبل عليه وعلى القوم ، وقال: مرحبا واهلا وناقة ورحلا وامنا ومناخا سهلا وملكا فحلا يعطي عطاء جزلا ، قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم ، لكم الكرامة ما اقمتم والحباء اذا ظعنتم ، فاخبره ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم من قومه وامر لكل واحد منهم بمائة من الابل وعشرة عبد وعشر اماء وعشرة ارطال ذهبا وعشرة ارطال فضة وكرش عنبر ... وامر لعبد المطلب بعشرة امثال ما امر لهم .

الحكاية الثانية خبر وفد الحجازيين على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : يروى انه لما ولي الخلافة وفد عليه وفود من كل بلد ، فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام منهم للكلام وكان حديث السن فقال له عمر : ليتكلم من هو اسن منك ، فقال له : اصلح الله امير المؤمنين انما المرء باصغريه قلبه ولسانه فاذا منح الله عبدا لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه من الانام .

ولو ان الامر يا امير المؤمنين بالسن لكان في مجلسك هذا من الامة من هو احق منك : فقال : نعم صدقت ، قل ما بدا لك ، فقال الغلام : اصلح الله امير المؤمنين نحن وفد تهنئة لا وفد تعزية ، وقد اتيناك لحق الله الذى من علينا بك ، لم يقدمنا اليك رغبة ولا رهبة اما الرغبة فقد اتتنا منك ، واما الرهبة فقد امنا جورك بعدلك ، فقال له عمر : عظني يا غلام فقال : اصلح الله امير المؤمنين ان ناس من الناس غرهم حلم الله تعالى وطول آمالهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت اقدامهم فهووا في النار فلا يغرنك حلم الله تعالى وطول املك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم فلا جعلك الله منهم والحقك

النسخة د / 1340 آخر ورقة من المخطوط التي تعالج كمسكة الختام ـ بيان ما يدل من الاخبار على فضل النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا نزل به الامر فوض المخرج فيه الى الله تعالى ، احب الطعام اليه ما كثرت عليه الايدي ... اكثر لباسه البياض ... لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفوا ويصفح .. اجود الناس كفا واوسعهم صدرا واصدقهم لهجة .... صلى الله عليه وسلم ... وعلى آله الابرار وأصحابه الناصحين له في الاعلان والاسرار ما تعاقب الازمان يوما وغدا ، وراح اليه مشتاق الوصول غدا » ويلاحظ ان هذه النسخة كملت يوم 13 جمادى الثانية 1268 .

بصالح هذه الأمة . ثم سكت فسأل عمر عن سن الغلام فاذا هو ثمان عشرة سنة ثم سأله عن نسبه فاذا هو من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتمثل بقولـــه :

تعلم فليس المرء يولـــد عالمـــــا
وليس اخو علم كمن هـــو جاهـــل

فان كبير القوم لا علـــم عنـــده
صغير اذا التفت عليه المحافـــل

وان صغير القوم ــ والعلم عنده ــ
كبيـــر اذا ردت اليه المسائـــل

*

لعل جولة القارىء فى كل تلك الرعايات والعنايات والسياسات تعطيه نظرة عن مخطوطة ابن الازرق التي كانت محل اهتمام وتتبع من سائر الملوك والقـــادة الذين وجدوا فيها سلوى لهم عند الاذكار ومرشـــدا لهم وقت الاختيار واذا كانت الاستطرادات فى بعض الأحيان مما لا يستسيغه التسلسل فان استطرادات ابن الازرق على العكس من ذلك تشعرك وانت تنتقل فى ثناياها وبين رحابها بأنك فعلا فى بستان مبهـــج بزهوره المتنوعة وثماره الملذة ومناخه المنعش ، وان الذي زاد فى قيمة الكتاب ووزنه ان مؤلفه معدود مـــن الخبراء بالسياسة العارفين باحوالها ؛ عرف الوزارة والسفارة كما زاول مهنة الخطابة والقضاء فهو لذلك خير من يقدم لنا مثل هذا العطاء ، وأصدق من يحدثنا عن السياسة والرياسة .

الربـــاط : عبد الهادى التازى

الجـــــوع .. والبــــــرد ...

خرج احد الادباء الظرفاء من مسجد كان يقرىء فيه ، فوجد سائـــلا يرعد بالبرد ... ويصيح : الجوع والبرد يا مسلميـــن .. فأخذه بيـــده وحمله الى موضع فيه الشمس ، وقال : صح بالجوع .. فقد رفـــع الله عنـــك البـــرد ...

إفادة النصيح

بالتعريف بسند الجامع الصحيح

تأليف : محمد ابن رشيد السبتي 721 هـ

تحقيق : الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة . تقديم الاستاذ محمد العلمي حمدان

اهتم المغاربة بعلم الحديث والاشتغال بـه ، فاكثروا من الرحلات لسماعه والاخذ عن رجالـه ، رغبة فى علو الاسناد والضبط والاتقان ، وشجع حكام البلاد هذه الظاهرة ، فقربو اليهم اهل هذا العلم واجازوا العلماء ذوى السند العالى ، بـل وشاركوا بنتاجهم ، فهذا الامير المرابطى ميمون بـن باسيـن ممن رحل وحج وسمع بمكة عن كبار المحدثين امثال ابي عبد الله الطبري صحيح مسلم ، ومن ابي مكتـوم بن ابى ذر الهروى صحيح البخارى فى اصل ابيـه الذي سمع فيه على ابي اسحاق المستملي .

ومن رجال الحديث والرواية ايضـا بكـار بن برهون بن الفردبس وقد حج وسمع البخارى من ابى ذر الهروي ، ولن يغيب عنا فى هـذا الميـدان مفخرة المغرب القاضى عياض تلميذ القاضي ابى بكر ابن العربي وابى الوليد ابن رشد الجد وغيرهم ، وقد اكثر الاخذ فنافت شيوخه على المائـة ومـن كتبه فى هذا الموضوع كتاب مشارق الانوار فـى تفسير غريب الحديث وكتاب ترتيب المدارك .

ونكتفى فى العصر الموحـدى بالحديث عـن الحافظين الشهيرين ابني دحية ابن عمـرو عثمـان وابي الخطاب عمر ، وقد كانـا علميـن فـى حفظ الحديث ، وقد انفرد ابو الخطاب عمر بالتجول فـى الشرق ، فدخل الشام والعراق وخراسـان واكثـر من السـماع واخذ عنه الناس ، واستقر هـو واخوه بمصر حيث بنى له الملك الكامل بـن أيـوب دار الحديث .

وقد عرف العصر المرينى ازدهارا كبيرا فـى هذا الفن كباقي الفنون الاخرى ، واشتهر كثير مـن فقهائه امثال ابي القاسم موسى العبدوسي الـذى اشتهر بكثرة حفظه ، اوقف علماء تونس حين زارهـم دروسهم وحضروا عنده رغبة فى الاخذ عنه واتصال السند به ، والرئيس عبد المهيمن الحضرمى الـذى تفوق فى علم الحديث حتى عده ابن خلـدون امـام المحدثين ومحمد بن عبد الرحمن الفاسي المحدث الضابط ، وكـان عارفـا برجال السـنـد ومراتـب الحديث ، وله فى ذلك تآليف .

ومن محدثى هذا العصر المحـدث والرحالـة الشهير ابن رشيد السبتى الذى جال فـى اقطار افريقيا والشرق ولقي من اعـلام الروايـة الجـم الغفير ، وكان له باع طويل فى علوم الحديث وضبط اسانيده وتمييز رجاله ومعرفة انقطاعه واتصالـه ، الف فيه التآليف المفيدة ، من ذلك ما ضمنه رحلته القيمة ملء العيبة المشحونـة بشـؤون الحديـث والاسانيد العديدة التي روى بها امهات كتب هـذا الفن ، وهو من الحفاظ الذين قل نظيرهم المتمسكين بالسنة والعاملين بالحديث ، ومن كتبه فـى هـذا الموضوع ايضا كتاب افادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح موضوع حديثنا .

اسباب التاليف : بعد عـودة ابن رشيد مـن رحلته ظلت ذكريات مشاهده وسماعاته واتصالاتـه بكبار فقهاء ومحدثي الشرق آخـذة بلبـه ، مالكـة عليـه حسـه فعـزم :

اولا : على توجيه ابنه نحو هذا العلم « ولـم ازل احرص على التبكير باسماع ابنـي محمـد – هداه الله وبلغ الامل فيه – واروض حداثته علـى تعلم الحديث وتحفظه واشر به فى قلبه وامزجـه بطباعه » (ص 6 من كتاب)

وقد اعتمد ابن رشيد في تحقيق ذلك احد كبار علماء سبتة في عهده وهو الشيخ الفاضل العدل ابو فارس عبد العزيز الجزيري التلمسيني السبتي « وكان ممن هو من اسند شيوخ بلدي الذين ادركهم مولد ولدي واشهرهم ثقة وعدالة واحسنهم سمتا وصمتا » (ص 7 من الكتاب)

ثانيا : تاليف الكتاب موضوع حديثنا

عندئذ فكر ابن رشيد في وضع مؤلف في رواية الحديث وسنده يصل فيه بين البخاري واستاذ ابنه المذكور في حلقات سند متصلة « فرايت ان اجمع هذا الجزء برسمه واسمه بوسمه واعرف بشي سلسلة اسناده حلقة حلقة » (ص 9 من الكتاب)

منهجية الكتاب : رتب ابن رشيد كتابه كما هو امامنا وكما صرح بذلك الدكتور المحقق الى مقدمة وابواب وفصول وخاتمة ، في المقدمة تعرض لشرف الاسناد ، ولعلم الحديث بين القدامى والمحدثين ، ولصعوبة هذا العلم ، وحظ المشارقة منه وعناية المغاربة به ، ووجوب التادب في طلبه ثم تحدث عن ابرز المسندين بسبتة في عصره .

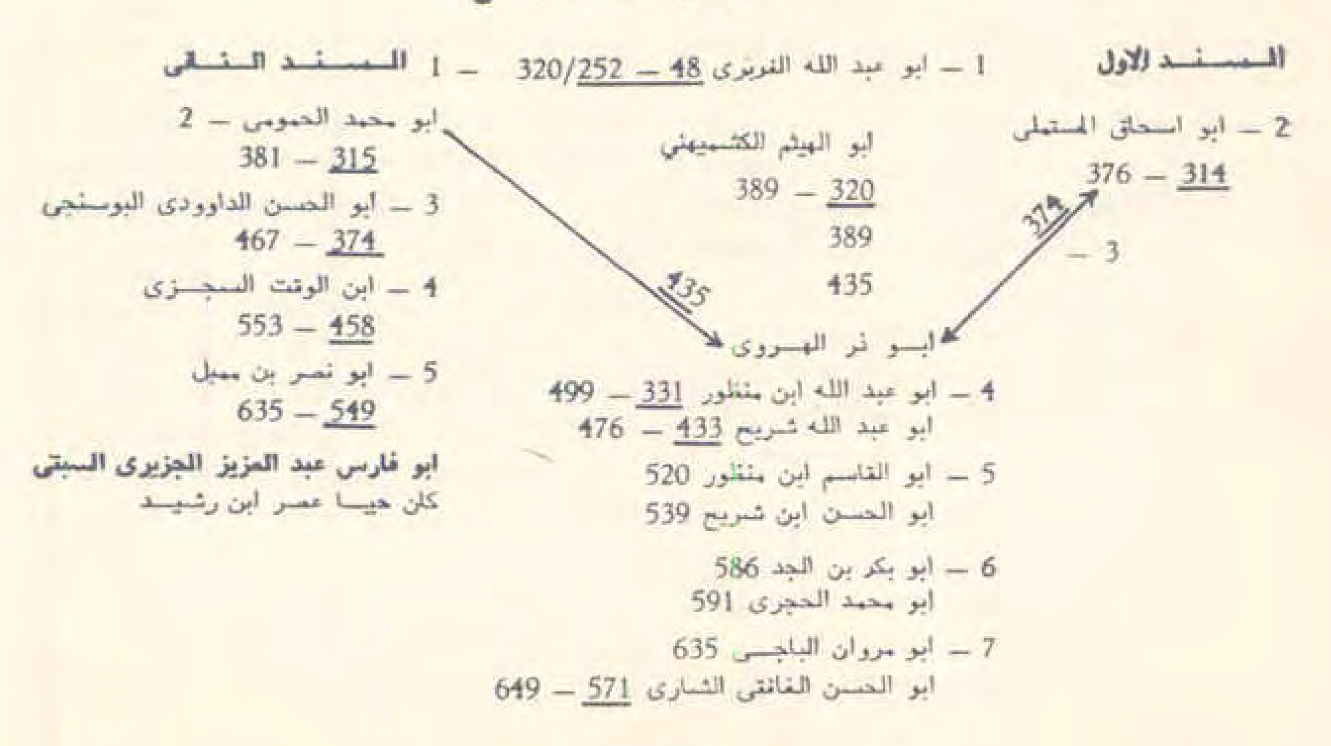
« وجعل كتابه سبعة ابواب او سبع حلقات هي الطبقات التي بين الراوي المحدث ومؤلف الجامع الصحيح ، مقتصرا في كل طبقة على عدد الرواة ، — واحدا كان او اكثر — الذين بهم يتصل اسناده ويستقيم طريق روايته (المقدمة)

وسنرسم جدولا يوضح سلسلة الاسناد بين الامام البخاري والراوي المحدث الى فارس عبد العزيز المذكور .

وبعد ان ينتهي من ذكر سلسلة السماع حلقة حلقة يورد سندا آخر يقول عنه ابن رشيد (وهو اقرب اسناد يمكن في الدنيا شرقا وغربا ، فقد انقضت المطي في طلب اعلى منه فما وجدنا) (ص 114 من الكتاب)

وفعلا يقتصر هذا الاسناد على خمس حلقات للربط بين الفربري الراوي لكتاب الصحيح عن الامام البخاري واستاذ ابنه ابي فارس عبد العزيز بسلسلة ترجم فيها لابي نصر بن مميل ، ولابي الوقت السجزي ، ولابي الحسن الداودي البوسنجي ، كما يوضحه الجدول المزدوج الاتي :

سند الجامع الصحيح بين الامام البخاري وعصر ابن رشيد في كتاب افادة النصيح



ملاحظة : الارقام التي حولها تحتها خط تعني سنة اخذ الراوى عن شيخه ، والرقم المحادى يعني سنة الوفاة .

محقق الكتاب : حقق هذا الكتاب الدكتور التونسى الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، وقد كان هذا العمل مساهمة محمودة فى سجل اعماله بما نتج عنه من انقاذ لهذا الاثر مما كان يقاسيه مع آلاف المخطوطات العربية من قساوة الاهمال والضياع ، وقد قدم للكتاب بقوله :

« وبعد ، تعريفا بما كان لاسلافنا من فضل وعناية بالعلوم الحديثية وتنبيها بل تنويها بجهودهم فى فنى الرواية والدراية والضبط للاسانيد والرجال ، احببنا ان نتحف الباحثين فى العلوم الاسلامية والدارسين لعلم الحديث الشريف وطرقه بما توفر عليه الشيخ الامام العلامة الخطيب المحدث محب الدين ابو عبد الله محمد ابن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهرى السبتى المغربى الاندلسى من عمل جليل فى التعريف باسناد الجامع الصحيح لامير المومنين الحجة الامام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى فى عصره ومصره »

(المقدمة) .

منهج التحقيق اضافة الى المقدمة التى شرح فيها المحقق عمله والجهود التي بذلها فى التوفيق بين النسختين اللتين اعتمد عليهما قام بوضع عناوين رتب لها فقرات الكتاب واقسامه ، ثم نظم حلقات الاسناد حلقة حلقة ورقم رواة كل حلقة ، وترجم لكل الاسماء الواردة ، الى جانب الرموز والاشارات وثبت المصادر والمراجع وفهارس اسماء الكتب والمدن والاماكن والاعلام والموضوعات الواردة فى الكتاب ، وكان لكل ذلك اثره الفعال فى تسهيل وتتبع قراءة الكتاب وربط حلقات اسناده .

تنبيه : وبملاحظة سريعة حول موطن المؤلف نحاول انهاء تقديم الكتاب فقد جاء فى التعريف باسم المؤلف ما ياتي ... ابي عبد الله محمد ... ابن رشيد السبتي الفهرى الاندلسي (العنوان) ولاحاجة للتنبيه الى ان لفظ الاندلسي هنا مقحم لاسباب واضحة :

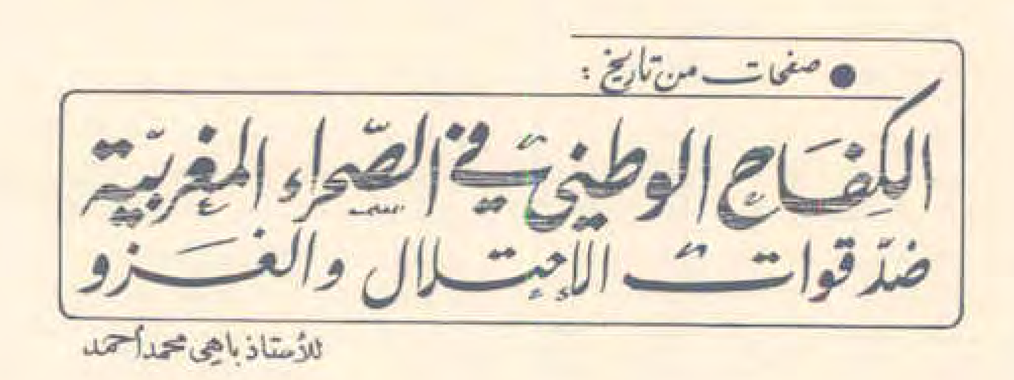
اولا باعتبار ان المؤلف من سبتة ، وسبتة كانت ولا زالت من التراب المغربى ولا عبرة بالظروف المرحلية .

ثانيا باعتبار ان الاندلس هي التي كانت تابعة للمغرب فى ايام المرابطين والموحدين وحتى المرينيين حين كان بنو الاحمر يدينون بالطاعة لهم ويطلبون حمايتهم فى الاجزاء التي كانت بذمتهم .

ثالثا باعتبار ان سبتة حتى على فرض تبعيتها فى ظروف غفلة او ضعف فى عصر المرينيين فانها فى عصر ابن رشيد كانت تدين بتبعيتها لدولة بني مرين واظن ان زيارة ابن رشيد او مقامه فى بعض الفترات لسبب أو لآخر لن يكون مرغما له على حمل جنسية الاندلسي .

املنا ان يتكرر فى بلاد المغرب الكبير ما تصدى له الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة ، وان تعمل جامعتنا فى المغرب الكبير على انقاذ التراث المتراكم بتوجيه المتخرجين ومساعدتهم على احيائه وتحقيقه حتى لا تبقى هذه الكنوز الفكرية دفينة الكهوف والرفوف وكم من خير فيها لو تعلم .

فاس : محمد العلمي حمدان



للأستاذ باهي محمد أحمد

تميزت احتفالات شعبنا هذا العام بعيد العرش المجيد بميزة خاصة ، فقد حققت امتنا على مدى 19 سنة (منذ عام 1956 الى اليوم) عددا من الانتصارات والانجازات بفضل التلاحم والتجاوب التلقائي الذى يربط العرش بالشعب . . . وها نحن خلدنا ذكرى عيد العرش معربين لقائدنا البطل عن اسمى ايات الولاء والاخلاص والتعلق ، مدركين كل الادراك ان هذا العام يختلف عن الاعوام السابقة ، ذلك لانه عام المعركة من اجل استرجاع باقى الاراضى المحتلة من طرف الاستعمار الاسبانى فى شمال البلاد وجنوبها .

فقد اعلن جلالة الملك الرائد يوم 9 يوليوز 1974 ان هذه السنة ستكون سنة التحرير . وبعد الحملة الموفقة للتعريف بقضية الصحراء المحتلة اثر محاولات اسبانيا الفاشلة فى فصل هذا الجزء عن الوطن الام ، نخوض اليوم معركة اخرى لعودة سبتة ومليلية والجزر الجعفرية ووحدتها وبذلك يكون المغرب قد اكمل سيادته واستقلاله .

وما عرف عن المغرب فيما يتعلق بقضايا الوطن وسيادته سوى الاجماع والحماس والاستعداد لخوض المعركة .

ان قضية التراب الوطنى بالنسبة لنا قضية كرامة قبل كل شيء . وقد اخطا الذين حاولوا تحويل قضية الصحراء المغربية الى خلافات سياسية او مراوغات تاريخية مزيفة او قرارات تمطط وتتميع حتى لا تعطى اى معنى من معانى الحرية والانعتاق .

لقد دخلت اسبانيا فى مرحلة كان من الافضل لها ان تتجنبها ، وتفضل عليها لا ما يفرضه الجوار والموقع الجغرافى مع المغرب فحسب ، وانما اكثر من ذلك ما يفرضه التفتح الدولى والمسار العام نحو تعامل ثنائى معنا .

ان اسبانيا تعرف بجميع الوسائل والحجج القانونية والتاريخية والجغرافية والمنطقية والحضارية ان الصحراء التى تحتلها فى جنوب المغرب ، وان الاجزاء التى تحتلها فى شماله مغربية صرفة ، وتعلم ان المغرب لن يتنازل عنها مهما كانت الاحوال والظروف والملابسات .

ومع ذلك تلجأ للتناور والمراوغات التى لن تفيد شيئا على الاطلاق ، ما دام شعبنا فى الصحراء المحتلة وفى الجزء المحرر يعرف تمام المعرفة اهداف السيطرة الاسبانية على اقليمنا الصحراوى . لقد كان هدف السيطرة على الصحراء يرمى ومايزال الى غرضين استعماريين رئيسيين هما :

1 — اقامة القواعد العسكرية

2 — السيطرة على تجارة المنطقة وخيراتها (الفوسفاط)

اما المغرب فالمعاهدات والوثائق الدولية التى يتوفر عليها (وتعرفها حكومة مدريد) تؤكد بما لا يدع اى مجال للشك حقه فى الصحراء . واذا حاولت اسبانيا ان تراوغ وتلعب فى الظلام من اجل ربح تعتقد انه يسهل نيله ، فان الخطأ الذى ارتكبته هو اختيار نوع الصيدة ، فلا يوجد شعب ، ولا توجد امة يمكن ان تجزأ اطرافها وتظل مكتوفة الايدى امام ما يحدث على ترابها . وشعبنا الذى عاش فى الصحراء طيلة سنوات عديدة ، وعاشر اسبانيا هناك حين فرضتها قوة استعمارية وظروف دولية خارجة عن ارادتنا .. شعبنا فى الصحراء خاض المعارك الضارية التى عمت كل البلاد واشتعلت على كل شبر من ارض المغرب ضد الغزو والتسلط .

ويعرف قادة الجيش الاسبانى اى مواطن حر هو ذلك الصحراوى الذى حمل السلاح فى بداية الاحتلال ، ويحمله اليوم من اجل الانعتاق .

لقد كان شعبنا فى الصحراء على كامل الاستعداد ينتظر امر قائده ، وحاول جلالة الملك القائد بكل الوسائل ان يجعل حكومة مدريد متفهمة للوضع القائم فى الصحراء ، وانهاء الاحتلال ، بالطرق السلمية محافظة منه على ما يربطنا من علاقات وجوار واحترام ، ولكن اسبانيا كانت ماضية فى مخطط استعمارى فاشل من اوله . ولم تكتف بفضيحة سنة 1967 ، داخل هيئة الامم المتحدة حين انضم الوفد الذى وجهته الى هناك للتحدث باسم — اقليم الصحراء — الى وفد المغرب يطالب علانية بالانضمام الى الوطن الام ، ولم تكتف بما تشهده يوميا من صمود ابطالنا ورجالنا هناك ، بل مضت فى تنفيذ مخطط جنونى ، معتقدة ان سكان الصحراء يسهل فصلهم وتغليطهم فى هذا الامر .

وما كادت تعلن عن قرارها حتى هبت العاصفة من جميع الجهات تقتلع جذور الوجود الاستعمارى من ارض الصحراء .

وشهد جنود الاستعمار الويل ؛ وزرع فى قلوبهم الرعب هذا المارد الذى اخترق الصحراء ، وحول كل رجل وامراة وطفل فيها الى رصاصة قاتلة ، وسهم منطلق ، والى خنجر يصيب الاعداء .

ولاسبانيا مع رجال الصحراء واحرارها وابطالها تاريخ حافل بالمعارك ؛ وفى كل مرة كانت اسبانيا هى الخاسرة لولا تدخل قوات استعمارية من الخارج ، او مراوغات يلجأ اليها الاستعمار لكسب الوقت .

من ذلك .. معركة ضد الاسطول الاسبانى عام 1798 ؛ فقد واجه سكان الصحراء جنود العدو وطردوهم شر طردة ، فلجأ العدو الى توقيع معاهدة عام 1799 فى عهد المولى عبد الرحمان حيث سمح لهم بالصيد على طول الساحل الصحراوى .

وفى عام 1880 ، حين قام المولى الحسن الاول بزيارته الاولى للصحراء ، وجد صمود ابنائنا فى الصحراء ضد الغزاة ومحاولات الاستعماريين فى تدعيم وجودهم هناك فرفض المولى الحسن الاول انشاء مصارف اجنبية لهم على شواطىء الصحراء ، ولجأ الاستعمار الى حيلة جديدة فبعث وفودا تجارية سنة 1881 من ايطاليا والمانيا واسبانيا ، واسست الشركة الكنارية الافريقية للصيد ، والشركة الاسبانية الافريقية للتجارة ، وخلافا لما قرره المولى الحسن اسس الاسبانيون مصارف لهم هناك ، وذلك ما دفع احرار الصحراء الى هجوم عام 1884 ضد هذه المصارف واتلافها .

ولجأت اسبانيا الى مراوغاتها من جديد ، حيث دخلت مؤتمر برلين سنة 1884 لتقسيم المستعمرات ، وتلى ذلك معارك جديدة سنة 1887 ، وثورة شعبية عامة فى ثانى مارس 1892 ، حيث نظم هجوم ضد القوات الاستعمارية وجاءت بعدها معارك سنة 1894 حيث هجم السكان على شركة الترانزاتلانطيك ، ولجأت اسبانيا الى فرنسا بتوقيع معاهدة 1902 لاقتسام المغرب ومعاهدتى 1904 و 1905 السريتين.

وعندما فرضت الحماية على المغرب سنة 1912 قامت ثورة الشعب هناك وظل المجاهدون فى الجنوب من مراكش الى آخر منطقة فى الصحراء فى صراع ضد العدو الاستعمارى بقيادة سيدى احمد الهيبة الى سنة 1934 .

وعندما قامت ثورة الريف عام 1921 كان لها صداها الكبير فى الصحراء وذاق الاسبانيون من جرائها الامرين . وفى سنة 1947 بعد خطاب جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه بطنجة ، قامت معركة شعبية جديدة ضد الاسبان هناك .

وفى سنة 1953 عندما اعتدت سلطات الاستعمار على شخص محمد الخامس عمت المغرب شماله وجنابه ثورة شعبنا البطل التى حققت النصر . واذا توقفت المعارك هنا فى الجزء المحرر فانها ظلت مشتعلة هناك الى سنة 1958 بعد تحرير طرفاية .

وقد اظهر شعبنا من الشجاعة والبطولات الوطنية النادرة والمقدرة على الصمود والتحدى ما حير عقول العسكريين الاسبان .

وحين حاولت اسبانيا خلق ما يسمى بالجمعية التأسيسية سنة 1967 واجه شعبنا فى الصحراء هذه المحاولات بمظاهرات وعمليات فدائية ظلت تتصاعد الى ان وصلت ذروتها فى يونيو وشتمبر 1970 مما جعل قوات التسلط الاستعمارى تلجا الى التقتيل الجماعى والاعتقالات الجماعية ، وقد استشهد خلال هذه المعارك عشرات من شهدائنا الشجعان ومـا يزال كثيرون منهم داخل سجون ومعتقلات العدو .

ان هذه المحاولات كلها كانت تهدف وبالدرجة الاولى تحرير المنطقة من رجس الاستعمار . ولم تفد الاغراءات ولا المراوغات ولا الدسائس الاستعمارية فى تحويل اتجاه الثورة الشعبية فى اقليمنا الصحراوى.

اما فى هذا الجزء المحرر فقد كانت ثمانية عشرة سنة كلها محاولات جادة مع اسبانيا مع مراعات العلاقات والجوار والصداقة . وحاول المغرب فتح الحوار البناء مع اسبانيا لانهاء السيطرة الاستعمارية على الصحراء ، وعرض المغرب على اسبانيا كل ما يمكن ان يعرضه صديق على صديق ودولة على دولة تربطهما روابط الثقة والجوار عبر مئات السنين .

وبقدر ما كان المغرب متساهلا ومتسامحا وصديقا متفهما يحاول بكل جهد المحافظة على الروابط واحترام الاتفاقيات ، بقدر ما كانت اسبانيا تماطل وتتجاهل ، وظهر فى الاخير انها تتآمر على وحدة ترابنا وتخطط لتقسيم ارضنا وتجزئة شعبنا .

فى الوقت الذى كثرت فيه الانتفاضات الشعبية داخل الصحراء ، وفى الوقت الذى اصبحت المقاومة المسلحة ضد الاستعمار فى الصحراء واقعا لا تستطيع اسبانيا تجاهله او التغاضى عنه وفى الوقت الذى احست فيه اسبانيا بان المغرب قرر ان تكون هذه السنة سنة تحرير كامل لاراضيه المحتلة فى هذا الوقت بالذات جمعت سلطات مدريد عددا من الشيوخ الذين اغرقتهم السلطات العسكرية الحاكمة فى العيون بالخداع والزيف والتهديد والاغراء ، ونقلتهم الى مدريد (للتفاوض) هناك مع الحكومة الاسبانية او على الاصح لتعرض عليهم هذه الحكومة قرارها الجديد والمفاجىء باعلان الاستقلال الداخلى ، ونعرف (كما تعرف مدريد) ان الذين حضروا هذا الاجتماع لم يكن ليخطر ببالهم ابدا ان يكون موضوع الاستقلال الداخلى مطروحا وهم يعرفون ان اسبانيا انما تحتل ارضا مغربية هم مواطنوها فى انتظار التوصل الى اتفاق بين المغرب واسبانيا لعودة الارض الى اهلها وجلاء القوات الاستعمارية عنها . وذلك ما جعل — الشيوخ — يفاجأون بالقرار والعرض الجديد ويحارون فى ابداء الراى او الجواب .

« وليست المرة الاولى التي يلجا فيها الاستعمار الاسبانى الى وسيلة كهذه ففى سنة 1881 ادعت اسبانيا ان الاهالى فى الصحراء وقعوا معها معاهدة باحتلال المنطقة ، وتعتمد اسبانيا على هذه الوثيقة ضمن ملف تعتقد انه يستطيع تأكيد انفصال سكان الصحراء عن المغرب » .

وعاد الشيوخ من مدريد الى العيون والسمارة والداخلة ورغم محاولات السلطات العسكرية الحاكمة فى ان يظل القرار سرا على السكان فقد انتشر الخبر بين القبائل والاهالى واثار زوبعة من السخط والاستنكار وكان اول رد فعل عملى هو سقوط جنديين اسبانيين برصاص السكان المجاهدين احدهما لقى حتفه والاخر اصيب بجروح بليغة وفى اليوم الموالى وجد جندى آخر جدع انفه من طرف المجاهدين احتجاجا على محاولة مدريد فصل الصحراء عن الوطن الام . وتوالت العمليات الفدائية التى لم تتوقف الى الان واحدة بعد الاخرى كانت اهمها اصابة معامل بوكراع ونسف جزء من الحزام الناقل من المعمل الى الميناء .

ان تاريخ شعبنا فى الصحراء هو سلسلة متواصلة الحلقات من الكفاح والنضال والصمود والتحدى ضد قوى الاستعمار ومحاولاته اليائسة فى فصل الجنوب المغربى عن شماله .

واذا اختار المغرب اليوم ان يرفع القضية الى محكمة العدل الدولية بلاهاى فانه يقوم بذلك مجددا التزاماته ورغبته فى السلام والمحافظة على امن المنطقة ، وستقول محكمة العدل الدولية كلمتها بما يتوفر لديها من الوثائق والحجج والبراهين ، كما قال العالم كلمته ، وكما قال سكان الصحراء ويقولون باستمرار : « المغرب هو الوطن . . والملك هو الحسن » .

الرباط : باهى محمد احمد

فهرس العدد الاول

صفحة

صفحة



راضية

للاستاذ أبو عدنان عبد القادر البوشيخي

شيء ما يعتلج في صدر الفتى . حركاته المضطربة تفصح عن ذلك . نظراته الزائغة تقول ان فكره شارد . تردده بين الاتكاء على حافة النافذة والجلوس الى المكتب للمطالعة يدل على وجود صراع بين فكرتين . النشرات مبعثرة في كل زاوية وكل ركن ، والكتب التي وردت منذ مدة لا زالت فوق المكتب تنتظر ان يمزق اغلفتها اللماعة . لكن عبد السلام لايجد قابلية . كان ينظر اليها كما ينظر الى مائدة متخم او متسمم بمواد غذائية رديئة . انه يعجب من نفسه كيف اصبح هكذا ضعيف الشهية، كان اصدقاؤه يلقبونه بالفار لكثرة ما يقرض ويلتهم من الكتب . وكان هو يفخر بمعدته الفكرية القوية الهاضمة لكل ما يبتلعه غثا كان ام سمينا . وما كان يضاهي افتخاره بهذه الميزة الا انقلابه الفكري القريب الذي ادهش اكثر اصدقائه تقدمية وثورية ، وكونه ضحى بخطيبته من اجل افكاره التحريرية . ضعفه الوحيد — كما كان يرى بعض اصدقائه — هو احتفاظه بمصحف داخل خزانته . كم حاولوا ان يقنعوه بالتخلص منه ، الا انه كان يراوغ وينتحل الاعذار والمبررات ، وبما انهم كانوا يعرفون قصة المصحف فانهم كانوا يتخذون من ذلك حجة على ضعفه ، وعلى كونه لم يقطع بعد كل صلة له براضية والماضي . وكان يجيب وربما لا زلت اكن لها شيئا ، ولكنكم تعرفون ان هناك حائلا يفصل عقلا ثوريا متفتحا عن قلب مؤمن بالخرافة رجعي متزمت . لقد كفنت الوجودية ماضي القلبي المؤمن، ودفنته العقلانية والماركسية . فهل تستطيع علاقة اوهى من خيوط العنكبوت ان تخرج ميتا من رمسه. هكذا كان يجيب او على الاصح يموه ويغطي ، اما الحقيقة التي كانت تمنعه تقدميته من التصريح بها حتى لنفسه فانها كانت بالنسبة له كعملة فضية ذات وجهين ، كلما التفت اليها وسلط عليها اضواء فكرة تلمع صورة راضية على احد وجهيها لتؤكد له ان ما يربطهما اقوى وامتن من ان تعصف به وتمزقه تيارات الافكار التي اعتنقها حديثا مهما كانت اعاصيرها عاتية . ومن ثم يستنتج ما في الوجه الثاني من ارقام وحروف ويحس احساسا غامضا ان الماضي لا زال حيا ، وانما نسي في احد كهوفه النفسية . وازورت عنه شمس الفكر والذكرى . فما دامت راضية حية فانه لن يموت ، والاصل في تكوين هذه الحقيقة المركبة انه كان كلما توقف عن الركض الفكري والتفت الى الوراء بدا له شريط حياته منقسما الى جزئين متباينين . يبتديء الجزء الاول منذ ان بدأ يعي ، وينتهي بانقلابه الفكري بعد التحاقه بالجامعة . ويمتاز بانه كان فيه مثالا للاخلاق الفاضلة والاستقامة والسمعة الطيبة . تلقى تعليمه الاول في احد الكتاتيب ، وبعد ان حفظ القرآن الكريم التحق باحد المعاهد الدينية ، وكان يواظب على اداء الصلوات في اوقاتها ما سمحت له ظروف الدراسة . وحتى الفجر ما كان يتخلف عنه الا نادرا، كان المواظبون على صلاته يضمرون له احتراما خاصا لكونه شذ عن سلوك بعض الشبان الذين هم في سنه . وكان اكثرهم احتراما له الامام الذي ما كان يسلم ويلتفت الا وقعت عيناه عليه في الصف الاول خاشعا مطرقا . ولم يكن محبوبا عند المصلين فقط ، لقد احبه ربه فاحبه كل من رآه واحتك به . وبالاجمال فقد عاش الجزء الاول من شريط حياته بنفس مؤمنة راضية مطمئنة ، توج بخطبته لراضية

.. لقد غاصت في ذاكرته وقائع هذه الفترة واحداثها، ولم يبق مضيئا الا يوم اللقاء وما تلاه من احداث قريبة ، كان ذلك اليوم في غاية الصفاء النفسي وهو يؤدي صلاة المغرب ، كان يحس انه اقترب من ربه اكثر ، وان النور الالهي لامس شغاف وسويداء قلبه . وكان ذلك بالفعل ، فقد خرج من المسجد وهالة تحيط بوجهه فتورده . وعندما عقد سير حذائه وانتصب واقفا التقت العينان ، كان طالبا بالباكالوريا وموعد الامتحانات يقترب ، ولذلك اسرع الى منزله لمراجعة الدروس ، فتح كتاب الفلسفة وشرع في مطالعة موضوع « المادة والصورة » لكن الصورة الاخرى الحت على ذهنه ، حاول ان يطردها فما وجد لذلك سبيلا . قرر ان يبحث ويسال ، وكانت فرحته كبيرة عندما عرف انها بنت خطيب الجامع وامامه . وتوالت الاحداث ، وجاء يوم قراءة الفاتحة ، وكانت الهدية والخيط الذي لا زال يربطه بالماضي . يستطيع ان ينسى كل شيء الا تلك اللحظة فانه تظل في ذاكرته حية مشرقة وضاءة ، راضية تقدم له شيئا ملفوفا في منديل اخضر . وعندما فتحه كان هناك مصحف . خجل من نفسه ومن راضية واستشعر هديته . قال لها بعدما قبل غلاف المصحف : سيكون اثمن ما امتلك واعتز به . وبالفعل كان ذلك المصحف اثمن ما يمتلك ،فقد كان منقذه ومخرجه من دوامته الفكرية سالما ، فعندما التحق بالكلية ودخل ذلك المنعطف التاريخي الخطير، وسقط في مصائد الحرب الفكرية والنفسية ، وغاص في اعماق عالمه الجديد ، اختفى ماضيه المؤمن بكل احداثه ووقائعه كجزيرة غمرها طوفان ، ولم يبق في ذاكرته من ذكرياته الا رسوم باهتة كباقي الوشم في اليد ، او كتاب في غرفة مظلمة ولا سبيل الى قراءته وتذكره الىمصباح المصحف الذي كان يعود اليه كلما احاطت به الخطوب واشتد عذابه وتمزقه ، وجذبه الشوق والحنين الى ماضيه المؤود، كان كلما فتح المصحف انفتح سجل الماضي في ذاكرته فيلمع الشريط وتبعث الاحداث والوقائع ، فيعود الى قراءة بعض رسائل راضية او يكتب لها جوابا يصف حالته ويذكر شوقه وحنينه لم يندفع في رحلته الشاقة المظلمة ، فيختفي الماضي وينزوي في زاوية مظلمة .

يبدو ان الفتى عبد السلام توقف اليوم عن الركض ، وانه يحاول الالتفات الى راضية ورسائل الماضي ، ترك المكتب وتوجه الى الخزانة واخرج ملفا يحتوي على مجموعة من الرسائل ، فتح رسالة واخذ يقرا : « تقول في رسالتك انك نبذت ايمان العجائز والسذج وانك انطلقت في رحلة طويلة وشاقة باحثا عن الحقيقة ، وتتمنى لو انني لم انخرط بكلية الشريعة والتحقت بكليتك لارى ما ترى . انني احس بقشعريرة تسري في اعضائي كلما قرات احدى رسائلك الاخيرة ، واحس انك اصبت بمس من الجنون . لقد كتبت في احدى رسائلك الاولى تقول ، ان بعض الشبان عندما يلتحقون بالجامعة يصابون بدوار فكري يغير لديهم مقاييس الحقيقة وموازينها . انني اشك بل اكاد اوقن انك ايضا اصبت بهذا الدوار . ترى عن اي حقيقة تبحث ؟ عن حقيقة الله وقد نبذت الايمان وتركته وراءك ظهريا ، ام عن حقيقة نفسك وقد تنكرت لها!؟ هل تعتقد ان الايمان معطف تستطيع ان تخلعه متى تشاء ؟ ام تظن ان النفس ورقة بيضاء تستطيع ان تكتب عليها او تمحو منها ما تريد ؟ لقد كنت يوما في اقصى حالات الصفاء النفسي وانت تحدثني عن السعادة التي تغمر قلبك عندما تستقبل ربك اثناء صلواتك . ان ملامحك في ذلك اليوم لا يمكن ان تمحى من ذاكرتي ابدا مهما حدثتني عن شكك وارتيابك ، انني احس انك تخادع نفسك وتخفي الحقيقة عنها عندما تجاهر باتجاهك الجديد ، واكاد اوقن انك تفعل ذلك محاولة لان تثبت لي رجولتك ونضجك الفكري وكانك تريد ان تقول لي انك لم تعد طفلا ساذجا . اذا كان هذا هو قصدك والغالب انه هو فثق انك لن تزداد في عيني الا صغرا ، ومن قلبي الا ابتعادا » ثم طواها وفتح اخرى : « تقول في رسالتك ، كان الايمان بالله مهدئا لهواجسي النفسية ، كعامل امن واطمئنان ورضى ولما نبذته حل مكانه صراع دائم يدور حول محورين . حقيقة وواقع . حقيقة نفس مؤمنة بالفطرة تشبث بايمانها تشبث الاعمى بعصاه ، وواقع ملحد انتجته مذاهب اجنبية لم انتبه لخطورتها الا بعد ان دخلت بطنها ، لما فقدت نور الايمان قذفت بنفسي في مجاهل مظلمة مخيفة لا سنا ولا ضياء فيها غير صورتك وانت تقدمين الي المصحف فاعود اليه لاحس برد الايمان . لقد ذقت في رحلتي هذه كل انواع العذاب النفسي والقلق والتمزق ، وضيق الحياة وضنكها ، احس كان شبحا غريبا تقمصني فقادني ودفعني رغما عني .. تقول هذا وتنسى

« ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا .. » وقوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، الا انهم يصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون » قلت في رسالتك: « لقد كنت بالايمان واحدا ، فعددني الشك ثلاثة . كان العقل والقلب يكونان وحدة يربطها ويعصمها حبل الايمان ولما ضاع من يدي حلت بين الاثنين علاقة جديدة قوامها النزاع والشقاق والصراع الدامي الذي لا هوادة فيه ولا مكان للرحمة والرأفة ، كنت بالايمان واحدا قويا صلبا فصرت بالشك ضعيفا مستلبا منقادا لكل موضة ومستورد جديد . لا تزيدني دراسته الا عذابا وتمزقا واضطرابا . تقول هذا وكانك لم تقرأ في الهدية الخضراء : « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم .

تقول في رسالتك : « لقد اندفعت في هذه الرحلة المظلمة المضنية الشاقة باحثا عن الحقيقة غير انني احس الآن بعد سنوات من الانكباب على دراسة الفلسفات والمذاهب الملحدة ، انني لم اقترب من الحقيقة قيد انملة بل انها لا تزداد عني الا ابتعادا ،ولا ازداد الا تعطشا وظمأ كلما نهلت من هذه الكتب وامتصصت حبرها . لقد بدأت أدرك انني احرقت سنوات من عمري الغض اليانع فيما لا طائل من ورائه . انني احس احيانا كانني فقدت الارض التي كنت اقف عليها ، وان فكري اصبح معلقا يدور في فراغ ، وانني مندفع في فضاء لا نهائي وساقط في مهاوي سحيقة لا قرار لها ، وكأن أفكاري الجديدة اشباح مطاردة مفترسة . تقول هذا وكانك لم تفتح المصحف مرة وتقرأ : « ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق » . وبعد ان قرأ مجموعة اخرى تناول ورقة وقلما واخذ يكتب : « .. بواسطة الشعار الفارغ الزائف التحرر والتقدمية غرسوا في ذهني ان الماضي أساس كل بلاءوسبب كل مصيبة ، وان الارتباط به رجعية وجمود وتخلف، ولا مستقبل للرجعيين . فهمت التحرر على انه ثورة على الماضي والدين وكل ما يرتبط بهما ، ثرت على نفسي المؤمنة المطمئنة ، على صورتك التي تربطني بالايمان ، وتذكرني به ، وثرت على نفسي اللوامة ، وعلى ابي الذي كان يكثر من لومي وتوبيخي كلما تهاونت في اداء الصلوات في اوقاتها . « حياة » فقط

– لقد سالتني عنها فاقول لك انها احدى بنات الشوارع تعمل ساقية في مقهى – اطعتها واسلمت لها القياد . نفسي الشهوية فقط – الامارة بالسوء الخادمة الذليلة للفجور والخمور – خضعت لها وركبتها فرسا جموحا فانطلقت بي تعب في كل رذيلة، لا تعيا بصغيرة ولا كبيرة ، كل ذلك تحت شعار ممارسة الحرية ، والتقدم . وكلما ازددت امعانا في هذا العالم كلما زادت الدنيا حولي قتامة وظلاما . وازددت عذابا تعبا وتمزقا واضطرابا . كنت اعلم انني ظللت وانني اصبحت عبدا لشهواتي عندما تحررت وتحللت من سلطة الايمان ، ومع ذلك لم اكن املك القدرة على الانسحاب او تغيير خط السير ، لقد فقدت السيطرة على نفسي واسلمت زمامها لتيار قوي غلاب .. لقد ضحيت بالدين من اجل الحرية ، وبالماضي من اجل المستقبل . وها انا اكتشف بعد تجارب مرة فاشلة ، وبعد سنوات من العذاب والقلق قضيتها بين احضان الكتب والفلسفات المادية الملحدة، ها انا اكتشف ان الحرية الحقيقية لا توجد الا في رحاب الدين لانه يحررنا من غرائزنا البهيمية ومن شهواتنا ، ويسمو بنا فكريا وروحيا . اما عندما نلحد او نشرك فاننا نسقط في شراك الشهوات والموبقات . ها انا اكتشف بعد اداء ثمن فادح ان التضحية بالماضي تضحية بالمستقبل . اذ لا مستقبل لمن لا ماضي له . فالماضي ارض والحاضر قاعدة ننطلق منها الى سماء المستقبل . وكيف نستطيع ان ننطلق اذا لم تكن تحت ارجلنا ارضية صلبة ثابتة نتخذها قاعدة ، ومحطة للتزود بالوقود ، ومرصدا للمراقبة وتغيير السير اذا ما وقع زيغ او انحراف؟.. انني احس الآن وانا اندفع في عالمي الجديد المظلم انني ككوكب اصطناعي فقد الاتصال بالمحطة الارضية واندفع في الفضاء شاردا . ما اشبهنا بالكواكب ، بعضنا يضيء من تلقاء ذاته ، وبعضنا يستمده من غيره ، ولذلك يظل يدور حول مصدر الضياء ، لقد قالوا ان الكواكب تدور حول الشمس بفعل الجاذبية ، غير ان دورانها يذكرني بصورة تلح على ذهني كلما تذكرت النور والجاذبية . كنت اذهب الى المسجد ليلا لاداء صلاة العشاء ، وكنت ارى الفراش يدور حول المصباح الزيتي لا يملك ان يغادره كانما هو ماسور بخيوط خفية ، كنت اذ ذاك اضحك من بلادة الفراش . وعندما اتذكر اليوم قوله تعالى « الله نور السموات والارض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كانها

كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء » . واقارن بين وضعي حاليا وبين دوران الفراش حول النور – رغم البون الشاسع – فانني ادرك انه يعبد النور بالفطرة ، واننا فراش مثله لا سعادة لنا ولا هداية لنا الا بالاستمداد من النور الالهي » ثم وضع الرسالة واطرق يفكر ، ترى هل تكون هذه الرسالة الاخيرة التي يعترف فيها بزيغه وانحرافه ، ام هي ككل الرسائل السابقة يكتبها ويرميها ، ثم يعود الى عالمه الجديد فينجرف ويدور حول « حياة » والمقاهي والموبقات ! ترك المكتب واتجه الى النافذة واتكأ على حافتها . كان القمر يرتفع فوق العمارات الشاهقة ، ويرسل اشعته الفضية على السطوح ، تذكر حدثا عظيما وقع فى مثل هذا اليوم ، خاطب نفسه : اليوم السابع عشر من رمضان ، اليوم وقعت معركة فاصلة بين الخير والشر والحق والباطل ، بين نور الايمان وظلام الجهل والكفر . فئة قليلة مؤمنة تهزم فئة كبيرة كافرة . لماذا استسلم للضعف ، واقول انني ضعيف امام التيار . لقد اقتلعني وطوح بي بعيدا ومع هذا فان جمرة الايمان لا زالت خامدة فى اعماقي رغم ما يغطيها من رماد ورغم ما اعتراني من ضلال وانحراف لابد من المقاومة وجهاد النفس الذى سماه الرسول عليه السلام جهادا اكبر . فاذا لم انتصر على نفسي فان مصيري مظلم حالك : ما اشبهني براكب قارب فى بحر لجي مظلم ، ولا بوسلة ولا طرق للنجاة غير الايمان بالله . كان القمر يرتفع وقمر آخر يشرق فى قلبه المظلم وذاكرته المعتمة . حشد كل طاقته الفكرية والعاطفية فى محاولة حاسمة لاعادة الصلة بين قلبه وفكره ، بين وجوده القديم وواقعه الحديث . كان يحس ان هناك حاجزا وغطاء على عين قلبه يذكره بقوله تعالى : « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » لقد صمم على ازالة هذا السور الحاجز الذى تكونت لبناته من الشرور التي ارتكبها اثناء شروده وضلاله ، والذى صممه مهندسو الفلسفات الملحدة ، لابد من تحطيم هذا السور ، لابد من التوبة والوحدة ؛ هكذا كان يكرر ، وهو يعصر طاقته الفكرية ويسلطها على محتويات الماضي ومستودعاته ، القمر لا زال يرتفع واشعته تغمر ارجاء المدينة ، السطوح العالية تظهر اولا ، المنارات تبدو كصواريخ تتاهب للانطلاق . صوت المؤذن يشق الفضاء الصامت ، « الله اكبر » خيل اليه كانما يسمع هذا الصوت لاول مرة ، او ان بينه وبين سماعه آخر مرة امدا بعيدا . انه يسمع هذا الصوت فى كل يوم ولكنه لم يكن يعيره اي انتباه ، ولم يكن يحرك فيه اي ساكن، اذ كان يبدو كاي صوت من الاصوات العديدة التي تصدم كل يوم اذنيه الموقرتين ثم ترتد دون ان تصل الى قلبه ، فتضيع فى جلبة الزحام والصراخ والحاجات التى تعمي وتصم . لكن « الله اكبر » اليوم له رنة اخرى ووقع فى النفس عميق . كانت الامواج الصوتية تمتزج باشعة القمر ثم تتساقط على الشوارع والازقة والمنازل والآذان والقلوب . صوت المؤذن يخترق الحواجز المقامة بين قلبه وعقله وينساب الى اغواره فيحرك كوامن واحساسات ظلت راكدة منذ سنوات . غمر الصوت والضياء تلك الكهوف المظلمة من اغوار نفسه ، فاستطاع ان يرى بكل وضوح اشباح الاشخاص التى تربطه بالماضي والايمان ، كانت هناك والدته بخمارها الابيض وهي تنهي صلاتها وتمد يديها داعية له بالهداية ، وكان هناك ابوه وقد اختفت سحنته الموبخة المتوعدة على ترك الصلاة ، كان الرضى يبدو على وجهه وهو يلوح بيديه حاثا اياه على الدخول الى المسجد . وفى زاوية اخرى كانت راضية وهي تفرغ من صلاتها وتلتفت اليه متهللة ، كانت تبدو واثقة من نفسها وكانها تقول ها انت تعود اخيرا ، لقد كان ايماني بعودتك عظيما ، ترك النافذة وعاد الى المكتب يتابع كتابة الرسالة : « .. راضية ، ثقي بي اذا قلت لك اليوم انني صادق فيما اكتبه اليك . لقد هداني ربي اخيرا ، انني احس الآن كما لو انني خارج من كهف مظلم عشت داخله سنوات ، لقد كتبت اليك سابقا انه لا امل لي فى الحصول على الاجازة هذه السنة لانني لم اكن احضر المحاضرات او اراجع دروسي بسبب قلقي واضطرابي ، اما الآن فابشرك ان الثقة فى نفسي عادت الي ، وانني ساوفق باذن الله ، ارجو ان تصلك رسالتي قبل ان تتم خطبتك الجديدة ، لا استطيع ان اكتب اليك اكثر ، فان سعادة الايمان والاطمئنان القديم تغمر الآن قلبي ..

وبعد ان طوى الرسالة ووضعها داخل غلاف فتح المصحف واخذ يتلو : « يا ايها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي فى عبادي وادخلي جنتي .. »

مكناس – ابو عدنان عبد القادر البوشيخي

قصة العدد



لم اكن ادري انني سالمس جرحا لم يندمل حين سألت مصطفى الليثي عن زميلنا القديم بالمدرسة الخديوية ، « عبد المهيمن » . فقد فوجئت به يكشر عن أنيابه ، ويشوه تقاسيم وجهه ، ويسنح اصابعه في حركة خنق لحلقوم خيالي ، وقد عض على لسانه في سخط وشراسة يستحقان التصفيق .

واخيرا استطاع ان يقول بعنف مكبوت :

« لا تسلني عن عبد المهيمن ! »

فسألت في اندهاش ووجل :

« الله ! لماذا ؟ »

فرد وهو يلهث تعبا من المجهود العاطفي الذي بذله في قتل ذكرى عبد المهيمن :

« ارحم وصف يمكن ان اطلقه عليه هو انه محدود الذكاء جدا .. ولن اتنازل عن حرف واحد ! »

ولم يسمح لي بمقاطعته قبل ان يضيف :

« ولو كانت لي بلاغة بنت البلد وخيالها اللانهائي وهي تقسم على زوج بنتها : « وحياة من حشرك في البيني آدمين من غير مناسبة » لانصفت عبد المهيمن »

وقاطع قهقهتي قائلا :

« ولو كان لي سخاء لسان الاستاذ توفيق حنا ، وقدرته الخارقة على تجسيم المقت لأشفيت غليلي من عبد المهيمن »

وقفزت الى ذهني صورة الاستاذ توفيق حنا في القسم وهو يشير الى عبد المهيمن من طرف خفي مواجها له في هدوء وادب جم ، يحملق فيه اولا بعينين وحشيتين تلثم حدتهما نظارته السميكة ، ثم يصرخ فجأة : « ياسلام ! بعضكم هنا مصفح ببلادة لا تخرق ! »

فيتقمص عبد المهيمن شخصية المخبر السري ، ويفتل شاربه ، ويضيق عينيه ويجول بهما على الزملاء بحثا عن المصفح البليد !

ويرتعش الاستاذ « حنا » داخل جلده ..

وحين جمع القهوجي الكؤوس المكسورة والجرائد المغموسة كالفطائر في القهوة ، ومسح رخام المائدة ، عدت اسأل مصطفى الليثي على استحياء :

« ولكن ماذا فعل ليستحق كل هذا ؟ »

فأجاب في تحد عنيف :

« ماذا فعل ؟ ساقول لك ماذا فعل .. كـاد يتسبب فى قتلى .. فى انهاء حياتى .. فى وفاتى .. والحاقى بالرفيق الاعلى ،، فى وضع نقطة الختـام لايامـي »

فقاطعته بقـوة :

« كفى الله الشر ! بعد عمـر طويـل يا ابا الليـوث »

فتجاهل دعواتى مستانفا :

« كان سيقدمنى هدية سهلة ، وقربانا حيا لعبدة الاوثان فى مغاور وادي الملوك ! هذا ما فعل ! »

فاستفسرت مندهشـا :

« يا الهي ! وكيف كان ذلك ؟ » فزمجر :

« ساحكى لك .. واحكم انت بنفسك »

فجلست متحفزا لسماع حكاية لذيذة غريبة تربطنى بابطالها علائق شخصية لقـد كنت اعـرف عبد المهيمن معرفة حقة .. وعن طريقـه عرفـت الفرق بيـن الابله والمغفل وفضلت الانتمـاء للوصف الاخيـر ، اذا كان ولا بد !

ولكن كان لعبد المهيمن حسناته ومميزاتـه الادبيـة ، مثلا ، التي هي نوع مـن الفـداء على مستوى أدنى ، وبالخصوص حيـن يتطلبهـا الموقف بالحاح .. وكثيرا ما كانت تحضر المناسبة فـى درس استاذ اللغة العربية ، الذى كـان ، كجميـع اساتذة اللغة العربية فى ذلك العهد ، يعاني من عقـدة الاضهاد ويشعر بالعـري والتبـرج فـى بدلتـه الاوروبية ، لان حزة العمامة ما تزال على جبينـه ، واذيال الجبة ما تزال تدغدغ كعبيه ..

كان الاستاذ المسكين يبذل مجهودا هائلا فـى لفت النظر اليـه .. وكنـا نحـن نستمـر فـى اعمالنا ، التي كان اهمها تجاهله ، حتى بعد دخوله وتحيته وحكايته لنكتة او اثنتين ..

« كان على نور » مع جماعته يطبلـون علـى الادراج ويغنون باصوات شيوخ غليظة :

« حلة فيها محشى خالص ! وكفـى ! » يغنون عـن (الطنجرة) ومحتوياتهـا الشهيـة معبريـن بذلك عن حرمان حى السيدة زينب الذى تقع فيـه المدرسة الخديوية ..

وعبـاس العمـلاق الصامـت يضـرب بعنف انتقامى بخشبة على درجة فيشذخه شذخا ، ثم يعود لتمرين عضلاته على اقتلاع خشبة مـن احـدى جوانبـه ..

فى هذه اللحظات السعيدة من الاهمال الايجابي كان لابد لفدائى ان يقوم بالاستماع للاستاذ المسكيـن الذي كان يتسول الانتباه بكل جوارحه ويتصيد العيون لعلها تسقط فى عينيه فيركز عليها صارخا بالدرس دون توقف ، وفى عينيه بريق سـادى يقـول : « قبضتك ! »

لذلك كان عبد المهيمن مهما .. لانه وحـده كان قابـلا للايحاء او كان يجـد فى كـلام الاستـاذ ما يسليه ، بل ويتجاوب معه . فقد ردد الاستـاذ مرة فى مقدمته لانشاء عن بنـاء السـد العالـى ان مصر تحتاج الى خمسة وثلاثين مليون جنيـه لبدء بناء السد واخذ يتساءل صائحا : « فمـن اين تاتي بالخمسة والثلاثين مليون جنيه ، ياجماعة ؟ » وبعـد السؤال الخامس والثلاثين اجـاب عبـد المهيمن رافة منه بحنجرة الاستاذ « نعمـل عصابات بابيـه ! »

* * *

مرت كل هذه الصور فى ذاكرتى فى ومض سريع ، وانا اتهيأ للاصغاء لحكاية مصطفى الليثـى الذى كان قـد بدا :

«حدث ذلك ياسيدي ، اثناء الرحلة الشهيرة التى قامت بها المدرسة الخديوية الى الاقصر واسوان .. اتذكـر ؟ »

فأجبت : « كيف انسى ؟ »

فقال : « جاء عبد المهيمن من نصيبى ! كلانا لا يلعب ؟ الكتشينة » ـ الكرطـة ـ التـي تغلـب بها بقية الزملاء على الساعات السبـع عشرة التى قضيناها فى قطار الصعيد .. ولنقتل السـام ، ورتابة الطريق والوجوم ، اخترعنا لعبة استنزفت كل عبقرية عبد المهيمن ليتقنهـا ..

« كنا نشترى من كل محطة شيئا ما كالبيض المسلوق مثلا ، والعيش - الخبز - وقصب السكر ومن قصب السكر استوحينا لعبتنا الذكية .. وتتلخص فى انتظار تحرك القطار خارجا من المحطة ، والنزول باقصاب السكر السميكة الثقيلة على ام راس كل واقف على رصيف المحطة من المودعين والباعة والمتفرجين والفضوليين ..

« وانتشرت لعبتنا العبقرية على طول ضفاف النيل من القاهرة حتى ام درمان .. والتقط اصولها المعقدة جميع سكان الصعيد بسرعة تثير الاعجاب ، فازدحمت بهم ارصفة القطارات ليمارسوها على ركاب كل قطار عابر .. فعانى منها تلاميذ كل مدارس مصر بعدنا .. وكان لنا ! » قصب السبق ، ان صح هذا التعبير .

« الحاصل .. التصق بي عبد المهيمن بعد ذلك حتى بعد وصولنا الى الاقصر واسوان وبعد زيارة المعابد والآثار الفرعونية بالمدينتين فوجئنا بالغاء برنامج زيارة وادى الملوك ، الذى كان بالنسبة لي اهم مرحلة فى الرحلة فقررت ان انفصل عن الجماعة واذهب وحدى لوادى الملوك ، وخصوصا وان يوم البرنامج بقي فارغا لا ادرى لماذا ..

« وتسللت من المخيم الذى كنا ننزل به بعد الفطور مباشرة ، وقصدت ضفة النيل يغمرني احساس لذيذ بالمغامرة والانفراد .. والتفت خلفي لأتاكد من نجاح تسللي فاذا عبد المهيمن يقتفى خطاي فى حذر هو الآخر .. ونظرت اليه وفكرت فى ان اصرفه ، ولكن كيف ! ففضلت متابعة المسير ، وأمرى لله .

« واستاجرنا معدية قطعت بنا النيل الى الضفة الغربية ، وانطلقنا فى الطريق الى مقابر الملوك والملكات على متن حافلة محلية ..

.. وبعد مدة من الضرب فى طريق صحراوى لافح القيظ ، اشرفنا على وادى الملوك بكل بهائه وعظمته واسراره .. ولم يكن يهمنا فى تلك اللحظة من المعابد الا ظلها وما سنجده فيها من ماء ..

« وتوقفت بنا الحافلة العجوز فى قرية صغيرة ، فاسترحنا باحدى مقاهيها ثم توجهنا سيرا على الاقدام قرابة ميل ونصف نحو مقابر الملكات ..

« وهناك بدات قصتي مع عبد المهيمن ..

« كان يتقدمني براسه كمعزى ضالة بين الاطلال ، لا يلتفت ولا يقف لينظر الى اى شىء ، وانا الهث خلفه احاول اللحاق به .. ولم اقف الا لحظة التامل فيها رسما على جدار حتى غاب عن عيني فاسرعت لالحق به ، فلم اجد امامى الا مدخل دهليز مظلم خيل لي اني سمعت قهقهة مكتوفة لعبد المهيمن تنبعث من داخله .. كان مكتوبا على بابه (ممنوع الدخول لغير المصرح لهم) فوقفت مترددا .. ولما لم ار حارسا يرعى المكان .. دخلت الدهليز وناديته قائلا انني اكتشفت المقلب ، والاحسن ان يخرج من مخبئه الممنوع ، فلم اسمع جوابا الاصدى صوتى ..

« وتوغلت داخل الدهليز البارد باحثا عنه ، وانا اخاطبه ان يكف عن لعبة الاستغماية الصبيانية ويخرج ، متوقعا فى كل لحظة ان ينقض على من فجوة او ركن مظلم ليرعبني ..

« ووجدت نفسي فى مفترق طرق كلها مظلمة ، فاخرجت علبه كبريت واشعلت واحدة وقررت فى الحال البدء من الطريق الاول على يمينى .. ولم اكد اصل الى نهايته على ضوء وقيدتى حتى وقعت فى حفرة مربعة عميقة لم اكتشفها .. ولحسن حظي كان قعرها رملا ناعما فلم اصب بكسور ..

« وفزعت اول الامر فاخذت انادى باسم عبد المهيمن واصيح ملء رئتى دون جدوى . . واشعلت عود ثقاب آخر لانظر حوالي ، فاذا انا فى بئر مربع من حجر الصوان المنحوت يزيد عمقه عن اربعة امتار

« وبحثت عن وسيلة للصعود منه فلم اجد .. كل ما يحيط بي حجرا املس تكسوه رطوبة خفيفة ..

« واشعلت الوقيدة تلو الاخرى وانا اصيح واستغيث حتى بح صوتي ، ولا من مجيب .. وبدات احس بالخطر ، فوقفت اهدىء نفسي ، وافلسف الموقف .. وفى النهاية قررت محاولة الصعود عن طريق الاتكاء بظهرى على الحائط خلفي والدفع بقدمى على الحائط المواجه مع الاستعانة بيدى .. وبدات فى الصعود .. وما ارتفعت عن الارض مسافة

متر ونصف حتى احسست بالحائط خلفي ينفتح بصوت احتكاك وصرير عال ، فاذا الحائط باب تنقلب الى الخلف وتبتلعني لتلقي بي على ارض رملية ثم تعود الى الانغلاق بعد ان رمتني وزال عنها الضغط ..

« ووجدت نفسي فى ظلام دامس وصمت هائل .. وتوقعت ان يطبق على شيء مافى اية لحظة فشلني ذلك الشعور ، ومنعني من كل حركة .

« ولم يكن لي اختيار غير السير فيه الى القاضية قبل ان استعيد تفكيرى ، ولكن احساسى بالزمن كان قد توقف ..

« وامتدت يدى وحدها الى جيبي فاخرجت علبة الكبريت واشعلت واحدة .. وانقشع الظلام امام لسان اللهب القزم بين اصبعى ، فاذا انا فى بداية او نهاية نفق طويل متعرج ..

« ولم يكن لي اختيار غير السير فيه الى نهايته لعلى اجد منه مخرجا قبل ان ينتهى وقيدى .. واسرعت الخطى موفرا المسافة بين الوقيدتين حتى كادت تفرغ علبتي الصغيرة .. وحين القيت بعقب الوقيدة التي انطفات بين اظافرى ، وقفت الهث بفم مفتوح لقلة الاكسجين بالنفق ، واعد ما تبقى لي من وقيد بيدين مرتعشتين خائفا أن تسقط مني واحدة .. لم يكن قد بقي الا ثلاث وقيدات .. فوضعت العلبة فى جيبى ومشيت فى الظلام مادا يدى امامى كاعمى فقد عصاه ..

وسرت على غير هدى فى طريق طويل يستقيم ويلتوى ، ويتسع ويضيق ، وقد نسيت من اين اتيت والى اين اسير ..

« ولم يعد لي احساس بجسدى رغم ان قدمى كانتا تلمسان الارض ، ويدى كانتا تمسحان الجدران الباردة الندية .. كنت احس انني تحولت الى مخ عار مجرد يسبح فى ظلام الغيب او فى الفضاء الخارجى السحيق ..

« وفجاة وجدت نفسي داخل قاعة فسيحة عالية السقف .. فعاد الى احساسى بكيانى البدني ، ووقفت اتنفس بصعوبة . ثم بدات ادور حول القاعة فاذا بها تتفرع الى شقوق ونفور ومغارات ومتاهات .. فحرصت على الا ادخل اية واحدة منها حتى اعثر على الامتداد الحقيقى للنفق الاصلي .. ووجدت نفسي اتم الدائرة واعود من حيث بدات .. فتركت الجدار وسرت بحذر نحو وسط القاعة فى محاولة يائسة لاختيار طريقي .. وهناك وقفت بضع ثوان انصت .. لم يكن الصمت مطبقا بالقاعة كما كان داخل النفق الطويل فقد كانت بعض قطرات الماء تقاطعه من حين لاخر ، نازلة من السقف ..

« واحسست بشيء .. فبدات ارتعد بشدة وانا ابحث فى جيبى عن علبة الوقيد .. ولما خفت ان تفلت من يدى اتجهت نحو الحائط فاتكات عليه وجلست على الارض محاولا اقناع اعصابى ، التي استقلت عني تماما ، بالكف عن الارتجاف .. وهدا روعي تدريجيا فاشعلت وقيدة بحذر بالغ ووقفت بها وسط القاعة انظر حوالي ..وتحركت ادور مرة اخرى بالقاعة وانا انظر بتركيز الى لسان اللهب الاصفر .. وفعلا صدق حدسي .. فقد تحرك اللهب وحده حينما اقتربت من احد المسالك الواسعة ..

« وصرخت فى اعماقى : « هواء ! هواء » واندفعت فى الحال على ضوء ما تبقى من لهب الوقيدة داخل النفق بخطى واسعة ..

« وبعد مدة من الضرب داخل ذلك النفق شعرت بانني كنت اصعد منحدرا .. وانبسطت الطريق امامي فجاة .. وما كدت اعتدل فى مشيتي حتى لمست يدى شيئا يتحرك ! وجمد الدم فى عروقي ... ودق قلبي بعنف خلت معه انه سيتوقف ! وتسمرت فى مكاني عاجزا حتى على الصراخ .. واغمضت عيني منتظرا الضربة القاضية .. ان يتحرك الغول او الحيوان او الشبح الماثل امامي ليجهز على ..

« وسقطت مغمى على من شدة الانفعال والتوتر .. ولم ادرك طال اغمائي .. ولكن حين افقت كان ذهنى من الصفاء ، واعصابى من القوة بحيث اخرجت علبة كبريتى .. واشعلت واحدة دون لحظة تردد .. واستغربت لعدم فقدان صوابى للمنظر الذى كان ماثلا امامي .. كان عبارة عن مومياء مدلاة من السقف بسير قماشى من قمة

راسها دون ان تلمس قدماها الارض كانت تتارجح ببطء ، ربما بفعل لمستى او بفعل بعض نسمات الهواء التي كانت تهب من مسلك ما ، وكأن من بداخلها عاودته الحياة ..

« ونظرت الى السقف فاذا التابوت الخشبى الذى كان يحتوى المومياء ما يزال فى وضعه الافقى وقد نخرت قاعه الرطوبة فانفتح تاركا المومياء بيد حذرة ، ووقفت على حافة الفتحة الاتربة تتساقط من السقف منذرة انه سينهار فى اية لحظة .. وخلف المومياء كانت فتحة شبه مستديرة تطل على قاعة اوسع من الاولى .. فنحيت المومياء بيد حذرة ، ووقفت على حافة الفتحة استكشف القاعة بسرعة على ضوء وقيدانى الغالية ..

« ولحسن الحظ كان هناك طريق واحد واضح وبعض الشقوق التي لا يمكن ان تكون مسالك فقفزت المسافة بين الفتحة وارض القاعة وتوجهت بسرعة نحو المسلك داعيا الله فى قرارة نفسي بايمان غطى على جميع شكوكي الفلسفية ، ان يهديني سواء السبيل ، ويخرجني من هذه المتاهة العمياء ..

« ولم اكد اخطو فى اتجاهى الجديد حتى توقفت لانصت فى حلكة الظلام .. فقد خيل الى انني اسمع اصواتا آدمية آتية من بعيد ، فوقفت لاتاكد من انها ليست من صنع هواجسي ..

« وبعد عدة ثوانى بدا الشك يزايلنى فى ان تكون من خلق اوهامي .. كانت فعلا اصواتا بشرية تهلهل بصوت واحد ، وترتل الاناشيد بالالحان غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل ..

« وكان رد فعلي الاول ان اصيح واجرى نحو مصدر الاصوات طالبا النجدة .. ولكننى تراجعت عن قرارى لسبب لا افهمه .. ووقفت مرهفا سمعى للاصوات التي كانت تقترب مني حتى بدات اميز الكلمات التى كانت بلغة غير معروفة ..

« وانسحبت نحو القاعة متحسسا الحائط نحو شق قريب ووقفت على بابه انتظر وصول او ابتعاد الموكب الغريب ... واقتربت الاصوات مرددة تراتيلها الدينية ومعها موجة من ضوء المشاعل تختلط فيها روائح الزيت والشمع والعرق والقطران وبعض البخور ..

« ودخل الموكب القاعة فى نظام فاختبات داخل الشق لانظر ماذا سيفعلون ..

« كانوا جماعة من النوبيين .. مانسميهم فى مصر بمائة واحدى عشر .. لان الرقم (111) مرسوم على خدودهم لسبب قبلى او صحى ، لا ادرى .. المهم انهم وقفوا وسط القاعة صفوفا منظمة وتقدمهم شيخ يلبس قلنسوة طويلة ، فتوجه نحو الفتحة التي قفزت منها للقاعة حيث توجد المومياء وركع على ركبته ، فغرس مشعله فى الرمل ووضع على الارض موقدا نحاسيا كان يحمله بسلسلة ، واخذ يضع البخور فيه ويدعو متوجها نحو المومياء التي كانت تبدو من هناك غير واضحة وهي تتارجح ببطء وسجد الباقون خلفه ..

« وفجاة كف امامهم عن الصلاة ووقف مشيرا بيديه لاتباعه ليصمتوا ، ثم اخذ يمسح القاعة بعينين مستريبتين حادتين فى وجهه الاسمر المعروق ..

« وهدات الاصوات ، ولم تبق الا السنة المشاعل تتحرك .. وبعد لحظة صمت نطق الامام : « معنا غريب » وردد الباقون كلمة « غريب ! » متسائلين دون تصديق ..

« واقشعر بدني من الخوف فالتصقت بباطن الشق كانما الفاسي ، وانا اتساءل كيف عرف ..

« ورايته يشير لهم الى آثار حذائى على الرمل الناعم كغبار القمر .. كان اصحابه جميعا حفاة .. وفجاة صاح :

« يوجد بالمكان دخيل ابحثوا عنه »

وانتشرت الجماعة بمشاعلهم يبحثون .. ولما لم يكن بالقاعة مخبا الا الشق المظلم الذي اندسست فيه ، فقد سهل عثورهم على ، فاخرجوني كالارنب الاعزل وانا ارتعد من الرعب ..

« وامام قائدهم امسك احدهم بشعر راسى وسحبه الى الوراء دافعا صدرى الى الامام بركبته ، واستل آخر خنجرا معقوفا من حزامه وسعى نحوى ليذبحنى ! واغمضت عيني حتى لا ارى العملية

الشنيعة ! يالها من موتة خبيثة لم افعل في هذه الدنيا شيئا على الاطلاق لاستحقها ولما لم اكن مستحضرا شيئا لمثل هذه المناسبة ، فلم اتشهد ولم اذكر خالقي لاموت على الاقل مؤمنا شهيدا ..

« ولما طال انتظارى لحد الخنجر البارد على جلدى فتحت عيني ، فاذا وجهه امام وجهي مباشرة ، وعيناه تخترقان عينى وهو يكلمنى دون ان اسمعه . كان نبض قلبى من الارتفاع بحيث كنت احسه يدق على طبلة اذنى .

« وفى النهاية ترامى الى صوته :

« من انت ؟ ومن اين اتيت ؟

« قلت وانا اتنفس بصعوبة :

« انا طالب من مصر .. وقعت فى حفرة بمقابر الملكات ، وهمت على وجهي فى الانفاق حتى وصلت الى هنا .

« فنطق احد اتباعه :

« كذاب انت لص .. حرامي ، دخلت للبحث من كنوز المدافن .

« واقسمت لهم بالايمان المغلظة وهم يفحصونني بعيون فولاذية غير مصدقين .. وفى النهاية فكرت وقلت :

« اذا لم تصدقوني فابحثوا فى جيوبي .. بطاقة تعريفي المدرسية هناك ..

« وادخل رئيسهم يده فى جيب قميصي فاخرج رزمة اوراقي ونظر الى بطاقة التعريف ، فقلت فى تهديد ضمني :

« ابي من كبار رجال الحكومة فى الشام .. بعثني لادرس بمصر .. وسوف ادرس الآثار .. لذلك انا مهتم بمدافن الفراعنة ..

« فسال رئيسهم :

« كيف وصلت الى هنا ؟

« فاجبت :

« لقد قلت لك .. وقعت فى حفرة بمدافن الملكات ..

« فقاطعني : مدافن الملكات بعيدة من هنا ..

« فاصررت :

« اقسم لكم انني اقول الحق همت على وجهي فى المتاهات والانفاق حتى خرجت الى هذه القاعة من تلك الفتحة ..

« واشرت بيدي الى حيث المومياء المدلاة من السقف فاكفهرت وجوههم .

« فراجعنى الامام بصوت خفيض فيه جد غاضب :

« لم تات من هناك .. لابد انك دخلت من حيث دخلنا .. من هنا ..

« واشار باصبعه الى الطريق .. فاجبته ببلادة لابد انها علقت بي من عبد المهيمن

« بل دخلت من هناك .. والدليل هو انني ارتطمت بالمومياء المدلاة هناك من سقف الكهف فكدت اموت رعبا ..

وفى الحال أغلق الرجل فمي بيده بعنف كاد ينتزع فكي ، وعاد ذابحي الى امتشاق خنجره المعقوف ، فلعنت نفسي وتمنيت لو قطع لساني قبل أن يحز رقبتي ولكن ماذا قلت ؟

« المهم هو ان يد الرجل تشنجت على فمى وانفي حتى كدت اختنق .. ولم يدرك هو ذلك حتى بدات ارتعش واهتز فرفع يده عن وجهي لاتنفس ، واشار للجميع ان يغادروا المكان الا خادما عملاقا كان يبدو عليه انه اصم ابكم او متخلف عقليا ..

« وارتحت لقراره بعض الشيء ، فقد رايت صاحب الخنجر يعيده الى غمده وينصرف مع الجماعة ظامئا الى دمي ، يحدجني بعينين فيهما تهديد ووعيد .. واخذ الامام يذرع القاعة جيئة وذهابا فى حيرة وارتياب ..

« وفى النهاية توجه الى بقوله :

« سوف اطلق سراحك .. ولكن بشرط الا تعيد كلمة مما رايت او سمعت ما حييت .. فهمت ؟ »

« وحركت راسي متلهفا بالايجاب قائلا : »

« اقسم لك الا اعيده على احد ابدا »

« فاضاف بلهجة شبه ابوية :

« يا ولدى ، هذا مكان مقدس بالنسبة الينا .. وانت قد اقترفت جرما كبيرا بهتك حرمته واقتحام سر اسراره .. ورفع يده ليوقف اعتراضي .. طبعا عن غير عمد .. ولكن الواقع هو انك دخلت المحراب المقدس الحرام ..

« قلت معتذرا :

« اعتذر من صميم قلبي .. ولكني كنت تائها خائفا فى ظلام النفق الطويل .. ولم يكن هناك مخرج غير ذلك .. ولحسن الحظ انى لم اتسبب فى سقوط المومياء من السقف او السقف بكامله على راسي »

« فقاطعني بيد مرتعشة :

« تذكر انك اقسمت الا تعيد خبر ما رايت على مسمع احد .. وذلك يشملني حتى انا

« فقلت : حاضر .. ولكن الا تريد ، كامام للجماعة ، ان تعرف ما هناك ؟

« فأجاب : كلا .. لا اريد ان اعرف ..

« فقلت بجراة بليدة :

« ولكن ماذا ستفعل حين ينهار السقف ويسطع ضوء الشمس داخل المكان ؟

« فوضع يديه على اذنيه رافضا ان يسمع فاحترمت شعوره وقلت :

« طيب .. سأفى بعهدى ..

« وهنا اشار الى العملاق الصامت فعصب هذا عينى بخرقة سوداء ، وامسك بذراعي يقودني فى طريق طويل متعرج

« واحسست ببرد الهواء على وجهى فادركت اننا خرجنا من المغاور للعراء .. وانضم الينا باقى الجماعة ، ولكن سرعان ما ابتعدوا .. لابد ان امرا اعطى لهم بذلك .. ثم اركبوني جملا وانا ما ازال معصوب العينين وساروا بي لا ادرى كم مدة ، ثم توقفوا فجاة وانزلوني .. وجاءني صوت لم اسمعه من قبل يقول لي :

« قف هنا ، ولا تتحرك حتى آمرك بذلك ..

« وبقيت هناك واقفا تحت شمس ضعيفة لابد انها كانت تغرب اذا لم تكن غربت ، انصت الى ما حولى من اصوات .. ولما لم يحدث شيء لمدة لم ادركم طالت تجرات فرفعت يدي على حذر وانا اتوقع صفعة او لكمة ..

ولما لم يتحرك شيء زحزحت العصابة عن عينى ونظرت حوالي فاذا انا على بعد كيلومتر تقريبا من قرية على النهر .. اما رفاقي فقد اختفوا تماما كما يختفى الكابوس عند اليقظة ..

ورميت العصابة وانطلقت اعدو نحو القرية .. وما كدت اتوسطها حتى سمعت صوتا ينادى باسمى .. والتفتت فاذا عبد المهيمن وخلفه موكب من رجال الشرطة والحراس والفلاحين والنسوة والصبيان وهو يعدو نحوى فاتحا ذراعيه ..

والتفت الجميع حولي يستمعون لقصتي بانتباه كبير .. وفى النهاية تجشا الشاويش الذى كان يبدو انه يتزعم فرقة البحث عني ، وادخل يده تحت طربوشه وهرش راسه ثم علق :

« لابد انها ضربة الشمس ! »

« وعارض العمدة قائلا :

« لا .. لا .. اشباح وادى الملوك طلعت عليه .. وعملت فيه كده ..

« وتدخلت سيدة عجوز بعد روتين من الاشارات والتعاويذ :

« اسم الله عليك يا بني .. لا تكونش جات لك لعنة الفراعنة ! »

* * *

« المهم .. عدنا الى الاقصر ذلك المساء وانا اسعد من ان الوم عبد المهيمن او احاول الدفاع عن سلامة عقلي امام فرقة البحث عنى ..

« وفي الغد ركبنا القطار عائدين الى القاهرة .. وجاء من نصيبي مرة اخرى ، عبد المهيمن ووقفت اطل من النافذة استرجع احداث اليوم السابق وانظر الى صفحة النيل الناعمة ، واعجب لما تحمله شفافه من اسرار في خدر لذيذ تساعده عليه حركة القطار ورتابة عجلاته على القضبان ..

« وتوقفنا باحدى القرى الصغيرة ثم تحركنا دون ان تقاطع اصوات الباعة وضوضاء المحطة الصغيرة شريط احلامي ..

« ولكن سرعان ما لفت نظري شيء جذبني بعنف الى الواقع واخرجني من غيبوبتي . كانت جماعة الوثنيين السرية التي اسرتني في المغاور الفرعونية بالامس كلها جالسة صفوفا تصلي بفناء مسجد القرية يتقدمهم امامهم .. لابد ان اليوم كان جمعة ، والجامع مزدحما فجلسوا خارجه كالعادة بالصعيد ..

« وبحركة لا شعورية اختفيت حتى لا يروني .. ولاحظ عبد المهيمن ذلك فسألني ماذا حدث فقلت له ، لغباوتي التي لا تغتفر ، انهم عبدة المومياء .. وهداه عقله المستحم في ابخرة الجهالة ان يتصدى لهم من النافذة ، وقد راوني اختفى تحتها ، ويصيح فيهم بالشتيمة واللعنات :

« اخص عليكم باوثنيين يا عبدة الاصنام ! بتعملوا ايه في الجامع ؟ ما تسيبو ربنا بقى وتروحو للموميا بتاعتكم .

« وحاولت اسكاته فلم افلح .. واطللت من النافذة فاذا رئيسهم يقف في مصلاه ويتابع القطار بنظرات حاقدة ، وبحركة سريعة يصدر امره الى الرجل القصير صاحب الخنجر المعقوف فيقفز

هذا من مقعده جاريا نحو القطار ، وهو يرفع اذيال جلبابه ويعض عليها باسنانه .

« وهبط قلبي وانا اراقب الرجل يعدو خلف القطار ليمسك بسلم العربة الاخيرة والقطار تزداد سرعته وانا ادق الارض بقدمي وكأنني احث جوادا على الركض حتى ابتعد الرجل ، وهرب عنه القطار فتوقف عن العدو وهو يهدد ويتوعد ملوحا بقبضته في الهواء .. »

* * *

وتنهد مصطفى الليثي وهو يختم قصته مع عبد المهيمن قائلا :

« ومنذ تلك اللحظة وانا اعيش على اعصابي خائفا ان التقي بالرجل ذي الخنجر المعقوف في اي مكان ، وفي اي وقت من الليل او النهار .. وربما يأتيني من الخلف فيحز رقبتي دون أن تكون لي حتى فرصة الشهادة وكل هذا بفضل عبد المهيمن ابن اا .. »

فقاطعته قبل ان تستولى عليه هستيريا عبد المهيمن وقلت مخففا عليه :

« لعل السقف قد سقط فوق المومياء ، وانكشف الامر لعبدة الاوثان المساكين وحينئذ سيدركون حقيقة ما قلت لهم .. »

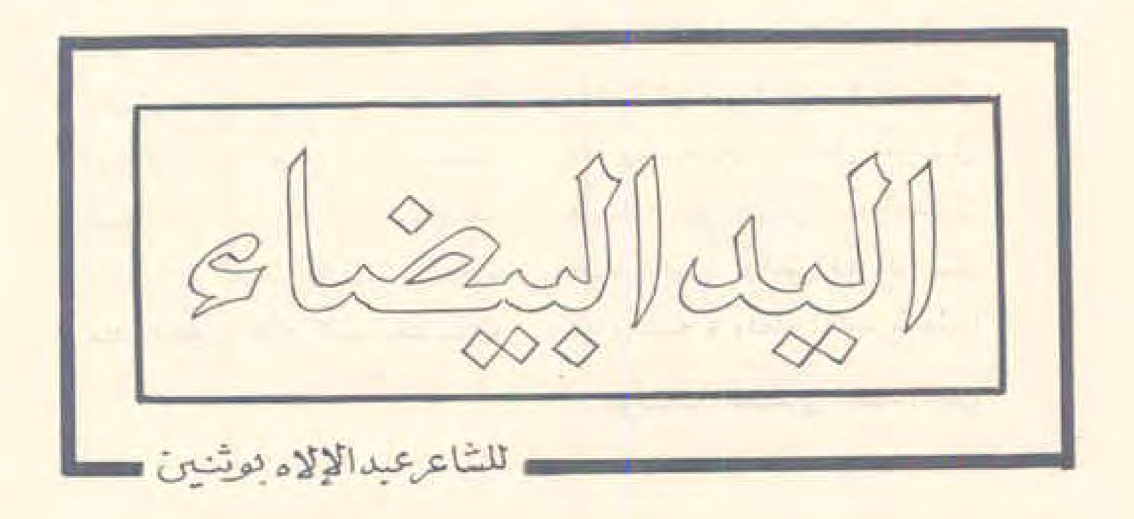
فقال رافعا كفيه بالدعاء :

« يارب من فمك للسما »

ثم اضاف :

« ولكن لا فائدة .. فحتى لو انكشفت لهم حقيقة المومياء فسيبحثون عن وثن آخر .. »

الرباط احمد عبد السلام البقالي



اى ذكرى علوية الايحاء   رفلت كالعروس فى خيلاء
وتجلت للعين ابهى ضياء   من شعاع صاغته شمس السماء
وتسامت رفرافة فى جلال   جل عن وصف شاعر الشعراء

= ❋ =

انها ومضة الفخار اطلت   من ثنايا تاريخنا الوضاء
انها نفحة الجهاد اشعت   فى قلوب مملوءة بالرجاء
انها ستبقى نشيدا يغنى   تحت اظلال الدوحة الخضراء
دوحة من فرعها انشعب المجد ، وفى ظلها نعيم الرخاء
فتفيأ يا ايها الشعب ظلا .   مده الله وافر النعماء
واذكر العهد . . واحفظ الود دوما   للمليك يرعى الحمى فى اباء

= ❋ =

يالها من ذكرى تقام لعرش   سابغ الظل ، مستفيض الرواء
يالها من ذكرى تموج بعطر   علوى الانفاس والانداء
اشرقت نورا رافلا فى الاعالى   اغرق الكون فى رفيف ضياء
فاذا الشعب هب فى غمرة الافراح يبدى للعرش خير ولاء
ينثر الود والثناء سخاء   قدوة بالاجداد والآباء

انها فرحة الولاء لعرش ... هيجت كل نخوة شماء

انها خفقة الرجاء بقلب ... يحفظ الود مفعما بالوفاء

فلتعش سيد البلاد لشعب ... فى خطاك يمشى مصون الرداء

ولتدم عاهل البلاد كريما ... طيب الذكر سرمدى العطاء

مشرق الذهن لا يفوتك شيء ... مثله فات حكمة الحكماء

ولتدم سيد العروبة للعر ... ب سراجا ينير درب الرجاء

لم تنم عن ندائهم حين نادوا ... من روابى «الجولان» من «سيناء»

لم تنم حتى كان جيشك سهما ... فى صفوف العدى خضيب دماء

يصنع المجد والفخار بصبر ... مستميت فى همة قعساء

يكتب النصر بالدماء سطورا ... سوف تبقى خناقة الاعداء

= ❋ =

خذ يراعك ايها الدهر واكتب ... فى السجلات اصدق الانباء

نحن قوم لا ترتضى الذل مهما ... كلف الخطب من جليل الفداء

نكره الحرب والعداء ولكن ... نخفر الارض رغم كل بلاء

يشهد الله والعواصم انا ... للوئام ندعو وكل اخاء

نعشق الحق والسلام حماما ... خافق الظل فوق كل سماء

= ❋ =

ايه صحراء يا رباط المروءا ... ت ، اعد مجد غابر الآباء

انت منذ القديم ارضا وشعبا ... تنتمى لنا رغم كل تنائى

كيف يحلو للغاصب النذل اسا ... ل فؤاد من جسمه اللألاء

يحسب الرمل كله فى يديه ... وهو منه على مدى الجوزاء

ليس فى واحات « العيون » له حظ ... ، ولا فى مناجم الصحراء

ليس فى « حمر الساقيات » مياه ... يرتوى منها انذل الدخلاء

لا ولا فى «وادى الذهب» ذهب يصـ ... ـلح حلبا للحية الرتطاء

تلك ارض لنا وارث عزيز ... نهب الروح دونه بسخاء

حبذا الفداء الذى فيه مجد ... لبلاد فى حوزة الشرفاء

= ❋ =

يا دماء الاحرار تجرى سخاء ... فوق رمل صحرائنا العذراء

ابـنـي المجـد واحـة ونخـيـلا وانثرى الرعب فى مـدى الارجـاء
وازحفى سيـلا من جحيـم ونـار يفجـع الاعادى بـهـول اللقـاء
واخبريهـا بـأننـا قـد تهـيـا نـا جميعـا للوثـبـة الرعنـاء

= * =

يـا بلادى يـا ارض اسمى لقـاء تـم بـيـن الاقطـاب والزعـمـاء
يـا بلادى حبى المليـك المفـدى رائـد العـرب للـذرا الشـمـاء
وحـد الشمل بعدما فرقـت بـيـــن الاحـبـة مـوجـة الاهـواء
فاذا الاخـوة الاشقـاء يمشـو ن على درب الـفـة واخـاء
يتـبـارون فى الدفـاع عـن الار ض ابـاة فى هـمـة قعسـاء

= * =

يـا بلادى وفى الثـنـاء لشهـم هـو للشعـب مصـدر النعمـاء
تلبـى الطـرف فالمشاريـع شتى شملـت كل بـقـعـة خضـراء
هذه الارض قـد روتهـا سـدود هى من نفحـة الـيـد البيضـاء
هـذه الســواقى بكـل مصـب تمنـح الخصب للربـى الفيحـاء
هذه المنجـزات فى كـل صـوب قـد تسامـت فى عـزة وابـاء
تغمـر المغرب الحبيـب بفـيـض - ابد الدهر - مستفيض السخاء
تلـك اشراقـة وذلـك فضـل مـن عطـاء الاله جـم العطاء
فهنيئا يابـن الكـرام بعـرش بـك يسـمـو للـذروة الشمـاء

صفـرو : عبد الاله بوشـنين

بمناسبة عيد المولد النبوى الشريف

قصيدة "الاستعداد" بمدح سيد الاسياد على نهج "بانت سعاد"

للشاعر محمد محمد العلمي

قلبي بحب رسول الله مشغول ،   والروح مني لتاج الحسن تقبيل
اني ارى وجهه بالبشر يبسم لي   ان شاقني لكتاب الله ترتيل
ذاك الجلال هدى روحي وهذبها ،   فهزها فى جمال الطهر تبتيل
والنور يغمر فى الذكرى مخيلتي ،   والصبح بعث وتجديد وتجميل
مالي ارى الكون عرسا فى مناطقه   تعلو الزغاريد ، اذ تحلو المواويل ؟!
فصوته (أم كلثوم) بمهجتها   غنت وفى يدها البيضاء منديل !!
فالنور من احمد الهادى استبان ، وقد   ناداه بالوحي والفرقان جبريل
وفى أحاديثه ذكرى وموعظة ،   فكل لفظ من الالفاظ قنديل
اكرم بمفتاح باب الله من سبب ؛   فليس فى بابه منع وتقفيل
فاقصده تحظ بما ترجوه من سعة ،   ففي رعايته رفق وتطفيل
فمنذ آدام والأجيال اجمعها   جيل دعاه لعيد المصطفى جيل
ان الحبيب اللى من اجله خلقت   كل العوالم ؛ للأمجاد تاثيل
يكفي قريشا به فخرا ومنقبة ،   فشملها بظهور الحق مشمول
يسائل الكون عنه همة وسعت   نبل الرسالة ، والانسان مسؤول
اطوى العصور الى ميلاده ، فانا   شوق وعشق وتكبير وتهليل
فى عيد مولده فجر يبشرنا   به زبور ، وتوراة ، وانجيل
كنافتي مرت انساها وانزعها ،   وفى اللطافة وجه الحق مصقول
هناك فى المنبع الصافى وكوثره   غمست روحي ، وواتتني الاكاليل

هناك اصل الهدى للكون اجمعه   يجلو الدياجي ، فتنجاب الاضاليل
والحق جاء لكل الناس ينقذهم   من الضياع ، فلم تبق الاباطيل
محمد من حروف النور تكتبه   يد الاله ، وروض الانس ماهول
ووحدة الحب والمحبوب ظاهرة   فى كل شيء ، وللآيات تفصيل
من الجواد يكون الفضل منهمرا   اكرم بمن هو بالخيرات ذهلول
نفسي فداء حبيب كنت اعشقه   قبل ازديادي وعهد العشق موصول
رسالة الحق اداها ، فواصلها   اهل الحجى ، ولذاك السر مدلول
وتلك حجة رب العالمين لقد   حارت لادراك فحواها التحاليل
والصالحون اذا ما الوصل طمانهم   الى الأصالة ، فالرضوان مبذول
محمد جوهر فرد نصول به   على الوجود ، وفى معناه تاصيل
تلك الامانة ترويها وتحفظها   اجيالنا ، وعليها الطبع مجبول
ان التنوع فى التوحيد قاعدة   عن غيرها جوهر الاسلام مفصول
ماكان لله صانته ضمائرنا ،   وما سواه ضعيف الروح ، مملول
والنور تلقائيا من اصله ابدا   رغم الحواجز للأكوان منقول
لا يحجب الغي عين الرشد عن بصر   الا كما تحجب الشمس الغرابيل
فالفتح مكتمل ، والدين منتشر ،   والكفر بالحق والاسلام مقصول

* * *

انا نعيش بعصر فيه قد برزت   مذاهب عندها التعليم تجهيل
والروح قد غرقت فى مادة ملكت   كل العقول ، فلب الكون متبول
وعصرنا خدعة امست تحيط بها   مزالق تصبت فيها الاحابيل
ليس التحرر فوضى فى تقدمنا   نحو الهوى ، وكيان الروح مغلول
فقد طغت موجة الالحاد حين بدت   للمغرضين ودعواهم اقاويل
هم يبحثون بلا جدوى ، فعندهمو   لكل امر كما يهوون تأويل
راموا اباحية هم زينوها لمن   غوتهمو شهوة تطغى وتضليل
ان انت عاتبتهم جاؤوك يدفعهم   نحو التفاهة والتمويه تعليل
اعدى عدو لهم من قام بنصحهم ،   وقد تبين تحريم وتحليل
ان الشذوذ لديهم صار يجرفهم   تياره ، وكان الزيغ معقول
تهافتوا حول ارباح مزيفة   فلا يهمهمو للوزر تثقيل
على القشور لقد عاشوا بلا سند ،   ومنهم اللب مخطوف ومنشول

كما يشاءون قد صاغوا مصالحهم ،   فالنص والفهم تصعيد وتسفيل !

وان سالتهمو عن سر فتنتهم ،   قالوا : هو العصر تكييف وتشكيل

كانما ليس فى التمييع منقصة ،   وليس فى موجة التزييف تهويل

لا يستوى ابدا قدر الأصيل ، وما   يغرنا وهو مغشوش ومدخول

امانة الحق فى الأجيال نحملها ،   وعند احفادنا للحق تحميل

مهما تطل شهوة الطاغي وجولته   فانه فى جحيم الاثم مسحول

حذار من دسم السم يمزجه   من ليس يردعهم حلم وتمهيل !

حذار ممن تمادوا فى غوايتهم   كأن مادونهم فى الكون مجهول !

هاموا بفلسفة فى الافك ، ظاهرها   زور ، وباطنها المعوج ضليل

فالغرب ضج بهم ، والشرق ينبذهم ،   وسعيهم فى ازدياد الخسر مخذول

لا يصلح الامر الا بانتهاجهموا   شرع السماء ، فما فى الحق تبديل

من يتبع السبل العوجاء ضل بها   عن الرشاد ، ففي التشكيك تعطيل

لا دين قطعا سوى الاسلام نسلكه   اذ فيه للروح تقويم وتعديل

وكيف لا ، ورسول الله بلغه ؟!   والحق دوما عليه صح تعويل

والله فصل فى القرآن شرعته ،   والسر قد ضمه ذكر وتنزيل

ندعو لتوعية فى الدين شاملة   حتى يزول بها غي وتدجيل .

* * *

يا سيدي يا رسول الله انت ترى   (صهيون) من خبثت منه الافاعيل

فى ثالث الحرمين الجرح متسع   ينكيه من عصبة الأشرار تنكيل

والهول اصبح فى (القدس الشريف) له   شكوى يؤججها للحقد تشغيل

طغت مطامع (اسرائيل) فاقتحمت   قلب الحريم ، وداب الغدر تقتيل

اهكذا يارسول الله تطعننا   ايدى الجناة ، وعزم الشرق مكبول ؟

اهكذا يا رسول الله يجرفنا   موج العدى ، ودم الاسلام مطلول ؟

اهكذا يا رسول الله عاملنا   (صهيون) من غره للحق تحويل ؟

اطماعه حلم يحياه فى صلف ،   فلا (فرات) كما ينوي ، ولا (نيل) !

شتان يا سيدي ، يا خير معتصم ،   ما بين ماهو مشروع ومعمول !

حاشا وكلا ! فان الحق منتصر ،   والامر لله مرفوع وموكول

(ان الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول)

وغيرة المصطفى تدعو عزائمنا ،   فنحن اجناده الغر البهاليل

شم الأنوف ، أسود فى معاركنـــا يحـذو ضمائرنا بالعصــر تعجيـــل
خضنا المنايا سراعا ليس يقهرنـــا صعب ؛ وما قدر الرحمان مفعـول
وصفنا واحد عند الفداء ؛ فـــلا يرضي جحافلنا فى البأس تأجيـل
من يبذل النفس هابته المنون ، ومن يخف ، فلا شك مهزول ومأكـــول
وبأسنا من (صـلاح الدين) مقتبس روع الخلاص ، فذاك القيد محلول
هدى (فلسطين) نحو الفتح راجعـة لأهلها ، لا يريح (القدس) تدويل !

* * *

يا سيدي يا رسول الله ، أنت لنـا عزم ، وحزم ، وتوحيد ، وتكتيـل
اعطيتنا المثل الأعلى لنتبعـــه ، فزادنا منـك للأمجاد تخويـــل
وسبطك (الحسن الثاني) بغيرتـه ، على المحارم فى الأبصار محمـول
فى كل قلب له رسـم يرصعـــه نور ، وينقشــه بالحب ازميـــل
احيا لنا نخوة الأجداد ، اذ هتفـت به على مسمع الدنيـا الأماليـــل
(الياذة) المجد وفاها ، فاردفهـا له من النصر والتأييـد تذييـــل
وجنده من جنود اللـه منتصـــر على الطغاة ، وسيف الغدر مفلـول
توجيهه حكمة تصغـي لروعتهـا ، والحر منطقه بالحـق معســـول
من الخليج الى اقصى المحيط لـه عز ومجـد وتقديـر وتبجيـــل
نادى فلباه شعب مخلص فطـــن ، شهم ، يسارع للهيجـاء ، زغلـول
ادى الأمانة فى (الجولان) محتسبا، وعند (سيناء) للأبطال تسجيـــل
و (خط بارليف) قد زالت خرافته ، والكفر من شدة الزلزال مخبـــول
والعار بالدم مغسـول ، فنحن لنـا نصر مبين ، وصرح الظلم مثلـول
و (الأطلس) الحر فى أبطاله ظهرت خوارق لهمو منهـا سرابيـــل
امامهم ذعر الأعـداء وانخذلـــوا والرعب يقتالهم من قبل ما اغتيلوا
كم كحلوا بضياء العرش اعينهـم ! والعين قد زانها بالعرش تكحيـــل
ففيه للعصر تيسير ، وفيـه لنـــا فـوق العوالـــم رايات واكليـــل
يشيد شعبا قويا فى اصالتـــه ، وخصمه مظلم الوجـدان ، مهـزول
فنحن بعث ، وانماء لمغربنـــا ، وساعد من طموح الشعب مفتـــول
نرجو الكفاية فى استثمار ثروتنـا ، ورمزنا اليوم اتقـان وتأهيـــل
ونحن نعمل فى الورش الكبير ، وقد سما بنا لبناء الصـرح تشغيـــل
نخوض فى جودة انتاج معركـــة منها المحاصيل تزكو والمداخيـل
للعرش والشعب ميثاق نعز بـــه ، فنحن فى وعينا حـزم وتوكيـــل

وتحت رايته الصحراء قد عرفت ... تحريرها ، فهو للتوحيد تكميل
والمغرب الحر لا يرضى أصالته ... عبر التواريخ تقسيم وتذليل
ما كان قط للاستعمار فى يده ... الا اعتداء ، وتفقير ، وتزييل
ان كان تكثيره للقول يطبعه ، ... فان عادته للفعل تقليل
و (مليلية) (سبتة) للأصل شاقهما ... عود ، ففي الأصل تشريف وتفضيل
فليس تجدي من (الاسبان) عجرفة ... ولا احتيال وتسويف وتطويل
(لاهاي) قد ادركت عمق النزاع ، ففي ... قضائها مطلب الاحرار مقبول
ويل لمن مس شعبا صان وحدته ، ... فالمعتدى بفداء الشعب مقتول .!
والغاصبون رمتهم فى هزيمتهم ... أمام أعيننا نار وسجيل
(وادي المخازن) فى (الوان) مرتسم ... فليس ينفع الاستعمار أسطول
و (المغرب) الحر مناع لعزته ، ... مستبسل ، وعرين الليث مشبول
قلنا لأعدائنا : زولوا ، فنحن لكم ! ... ونحن فى البأس من نالوا وما نيلوا !
والحق لا شك مردود لصاحبه ، ... والظلم فى الخزى منبوذ ومعزول !
روائع (الحسن الثانى) ، بدائعه ، ... فيها لأمجادنا الغراء تخضيل !
فى (قمة برباط الفتح) بايعه ... اخوانه ، فانجلى للصعب تسهيل
والعرس ضم (فلسطين) الحبيبة فى ... احضانه ، وشهود الحق تكفيل !!

* * *

ياعمدة الكون ، ياروح الجواهر ، جد ، ... فالفوز منك لمن يرجوه مأمول
ان كان (كعب) اتى بالذنب معترفا ، ... فأنت للعفو مبعوث ومجعول
وأن (بانت سعاد (*)) فيه شافعة، ... والبرد منك له ستر وتزميل
تلك المليحة اضحى حسنها عجبا ، ... (لا يشتكى قصر منها ولا طول)
(غنت بذي شبم من ماء محنية ... صاف بأبطح اضحى وهو معلول)
ياحبذا مثل منه يشرفني ... اذ راقني من معاني النبل تمثيل !
يا سيدى يا رسول الله جئتك فى ... قريحة شاقها للوصل تحصيل

(*) كعب بن زهير بن ابي سلمى شاعر جاهلي ،نشأ فى اسرة شاعرة ذات خصائص فنية متشابهة ..اسلم ومدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقصيدة (بانت سعاد) الشهيرة »، فخلع عليه برده الشريف »، يمتاز شعره بالقوة والرصانة والجزالة ، مع الغرابة فى اللفظ ، والجودة فى الوصف ، توفى عام 24 هـ .

انت الخلاص الذى ترجو عوارفه ، فان رضيت فان العز مكفول

انت الشفيع الذي فى ظل رحمته تمحى الخطايا ، فستر العفو مسدول

انت الرؤوف الحنين البر يشملنا بعطفه ، ولسان الحمد ترسيل

وفى المعية كل الامن من رهق فليس ثمة تهديد ولا غول .

يا راس مالي ، ويا كنزي الوحيد اذا ما اعوزتني من الربح الرساميل

انت الرصيد الذى عزت نفائسه دينا ودنيا ، ومنك الفضل تمويل

تسعى الى سيد السادات فى لهف قلوبنا ، فهي للبشرى مراسيل

ماخاب من قصد الهادي وساحته فقيه للخير والمعروف تنويل

عند السجود فؤاد العبد مقترب من ربه ، ودعاء القلب مقبول !

الرباط : محمد بن محمد العلمي



عن فلسطين السليبة

للشاعر محمد علي الرباوي

– الى الذين طلبوا مني فى امسية شعرية قراءة اشعار عن فلسطين الحبيبة . –

– 1 –

طلبوا مني قصيدا عن سما القدس الحبيبة
عن فلسطين السليبة
وبصدري الف شعر عن ربوع الأنبياء
عن مآسي ودموع اللاجئين الابرياء
اتغنى به وحدي فى الخفاء
كلما اقبل صبح أو مساء
فانا فى الغاب عصفور عميد
لا يريد
فى تفاعيل قصيد
أن يقص الهم والغم على زهر جديد
او على شيخ مسن .. او على طفل وليد
فهو لو قص خباياه على الصخر لذاب
ولامسى الصخر ذرا بين احضان التراب

– 2 –

آه لو رتلت اشعاري على هذي الجموع
لرايت الناس غرقى فى بحيرات الدموع
لاحس الكل بالنار ، بأوجاع الحريق
لرآى الكل دجى حزن على حزن عميق

- 3 -

آه لو رتلت شعري عن سنا القدس الحبيبه
عن سما عكا ، ويافا .. عن فلسطين السليبه
آه لو رتلت أشعاري بأوتار غريبة
آه لو قلت ولو بيتا قصيرا عن غمام
حجب الشمس وأنسام السلام
آه لو قلت ... ولكن ، ما عساني أن أقول
وأنا ما بين أعشاب الربى طفل خجول
وفؤادي فوق أكتاف السما طير عميد
لا يريد
أن يزيد
ألم الناس ببيت أو قصيد
عن طريح .. عن جريح .. عن طريد
عن يتيم .. عن قتيل .. عن شهيد
عن رجال أصبحوا عند رجال كالعبيد
يلعقون الذل والويل وكابوس الجليد
عن جنان أصبحت مأوى جماعات الذئاب
عن قصور أصبحت تحت مسامير الخراب
عن نساء صرن في الأرض ثكالى ، عن بيوت
أصبحت تأوي خيوط العنكبوت .

- 4 -

أنا طير شاعر أخزن أشعاري للألم
فهي شيء حامض الطعم كالماء السقم
بحنايا أضلعي يجثم كالليل الرهيب
بشعوري ، يظنوني ، بسما قلبي الكئيب
فأنا قد ألعن الإلهام والوحي الرحيب
أن رأى الشارع قيئي وهو في لون الضباب
حوله سرب الذباب
في مجيء وذهاب

– 5 –

انا ابغي ان يعيش الفيء في صدري الكبير
أن يظل الظل والكابوس والحزن المرير
في حنايا اضلعي ، في قلبي الباكي العميد
حيث انني لا اريد
ان تراه نفس انسان حقير
يملك العينين ، لكن هو يمضي كالضرير
عقله ليس سوى عقل فتى غض غرير
ومتى كان الفتى يوما رزينا وبصير ؟
وحكيما وخبير ؟
ماهو الا بلبل يعشق انفاس الزهر
وزغاريد الوتر
آه لو مزق جلباب الخطر
وتحدى كل انياب القدر
آه لو قبس شعر
باللظى وهي بكميه لهيب وشرر .

– 6 –

طلبوا مني قصيدا عن سما القدس الحبيبه
عن بكا يافا الغريبه
عن فلسطين السليبه
وانا اليوم مللت الشعر واللحن الطروب
ومناجاة قتيل ذاق نيران الحروب

– 7 –

آه لو دسنا تسابيح الخيال
واقتحمنا الواقع المر وحطمنا الجبال
وجعلنا القمر السامي على صدر الليال
قطة تصطاد فئران الضباب
ليطل الفجر كاللحن على هذي الشعاب
حيث مازالت ترى وجه الصباح

عالمـا مـن غيـر شـمـس وظـلاما لا يـزاح
آه لـو نعلـم ان الشعـر ما عـاد سـلاح
فـي ميادين الكفـاح
ان هـذا العصـر عصـر الفعـل لا القـول المبـاح
كـل مـن عـاش غـلامـا بيـن احضـان الخـزام
صـار كالزهـرة للنحـل شـرابـا وطعـام
صـار للنمـل فراشـا فوقـه يحلـو المنـام
آه لـو نعـلم ان الأمـر حـرب لا كـلام
وانسجـام لا انشقـاق ..
آه لـو نعـلم هـذا يـا رفـاق
آه لـو نعلـم ان الـذل امـر لا يطـاق
فلنفـر يـا رفـاق الـدرب الغـاز الهزيمـه
برصاص وبرشاش ، بنيران عظيمـة
لا بشعـر اصبحـت لهجتـه اليـوم قديمـه
مـا هـي الا لهجـة كانـت ومـا زالت رخيمـه
تبعـث كالمـاء مـن ثغـر عصافيـر عديـده
لغـة العصـر هـي المدفـع لا بيـت قصيـدة
لغـة نعرفهـا ، ليسـت جديـده
قـد حفظناهـا مـن المذيـاع ، مـن كـل جريـده
قـد حفظناهـا ولكـن لا نـزال
فـوق اوساخ الرمـال
رغـم أغـوار الليـال
رغـم سـم السقـم والـداء نريـد
مـن فـم الشاعـر ابيـات قصيـد
عـن سمـا القـدس الحبيبـه
عـن بكـا عكـا الغريبـه
عـن فلسطيـن السليبـه

— 8 —

لـن تعـود الأرض بالشعـر ، ولكـن بالسـلاح

فالى ارض الكفاح

لنعيد الشمس والبسم الى وجه الصباح

والى تلك البطاح

فلقد حان لنا أن نظهر الحزم الشديد

ليرى التاريخ والدهر العنيد

وجهنا .. كنه محيانا الجديد

جهدنا السامي الأكيد

عزمنا الماضي على تحطيم اضلاع الحديد

وعلى هجر تفاعيل القصيد

فالام الويل يغزونا ويبقينا عبيد ؟

حان ان نترك ترديد اناشيد الجدود

حان أن نفهم الغاب دوح وقرود

فلنكن اسدا لتحطيم الحدود

ولغزو الغاب حينا ونعود

وبأيدينا شذا غض الورود .

— 9 —

طلبوا مني قصيدا عن سما القدس الحبيبه

عن دجى يافا الكئيبه

عن مسا عكا الغريبه

عن فلسطين السليبه

حبذا لو طلبوا مني دمي اعطيه فرضا

لتصير القدس زهرا وتصير الارض روضا

حبذا لو طلبوا مني حياتي

انا اعطيها واعطي معها قلبي وذاتي

انا اعطيها ولو لم يطلبوها

انا اهديها حتى ولو لم يعشقوها

ليعود اللاجئون الابرياء

ليعود الطفل والشيخ الى ارض السناء

فأنا اومن ايمانا شديد

ان فيـــدا مـــن حديـد

باللظـــــى لا بـــد يومـــا ان يجيـــد

ويصيـر العبـد حـــرا مـــن جديـد

فاللظـــى شـــيء بعيـــد

كـــل غـال ضائـع .. كـــل تلعبـــد ..

— 10 —

طلبـوا منـــي قصيـــدة

عن جريح .. عـــن فتاة .. اصبحت تحيـــى وجيـدة

اه لو يوما لمسنا لغـــة العصـــر الجديـــدة

لـو تعلمنـا معانيهـا العديـــدة

لنعيـد القـدس والعـز وايـامـا مجيـدة

فلنعدهـا باللظـى .. لا بقصيـدة .

وجـدة : محمد علي الرباوي

جئنا لنشهد من ذا العيد عيد هدى ...

لشاعر موريطانيا ومؤرخها
المختار بن حامد

أهلا وسهلا بعيد العرش من عيد … لطاقة الدين فيه اي توليد

عيد اذا عاد عاد البشر يشفعه … وان تجدد يشفعه بتجديد

عيد اعتلاء امير المومنين على … عرش الجدود السراة القادة الصيد

جلالة الحسن الثاني ابن سيدنا … محمد خامس الغر المحاميد

جئنا لنشهد من ذا العيد عيد هدى … فهو أول شيء عيد توحيد

عيد العناية بالقرآن يقرؤه ... … مدبروه بترتيل وتجويد

عيد يروج به ماصح من سنن … مروية بصحيحات الأسانيد

عيد (المدارك) من فقه (ممهدة) … سبل الوصول اليه اى (تمهيد)

عيد التقى والنقا والخير اجمعه … عيد الندى مطلقا من كل تقييد

دعا معالي سفير المغرب الجفلى … جمعا تعادى له عدو الخفاديد

جاءت جماهير من عرب ومن عجم … من القرى وزرافات من البيد

يستبشرون بعيد جاء موعده … يسابقون لذكرى ذاته العيد

غصت بجمعهم دار السفير فهم … حشو الزرابي فيها والسجاجيد

وثم جالية ثم مغاربة … كانوا لنا زينة كالعقد للجيد

فى ليلة جلبت ضوء النهار لنا … فكان فى (منوي) منها الضوء فى (ميد)

وكان ماكان من فضل ومن كرم … يجل عن كل تحديد وتعديد

قاني السفير لنا ردح الجفان الى … قرع القوارير افواه البراريد !

الى مفاكهة اشهى واعذب من ... ما فى العراجين يجنى والعناقيد

وللرجال من الاكرام جانبهم ... وجانب للغواني الخرد الغيد

حتى اذا ما قضوا من ذاك نهمتهم ... هب الرجال لترديد الأناشيد

وللدعاء لمولانا الرضى حسن ... بكل عز واعلاء وتصعيد

والعيد تعمر من بشر ومن فرح ... اوقاتنا بزغاريد وتغريد

لله ما كان من نعم السفير الى ... تلك الجماهير من عطف وتوكيد

والله نسال تعميرا لسيدنا ... في ظل نصر وتمكين وتأييد

ان الدعاء له من لب واجبنا ... واعرق العاد فينا والتقاليد

موريطانيا : المختار بن حامد

الصحبة مكاشفة ...

قيل ان الحسن البصري لما اراد الحج الى بيت الله قال صديق له : « بلغني انك تريد الحج ، فأحببت ان نصطحب » فقال الحسن : « ويحك ، دعنا نتعايش بستر الله .. ! والله اني اخاف ان نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه » .



للأستاذ عبد القادر زمامة

578 — ساعة الغني بالله في غرناطة ...!

وجدت في مخطوطة كتاب نفاضة الجراب لابن الخطيب وصفا للساعة التي انشاها محمد بن يوسف ابن الاحمر الملقب بالغني بالله — الخزانة العامة عدد 256 ك —

« وتقدم السلطان بثقوب فهمه ولطف حسه واصيل ادراكه وصحة خياله الى اتخاذ آلة تخبر بمضى ساعات الليل . فانشيء ليلتئذ باشارته وكفان غريب . خشبى اجوف في مثل القامة صير منه شكل الاستدارة الى ذى جهات اثنتى عشرة في اعلى كل جهة منها محراب . وقد شمل الجميع الصبغ والتزيين واستقل براس الشكل شمعة موقدة ، قسم جرمها اجزاء بانقسام ساعات الليل ، واخرج من عند ذلك خيط يقسم جسدها ويعين الساعة فيها بسبب من الكتان يتصل بغلق المحراب خرت محكم يفضي الى شكل سدى ، يعترض مجراه قائم من الحديد مثبت في راس الغلف الذى يسد المحراب ، وخلفه كرة من النحاس بندقية الشكل يمنعها ذلك القائم المعترض المجرى من الانحدار ، وخلف الغلف شكل يهوى رقعة منظومة تعرف بمضى الجزء من الليل ، فاذا استولت النار على الشمعة وبلغت الى حد الساعة احرقت السبب المتصل بما ذكر فانحدر الغلف وزال المانع من سقوط الكرة فهوت واستقرت في بعض الصحون النحاسية المصوتة المفراة بالشهرة ، وبرزت الرقعة فاوصلها القيم على ذلك الى المسمع فانشد بها ...!

اغرى التجريب بهذه الالة على ما تقتضيه طبيعة نارها وفتيلها والهواء المحصور في تجويفها ، فصح عملها ، واطرد صدقها وخفى قصدها ، وخف نقلها ، فكانت اخرى حصياتها موقعة على نظم النداء باذان الصبح ، من غير اخلاف وعد ، ولا اخلال بوقت ، فجاءت طرازا على حلة الصنيع الفخم ...! »

579 — لا انكر حالى ...!

وجدت في كتاب صلة الصلة لابن الزبير ص 29 في ترجمة عبد الوهاب القيسى .

« وقد دخل على احد السادة وعنده رجل يعرف بابن اخت غالب ، فسأله السيد عن ابى محمد . فقال : يا مولاى ، رجل من البادية ...! فقال ابو محمد عبد الوهاب : نعم ، اما البادية فهى على وجهى بادية ..! لا انكر حالى ..! ولا اعرف بخالى .!

فانحم الرجل ، وكان يعرف بابن اخت غالب ...! ولم يحر جوابا ...!

فاعجب السيد من جوابه ، وقضى حاجته ...! » .

580 — كبائع السلاح من اللصوص

وجدت فى كتاب صلة الصلة لابن الزبير ص 1 فى ترجمة الشيخ الصوفى عبد العزيز التونسى :

« واستقر اخيرا باغمات ، وقرا الفقه ، ثم ترك ذلك ، **لما راى الناس نالوا بـه الخطط والعمالات ،** وقال : صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص . . ! »

581 — التعريف بالقاضى عياض — لابن جابر الواد آشى

وجدت فى برنامج ابى عبد الله محمد بن جابر الواد آشى اصلا ، التونسى استيطانا ، المتوفى بتونس سنة 749 هـ عند كلامه على كتاب « الشفا » للقاضى عياض .

« وحملتنى هذه القصيدة على ان جمعت قطعة جيدة تضمنت **التعريف بالقاضى عياض** وتآليفه وما قيل فيها . وما وقـع لدى مما خاطب بـه الحافظ السلفى وغيره وما وجدت له من نظم ، او قيل فيه ، واثبتها فى آخر « الشفا » الذى نسخته ، ابتغاء ثواب العلم الجسيم ... » .

582 — الدنتيلة ...!

وجدت فى مصورة كتاب المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان لابى عبد الله محمد بن احمد ابن هشام اللخمى السبتى اللوحة رقم 61 من مصورة الاسكوريال :

«ويقولون للطعام الذى يصنع عند نبات الاسنان للاطفال **الدنتيلة باللام** . والصواب **الدنتينة بالنون** وهو اسم اعجمى .

وحكى الزبيدى فى كتاب طبقات النحويين واللغويين ، قال : اخبرنى بعض الشيوخ ، انه نبتت سن لبعض ولد الامير عبد الرحمان بن الحكم رحمه الله ، فاحدث فيه ما يحدث الناس عند نبات اسنان الصبيان . فقال الامير للوزراء : هذا الذى يسميه الناس بالعجمية **الدنتينة** ، هل روى عن العرب فيه شيء ؟ فسال غير واحد من المنتسبين الى العلم بقرطبة . فلم يوجد عندهم فى ذلك علم .. ! حتى انتهت المسالة الى ابن مختار . فقال : اخبرنى بعض اشياخى ، وذكر اسمه ، عن ابى موسى الهوارى ان العرب تسميه **السنية** ... ! فقال الزبيدى : وهذا اسم ما سمعته قط . . ! وانما موه بهذا . . ! »

583 — بنت ابى العباس المقرى وعصبته ...!

وجدت فى « الاجوبة الكبرى » لابى السعود الفاسى المطبوعة على الحجر بفاس ج 2 ص 34 :

« ... دار خلفها الفقيه المرحوم بالله تعالى ابو العباس سيدى **احمد المقرى التلمسانى** بمدينة فاس ورثتها عنه ابنته **وعصبته** علم عددهم وتعيينهم وقت وفاته ببلاده المذكورة . . ثم توفيت زوجته فورثتها ابنتها من الفقيه المذكور والمعلومين — كذا — عند موته فورثهم ورثتهم وجهل لان حصرهم وتعيينهم باسمائهم والدار مفتقرة للاصلاح وربما يخشى عليها السقوط بسبب الاهمال . وارادت البنت ان تبيع ما لها فى الدار المذكورة بالارث من ابيها وامها صفقة ...! الخ »

854 — صقلية

وجدت فى مخطوطة ايراد اللال لابن خاتمة . والنص بحروفه موجود فى مصورة كتاب المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان ورقة 39 :

« ويقولون سقلية بسين مكسورة وقاف مكسورة . والصواب **صقلية** بصاد مفتوحة وقاف مفتوحة . فاما **سقلية** بسين مكسورة ، فضيعة فى غوطة دمشق . والاصل فيهما واحد . غير ان هذه عربت فقيلت بالصاد مفتوحة ، وبقيت تلك على حالها ...!

وسقلية ، اسم رومى تفسيره : تين وزيتون ...!

585 — صب

وجدت فى مخطوطة ايراد اللال لابـن خاتمة :

« **صب** : لفظة اعجمية تقولها العامة زجرا للهر .. اذا ابعدته .. وانما تقول العرب : اخسا . ! وكذلك للكلب وما شاكلهما . وقد خساه يخساه .

856 — لقب العكازين ...!

وجدت فى نوازل ابى عبد الله محمد بن الحسن المجاصى المطبوعة على الحجر بفاس ص 112 :

« ولقب **العكازين** والشراقين — كذا — اذا اطلق . عرف عامة زماننا وخاصته ، لا يتبادر منه الا ما ارتسم فى حافظة الجميع لكثرة سماعه ، وهو استباحة الزنى والجمع على ذلك ...! »

587 — نكوري ...!

وجدت فى مخطوطة ايراد اللآل لابن خاتمه

« **نكوري** : منسوب الى نكور ، بلد كان اهله موصوفين بالتنطس والتقزز . . اليهم ينسب كل فعل مثل فعلهم . كقولهم : **نكوري** للمكثر من استعمال الماء فى الوضوء ....! »

588 — رماية الاغزاز

وجدت فى كتاب « الجغرافية » لمؤلفه ابن عبد الله الزهري الاندلسي ص 61 طبعة دمشق

« ومن عجائب هؤلاء القوم ما بلغنا من رمايتهم ، وانهم يرمون كرة فى الهواء فيرمونها بالنبال فلا تقع فى الارض . وانهم يرمون بالاقواس العربية رماية لا يرمى به احد غيرهم !

قال المؤلف : سألت الشيخ ابا المعالي فى مدينة المرية ، وكان الرجل من مدينة اذربيجان ، وكان رجلا صادقا ، فسألناه عن هذه الرماية ، هل هي كما بلغنا ...؟

فقال : احدثكم بما رأت عيني . وذلك انهم يجتمعون من أربعين رجلا ، واكثر ، واقل ، فيجذب كل واحد منهم قوسه ، ويجعل فيه سهما ، ثم ترمى لهم كرة فى الهواء ، فلا يبقى واحد منهم الا اصابها بسهمه ، ثم تقع على الارض ، فهذا غاية ما يرمون ...!!

589 — بلغواطة ..!

وجدت فى مخطوطة ايراد اللآل لابن خاتمة

« **بلغواطة** : اسم قبيلة ، والنسب اليها بالغواطي . قال ابو عبد الله ابن جماعة فى مقتبسه : ان رجلا من برباط يقال له : صالح بن طريف تنبأ بالمغرب وتبعه طوائف من زناتة ، فقيل لكل من تبعه ودخل فى دينه برباطي فأحالته العرب بالسنتها وقالت برغواطي . فمن اجل ذلك سموا **برغواطة** ، وانما اصلهم زناتة ، وهم اعلم الناس بالسحر ...! » .

590 — القسطار

وجدت فى مصورة كتاب المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام اللخمي السبتي رقم 33 من مصورة الاسكوريال :

« **والقسطار** : الذى ينتقد الدراهم ويميز جيادها من زيوفها ، وفيه لغتان : **قسطار ، وقسطير** واما قول العامة **قسطال** باللام فهو لحن ...! » .

591 — سوق عام بسوس ..!

وجدت فى السلوة ج 3 ص 20 ترجمة لمولاى العربي الطاهري المتوفى سنة 1267 هـ جاء فيها :

« كان رحمه الله فى اول امره يخدم حرارا ، ثم ذهب الى **سوق عام بسوس** ، وبقى هنالك مدة ..! » .

592 — وما آفة الاخبار الا رواتها ...!

وجدت فى فهرس الكبتخانة المصرية ج 4 ص 264 :

« شذور الذهب وعقود الجمان ، تاليف محمد بن عمر بن مدين التلمساني ، وهي تخميس لبيتي الزمخشري :

هم ابتذلوا رقط الافاعي ونبهوا
عقارب سوء غاب عنا حواتها

هم نقلوا عنى الذى لم افه به
وما آفة الاخبار الا رواتها

593 — عن سابق البربري

وجدت فى كتاب « مشاهير علماء الامصار » من تصنيف محمد بن حبان البستي رقم الترجمة 1478 طبعة القاهرة 1379 هـ 1959 م :

« سابق بن عبد الله البربري ابو سعيد ، من اهل حران .. **يغرب ويهم** ..! »

594 — المابه

وجدت فى كتاب « نبذ تاريخية من كتاب مفاخر البربر » ص 18 طبعة الرباط 1934 م ، عند ذكر مهلك الوزير عبد الرحمان بن الرماحس . وقد كان ابن ابى عامر اتهم بسمه فى دجاجة :

« قال : ما اظنك اليوم طعمت شيئا ، هاتوا للوزير ما حضر ، فانا لا احتشمه . فاتى بدجاجة كثيرة السكر . فطعم عبد الرحمان شاكرا الخصوصية .. ! وسار من وقته ، فلم يكد الطعام يستقر فى جوفه حتى انكر نفسه وقاء . وما وصل الى المرية الا المابه .. ! وهو يلعن الدجاجة التى جلبت حتفه ... ! »

595 — لما بى

وجدت فى جذوة المقتبس للحافظ الحميدى قطعة شعرية لابى عمر احمد ابن عبد ربه مؤلف العقد ، انشدها قبل موته باحد عشر يوما جاء فى اولها . ص 96 :

كلانى **لما بي** عاذلي كفاني
طويت زماني برهة وطواني

بليت وابلتني الليالى وكرها
وصرفان للايام معتوران

596 — القصار

وجدت فى مخطوطة ايراد اللآل لابن خاتمة :

« **القصار** : الذى يحور الثياب اى يبيضها وحرفته **القصارة** . وخشبته **المقصرة** والعرب تسميه **الكماد** ... »

597 — السفه والفداوش

وجدت فى المنظومة الطبية لابى محمد عبد القادر ابن شقرون المكناسى :

« ومنه ما يعرف بالسفة
بسكر مع سحيق القرفة

ان الفداوش لذيذ الطعم
لكنه صعب عسير الهضم »

فاس : عبد القادر زمامه

اي ذين نقدم ! ؟

تنازع قوم فى البخارى ومسلم
لدي وقالوا أي ذين نقدم

فقلت لئن فاق البخارى صحة
فقد فاق فى حسن الصناعة مسلم





مجلة شهرية
تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها :
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف
بالمملكة المغربية



العدد الأول . السنة السابعة عشرة
ربيع الثاني 1395 . مارس 1975

ثمن العدد :
3 دراهم



مجلة تصدرها
وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية



العدد الأول
السنة السابعة عشرة
ربيع الثاني 1395
مـــاي 1975
ثمن العدد: 3 دراهم

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالـي :

مجلة « دعوة الحق » ــ قسم التحرير ــ وزارة الاوقـاف والشؤون الاسلامية . الرباط ـ المغرب . الهاتف 10-308

الاشتراك العادي عن سنة 30 درهما ، والشرفي 100 درهم فـأكثـر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حســاب :

مجلة « دعوة الحق » رقم الحســاب البريدي 55 ــ 485 ــ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :

مجلة « دعوة الحق » ــ قسم التوزيع ــ وزارة الاوقـاف والشؤون الاسلامية . الرباط ــ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« دعوة الحق » ــ قسم التوزيع ــ وزارة الأوقـاف والشؤون الاسلامية ــ الرباط تليفـون 10-308 ــ 03-327